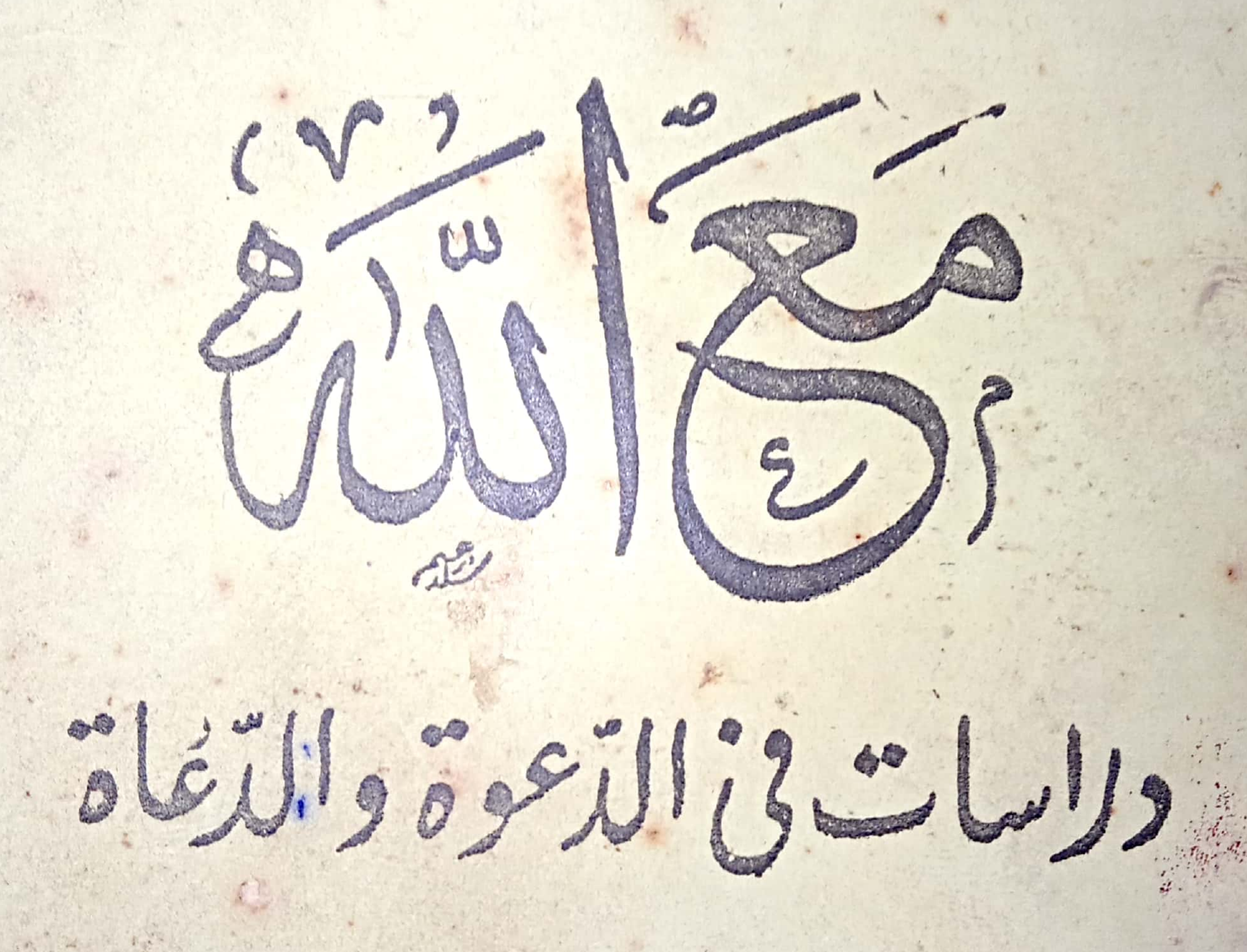

مع الله
دراسات في الدعوة والدعاة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

● مع الله :

هذا عنوان يوحى بادى الرأى أن الكتاب الذى يتناوله القارىء يتضمن معانى كثيرة من ذلك اللون المثير للخشوع ، الباعث على الانابة ، الصاعد بالناس من دنياهم المعتمة الى آفاق الملأ الأعلى .

لعله صلوات قانتة تغمر المحاريب بالأسى الرقيق .

أو دعوات محتبسة ترسلها عاطفة ملتاعة وينغمها صوت شجى ، يأذن (١) لها رب العالمين ، حين يتردد صداها بين الأرجاء كما أذن لنبيه داوود حين أوبت الجبال معه ، وحومت الطير حول تسبيحه وتحميده .

أو لعل الكتاب مجلى لآثار الابداع العظيم فى السموات والأرض . يحصى ما وصل اليه العلم الانسانى من عظمة الخالق فى ملكوت رحب ، وعوالم تغزو بالدهش لب المتأمل فى صفحاتها ، الغائص وراء أسرارها ، المقدس لجلال الله فى علوها وسفلها وعرشها وفرشها .

ان الكتاب ليس هذا ، ولا ذاك .

انه مع الله على نحو آخر ، نحو يدرج مع الانسان فى واقعه المشحون بالحركة ، ويلتصق به فى دنياه الطافحة بالنزاع .

وهو يحرس الايمان فى تلك الميادين العملية ، ويتابع خطوه هنا وهناك ليطمئن على سلامة الوجهة واستواء الطريق .

---

(١) يأذن : يستمع .

أجل ، فكم من لحظات مشرقة يصنعها التفكير العالى ، أو تضيئها السبحات الطهور ، فاذا تعرضت لعراك الأحياء ، وتيار الحياة فكما تتعرض الشعلة اللطيفة للرياح الهوج ، لا تلبث أن تذهب بها .. ثم يعتكر الظلام .

أو كما يحتفظ الخطيب الناشىء بالكلمات التى يريد القاءها ، فاذا وقف بين الناس شدهته روعة الموقف فلا يدرى ما يقول .

* * *

ان هناك ايمانا أساسه الخيال ، أو الشعور الموقوت ، أو التأثر العاجل .

وايجاد هذا الايمان سهل ، وسمو المرء به حينا ممكن .

ولكن الاسلام يبتغى ايمانا يصحب المرء فى أحيانه كلها ، ويصبغ أحواله المتباينة بصبغة ثابتة ، ويظل معه فى صحواته وغفواته ، فى بيعه وشرائه ، فى صداقته وخصومته ، فى فرحه ، وفى ترحه ، فى وحدته وعشرته .

وهو بهذا الايمان يكون مع الله ، أو يكون الله معه .

لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون(٢) .

والاسلام حين شرع الصلوات التى تقف الانسان بين يدى ربه مناجيا ومناديا فرض عليه فيها قراءات تصله بالله عن هذا الطريق العملى .

فهو مع فاتحة الكتاب يقرأ آيات ذات موضوعات وثيقة الأواصر بدنيا الناس فيها الوعظ الزاجر ، وفيها التشريع المتعلق تارة بالمواريث ، وتارة بالديون ، وتارة بالحروب ، وتارة بالآداب العامة .

وفيها الكلم الوصاف للكون ، الجواب مع الأفلاك ، المتحدث عما سكن فى الليل والنهار .

---

(٢) النحل : ١٢٨ بلفظ : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

وفيها القصص المتتبع للأحداث ، الراوى لأفعال الأولين ومصايرهم، كى يعتبر بها أولوا الأبصار .

هذه الصلوات هى مناجاة الله لا ريب ، ولكنها مناجاة لرب يطلب من عباده أن يطلبوا وجهه ، وهم فى مشاغل العيش ، وقضايا الدنيا الملأى بالعقد .

وأن يجعلوا هذه الساعات بين يديه دعائم لاحسان ما يليها من سائر العمر .

والمشكلة — فى نظرى — هى كيف نمد ساعات الصفاء الروحى فى حياتنا ، فلا تطغى عليها طباع السوء ، ولا تجرفها أكدار الدنيا ، وأهواؤها ؟ ..

ان بدايات الخير فى بعض الناس قد تنقطع فلا تتصل أبدا . .

لماذا ؟ . .

لأن المرء إذا استرسل مع داعى الفتنة ، واستجاب لاغراء الشيطان، كان كالسابح ضد الشاطىء .

مهما ضرب بذراعيه فالغرق لا محالة مدركه .

ومهما ارتفعت الأصوات به فأنى يجد صخرة يرسو عليها ؟ .

والناس فى الحياة كذلك .

انهم غرقى فى بحرها حتما ، ما لم يتوبوا الى الله بين الحين والحين ، معولين عليه وحده .

« قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا ، قل ان هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين »(٣) .

* * *

وهذا الكتاب الموجه الى الله يتمشى مع الاسلام الحنيف ، ويعتمد أصوله وحدها .

---

(٣) الانعام : ٧١ .

ذلك أن الاسلام — كما نعتقد — هو الأديان كلها من بدء الخلق الى ميراث الله للسموات والأرض ·

فالقرآن الكريم — فى نظرنا — هو الوثيقة الفذة الجامعة لمعاقد الوحى الالهى ، المفرق على الأعصار الماضية ، والمبلغ للأمم الأولى · وهو وثيقة ضنت بها السماء على البلى والتشويه ، فبقيت وستبقى التعبير الأوحد الأصح عن مراد الله من خلقه قاطبة ·

ومحمد ﷺ — فى فهمنا نحن المسلمين — الانسان الذى التقت فى شخصه أمجاد النبوات القديمة وجهودها النبيلة لتزكية البشر ، وقيادتهم الى الله وتبصيرهم بالصراط المستقيم ·

فنحن اذ نتبعه ، فعن حب لله ، والتماس لرضاه

ونحن اذ نكرمه فانما نكرم فى سيرته كل معلم نفث فى روعنا الحق وأودع فى بصائرنا النور ·

والاسلام — فى نظرنا — هو الوحدة الدينية التى تؤاخى بين الأنبياء ، وتوقر صحائفهم وتصون تراثهم ، وتحقق فى هذا العالم أهدافهم ···

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (٤) ·

ومن ثم فنحن نرى فى هذا الاسلام الجامع — الكفاية المشبعة للأزمات الروحية والفكرية التى يعانيها الناس ويتطلعون منها الى مخرج ·

ونرى فيه المنهج الذى ينفى متاعب الحيرة والشرود ، ويبعد أسباب الغضب والطرد ، ويصل الانسان بالله صلة ناعمة كريمة ·· !!



(٤) النساء : ١٣٦ ·

هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة ...

ألفته لهم ، ودرست جملة من أبوابه معهم ...

ذلك أن مشيخة الأزهر رأت — مشكورة — أن أحاضر فى تخصص الدعوة والارشاد بكلية أصول الدين ، وأن ألقى على الطلاب كلمات فى « الدعوة الى الله » وفق منهج مرسوم ، وقد صادف هذا الكتاب هوى فى نفسى فنشطت للنهوض به .

وان كنت أعترف بأن حال الطلبة تقبض الصدر وتملأ النفس كآبة .

وهيهات أن يتكون منهم — بهذا الوضع — جهاز للدعاية الاسلامية الناجحة .

ولا بد من اعادة النظر فى هذه الكلية شكلا وموضوعا كى تحقق بعض الآمال المعلقة عليها .

ان تكوين الدعاة يعنى تكوين الأمة .

فالأمم العظيمة ليست الا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين .

وأثر الرجل العبقرى فيمن حوله كأثر المطر فى الأرض الموات ، وأثر الشعاع فى المكان المتألق .

وكم من شعوب رسفت دهرا فى قيود الهوان ، حتى قيض الله لها القائد الذى نفخ فيها من روحه ريح الحرية ، فتحولت — بعد ركود — الى اعصار يجتاح الطغاة ، ويدك معاقلهم .

وأذكر أنى سمعت رجلا من كبار أساتذتى ينوه بهذا المعنى ويقول : أنا أومن بالواحد !! وهى تورية لطيفة ..

يشير — طيب الله ثراه ، وبلل بالرحمة ذكراه — الى أن الفرد الكبير يخلق العجائب فى النفوس ، ويستطيع أن يجمع المتفرق ويعلم الجهول ، ويقرب البعيد ، ويلمس بجهده الساحر ما حوله ، فاذا هو يسوقه صوب ما يريد .

وهو يستشهد لقوله هذا ، بأن الله — بعد ما وصف المذلة التى عاناها قديما بنو اسرائيل ، وحينما شاء أن يرفع من وضاعتهم ، ويمكن لهم بعد زلزال — ذكر جل شأنه نبأ الرجل سوف يجرى على يديه هذا التحول الغريب فقال :

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٥).

ولا عجب فهل تاريخ العالم الا صحائف لنفر من الناس لمعت أسماؤهم فى شتى الآفاق بينما استخفت ألوف مؤلفة من أسماء الدهماء ؟ .

ان الشيوعية الكذوب ، تمارى فى هذه الحقيقة . وتزعم أن الأفراد مهما عظموا لا وزن لهم ، وأن الفضل كله للجماهير .

وليت شعرى ما يصنع الرعاع وحدهم فى هذه الدنيا ؟ .

انهم يظلون فى أماكنهم حيارى حتى يجىء السواق الممتاز فيصرفهم هنا وهنالك .

ومن هنا أرى أن سبيل النهضة الناجحة لا يتمهد الا اذا استطعنا — على عجل — بناء جماعات من الدعاة المدربين البواسل .

ينطلقون فى أقطار العالم الاسلامى ليرأبوا صدعه ، ويجمعوا شمله ، ويمسكوه ويبصروه لغايته ، ويتعهدوا مسيره ويقوموا عوجه ، ويذودوا عنه كيد الخصوم ، ومكر الأعداء ، وعبث الجهال ، وسفاه المفتونين .

الاسلام أحوج الأديان الآن ، الى من يتعلمه على حقيقته النازلة من رب العالمين ، ثم يكرس حياته لانعاش المسلمين به ، بعد ما سقطوا فى غيبوبة طويلة علتها الأولى والأخيرة الجهل الطامس البليد .

الاسلام أحوج الأديان الآن الى الدعاة الذين يغسلون عنه ما التصق به من خرافات ويقصون من طريقه الحواجز التى شعبت أهله، وقسمتهم طوائف ومذاهب **« كل حزب بما لديهم فرحون »** (٦) .

الاسلام فقير الى رجولات متجردة تهب حياتها لله ، وتجعل مماتها فيه متأسية بالامام الأعظم الذى نزل على لسانه :

---

(٥) القصص : ٧ .

(٦) المؤمنون : ٥٣ .

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين • لا شريك له ، وبذلك أمرت » (٧) •

* * *

سيكون هؤلاء الدعاة طلائع النور فى أمة طال عليها الليل •

وبوادر اليقظة فى أمة تأخر بها النوم •

وأمل العالم فى عصر أجدبت فيه الدنيا من رسل الرحمة واليقين ، وامتلأت بزبانية الأثرة والالحاد •

وأنا — والحق يقال — لا أرهب من الأخطار المحدقة بالاسلام أن خصومه يملكون كذا وكذا من أسباب الموت ، وكذا وكذا من وسائل الغلب •

اننى لا أكترث بتلك القوى المعدة ، ولا ما يكمن فيها من دمار •

وانما أوجل أشد الوجل ، وأفزع أكبر الفزع عندما أرى المسلمين يتحللون من عهودهم مع الله ، وينسلخون من لباس التقوى ، وينساقون — بغباوة — مع الاستعمار المهدم لقوانا الروحية والمقطع لحبالنا الدينية •

اننى أحزن اذ أرى حفلا تسقى فيه الخمر ، أو مجمعا تموت فيه الصلاة ، أو شارعا يموج بالكاسيات العاريات تتبعها الأبصار النهمة ، أو ناديا يمتلىء بالأحاديث اللاغية والأفكار المنحطة ، أو قرية تعيش فى أكفان الجاهلية وتقاليدها ، أو مدينة تضطرب فى نفايات الحضارة الغربية ومباذلها ، لا تعرف غيرها •• ! !

ان هذه جميعا عوارض الفناء وجوالب الهزيمة •

بل هى الانتحار المؤكد ، والضياع لرسالتنا وكياننا ، والاياس من تأييد الله لنا وعونه معنا •

ولا بد للحفاظ على حياتنا ، والابقاء على تراثنا ، والنجاة من عدونا ••

---

(٧) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

لابد أن نعود سراعا الى اسلامنا جملة وتفصيلا ، لنكون مع الله ويكون الله معنا •

وعبء هذا العمل على الدعاة الأذكياء الأتقياء ، الدعاة الذين ألفت لهم هذا الكتاب •

* * *

وأخيرا •• لقد ساءلت نفسى : هل أنا أهل لهذا العمل ؟ •

لماذا لم أدعه لمن هو أزكى منى نفساً ، وأحسن خلقاً ؟ •

ثم قلت : أجعله توبة نصوحا ، وعهدا على الخير والصدق وأستعين الله على الوفاء •

وذكرت فى مطالعاتى لكتاب « الأمالى » ما رواه الأصمعى قال :

« بلغنى أن بعض الحكمـاء كان يقول : انى لأعظكم وأنا كثير الذنوب ، مسرف على نفسى غير حامد لها ، ولا حاملها على المكروه فى طاعة الله عز وجل •

قد بلوتها فلم أجد لها شكراً فى الرخاء ، ولا صبرا على البلاء •

ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه لترك الأمر بالخير والنهى عن المنكر ••

ولكن محادثة الاخوان حياة للقلوب وجـلاء للنفوس وتذكير من النسيان •

ثم قال : « واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان ، واقبالها ادبار ، وآخر حياتها الموت •

فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، ومنتظر غداً لا يبلغه •

ولو تنظرون الى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره •• » •

بهذا الفهم كتبنا ، وعلى هذه النية مضينا ••

وندعو الله مع ألوف المؤمنين أمثالنا **« •• ربنا اغفـر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين »** (٨) •

محمد الغزالى

* * *

---

(٨) آل عمران : ١٤٧ •

التعريف بالدعوة ...

ربما تجد فى الشوارع أناسا يسيرون لغير وجهة ، تتعلق أبصارهم بالبضائع المعروضة فى المحال المقامة على الجانبين ، أو يشاهدون أشخاص السائرين أمثالهم فى الطريق .. !!

وربما تجد آخرين يسعون مسرعين لادراك ملهى برىء أو خبيث.

وقد تجد غيرهم منطلقا الى مرتزقه الذى يعيش منه ، فهو يهرع اليه عارفا ماذا سيصنع ، ومتى يؤوب !! ..

ان الناس فى الحياة العامة صنوف شتى :

بعضهم يعيش لا يدرك الا أن الحياة قدرت له ، فهو يتحرك فوق ظهر الأرض كيفما اتفق ..

وبعضهم تحبسه هموم الرزق ، فهو لا يعرف الا تحصيل القوت له ولأهله .

وآخرون يبحثون عن السرور فى مظانه ليستمتعوا بما أمكن من لذات الدنيا .

وأغلب الناس كذلك ، يختلف عليه الليل والنهار وهو محاصر بمآربه القريبة ، مصروف بالمادة عما وراءها ، محجوب بالمظاهر عن الحقائق الكبيرة . ناسيا أن « الله » خلقه لحكمة ، واستعمره فى الأرض لأجل ، وكلفه فى عمره المحدود بأعمال ، وضرب له موعداً للقاء رهيب يحاسبه فيه على ما فعل وترك وقدم وأخر ...

فى غمرة هذه الدنيا الفاتنة يرتفع صوت النبوة ، لينبه الناس الى ما سهوا عنه ، وليحذرهم مما انخدعوا به — وليذكرهم بالزاد الذى يقدمون على ربهم به .

فى غمرة هذه الدنيا ، وفى انطلاق كل امرىء الى غرضه الأثير عليه ، يرتفع صوت النبوة شارحا للناس الغاية العليا من محياهم ، ومنددا بالسبل المنحرفة التى توزعتهم ، وحادياً الى الطريق اللاحبة التى قلوا فيها ، واستوحشت منهم ، أنه صوت الحق المنزه البرىء ، الضامن

لسعادة العاجلة والآجلة معا : **« أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير ، وهو خير الرازقين • وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم • وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون »** (١) •

لقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، ليعرفوا جماهير البشر بالله ، وبما أمر به وبما نهى عنه •• وليقودوهم قيادة حسنة الى الصراط المستقيم •• والصراط المستقيم خط معنوى ترسمه حسب طبيعة كل انسان ارشادات الوحى الأعلى •

فهنــاك نداءات مستمرة من الله لعباده ، تبين لهم الوجهــة التى ينشدونها ، والأعمال التى يؤدونها ، والأغلاط التى يهجرونها •

وهناك بواعث تمضى بالانسان قدما الى غايته الصحيحة ، وتعينه على مقاومة المثبطات التى تخذل قواه ، والمعضلات التى تعوج به •

ولما كان الناس خطائين بطبيعتهم ، وكانت أهواؤهم تغلب على أحوالهم ، فان نقلهم الى الصواب وتثبيتهم عليه يحتاج الى جهد متصل ودعوة مستمرة • كما يحتاج الى تلطف واصرار •

ولذلك جاء الأمر بالدعوة فى مواطن كثيرة من القــرآن الكريم :

« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت •• » (٢) •

« قل هذه سبيلى أدعوا الى الله ، على بصيرة » (٣) ، **« وادع الى ربك ، انك لعلى هدى مستقيم »**(٤) ، **« ادع الى سـبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »** (٥) ، **« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله »** (٦) .

« والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(٧) .

والدعوة الى الله ليست صيحة مبهمة أو صرخة غامضة •

انها برنامج كامل يضم فى أطوائه جميع المعارف التى يحتاج اليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم ، وليستكشفوا معالم الطريق التى تجمعهم راشدين ••

---

(١) المؤمنون : ٧٢ — ٧٤ .
(٢) الشورى : ١٥ .
(٣) يوسف : ١٠٨ .
(٤) الحج : ٦٧ .
(٥) النحل : ١٢٥ :
(٦) فصلت : ٣٣ .
(٧) يونس : ٢٥ .

وقد تتغاير العصور فى أنصبتها من الارتقاء المادى والقوى الذهنية والعاطفية ، لكن الانسان فى أى جيل لا يعدم من هداية الله ما يكفيه ويغنيه ..

أعنى أن رسالات الله حيثما ظهرت كانت من الكمال بالقدر الذى يملأ على الانسان أقطار نفسه وحسه ، فلا يتطلب وراءها مزيداً .

فى عصر التوراة كانت النصائح التى نزلت على موسى بحسب الناس يومئذ :

« وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » (٨) .

وعندما صعدت الانسانية فى مدارج النضج الفكرى ، واتسعت آفاقها العامة جاء القرآن الكريم فى أسلوب أعمق وأرحب ، واتخذ فيه الحديث عن الله وعن الدار الآخرة صورا من البيان العالى والاقناع العلمى تطرد مع ما يبلغه الناس آخر الدهر من ذكاء واحاطة .

وتضمن كذلك من القواعد والأحكام مالا حاجة للناس بعده الى اضافة أخرى تصلح بها النفوس أو المجتمعات أو الدول :

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٩) .

وعندما نتأمل فى الآيات التى مرت بالدعوة الى الله ، نجدها أبرزت الخصائص التى تقترن بطبيعة الدعوة ، وتناولت الأحوال التى تلابسها من قبل خصومها ، وواضعى العقبات أمامها ..

فالدعوة الى الله حق ، وكل دعوة الى غيره باطل .

ومنهجها مستقيم ، وكل منهج وراءها معوج .

وهى تقوم على العقل والهدى ، وغيرها يقوم على الحمق والهوى .

---

(٨) الاعراف : ١٤٥ . (٩) النحل : ٨٩ .

وفى قوله تعالى : « **فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله** » (١٠) .

نرى أن الدعوة الى الله طريق مأنوسة ، لم يفتتحها محمد ﷺ ، انما مشى فيها على أعقاب من سبقوه من اخوانه المرسلين الذين أوحى لهم الله :

« **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه** » (١١) .

وأن معالم هذه الدعوة لا ترسمها اجتهادات الأنبياء ولا تنبع من فلسفات فكرية خاصة ، بل هى توقيف من الله وتمش مع أمره ، وأن البعد عنها هو ميل مع الشهوات واتباع للضلالات .

وفى قوله : « **قل هذه سبيلى أدعوا الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى** » (١٢) .

نرى أن الدعوة ليس فيها ما يخفى ، وأنها لا تضم جوانب تحجب عن البعض وتباح للبعض الآخر .

انها واضحة مكشوفة للعامة والخاصة ، مستعلنة بكل دقيق وجليل فيها .

وان نداء البشر اليها قوامه البصر والمنطق والصدق .. ودعامته الدليل الذى لا يقهر ، ولا تنال منه الشبهات ..

وفى قوله : « **لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع الى ربك ، انك لعلى هدى مستقيم** » (١٣) .

نرى الوصاة بالمضى فى الدعــوة دون اكتراث بنزاع المخالفين ولجاجتهم .

فان الذى وفق الى الهدى المستقيم لا ينبغى أن يهتم لمعارضة الذين حرموا الهداية والاستقامة .

وهكذا يتكرر الأمر بالدعوة فى سائر الآيات .

---

(١٠) الشورى : ١٥ .
(١١) الشورى : ١٣ .
(١٢) يوسف : ١٠٨ .
(١٣) الحج : ٦٧ .

فترى أن الاقناع بها يجب أن ينهض على الحصافة واحسان العظة والاحتجاج ٠

وأن الدعاة هم أصدق الناس قيلا ، وأشرفهم طريقاً ٠

وأن عملهم المستمد من وحى الله ، انما هو تيسير لأسباب السلامة فى الدنيا والآخرة ، واطفاء للفتن العاجلة والآجلة ٠

وثمرة الجهاد الطويل للدعاة الى الله هى من حظ الناس وحدهم ٠

فالله غنى عن عباده ٠

والرجال الكرام من أنبيائه لا يرتقبون من الناس شيئا لقاء عملهم ٠

ان هذا النداء المتكرر على ألسنة المرسلين ليس الا مظهرا من رحمة الله العامة وعطفه على المملولين والحائرين ٠

ان الأمم اذا لم تنتعش برسالات السماء ، فهى جماهير من موتى القلوب ، أو هى ألوف من الرمم الهامدة ، وان حركتها الغرائز السافلة ٠

ولذلك يقول الله : **« استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »** (١٤) ٠

والأمم مهما ارتقت من الناحية النظرية أو الصناعية ، فان بعدها عن الله يزين لها من الجرائم ما تنحط به الى الدرك الأسفل ، وما تتعرض به لأوخم العواقب ٠

ولذلك ورد فى القرآن العزيز : **« أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ٠ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين »** (١٥) ٠

على أن الناس لا تهتدى الى الحق بقيام دعاة له يتلون آيات الله ٠

بل لابد أن يقوم المدعون بجهد آخر يفقهون به الدعوة ، ويلينون مشاعرهم وأعضاءهم للسير معها ٠

---

(١٤) الانفال : ٢٤ ٠ (١٥) الاحقاف : ٣١ ، ٣٢ ٠

لابد من يقظة الضمير الشخصى بعد يقظة العقل لاستيعاب ما ألقى اليـه •

والدعوة لا تتم الا بسلامة الذهن الذى يتصورها ، والذى تتماسك فيه حقائقها فمع ضعف العقل وقلة الوعى لا ينتظر قيام دعوة •

وتدبر قول الله سبحانه : ((**وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون**)) (١٦) •

وقوله تعالى : ((**حم • تنزيل من الرحمن الرحيم • كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون**)) (١٧) ونجـد المسـتوى الأدبى العالى ضروريا لتحملها •

وبعد حسن الفقه يجىء حسن القبول وكمال الاذعان •

((**ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا**))(١٨)

أما الذين لا يفهمون الدعوة أو الذين يفهمونها ولا ينطبعون بها فلا تصح بينهم رسالة •

لابد من حركة يتجاوب بها العقل والضمير مع أمر الله ، ويثبت بها الانسان استعداده للاستقامة مع هداه •

وفى الصراط المستقيم الذى يدعو اليه رب العالمين ، وفى الطـرق المنحرفة التى وقفت بأفواهها الشياطين ، يقول الله جل شأنه :

((**وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**)) (١٩) •

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

((ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتى الصراط سوران ، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعند رأس الصراط داع يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوجوا •

---

(١٦) الانعام : ١٠٥ •

(١٧) فصلت : ١ — ٣ •

(١٨) آل عمران : ١٩٣ •

(١٩) الانعام : ١٥٣ •

وفوق ذلك داع يدعو ، كلما هم عبد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويلك لا تفتحه ، فانك ان تفتحه تلجه » .

ثم فسره ، فأخبر « أن الصراط هو الاسلام ، وأن الأبواب المفتحة محارم الله ، وأن الستور المرخاة حدود الله .

والداعى على رأس الصراط هو القرآن ، والداعى من فوقه هو واعظ الله فى قلب كل مؤمن » . يعنى الضمير العاصم عن الاثم ، الواقى من الشرود .

فالقرآن يقود المرء على النهج القويم ، واستحضار وحيه يغرى بالثبات فيه وعدم الانحراف يمنة أو يسرة .

وهذا الانحراف مظنة الزيغ بعد تخطى الحدود وتمزيق الأستار .

* * *

● **الحاجة الى الدعوة :**

الناس لا يستغنون عن رزق الله ولا عن هدايته .

هم فقراء اليه فيما يطعم أبدانهم من جوع ، وفيما يزكى أرواحهم من كدر .

ومهما أوتى بعضهم من ذكاء أو صفاء ، فانه لن يستطيع تدبير شأنه واصلاح أمره بعيدا عن وحى الله وتعليم أنبيائه .

ان مواهب الانسان المادية والأدبية كبيرة ، وربما مرت به أوقات يحس فيها أنه بحسبه ما وصل اليه تفكيره ، وأسعفته قواه .

بيد أن هذا الغرور لن يجر فى عواقبه الا الشر .

وسيكدح الانسان ويمضى وحده محروما من عناية السماء .

ثم يلتفت الى مكاسبه بعد ما جرى شوطا طويلا . فلا يرى شيئا . بل سيرى أن جهوده التى ذهل فيها عن ربه كانت عليه وبالا :

اذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولعل مصداق ذلك حال العالم من نصف قرن .

أنه ينقلب بين فلسفات شتى ، بعضها ينكر الله أصلا ، والبعض الآخر يسىء معرفته ، ويغلب هواه على وحيه .

فماذا جنى العالم من جحده للالوهية ، أو جهله بحقيقتها وحقوقها؟
شقاء يرجم العالم بالدماء فى أيام الحروب ، ويرجمه بالقلق فى أيام السلام .

فهو بين الحروب الباردة والساخنة ، محطوم الأعصاب ، فارغ الفؤاد .

وقد يكون هناك فريق من البشر ميسر اللذائذ ، مفلت الزمام ، يرتع فى الدنيا مثلما ترتع الأنعام فى الربيع ! .

فأى شيء هذا ؟ عجول تسمن للذبح !!

فاما أعطيتها فتن الحياة التى ارتكست فيها ، واما أخر لها جزاؤها فى جهنم .

فهى هنالك تدعو ثبورا ، وتصلى سعيراً .

ان الحاجة الى وحى الله وقيادة المرسلين لا تنقطع أبداً .

والذين يقولون : ان هناك غنى عن الدين هم فى الواقع أقوام لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون بلقائه بعد الممات ، ولا يتصورون قيامه جل شأنه على نفوسهم وأعمالهم فى هذه الحياة ..

وقد تمرق على شفاههم كلمات : « الله » ، « الفضيلة » ، « المثل العليا » دون أن يكون لهذه الكلمات مدلول حقيقى فى أنفسهم .

انه نوع من الشقشقة الفارغة ، ليس وراءها جد فى الصلة بالله ، والأخذ عنه ، وتحكيم شرعه ، والتهيؤ لحسابه فى يوم الدين ..

وقد مرت بالعالم أعصار طوال ، ليس من بينها عصر خفت فيه حاجته الى دعوة الله وصوت الوحى ، لكن هذا العصر الذى نعيش فيه هو أشد العصور فقرا الى الاتصال بالسماء ، والانعطاف الى الدين، والتوقير لكلمات الله .

ذلك أن الرقى العقلى المحض الذى بلغته الانسانية يجعل مستقبلها على حافة الهاوية ، ان لم يقترن هذا الرقى باكتمال روحى معتمد على الله ورسله .

ان الذكاء الحاد فى الرجل الخبيث سلاح شر ، وأداة فتك !! ..

وما يعيب أحد الذكاء ، وانما يعيب النفس الرديئة التى تسخره فى الآثام •

ونحن الآن فى فترة من تاريخ الدنيا يظن الانسان فيها أنه امتلك الفضاء ،وأوتى مفاتحه ، فهل ذلك بشير خير ؟ •• كلا ••

ان الجفاف الروحى ، والانقطاع الرهيب عن الله رب العالمين ، والصدود الغريب عن تراث النبيين ، وغلبة الأثرة والجشع على الأقوياء ، وسيادة المنطق المادى فى كل شىء •• ان هذا نذير شؤم ••

وأى تقدم يحرزه العلم فى تلك الميادين لا يبعث على التفاؤل ، ما لم يصحبه عود سريع الى الله ، واعزاز لأمره ، واعلاء لشرعه •

❊ ❊ ❊

اننا — مع احترامنا البالغ للعقل الانسانى ، والضمير الانسانى — لا نرى فيهما غناء عن كلام الله ، وسنن المرسلين •

ذلك أن هناك معارف تتصل بذات الله وما ينبغى له ، وما كلف به عباده من فروض لا مجال لتلقيها الا من منبىء عن الله ، موثوق بأخباره•

وأعرف أن بعض الناس يزهد فى معانى العقيدة ، وضروب العبادة •

لا لشىء الا لأنه فى أعماق نفسه مكذب بوجود الله مستهزىء بما أوجب من صلاة وصيام مهما أظهر غير ذلك •

ثم ان هناك أحكاما شخصية واجتماعية ودولية فصلها الحق تبارك اسمه ، فى وحيه الصادق •

والاستمساك بها انفاذ لأمر الله ، وضمان لمصالح الناس مهما جادل المجادلون •

وقد تصل بعض الفلسفات الى أطراف مهوشة مبهمة من حقائق الايمان •

وقد تصل بعض المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الى أجزاء صغيرة أو كبيرة من رعاية المصالح العامة •

بيد أن ذلك لا يغني عن الحق النازل من عند الله ، ولا يسد أبداً مسده ، بل ان الافتتان به لا يزيد العالم الا ضلالا وبلبلة .

لقد رأينا أناسا فى ظل العقل الانسانى والضمير الانسانى — أجل فى ظلهما وباسمهما — يرون الالحاد تفكيراً حسنا ، والزنا عملا عاديا ، والربا قاعدة عادلة ، وظلم الأمم المختلفة شيئاً لا حرج فيه ، واحتقار جنس ما حقاً لجنس آخر !

والحضارة التى تسود الشرق والغرب جميعاً ، وان أعرضت عن قيام فكرة الألوهية وسلمت لبعض الأتباع الحانين عليها ، فهى — فى ظل العقل والضمير كما يقال — لا تسمح بامتدادها الى خلق أو سلوك أو سياسة .

كأن الخلق والسلوك والسياسة يجب أن تعزل عن الله !

لم ؟ . لأن بينها وبين الله عداوة لا تهدأ .. !!

فما قيمة عقل يصد عن الله ؟ وضمير يستسيغ ذلك الصدود ؟

وأى خير للناس اذا حرموا السير مع وصايا ربهم وتوجيهاته ؟

ان الوحى الالهى دواء لعلل ، واسعاد من نصب :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٢٠) .

فمتى يستغنى العليل عن الشفاء ، والشقى عن الرحمة ؟ ؟ ..

***

واذا قلنا : ان الناس بحاجة الى الدين ، والى الدعوة الدينية ، فانما نعنى الاسلام ، لا أى تدين مبهم .

فان هناك أقواماً — بايحاء من عقائد معينة — **« ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض »** (٢١) .

نعم ، ان هناك من أهل الفكر من يحارب المادية الزاحفة بأى طراز من الايمان .

وقد رأينا من يسوى فى القيمة الروحية بين « غاندى » و « عيسى » و « محمد » عليهما الصلاة والسلام ..

(٢٠) الاسراء : ٨٢ .　　(٢١) الرعد : ٢٥ .

وهـذا ضلال بعيد .

فان التدين العليل أقصر الطرق وأيسرها أمام هجوم المادية الواسع .

ان هناك أناساً « مؤمنين » يركعون بين يدى صنم فى معبد ، ويستمدون منه العون ، أو يرمقون — باجلال ومهابة — ألواح الصور التى تضم ملامح القديسيين والقديسيات ، كما تخيلها راسموها .

وهذا الضرب من الاعتقاد مبنى على تصور ضال لحقيقة الألوهية ، وهيهات أن نعترف به أو نعول عليه .

وهو — فى بعده عن الحق — يساوى جحود الألوهية ابتداء ، وان كان هذا بعداً من جهة اليسار ، وذاك بعداً من جهة اليمين .

اننا نعنى بالدين ، الاسلام وحده .

وقد علمت أن الاسلام يبنى ولا يهدم ، ويجمع ولا يفرق ، ويضم من علامات الخير ما يصله بأهل الأرض عن طريق المعايشة السلمية ان لم يكن عن طريق الاقتناع الحر ..

ومن هنا نؤكد أن حاجة العالم الى الاسلام هى حاجته الى كل علم صحيح ، والى كل خطة صالحة ..

والعالم محتاج الى أن يعرف الله كما عرف نفسه الى عباده فى القرآن الكـريم ..

فان صور الوجود الالهى بلغت فى أسلوب القرآن قمة لم يبلغها كتاب آخـر .

والنفس الانسانية لا تدرك أطرافاً من الكمال الأعلى يغرس فى أعماقها أروع العقائد ، وأرسخ الايمان الا اذا اتصلت بهذا القرآن ، واستمعت اليه ، وفتحت أنظارها لهديه :

« كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » (٢٢) .

---

(٢٢) الرعد : ٣٠ .

والعالم بحاجة الى أن يعرف « محمداً » ﷺ وأن يدرس سيرته دراسة بعيدة عن الافتراء والتزايد ، ليأخذ من الاحاطة بهذه السيرة أمجد درس فيما تستطيع المواهب البشرية بلوغه من خير وفضل وجلالة وسناء •

وسيعرف كل دارس لحقيقة هذا الانسان الكبير أن المثل التى ذكرها أصحاب النظريات الخلقية العليا قد تجسدت فى هذا الرجل واستحالت سنناً وضيئاً هاديا يثير الحب والاعزاز والاقتداء •

العالم محتاج الى أن يدرك جملة الحقائق التى جاء بها الاسلام من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات •

فان هذه الحقائق هداية نافعة له ، والعمل بها — مجتمعة — يحصل خيراً جزيلا وينفى شراً كثيرا •

وبين أيدى الناس الآن أجزاء من الفطرة التى شرح الاسلام فروعها ••

وكل جزء منها بارز فى حياة قطر من الأقطار بروزاً جديراً بالاحترام ••

اننى معجب برحابة الحرية الميسرة للفرد فى العالم الغربى •

ومعجب بكفالة الضرورات المطلوبة للناس فى العالم الشرقى •

ومعجب بطمأنينة القلب التى يخلقها اليقين فى العالم الاسلامى •

غير أن الدين ليس واحدة فقط من هذه الحالات المبعثرة على جنبات العالم العريض •

انه حقيقة سماوية تشع ذلك الخير ، وتنفح الناس بجدواه •

ولو أن الأقدار يسرت تقريبه وتحقيقه للعالمين لاستفاد منه البشر أجمعون •

ولكن كم خسر العالم من انحطاط المسلمين [٢٣] ؟ ؟

ان من أشد الرزايا على الناس انقسام حقائق الفطرة بينهم ،

---

(٢٣) تحت هذا العنوان ألف الاستاذ أبو الحسن الندوى كبير علماء الهند كتابا قيما جديرا بالدراسة .

وذهاب كل فريق منهم بشــطر منقوص ، يكمله بوحى الشــيطان ، ثم يعيش به وكأن بين يديه الحق كاملا ٠

فى أوروبا وأمريكا لا يذكرون الله ولا يحسبون له فى أعمالهم حساباً ٠

ويكدحون فى الأرض وفق قوانين المــادة التى يعرفونها معرفة جيدة ويطبقون أحكامها بدقة بادية ٠

وعندنا قلما تسأم شفاهنا من تكرار ألفاظ الذكر ، نقول :

باسم الله ، وعلى بركة الله ، وان شاء الله ، ولا قوة الا بالله ، وانا لله ، والحمد لله ٠

ولكن أعمالنا التى نعالجها قلما تنضبط مع سنن الله فى خلقه !!

قال الأستاذ « محمد زكى عبد القادر » ــ يصف عودته من أوروبا وأمريكا ، ووصوله الى الاسكندرية ــ :

« ابتسامة رقيقة مع جواز السفر ، وكلمة فيها محبة ، واعزاز لم أسمعها منذ أمد طويل : الحمد لله على السلامة !!

ونزلنا الى الجمرك فى ضجة ، والحقائب تلقى ذات اليمين وذات الشمال والحمالون من مواطنينا ينقلونها بأجســادهم الفتية وأذرعهم القــوية ٠

ويدور هذا الحوار : يامعلم حاسب تنكسر حاجة ٠ فيجيب الآخر : توكل على الله ، خل قلبك من حديد ٠

لغة لم أسمعها فى أوروبا ولا فى أمريكا ٠

كنت اذا قلت لأحد ــ حين يعد بأنه سيفعل كذا ــ : ان شاء الله !! نظر الى فى استغراب ، كأنى أكلمه بلغة لا يفهمها ولا يألفها ٠

وحدث ــ وأنا فى مقر الأمم المتحدة ــ أن تلقيت دعوة لزيارة ولاية « فرمونت » فى أقصى الشمال من أمريكا ٠ وجاءت الآنســة المختصة تقــول لى :

ان المسافة طويلة تبلغ ٩٠٠ ميل ، وقد حجزت لك مقعداً بالطائرة المسافرة فى التاسعة من صباح الخميس المقبل ٠

وشكرتها قائلا : ان شاء الله ، وأردفت : لقد اعتدنا فى بلادنا أن نقول هــذه الكلمة ٠٠ وشرحت لها معناها ٠

وبدا لى أنها تسمع شيئاً جديداً — على فكرها وحسها — :

وجاء صباح الخميس ودق جرس «التليفون» فى الساعة السادسة .

واذا المتحدث شركة الطيران تعتذر عن تأخير الموعد لرداءة الجو .

ولم أسافر .

والتقيت بالآنسة المختصة فقلت لها : ان الله لم يشاء أن أسافر .

أرأيت لماذا نقدم مشيئة الله عندما نعتزم القيام بعمل ؟

هذا تقليد جميل من تقاليد الشرق !!

قالت : ان عندكم الكثير من التقاليد الجميلة ، أما نحن فلا نفعل هذا .

قال الأستاذ : « أجل هم لا يفعلون .. ومع ذلك فما أكثر ذهابهم الى الكنائس وما أبرز ايمانهم بالدين ، والتزامهم بطقوسه وتقاليده وتعاليمه .

ان الأديان كلها نبعت من الشرق . فلما انتقلت الى الغرب فقدت الكثير من روحها ، وأضحت بعض شئون الحياة التى لها وقتها ومكانها — لا تتعداهما — فلم تدخل فى الحياة العلمية ولم تتسرب الى القلوب على الصورة التى تسربت بها الى قلوبنا نحن الشرقيين .. » .

* * *

وهذا تعليل شعرى لا علمى . وتصوير الخلاف على أنه تفاوت بين طباع أهل الشرق وأهل الغرب فرار مقصود من الواقع .

فالتفاوت هنا بين دين ودين ، بين الاسلام وأثره العميق فى ربط الناس بالله ، والنصرانية وفلسفتها السطحية فى توجيه الخلق والسلوك .

ان القارتين الكبيرتين « أوروبا » و « أمريكا » تعيشان فى عزلة عن الله وغربة عن الوحى ، وان كثرت فى أرجائهما الكنائس ؛

لأن المادية السائدة أقوى وأعتى من أن تصدها عقيدة مزعزعة الأسس العقلية والروحية . الا أن الأمر كما شرحنا آنفا .

فان تجزئة الحقيقة على هذا النحو اشاعة للباطل فى الشرق والغرب معا فلابد من استجماع الأسباب المادية الى جانب ذكر الله .

أما أن يعتمد الغربيون على الأسباب بعيداً عن الخالق الأعلى .
أو يعتمد الشرقيون على الله مهملين أسبابه التى مهدها ، فذلك شرود عن الصواب .

والاسلام يقوم برعاية الحق من جميع وجوهه ، وتلك هى أوامر الله التى يجب نفاذها .

ولا خير فى الناس ولا بركة فى الدنيا الا اذا قويت الصلة بالله ، واحترمت السنن التى وضعها ..

قال الأستاذ الصاوى فى احدى كلماته « ما قل ودل » :
« العلم لا يكفى ، بل لابد من الايمان » .

لقد تعلمنا فى صغرنا أن الصـلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكر ، وأنها الأساس الطيب لكل ما فى الدنيا من خير ، وما فى الآخرة من رحمة .

ولكن ها هو ذا العلم الحديث نفسه يشهد اليوم أن الصلاة كالماء العذب تجعل النبات ينمو ويزدهر اذا ما صلى الزارع اه .. !!

أما اذا تركه وشأنه فان البذرة فى الأرض قد تتعفن ، وتفسد ، ولا ترى نور الشمس ، أو تخرج ثم يذوى نبتها ويذبل !! .

هـذه هى الحقيقة التى أسفرت عنها التجربة فى بعض المعامل الأمريكية فى « لوس أنجلوس » .

ولعلها تردع العلماء الذين يؤمنون بالعلم وحده والذين ينكرون أن للروح تأثيرها الساحر فى الكائنات ، وأن خير الزاد التقوى ، كما قال الله جل شأنه . فمنذ عام ١٩٥٢ وهم يجرون فى مؤسسة البحث الدينى شتى التجارب للتدليل على قوة الايمان تدليلا علمياً ..

واذا كنا نستطيع أن ننقل أفكارنا من رأس بشر الى رأس آخر ..
أفلا يمكن أن نلقى اشعاعات الفكر على شكل صلاة ودعاء ونداء ؟ !
وهل تؤدى الابتهالات النقية فى عالمنا الذى يجرى وراء المـادة الخسيسة ويكاد يكفر بكل ما عداها الى هـذه النتائج العظيمة ؟ ! .
لقد وضعوا فى أحواض الزرع حبوباً صلوا لها وباركوها .
ثم وضعوا حبوباً فى أحواض أخرى بلا صلاة ولا دعاء .

فنبتت الأولى نباتاً حسناً ، وعملت الأخرى فى فقر وجدب ..
سبحانك ربى ، انك أنت الزارع الأكبر ، وما كنا نحن الزارعين ! . . »
أقول : وهذا الكلام كذلك يمثل جوانب من الحق ، ونخشى أن يحيف
على الجانب المهم ، وأن يتخذ منه الماديون مجالا لسخريتهم .
ان الاسلام مادى روحى ، أو هو — كما قررنا — الفطرة كاملة .
ولما كان أى عمل يحتاج فى تمامه الى جملة أسباب بعضها فى
أيدينا ، وبعضها موكول الى الله ، فيجب أن يعلم أن الله لن يقوم عنا
بما وكل الينا فعله .

وفى حالة الزرع هذه لابد أن نبذر ونحرث ونسقى ، وعلى الله
بعد ذلك أن يمنع الآفات المفاجئة ، وأن يهيىء الجو بما ييسر الانضاج ،
وأن يتعهد بلطفه ما صنعنا .

وفى الحالات الأخيرة تجدى الصلوات والابتهالات . وتترقب بعد
ذلك البركات . وحاجة العالم الى معرفة هذا الجانب لابد منها ...
وهو ما يجحده الماديون ، ويؤكده المؤمنون ...

* * *

ولنشرح هنا كلمة من كلمات الايمان يرددها المسلمون كثيراً ،
خصوصاً عندما يسمعون المؤذن يستحثهم على الصلاة والفلاح
وخير العمل ..
أعنى كلمة « لاحول ولا قوة الا بالله » .
بيد أن الدنيا مشحونة بكلمات الحق التى يراد بها باطل .
ان هذه الكلمة لا ريب فى صدقها ، وفى استحباب تكرارها ...
ومن المحزن أن يساء الى الحق نفسه بسوق كلماته حيث
لا مساق لها ...
اننا مرة أخرى نعود الى قضايا الأسباب والمسببات لنقول :
انها حق ، وان الله بنى عليها نظام الأرض والسماء وما بينهما .
وارتباط الأسباب بالمسببات ملاحظ من قديم الزمان ، ومطرد
الثبوت كما نرى .

وما دام النظام الكونى قائماً فسيبقى هـذا الارتباط خالدا ! • •

وشرائع الاسلام قامت على اعتماد هـذه الحقيقة •

فالمـاء للسقيا وللطهارة سبب لا يتخلف ، والأكل للشبع ، والشمس للنهار ، والنار للاحراق والسكين للقطع ، والسلاح للحرب •

بل العمل الصالح للثواب ، والعمل الطالح للعقاب •

تلك كلها أسباب لابد من استكمالها ولا يعفى أحد من تقديمها •

ونحن نرى القوانين العلمية تسجل وتدرس على أساس أن الرباط بين الأسباب والمسببات لا فكاك منه •

ولم يزعم أحد أن قانون الروافع أو الأجسام الطافية مثلا يصدق فى مكان ، ويكذب فى مكان ، أو يثبت فى سنة ويتغير فى أخرى •

ومن ثم فكل محاولة لخداع هذه الأسباب أو تجاوزها فاشلة حتما • • •

والمؤمن والكافر سواء فى ضرورة الخضوع لها والأخذ بها •

وكل من زعم أن الله أمر بغير هـذا ، أو يقبل غير هـذا فهو كذب على الدين •

ولا مجال هنا ألبتة لذكر كلمة « لا حول ولا قوة الا بالله » على أنها توهين للرباط القائم بين الأسباب والمسببات •

أما اذا ذكرت بمعنى أن هذه العلاقة من قدرة الله فى الأشـياء ، ومشيئته المحكمة فى خصائصها فلا حرج •

على أن الذى نؤكده ولا يستطيع الماديون مخالفتنا فيه ، أن هناك قوانين كونية كثيرة لمـا نعرفها •

وأن هـذه القوانين يمكن أن يكون لها مدخل كبير فى شئون عالمنا هـذا الذى نحيا فيه • •

وأن هـذه القوانين المجهولة تند عن ارادتنا وقدرتنا ، وان أثرت فى حاضرنا ومستقبلنا • •

وذلك كله فى عالم المـادة الذى أحرزنا فيه سهماً من علم •

فكيف بعالم الروح الذى لا نعرف من حقائقه شـيئاً ؟ ؟

ان الجنين يتكون فلا يعرف أحد ما الذى يكمن فيه من خصال الأبوين وما الذى يبرز ؟ .

وما الذى يتطرق اليه من أحوال الأجداد — للأب والأم معاً — وما الذى يحمله ؟ .

وفى زحام هذا الجهل تتخلق السلالة البشرية بما فيها من صفات هائلة التفاوت . صفات لها أعمق الآثار فى صنع المستقبل .

فقد تجعل الجنين يولد ليأخذ طريقه الى القمة أو الى الهاوية .

فاذا كانت الأسباب التى تنتج هذا كله ليست بين أيدينا .

فهل يلام مؤمن يعلم أنها بين يدى الله فيقول : « لا حول ولا قوة الا بالله » ؟ ؟

ولندع هذا المثال المادى .

ان الروح الذى يحركنا قد تنهمر فيه أمواج من الأمل تبعثنا على نشاط غريب . نشاط لا يلحقه فتور ، ولا يعوقه تشاؤم ، ولا يهزمه قيد .

وقد نحس انقباضا يجعل حركتنا الى أدنى الأشياء منا ثقيلا وبيلا ...

فهل يلام المؤمن الذى يعلم أن القلوب بين أصابع الرحمن ، اذا قال : « لا حول ولا قوة الا بالله » ؟ ..

لقد ظهر لى أن المحافظة على نجاح العمل ، لا تقل خطراً عن انشائه .. وأن انشاء عمل ما قد يكون فى مقدورنا .

لكن استبقاءه محفوفاً بالعناية يغلب أن يكون خارجاً عن طوقنا .

فهل يلام مؤمن يعلم أن انتظام الأسباب المختلفة وتأديها الى نتائجها ليس ملكه ، ولكنه ملك الله ، فهو يقول « لا حول ولا قوة الا بالله » ... ؟

ان ذلك هو مجال تلك الكلمة .

وهى — بلا ريب — من شارات الايمان ... !!!

***

● أمة ورسالة :

جل الأمم الآن — ان لم يكن كلها — يسعى لرفع مستوى معيشته ، وتكثير الضرورات والمرفهات لمختلف الطبقات .

وهـذا شيء حسن ، فمن ذا الذى يكـره العافية والسـعة والاسترواح ؟ .

ان كدح الناس للحصول على مزيد من خير الله ، والاستمكان فى أرضه عمل مفهوم البواعث .

الا أننا لا نرضى لأبناء آدم ، ولا يرضى عاقل لنفسـه أن تكون الغاية القصوى من الحياة هى البطن الملآن ، والبدن المزدان . فذاك هدف حيوانى لا انسانى .

ووقوف الحكومات والشعوب عنده هبوط بقيمة العالم ورسالته . ونزول عن المكانة التى أرادها الله له ، وذهول عن الحق الذى يقول لنا فى استـنكار :

« أفحسبتم أنمـا خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق » (٢٤) .

ان للانسانية غاية أرقى من توفير الخبز لآكليه !
غاية ترادف النبيون لتوضيحها .

ثم جاء عميدهم الخاتم ، صاحب الرسـالة العظمى ، ليصنع أمة تمثلها وتقوم عليها ، وترفع علمها فى الآفاق ...

وظيفة هـذه الأمة بين شتى الأجناس والأوطان أن تدعم الخير وأن تعلى صوت المعروف ، وأن تحمى شارة الايمان ، وأن تجعل من كيانها موئلا للفضائل .. وأن تكره الآثام وتتنكر لفاعليها ، وتعقب على أخطائهم وخطاياهم بالتفنيد والرد ..

وظيفة هـذه الأمة حراسة وحى السماء وابقاء مناره عالياً يومض بالاشعاع الهادى كى يهتدى به السارون فى ظلمات البر والبحر ..

والأمة التى تحمل هـذا العبء أو تتولى هـذا المنصب أو ترشح لهذا الشرف هى الأمة الاسلامية ..

وقد أوضح الله ذلك فى كتابه العزيز حيث قال : **« ولتكن منكم**

---

(٢٤) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (٢٥) .

وقال : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »** (٢٦) .

وبين أن منزلة الناس أجمعين من هذه الأمة كمنزلة هذه الأمة من رسولها ..

فكما جاء الرسول ﷺ من عند الله معلماً ومبشراً ونذيراً ، وكما أخرج هذه الأمة باذن الله من العمى الى الهدى . فعلى أتباعه أن يشيعوا الحق الذى شرفوا به ، وأن ينشروا الرسالة التى نزلت بينهم ، وأن يكونوا جسراً تعبر اليه الهداية لتعم أرجاء الأرض .

« **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »** (٢٧) .

والسلف الصالح الذى تلقى آيات القرآن وسعد بصحبة النبى ﷺ فهم وظيفته على هذا النحو :

فهم أن أداء الدعوة واجب ، وأن ابلاغ رسالات الله حق ، وأن حبس أنوار الاسلام فى حيز من الأرض جريمة ...

وعلى ذلك الأساس تكونت الأمة الاسلامية تكوناً متميز الطبيعة والحركة مستبين المبنى والمعنى ، تزدوج مثلها العليا مع قواها المادية ، كما يزدوج الروح والجسد . لا يتصور بينهما فكاك .

* * *

وشعور المسلمين بفرائض الاسلام عليهم جعل نشاطهم الأدبى يتخذ عدة طرائق تنتهى كلها بخدمة دينهم فى الداخل والخارج :

(ا) فتعلم الاسلام وتعليمه أحيا ألوف المدارس لحفظ القرآن وتعهده ، ولفقه السنة وصيانة كل ما ورد عن الرسول ﷺ من توجيهات عامة .

---

(٢٥) آل عمران : ١٠٤ .
(٢٦) آل عمران : ١١٠ .
(٢٧) البقرة : ١٤٣ .

(ب) واستدعى ذلك نهضة شاملة لآداب اللغة العربية وقواعدها حتى ساوت علوم اللغة علوم الدين فى درجتها .

ولا عجب فان الوسائل والمقاصد متلازمة الوجود .

والاسلام اذا ضمرت العربية وذبلت فهو مهدد بأفتك الأخطار .

وسترى مصداق ذلك فيما نقصه عليك بعد حين .

(ج) استبحرت المعارف التشريعية ، وتكونت مذاهب فى صـور العبادات وقوانين المعاملات من أقوى وأزهى ما عرفت الدنيا .

(د) انتشرت دراسات الخلق والسلوك مع ما يسمى بـ «التصوف» وشاعت بين العامة والخاصة شيوعاً واسع النطاق .

(هـ) تطوع المسلمون من تلقاء أنفسهم للمحافظة على المجتمع ضد السيئات والمناكر . اذ أن طبيعـة الاسلام تلزم كل مؤمن باقرار المعروف ومطاردة المنكر .

والقوى الشعبية — لا السلطات الحكومية — هى التى تولت حياطة الأمة من شرور كثيرة ، وان كانت الحكومات — من الناحية التنفيذية — هى صاحبة الاختصاص .

وقيام الجماهير فى الداخل بذلك الواجب أبقى شعائر الاسلام حية فى المجتمع ، وجعل أمام العصاة والمنحلين حواجز مرهبة ، وفسح المجال أمام السطوة الأدبية على الضمائر والعواطف .

وكانت السعادة العظمى لأى مسلم أن يشرح صدر أى انسـان للاسلام ، وأن ينقله من كفره القديم الى رحاب هذا الدين .

والمسلم الذى يوفق الى ادخال شخص ما فى الاسلام تراه مبتهج النفس ، بادى البشر ، متألق الجبين .

وتتعاون الجماعة المؤمنة — غالباً — على كفالة القادم الجديد ، وتوثيق الأواصر العاطفية معه .

❋ ❋ ❋

وقد امتد الاسلام الى أغلب البقاع المعروفة فى العالم ، وتشبثت

جذوره بألوف مؤلفة من المدائن والقرى فى « آســيا » و « افريقيا » و « أوروبا » .

وتراخت العصــور عليه وهو ينساح فى أرض الله بقوة رائعة . ليس لهــا مدد الا حماس المؤمنين ، وقدرتهم على الاقناع بالحــق والمقــاومة للباطل .

وقد عرضت للأمة الاسلامية فترات انهزمت فيها أمام أعدائها . أو بتعبير أدق ، انهزمت فيها أمام نداء الواجب الذى يملى عليها ضرورات الوفاء لرسالتها ، فكان تفريطها فى جنب الدعوة — التى زكت بها — سبباً فى ذهاب ريحها وانهيار مجدها .

لقد انحلت الخلافة التركية الأخيرة عن نيف وثلاثين دولة مبعثرة فى قارات الأرض ينتسب أغلبها الى الاسلام انتساباً اسمياً ، وتضطرب دعوته فى أنحائها اضطراباً بعيــد المدى ، يحتاج شرحه الى قليــل من الاســهاب .

يا عجبا ، كيف تبددت هذه القوة العظيمة . وأقفرت تلك المعــالم النضرة ؟

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مقفر العرصات

والواقع أن ذلك الانكسار لم يقع بغتة . ولم تلتق أسبابه فجاة .

ان الأمة الاسلامية — كما قلنا — صاحبة رسالة ، وحاملة دعوة ووريثة وحى يجب أن تبلغه بالعلم . وأن تظهره بالعمل .

بيد أنها نسيت ذلك أو تناسته ، وضعف أخذها به . ووغاؤها له على اختلاف الليل والنهار .

واطرد هــذا التفريط أولا فى شــكل متواليات حسابية ، وأخيرا فى شكل متضاعفات هندسية .

وقد تقعه بين الحين والحين نهضات المصلحين . وصيحات المذكرين . الا أن الأمر عز على العلاج فى العصور الأخيرة . فلم تستفق هذه الأمة الا والأجانب قد احاطوا بها ، وانشبوا أظافيرهم فى أعناقها . وشرعوا فى الاجهاز عليها .

ولولا عناية من السماء مسعفة لكانت تحت أطباق التراب .

وظهرت بوادر الانفصال بين الأمة ورسالتها فى أكثر من ميدان .

ففى حقل التعليم ذبلت الدراسات الاسلامية ، ونبتت خلالها أشواك كثيرة .

وفشت الظنون والخرافات والاسرائيليات والنصرانيات والاغريقيات ، حتى لكأن حصاد هذه الدراسات طين لا قمح ، وحسك لا تمر ! .

والعلم الاسلامى اليوم متوار فى معاهد خاصة ، بعد ما عزل عن الحياة العامة ، وساء تقويمه ، وقل التعويل عليه .

وفى حقل التشريع ساد القحط كل ناحية وعجز الفقه سنين عدداً أن يحكم المعاملات المتجددة ، وأن يضبطها باسم الله فى مجراها العتيد .

ووقف الاجتهاد عند صور انقضى زمانها وأهلوها .

فلما زحفت الحياة الحديثة كان من الشلل بحيث لم تقم له حركة أو يحسب له حساب .

وهو الآن محبوس فى بعض قضايا الأسرة ، معزول أتم العزل عما وراءها من نشاط اجتماعى . محلى أو دولى ! .

وتبع هوان المعرفة الدينية انسحاب يكاد يكون شاملا من آفاق الحياة كلها وتضعضت قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمام مدنية وافدة عارمة تحل الحرام وتحرم الحلال .

وتوقف — بداهة — سير الدعوة الاسلامية فى الأرض ، وجهادها القديم لادخال الناس أفواجاً فى دين الله .

وكيف لا تتوقف وهى تكافح لتحتفظ بحياتها فحسب أمام سياسات ماكرة وعداوات فاجرة ؟ .

ويمكننا أن نومىء الى عدة أمور ، هى — فى نظرنا — مظهر لتفريط المسلمين التاريخى فى رسالتهم ، وتقصيرهم فى خدمتها :

١ — ضعف أجهزة الدعاية الخارجية للاسلام ، أو انعدامها ، وترك تعليم الأجانب لجهود الأفراد ونشاطهم الخاص .

ومعروف أن انتشار الاسلام فى أواسط افريقيا ، وأغلب آسيا يرجع الى ذلك الجهاد الفردى المسالم الدءوب .

وهو جهاد لم ترسمه خطط منظمة ، ولم تستفد من أرباحه عيون يقظة ، بل لم تحرس ثمراته قوى معدة .

والسبب فى هذا التقصير المعيب ، أن الدول الاسلامية كثيراً ما شغلتها منافع خاصة أو سياسات قصيرة النظر . بل كثيراً ما قامت على أنقاض المثل الدينية الرفيعة .

وهذا الاعتلال فى أدلة الحكم أضر بسير الاسلام فى أرجاء الأرض أبلغ الضرر .

والواقع ، أن كثيراً من الحكومات الاسلامية فى التاريخ القديم . كانت عقبات فى طريق انطلاق الدعاة لأداء واجبهم على نحو واضح ونهج مرسوم .

٢ — مع أن أمما كثيرة عربها الاسلام ومحا عنها خصائصها اللغوية والثقافية القديمة ، فان العربية لم تلق ما ينبغى لها من رعاية وحفاوة ، خصوصاً فنون الأدب المختلفة .

فقد غلبت العجمة على عصور طويلة واصطبغت بها أداة الحكم حيناً من الدهر .

وتولى المناصب الكبرى أناس عاطلون من حلية البيان وسلامة المنطق .

وأوت الكتابة والبلاغة والشعر الى طبقات من المحترفين والمرتزقه .

ثم انتهى الأمر فى القرون الأخيرة الى أن علماء الاسلام — وفيهم جمهرة من خريجى الأزهر كانوا غرباء عن الأدب ، بل كانت حاستهم البيانية ميتة .

وغريب أن تكون معجزة الاسلام الكبرى آية بلاغية ، وأن تكون اللغة العربية أساس هذا الدين وترجمان عباداته ، ومع ذلك تهون الى هذا الحد .

والواجب أن تعود للأدب مكانته ، وأن تتضافر الجهود على تقوية مادته . وتجلية رونقه ، وامداده بأسباب النماء والازدهار .

٣ — هناك خلافات علمية ، ومذهبية ، حفرت فجوات عميقة بين المسلمين • وقطعتهم فى الأرض أمماً متدابرة ، وهم فى واقع أمرهم وطبيعة دينهم أمة واحدة •

والدارس لهذه الخلافات يتكشف له على عجل أنها افتعلت افتعالا ، ويولغ فى استبقاء آثارها وتفتيق جراحاتها ، بل فى نقل حزازات شخصية ، أو نزعات قبلية الى ميدان العقيدة والتشريع وذاك ما لا يجوز بقاؤه ان جاز ابتداؤه •

وكلما زادت حصيلة العلم الدينى ، وتوفرت مواد الدراسة الصحيحة انكمشت الخلافات ، واتحدت الأمة الاسلامية منهجاً وهدفاً •

ولذلك نحن نرى التقريب بين هذه المذاهب فرضاً لابد من أدائه ، وأخذ الأجيال الجديدة به •

كما نرى ضرورة احسان النظر فى دراسة التاريخ الاسلامى ، وتنقيته من الشوائب التى تعكر صفاءه •

٤ — الأمة صاحبة الرسالة لا تنسى وظيفتها الاجتماعية فى تصرفاتها العالمية والمحلية على سواء •

بل هى تستصحب أهدافها الروحية والثقافية فى علاقاتها القريبة والبعيدة ، وتؤكد شخصيتها المعنوية فى كل اتجاه •

وتسخر أدواتها الخاصة فى بلوغ غاياتها كما يسخر الجسم أجهزته ومشاعره فى تيسير مآربه •

ويقتضى ذلك أن تساق وجوه شتى من النشاط العام لخدمة الاسلام ، وجمع القلوب عليه •

واذا كان الله جل شأنه قد جعل لتأليف القلوب سهماً من الزكاة المفروضة • فما ذلك الا رمز للتوصل بضروب البر المختلفة كى يقبل الناس على الدين ، وكى تدرك العامة أنه دين يعطى ولا يأخذ ، ويبذل الفضول للمحتاجين ، ولا يرزؤهم شيئاً •

وبعض الأديان الآن تدس عقائدها الملولة وسط مساعدات شخصية كثيرة •

وكان حرياً بالمسلمين أن يسبقوا الى نشر الحق والى تربيته فى القلوب بألوان العون المادى والأدبى التى كلفوا بها •

بيد أنهم — للأسف — تركوا الحق يخدم نفسه بنفسه ، وينصر قضاياه اعتماداً على ما فيها من صواب •

ونسوا أن تلفيق الشبه وتجميع الحيل يمكن أن يصد الجماهير عن الايمان ، ويعلق أبصارهم بخدع لا قيمة لها •

وقد كان ذلك من أسباب انحسار المد الاسلامى فى بعض الأقطار •

ان قصة تفريطنا فى رسالة الاسلام طويلة الفصول ضافية الذيول، ولسنا بصدد سردها •

انما نشير الى نقاط محدودة منها — مهيبين بأولى النهى ألا يجروا أخطاء الماضى ، وهم يمهدون لمستقبل مرموق •

وللاسلام أعداء لا تهدأ لهم نفس ، ولا ينكسر لهم ضغن ، وهم ينشئون الأذى انشاء ، فهل نعينهم على أنفسنا باستدامة الأخطاء ؟

ان طماعية خصومنا فى تحطيم ديننا ، وفى صرفنا عنه ، أكدتها ألوف الدلالات والأعمال !

وقد استقل الاستعمار ما ظفر به من غلب ، فزادت جهوده لكى ينسى المسلمون أن لهم دعوة واجبة الأداء ، بل لكى ينسى المسلمون أن لهم ديناً واجب الاتباع •

انه يريد أن يضربوا صفحا عن القرون التى خلت ، والتاريخ الذى مضى ، والحضارة التى أشرقت لها ظلمات الدنيا دهراً طويلا ••!

***

● أضرار تغيير الكتابة العربية :

ومن أخبث المؤامرات لصرف المسلمين عن دينهم ، الدعوة الى تغيير الكتابة العربية •

اما الى الحروف اللاتينية ، كما فعلت تركيا بعد ارتداد حكامها ، واما الى حروف أخرى تحل مكان هذه الحروف التى عرفناها وعرفها آباؤنا وخطوا بها ألوف الألوف من المجلدات والرسائل •• ولم ذلك ؟

قال الخبثاء : للتفاوت القائم بين لغة النطق وطريقة الكتابة .

وهذا أقبح تعليل يمكن أن يذكره انسان دارس للغات البشر .

فان التفاوت القائم بين ما يكتب وما ينطق هو أقل ما يكون فى العربية ، وأسوأ ما يكون فى الانجليزية والفرنسية .

ان صيغ الأفعال الفرنسية — وعددها ثمانية فعلا — تحمل كل صيغة منها عدداً من الحروف الميتة يبلغ الستة أحياناً ، تكتب ولا تنطق ، وتنتشر فى اللغة كلها كما تنتشر العثرات فى طريق ردىء .

والى جانب هذا فان الحروف الساكنة تتجمع مثنى وثلاث فى أوائل الكلمات وأواخرها بصورة مزرية لا يمكن تعليلها ، ولا يمكن أن يرتبط بها معنى محترم ، أو غير محترم ، واثقالها للذهن فى علم الاملاء حقيقة لا شك فيه .

ويطرد كذلك فى هذه اللغة اغفال النطق بعلامات الجمع فى الأدوات والأسماء كما يطرد النطق بحروف كثيرة على غير ما تكتب به .

ومع هذه المقابح فاللغة الفرنسية — فى نظر البعض — أيسر من اللغة العربية .

ويجب — فى نظرهم — أن نحول لغتنا لتوافق لغة الكتابة مع ما ينطق .. ولتتساوى اللغة العربية مع اللغات العظمى .

ونحن لا ندرى ما يقال لهذا الجور ، ولا ما يوصف به هذا التبجح ! ! .

والغرض من هذا النشاط ظاهر ، وهو فصل مسلمى اليوم عن تاريخهم الروحى والثقافى بعد القاء ستار كثيف على ماضيهم العلمى كله . . .

وفى هذا الميدان نفسه يعمل آخرون من ذوى الثقافة الانجلبزية لبلوغ هذا الغرض .

واللغة الانجليزية — من ناحية الكتابة والاملاء أحط من زميلتها الفرنسية . ولولا قوة أهلها ما انتشرت . . . ! ! .

ولكن التبشير الاستعمارى يغطى كل عيوبها . ويطيل الألسنة فى قدح لغتنا وذم قواعدها واهانة حروفها ..

والغرض هو حفر فجوة غائرة بين ماضينا الاسلامى وحاضرنا . أجل بيننا وبين ثقافة القرآن وروحه ، استجابة لهجوم الغرب الأخير المنعم بالمفاتن والخوادع ... !!

وهذه ما نشرته احدى الصحف اليومية : فى سلسلة حارة ملحة من الدعاية لتغيير الكتابة العربية .

قالت الصحيفة : « ان الدنيا تتطور ، وهى تجرى تحاول أن تلحق بالمستقبل .

والمستقبل عبارة عن سرعة وصواريخ ، سرعة على الأرض ، وصواريخ تندفع الى الشمس ، سرعة حتى فى أسلوب العرض والقراءة والشراء .

اختزال لكل التفاصيل .

فالصيغة التلغرافية هى المفهومة المقروءة الآن .

اننا نتسابق مع الزمن نحاول الجرى مع عقرب الثوانى قبل عقرب الدقائق .

ونسأل أيها القارىء : ماذا بعد هذه الصيحات المفتعلة كلها ؟ .

فاذا الاقتراح الذى يرحب به الكاتب ويروج له : أن المجتمع اللغوى يفكر فى اختصار لغة سيبويه ! ! ! .

ان الدنيا تجرى وتلهث من شدة الجرى كما يقول الكاتب . فيجب أن نغير حروف اللغة العربية وحدها .

أما اللغتان الانجليزية والفرنسية ، وسائر اللغات الأخرى فان الدنيا بالنسبة لهما واقفة .

انها لغات مقدسة القواعد . أو لعلها لغات سبقت الدنيا الجارية !!

انى لأستغرب الصفاقة التى كست هذه الوجوه ... !!

وانه ليسرنا أن ينتصب أديب العربية العظيم الأستاذ « عباس محمود العقاد » ليحارب هذه النزعة الخبيثة ، سواء وهى تهاجم قواعد

اللغة ، أم وهي تهاجم قواعد الكتابة . قال — رداً على الدكتور طه حسين وأمثاله تحت عنوان :

« الاباحية اللغوية » :

ان مسألة اللغة الفصحى سيطول الخوض فيها ما دام أعداؤها يحسبون أنهم يملكون القضاء عليها . وأننا نطلب منهم الرحمة بها والابقاء على حياتها !!! .

ولكننا نعتقد أن اللغة التى تطلب الرحمة من أعدائها ضائعة قبل أن يضيعها أولئك الأعداء .

كما نعتقد أن محاربة الفصحى لا تأتى من أناس يخلصون فى البحث عن لغة أيسر منها وأحق بالبقاء .

وانما يحارب الفصحى من يريدون محو هذه اللغة لمحو جميع المعالم التى ترتبط بها فى العقيدة والأخلاق . وتراث الفكر والثقافة .

ودون ذلك تتحطم معاول الهدم فى أيدى الجبابرة العتاة .

فما بالك بمعاول الهدم فى أيدى العجاف المهازيل ؟ .

اللغة الفصحى باقية ما بقيت الحاجة الى لغة عامة مشتركة بين بلاد كثيرة وأزمنة متلاحقة .

ولن تستغنى اللغة العامة عن قواعد متفق عليها . لأن اللغة المرتجلة بلا قاعدة ربما صلحت لوقتها ومكانها . ولا تصلح لجميع الأوقات وجميع الأمكنـة .

ماذا حدث فى اللغات الأوروبية الدارجة بعد اهمال اللاتينية ؟ .

ألم تذهب القواعد النحوية والصرفية بل قامت فى اللغات الفرنسية والايطالية والأسبانية الحديثة ، قواعد مطردة أصعب على المتعلم من القواعد اللاتينية .

فالذين يريدون محو الفصحى لا يخلصون حين يزعمون أنهم يطلبون الخلاص من القواعد التى يصعب على المتعلمين أن يتقنوها ويلتزموها .

فان القواعد المهروب منها آتية — لا محالة — بعد استقرار اللهجة الدارجة على حال من الأحوال .

اللغة ، أم وهى تهاجم قواعد الكتابة . قال — رداً على الدكتور طه حسين وأمثاله تحت عنوان :

« الاباحية اللغوية » :

ان مسألة اللغة الفصحى سيطول الخوض فيها ما دام أعـــداؤها يحسبون أنهم يملكون القضـــاء عليها . وأننا نطلب منهم الرحمـــة بها والابقاء على حياتها !!! .

ولكننا نعتقد أن اللغة التى تطلب الرحمة من أعدائها ضائعة قبل أن يضيعها أولئك الأعداء .

كما نعتقد أن محاربة الفصحى لا تأتى من أناس يخلصون فى البحث عن لغة أيسر منها وأحق بالبقاء .

وانما يحارب الفصحى من يريدون محو هذه اللغة لمحو جميع المعالم التى ترتبط بها فى العقيدة والأخلاق ، وتراث الفكر والثقافة .

ودون ذلك تتحطم معاول الهدم فى أيدى الجبابرة العتاة .

فما بالك بمعاول الهدم فى أيدى العجاف المهازيل ؟ .

اللغة الفصحى باقية ما بقيت الحاجة الى لغة عامة مشتركة بين بلاد كثيرة وأزمنة متلاحقة .

وان تستغنى اللغة العامة عن قواعد متفق عليها . لأن اللغة المرتجلة بلا قاعدة ربما صلحت لوقتها ومكانها . ولا تصلح لجميع الأوقات وجميع الأمكنـــة .

ماذا حدث فى اللغات الأوروبية الدارجة بعد اهمال اللاتينية ؟ .

ام تذهب القواعد النحوية والصرفية بل قامت فى اللغات الفرنسية والايطالية والأسبانية الحديثة ، قواعد مطردة أصعب على المتعلم من القواعد اللاتينية .

فالذين يريدون محو الفصحى لا يخلصون حين يزعمون أنهم يطلبون الخلاص من القواعد التى يصعب على المتعلمين أن يتقنوها ويلتزموها .

فان القواعد المهروب منها آتية — لا محالة — بعد استقرار اللهجة الدارجة على حال من الأحوال .

وانما يطلبون محو « اللغة الفصحى » لأنها قوام ثقافة كاملة هى المقصودة بالهدم والالغاء .

أما رسوم الحروف باللغة العربية فالبحث فيها سهل واضح لايتسع فيه مجال الخلاف .

الا أن المختلفين ينسون طبيعة اللغة العربية ، ويغيب عنهم أنها لغة اشتقاق وليست لغة « نحت » كاللغة اللاتينية وأخواتها .

فلا سبيل الى كتابة لغات الاشتقاق ولغات النحت بطريقة واحدة فى الرسم على الاطلاق .

ان التركى — مثلا — يقول طاقم وطقم بكسر القاف ، وطقم بسكونها ، ولا يختلف المعنى .

ولكن الفرق بين الفعل « علم » والاسم « عالم » فى اللغة العربية انما هو الفرق فى حركة خفيفة من حركات حرف العين .

فليست الحروف منفصلة بأى وجه من الوجوه عن الأوزان والحركات .

ليست الألف فى « رمى » حرفا أبجديا فقط .. ولكنها حركة فى وزن تشترك فيه مادة الكلمة بجميع مشتقاتها .

فاذا كتبتها « ألفا » [٢٨] كما تنطقها لم تتخلص من الياء فى« يرمى» ولا فى « رميا ورماية » ولا فى « مرميات » أو ما وراء ذلك من ضروب المشتقات .

وأنت تقول : قضى يقضى قضاء ، وتجمع « قضاء » على قضاءات .

وتقول : سما يسمو سماء وتجمع سماء على سماوات !

فالمسألة فى لغات الاشتقاق هى مسألة الوزن فى جميع مشتقات الكلمة ، وليست مسألة حرف فى لفظة واحدة .

وهذه هى الحقيقة التى ينساها أو يجهلها من لا يفرقون بين أحوال الكتابة فى العربية وأصولها وبين لغات النحت على اختلافها .

---

(٢٨) يقترح الدكتور طه حسين ان توافق لغة الكتابة النطق — طبعا — فى العربية وحدها .

وهى فى جملتها تتغير معانيها بزيادة المقاطع أو حذفها ولا شأن لها باختلاف الأوزان والحركات .

والحكاية هنا أيضاً حكاية جهل أو عجلة لا تثبت على الروية والتمحيص ، ولا يصعب التفاهم عليها مع التثبت والأناة » .

وهذا دفاع جيد ، ونداء الى العقل له خطره عند من يفكرون بعقولهم .

أما اذا كان الهجوم على اللغة العربية يستهدف مآرب خاصة ، ويخدم أهواء كامنة ، ويراد منه الاتيان على قواعد الاسلام فان الاقناع لامكان له مع هؤلاء .

ان اماتة اللغة العربية تستتبع حتما موت الاسلام .

اذ أن القرآن العربى سيتحول الى أثر يوضع فى المتاحف ، والرسول العربى سيدفن تراثه من سنة وسيرة دفناً لا نشور منه الا أن يكون هواية لبعض الدارسين .

والاستعمار دائب على بلوغ ذلك الهدف .

وقد أفلح فى خلق جيل يتقن قواعد اللغات كلها الا اللغة العربية وحدها ، فهو يجهلها ، ولا يستحى أبداً من اعلان هذا الجهل .

فاذا ذهبت قواعد البلاغة ، ثم قواعد النحو والصرف ، ثم قواعد الكتابة آخر الأمر ، فان هذا التدرج منته الى مستقره ، وهو ذهاب اللغة نفسها ، وذهاب الاسلام معها .

ان المسلمين من شتى الأجناس يقدسون اللغة العربية .

الهندى والصينى والتركى يرون بقاء هذه اللغة فريضة دينية ، ويقدمونها على لغاتهم الأولى .

لأن هذه اللغة العربية لسان الوحى ورباط الروح ، وآصرة العقيدة المشتركة .

وأى تهوين فيها فهو تفريط مخوف العقبى .

بل ان الاستعمار يحارب « القومية العربية » مدفوعا بخضغينته على الاسلام .

فان هذه القومية سواء أكانت تجديداً لنعرة جاهلية ، أم تمشياً مع أساليب الحياة المستحدثة فانها — فى نظر الاستعمار — قد تضمن الخلود للغة التى يحاربها من قرن •

واذا خلدت هذه اللغة ، فان التراث الأدبى للاسلام سيتاح له حياة جديدة وذلك ما يكرهه أشد الكراهية ، ويريد اسدال آلاف من الحجب عليه ، حتى لا تقع عليه عين ، ولا يستنير به قلب •

وهناك جملة من التعريفات للقومية العربية أو الوحدة العربية تدرك منها قيمة اللغة فى حفظ الأمة ، وصيانة ثروتها وتاريخها •

ومنها يستبين لك أن اللغات عموماً ليست فقط أداء تعبير أو وسيلة تفاهم بين أصحابها •

ولكنها أساس تجمع عقلى وعاطفى بعيد الآماد •

وأن اللغة العربية — خاصة — بناء أمة ، وقوام دين ، وضمان حياة ، وأن تقويم الألسنة بها ذريعة الى حفظ الوحى الأعلى ، وتنقيل عقائده بين شتى الأجيال وعلى كر الدهور •

ونحن نستعرض هذه التعريفات [٢٩] ، مرجئين ابداء الرأى فى النزعة الموحية بها الى موضع آخر من كتابنا •

وانما نثبت هذه التعريفات لابراز قيمة اللغة فى حياة الأمة ، وبيان ما ينشأ عن اضمحلال اللغة من هبوط الجماعة ، وذهاب ريحها •

***

● **مقومات القومية العربية :**

مقومات الوحدة العربية كثيرة ومتشعبة ويختلف الكتاب فى تحديدها •

فهى عند « ساطع الحصرى » تنحصر فى :

١ — الاشتراك فى اللغة •

٢ — الاشتراك فى التاريخ •

---

(٢٩) عن مجلة العلوم السياسية — عبد الحى نصار .

٣ — الاعتقاد بوحدة الأصل أو النشأة .

٤ — التشابه فى العواطف والعوائد ، والتماثل فى ذكريات الماضى ونزعات الحال وآمال الاستقبال .

٥ — ويضاف اليها الدين فى بعض الأحيان (٣٠) .

وهى عند « بيير كيلر » : الاشتراك فى التقاليد ، والجنس ، والدين ، والثقافة ، واللغة .

وهى عند الدكتورة « نجلاء عز الدين » : الوحدة الجغرافية ، واللغة والتراث العربى .

وهى عند « حازم زكى نسيبة » : اللغة ، والجنس ، والتقاليد ، والتاريخ ، والآمال المشتركة ، والدين .

وهى عند الدكتور « أحمد موسى » : اللغة ، والثقافة ، والدين ، والحذر من الاستعمار .

وهى عند الأستاذ « جب » : الدين ، والتاريخ ، واللغة ، والثقافة .

هذا ويمكن حصر هذه العوامل بصفة عامة فى اللغة ، والدين ، والتاريخ المشترك والجوار الجغرافى المشترك ، ووحدة الأصل — الجنس — والثقافة المشتركة ، والتكامل الاقتصادى ، والخطر المشترك ، ووحدة العادات والتقاليد والنظرة الى الحياة ..

ويكاد يجمع الكتاب على أن أول هذه العوامل أو أكثرها أهمية هو اللغة .

ولكن ما هى اللغة ؟

اللغة كما يعرفها « أوتو جسبرسن » عبارة عن « وسيلة للتعبير عن أفكار الأفراد » .

وهى أيضا « وسيلة للتفاهم وأداة تساعد على الوعى وتسجيل الأفكار » .

---

(٣٠) آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية « ساطع الحصرى » وقد أورد الاستاذ الكاتب اربعة عشر مرجعا عربيا وافرنجيا استقى منها بقية التعريفات لم نر ضرورة لذكرها هنا .

وليست لغة شعب من الشعوب مجرد وسيلة يتخاطب بهـا ذلك الشعب •

بل انها تصبح بعـد زمن الوسيلة التى يعبر بها من يتكلمونها عن روحهم •

* * *

● **اللغـة كعامل للوحـدة :**

اللغة عامل من عوامل ربط الفرد بجماعة « جسبرسن » •

واللغة عنصر أساسى من عناصر تكوين المجتمع تمتزج بروحه — منذ طفولته — وتلازم تطوره العقلى فى كل مظهر من مظاهر هذا التطور •

ومع ذلك فانه من الصعب — كما قال « جسبرسن » — تعرف مدى مكانة الدور الذى تلعبه اللغة فى سلوكنا الاجتماعى •

وتعتبر اللغة جزءاً لا يتجزأ من المجتمع — وبالتالى عاملا من عوامل وحـدته •

واللغة جزء كبير من كيان الشعب الروحى ، وهى رمز لوحـدته الروحية بل هى ركنها الأعظم •

ويشترك « منتشينى » و « ايوانوف » فى اعتبـار اللغة عنصراً أساسياً فى تكوين الأمة •

وفى هذا يقول العلامة « بلنتشلى » : « متى استبدل المرء لغـة جديدة بلغته خسر قوميته » •

وفى المنقول عن العلامة « بلنتشلى » : يقول « ساطع الحصرى » :
« ان وحدة اللغة هى أهم وأمتن الروابط التى تربط الأفـراد بعضهم ببعض — وهى أفضل العوامل التى تؤثر فى تكوين شخصيات الأمم » •

وهناك من يخالف هذا الرأى القائل بأن اللغة من عوامل الوحـدة فى الأمة •

ومن هؤلاء « أنطون سعادة » مؤسس الحزب القومى السورى ••
ثم قال الأستاذ « عبد الحى نصار » :

كانت اللغة العربية ولا تزال أعظم العوامل الفعالة فى توحيـد العـرب .

ويقول المعارضون : ان لغة الشعوب العربية غير واحدة — يعنون تباين اللهجات — ولكن هناك فرق واضح بين اللغة واللهجة .

فاللغة الفصحى واحدة فى الدول العربية كافة .

أما اللهجة العربية فتختلف من دولة الى أخرى كما تختلف داخل الدولة الواحدة .

وهذا الاختلاف فى اللهجة موجود فى لغات الأمم جميعا بدرجة لا تزيد عنها الأمة العربية .

وفوق ذلك نجد أن اللغة الفصحى هى الرابطة الحية للعرب — وهى اللغة المستخدمة فى المدارس والصحافة والاذاعه ودور الحكومة .. الخ ،

واللغة العربية هى لسان الاسلام ، وقد ظهرت كاملة فى القرآن الكريم الذى حفظها وأحياها .

وهى — كما قال « رينان » فى « تاريخ اللغات السامية » — : لغة على غاية رفيعة من الكمال ، سلسة ، غنية .

ويقال : ان العرب قبل الاسلام كانوا يتكلمون لغـة مشتركة فى الجزيرة العربية وفى أرض الهلال الخصيب .

بل ان ابراهيم عليه السلام كان يتكلم العربية .

وليس معنى هذا أنه كان يتكلم العربية السائدة اليوم . وانما اللغة العربية المقصودة هى لغة الأقوام التى كانت تعيش فى شبه الجـزيرة العربية وتهاجر منها واليها فى تلك الحقبة .

وقد كانت لغة واحدة من اليمن الى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء .

لقد أفضنا فى الاستشهاد لما نريد ، بغية افهام القاصرين أن اضعاف العربية تهديد للاسـلام ، تهديد باجتثاث أصـوله ومحاولة متعمدة للخلاص منه .

ولأمر ما قام « الجامع الأزهر » ، وقامت جميع المدارس الاسلامية بتدريس اللغة الى جانب الشريعة ، واحياء قواعدها الى جوار قواعده .

فلنحذر الخبثاء من أعداء الاسلام ، ولنحذر معهم المغفلين الذين ينجرفون فى تيارهم ، ويخدمون — عن غباء — أغراضهم .

ونعود الى موضوعنا .

ان أمتنا لم تكن ذنباً لاحدى « الامبراطوريات » فى التاريخ .

ولن تكون ذنباً لاحدى الجبهات القائمة الآن فى العالم .

ان أمتنا أمة ذات رسالة لا يجوز أن تتخلى عنها ، ولا أن تجهل قيمتها ، ولا أن تتقهقر عن حملها .

وهذه الرسالة تثمر الخير لأصحابها ، وللناس طرا . انها رسالة الحق والسلم والعدالة .

ان الاسلام يوطد مكان الانسان فى الأرض ، اذ يحسن صلته بالسماء .

وهو اذ يعد بالآجلة ، فلكى يصلح هذه الدار العاجلة ، ويضمن ما بعدها .

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين »(٣١) .

واذا كانت حاجة العالم الى ارشادات ربه لا تنقضى ، فان بقاء أمتنا وبقاء رسالتها معها ضرورة انسانية ملحة .

ومن ثم ، وجب أن تدور جميع أجهزتنا العاملة لتحقق هذه الغاية .

ولنمض قدما فى تلك السبيل ، سبيل الاسلام الحنيف ، ودعوته الجليلة .

***

---

(٣١) القصص : ٨٣ .

● من لم تبلغهم الدعوة :

ما حكم أولئك الذين لم تبلغهم دعوة الاسلام ؟ ؟

انه لخليق بنا قبل التعرض للجواب على هذا السؤال أن نسأل نحن أنفسنا :

ما حكم الذين لم يبلغوا دعوة الاسلام ؟

ان الدعاء الى الاسلام ليس نداء الى حلقة مزاد أو حفل ترفيه ، أو مبارة رياضية ...

ليس نداء الى نافلة يأتيها من شاء ويدعها من شاء ، وهو من قبل ومن بعد مطمئن الى ما عنده ، مستكمل العدة لمواجهة مستقبله ، شاعر بأن شيئا مهما لا ينقصه .

كلا . كلا .. ان الدعوة الى الاسلام ارشاد الى أنفس حق فى الوجود وتوجيه الى خير الدنيا والآخرة معا ، وانقاذ من أسباب الهلاك التى تتهدد المرء فى عاجلته وترتقبه فى آجلته ، ان الدعوة الى الاسلام تمكين للأمم من معرفة سبيل تكتنفها الهدايات والرحمات ، وتمتلىء بآثار السابقين ، ويتحصن الناس فيها من اغواء الشياطين ، **« ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »**(٣٢) .

ومن ثم فان الذين يقدرون على اسداء هذا الصنيع للعالم ثم يضنون به ، والذين يستطيعون رفع هذا المنار ثم يحجبون أشعته عن الحائرين والمستبصرين ، هم عند الله أشد الناس جرما ، وأحقهم بالبوار .

« ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم »(٣٣) .

« ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »(٣٤) .

---

(٣٢) الروم : ٣٠ .

(٣٣) البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٣٤) البقرة : ١٧٤ .

والآية الأخيرة شرحت بعض أسباب الكتمان ، وحجب الحق عن الأنظار .

وهو حب الدنيا ، وتشهى لذاذاتها .

وايثار الراحة فى ظل الصمت عن الجهد فى ظل المصارحة واظهار حكم الله ..

والواقع أن كل مسلم مطالب بالايمان ، وبحراسته ضد العدوان ، وبترغيب الناس فيه بالعمل وباللسان ..

ومطالب كذلك بكره الباطل وعداوة ما يستوى العامة والخاصة فى ادراك قبحه كالزنا والربا والكذب والبذاء .

وهذا هو محور الركن الركين فى الاسلام ، ركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما ما دق عن أنظار الجمهور من أمور الخلاف وضروب الجدل فهو متروك لأهل الذكر ، يتناولونه بما لديهم من سعة فى العلم ، واحاطة بفروعة ..

غير أن أمر الدعوة هان لدى المسلمين — خصوصا فى فترات الانكسار من تاريخهم — .

فاضطرب ميزان الخير والشر ، ثم استفحل الخطر فأمسى الضلال يركض فى كل ناحية لا يجد عائقا ولا ساخطا .

وبذلك ركدت ريح الدعوة الى الله ، وكادت معالمها تضمحل فى سطوة الفساد . الحقيقة المرة أن أمة الدعوة الى الله فرطت فى جنب الله ، ولم تخلف رسولها العظيم فى طبيعة الاشعاع والاسعاد التى اقترنت ببعثته ، والتى جعلت منه ﷺ صبحا يجتاح الظلمات بجيش من السنا لا آخر له ...

ونتساءل بعد ذلك : ما حكم الذين شردوا عن ذلك الصراط المستقيم ، وضلوا عن هذا الدين الكريم .. ؟

ما حكم أولئك الذين لم تبلغهم دعوة محمد ﷺ ، وان بلغتهم فهى مستكرهة لا تغرى بايمان ، ولا تفسح صدراً لاسلام ؟ ؟

ان هؤلاء كثير ، ففى العالم اليوم ما يزيد على ألفى مليون انسان .
كم تظن عدد المنتسبين الى الاسلام بينهم ؟ قرابة خمسمائة مليون .
أما البقية الضخمة ففيها ألف مليون « وثنى » و « شيوعى » لا صلة لهم بالسماء ، ولا يتبعون أحداً من الأنبياء .

وهناك نحو خمسمائة مليون « نصرانى » يخلطون فى عقائدهم بين التوحيد والشرك .

وتصرفهم فى أنحاء الأرض فلسفات خلقية ومذاهب تشريعية لا يضبطها ايمان سليم . بل لا يمكن حساب أصحابها بين المتدينين الا على تجوز بالغ .

والمسلمون المنضوون تحت علم النبوة الأخيرة ، فيهم جماهير ترث الاسلام اسماً فحسب . وتتبع فى حياتها ما بثه الأوروبيون من أنظمة وقوانين موضوعة .

أغلبها من املاء الهوى ، واتباع الشيطان ...

ونحن عندما نبحث أحوال الأمم الكثيفة التى لم تدخل الاسلام ، ونفكر فى مصيرها عند الله ، لابد أن نضع نصب أعيننا الحقائق التالية :

١ — ان هناك ألوفاً مؤلفة تعتبر فى حكم من لم تبلغه الدعوة أصلا وان مرت على بعثة الرسول صاحب الدعوة أربعة عشر قرناً .

فهى اما أن تجهل كل شىء عن محمد ﷺ . وقرآنه وسائر تعاليمه .

واما أن تعلم من ذلك مفتريات روجها أعداء الاسلام وحشوها بما فى أدمغتهم من أكاذيب .

ولعلها معذورة فى صدودها عن ذلك الدين لأنها لم تتلق الحق من أصحابه ، ولم تسمع لهم قيلا .

وهؤلاء يشبهون أهل الفترة من العرب الذين سبقوا البعثة ، وقد يقال فيهم : **« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »**(٣٥) .

غير أنه ينضاف الى ما سبق شىء آخر ، وهو أن الله زود الانسان بعقل يحسن به التفكير والحكم والنقد والرد .

---

(٣٥) الاسراء : ١٥ .

وجعل فى طاقة هــذا العقل أن يتعرف على الخالق ، وأن يطمئن الى وحدانيته •

كما زود الانسان بقلب يعرف به الخير والشر ، ويرضى به العدل ويسخط به الظلم •

وبهذه الخصائص الانسانية يكلف الانسان — ولو لم يأته نبى — أن يبتعد عن الالحاد والشرك ، وأن ينفر من الظلم ، والفساد •••

وربما لم يطالب بجملة العبادات التى بينها المرسلون •

لكنه مكلف بأركان الحقيقة العظمى فى حياة البشر ، وهى اليقين فى اله واحد وفعل الخير جهد الاستطاعة •• قال تعالى :

« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هــذا غافلين • أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون »(٣٦) •

وهــذا الميثاق لا يعنى الا الفطرة التى ركزها الله فى الأنفس ، ورد أعذار الغافلين عن ندائها ، المقلدين لآبائهم فى الضلال برغم اقامتها ، وامكان استجابتها •

ولــما كان الناس متفاوتين فى يقظتهم النفسية والفكرية ، ومدى استعدادهم الذى جبلوا عليه ، فان حسابهم على ما قدموا موكول الى بارئهم وحــده •

وهو — جل شــأنه — الذى يقــدر تفريطهم بحسب ما آتاهم و **« لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها »**(٣٧) •

٢ — وهناك أقوام على مواريث من ديانتى « موسى » و « عيسى » كبعض الموحدين من اليهود والنصارى الذين قام لديهم من الثقة ما جعلهم يعتقدون أنهم محقون ، وأنهم يؤدون ما يرضى رب العالمين •

---

(٣٦) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ •   (٣٧) الطلاق : ٧ •

وقامت كذلك على بصائرهم حجب جهلتهم بالقرآن ، وحرمتهم من نوره ..

وحكمهم اذا آمنوا بالله على نحــو صحيح وعملوا الصالحات ، فى حــدود ما يعرفون أنهم لا يعذبون ، ما لم يشب ايمانهم تثليث أو تجسيم ، أو حلول ، أو اتحاد .

وذلك كثير من مفكرى الشرق والغرب ، يؤمنون باله واحد منزه ، ويتقربون اليه بسلامة الضمير واحسان العمل .

بيد أنهم لا يعرفون « محمداً » ﷺ ، لأن أحداً لم يعرفهم به ، أو يشرح لهم أصول دينه .. وهم يرون المرســلين جميعاً — وبينهم « عيسى ابن مريم » — رجالا طيبين يستحقون الاجلال والشكر لما قدموا من خير للناس .

وما تقول فى فيلسوف أوروبى ، يشرح له طرف من الاسلام ، فيقول : اذا كان هذا هو الاسلام فنحن جميعاً مسلمون ؟ .

ان الكفر الحقيقى أن يعرض الحق على رجل ، فيستبينه ويتمكن من اعتناقه . ومع ذلك يعرض عنه لمــآرب أخرى ...

ومع تيقننا من أن الاسلام الصحيح ، ليس له باب الا هذا الرسول الكريم ، محمد بن عبد الله ﷺ ، فنحن ننظر الى المحرومين من اتباعه فى نطاق الانصاف ، الذى تعلمناه من رسالته ﷺ .

ومن الخير أن نذكر هنا شرحاً وافياً للموضوع كله للامامين ، الشيخ « محمد عبده » والشيخ « محمد رشيد رضا » فى أثناء تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٣٨) .

قال صاحب المنار : أحاط القضاء فى الآية السابقة باليهود ، فلم يدع

---

(٣٨) البقرة : ٦٢ .

منهم حاضراً ولا غائباً فألزم الذل باطنهم ، وكسا بالمسكنة ظاهرهم ، وبوأهم غضبه ، وجعل أرواحهم مساقط نقمه .

فذلك الله الذي يقول : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله »(٣٩) .

سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات الله وانصراف عن العبرة ، واستعصاء على الموعظة ، وخروج عن حدود الشريعة ، واعتداء على أحكامها .

اقترف ذلك سلفهم ، وتبعهم عليه خلفهم ، فحقت عليهم كلمة ربك .

فلو قر الخطاب عندها ، ولم يتلها من رحمته ما بعدها ، لحق على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس ، وأن لا يبقى عنده للأمل في عفو الله متنفس .

بل كان ذلك القنوط لازماً لكل عاص قابلا على نفس كل معتد .

لا فرق بين اليهود وغيرهم .

فان سبب ما نزل باليهود انما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع الله لهم .

وسنن الله في خلقه لا تتغير ، وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل .

لهذا جاء قوله تعالى : « ان الذين آمنوا » الخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة .

وانما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمناً لجميع من تمسك بهدى نبي سابق وانتسب الى شريعة سماوية ماضية ليدل على أن الجزاء السابق وان حكى على أنه من خطأ اليهود خاصة ، لم يصبهم الا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة وهي الفسوق عن أوامر الله وانتهاك حرماته .

فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم .

وليدل على أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم

---

(٣٩) البقرة : ٦١ .

على أنهم من شعب اسرائيل أو من ملة يهود ، بل « **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** »(٤٠) .

وأما أنساب الشعوب ، وما تدين به من دين ، وما تتخذه من ملة ، فكل ذلك لا أثر له فى رضاء الله ولا غضبه ، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم .

بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، انما هو صدق الايمان بالله تعالى بأن يكون التصديق به سطوعاً على النفس من مشرق البرهان ، أو جيشاناً فى القلب من عين الوجدان ، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خالياً من شوب التشبيه والتمثيل ، ويكون اليقين فى نسبة الأفعال اليه خالصاً من وساوس الوهم والتخييل ، ويكون المؤمن قد ارتقى بايمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الالهى .

فاذا رفع بصره الى الجنــاب الأرفع أغضى هيبــة وأطرق الى العبودية خشوعاً .

واذا أطلق نظره فيما بين يديه ، مما سلطه الله عليه ، شعر فى نفسه عزة بالله ، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه .

لا يعدو حداً ضرب له ، ولا يقف دون غاية قدر له أن يصل اليها .

فيكون عبداً لله وحده ، سيداً لكل شىء بعده .

كتب ما تقدم الأستاذ الامام بقلمه اذ اقترحت أن يكتب تفسير الآية كما قرره فى درسه واننى أتمه على المنهج الذى جريت عليه فأقول :

هذا هو الايمان المرضى عند الله تعالى الذى يكون أصلا لتهذيب أخلاق صاحبه ، ومصدراً للأعمال الحسنة فى مسلكه .

وللايمان اطلاق آخر وهو التصديق بالدين فى الجملة — أى الايمان بالله : وبأن ما جاء به فلان النبى مثــلا هو صحيح غير مكذوب على الله تعالى — .

---

(٤٠) البقرة : ٦١ .

ويدخل فيه أهل الفرق الضالة من كل دين من الأديان السماوية .

فهو اطلاق صحيح لغة وعرفاً ، كما تقدم فى تفسير قوله تعالى :

« ومن النــاس من يقــول آمنا بالله وباليــوم الآخر وما هــم بمؤمنين » (٤١) .

أى أنهم يصدقون بأن للعالم الهاً ، وبأن بعد الموت بعثاً ، ولكن هذا الايمان ليس مطابقاً فى تفصيله للحق المقبول ، ولا للاذعان الذى له السلطان الأعلى على النفوس فى تزكيتها وتهذيبها وحملها على الأعمال الصالحة .

وهذا الاطلاق هو الذى عناه الأستاذ الامام بقوله : لا أثر له فى رضاء الله ولا غضبه .. الخ .

وهو كون الدين جنسية لمن ينتسب اليه .

فقوله تعالى : **« ان الذين آمنوا »** (٤٢) مراد به المسلمون الذين اتبعوا محمداً ﷺ والذين سيتبعونه الى يوم القيامة ، وكانوا يسمون « المؤمنين » و « الذين آمنوا » .

وقوله : **« والذين هادوا والنصارى والصابئين »** (٤٢) يراد به هذه الفرق من الناس التى عرفت بهذه الأسماء أو الألقاب من الذين اتبعوا الأنبياء السابقين ، وأطلق على بعضهم لفظ « يهود » والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ « النصارى » ، وعلى بعضهم لفظ « الصابئين » .

« من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا » (٤٢) وهذا بدل مما قبله ، أى من آمن منهم بالله ايماناً صحيحاً — وتقدم شرحه ووصفه آنفا — وآمن باليوم الآخر كذلك ، وقد تقدم تفسيرهما فى أوائل السورة (٤٣) .

وعمل عملا صالحاً تصلح به نفسه وشئونه مع من يعيش معه .

وما العمل الصالح بمجهول فى عرف هؤلاء الأقوام ، وقد بينته كتبهم أتم بيان .

---

(٤١) البقرة : ٨ .
(٤٢) البقرة : ٦٢ .
(٤٣) انظر تفسير المنار .

« فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٤٤) .

أى أن حكم الله العادل فيهم سواء ، وهو يعاملهم بسنة واحدة لا يحابى فيها فريقاً ولا يظلم فريقاً .

وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسولهم ، ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم ، ولا هم يحزنون على شىء فاتهم .

وتقدم هذا التعبير فى الآية (٣٨) مع تفسيره (٤٥) .

فالآية بيان لسنة الله تعالى فى معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت ، فهو على حد قوله تعالى : **« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً »** (٤٦) .

فظهر بذلك أنه لا اشكال فى حمل **« من آمن بالله واليوم الآخر»** .. الخ على قوله **« ان الذين آمنوا ... »** الخ .

ولا اشكال فى عدم اشتراط الايمان بالنبى ﷺ .

لأن الكلام فى معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبى ووحى بخصوصها ، الظانة أن فوزها فى الآخرة كائن لا محالة ، لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلا .

فالله يقول : ان الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية ، وانما يكون بايمان صحيح له سلطان على النفس . وعمل يصلح به حال الناس .

ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسب أمانى المسلمين أو أمانى أهل الكتاب ، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الايمان الصحيح .

---

(٤٤) البقرة : ٦٢ .
(٤٥) انظر تفسير المنار .
(٤٦) النساء : ١٢٣ ، ١٢٤ .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود المسلمين : نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين ابراهيم ولن يدخل الجنة الا من كان هوداً .

وقالت النصارى مثل ذلك .

فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ، ونبينا — ﷺ — بعد نبيكم ، وديننا بعد دينكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين ابراهيم واسماعيل واسحاق ، ولن يدخل الجنة الا من كان على ديننا ، فأنزل الله تعالى : ((**ليس بأمانيكم**)) الآية .

وروى نحوه عن مسروق وقتادة .

وأخرج البخارى فى التاريخ من حديث أنس مرفوعاً :

« ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، ان قوماً ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

والحكمة فى عناية الله تعالى بالنعى على المغترين بالانتساب الى الدين أياً كان ظاهره ، فان هذا الغرور هو الذى صرفهم عن العمل به اكتفاء بالانتساب اليه وجعله جنسية فقط .

وترك العمل لازم أو ملزوم ، لعدم الفقه فى الدين أى عدم فهم حكمه وأسراره .

وتبع هذا فى الأمم السابقة ترك النظر فيما جاء به النبى ﷺ ، لأن المغرور بما هو فيه لا ينظر فيما سواه نظراً صحيحاً لا سيما اذا كان مخالفاً له .

ذكر الأستاذ الامام فى تفسير هذه الآية مسألة أهل الفترة والخلاف المشهور فيها : وهو أن جمهور أهل السنة يقول : انهم ناجون ، لأنه لا تكليف الا بشرع ، وهؤلاء لم تبلغهم دعوة .

ومن قال ان بالعقل يدرك الواجب والمحرم والاعتقاد الصحيح والباطل عدهم غير ناجين ، وهذا رأى المعتزلة وجماعة من الحنفية .

وجمهور الأشاعرة على أنه لا يمكن ادراك ذلك الا بالشرع .

ثم ان محل النظر فى أهل الفترة من كان منهم كالعرب الذين ما كانوا يعتقدون نبوة أنبياء ولا يجدون لديهم شيئاً من أحكام دينهم خالصاً من الشوائب سالماً من النزعات الفاسدة .

وأما مثل اليهود فلا يصح أن يسموا أهل فترة ، فانهم على نسيانهم حظاً مما ذكروا به ، وتحريفهم بعض ما حفظوا ، قد بقى جوهر دينهم معروفاً لم يغش أحكامه ما يمنع الاهتداء بها .

والله تعالى يقول : « وعندهم التوراة فيها حكم الله » (٤٧) .

وكذلك المسيحيون لا يسمون أهل فترة ، لأن عندهم فى الانجيل ووصايا الأنبياء ما عند اليهود وزيادة مما حفظوا من وصايا المسيح ، وروح الدعوة موجود عندهم .

ولكنهم لا يعملون بهذه الوصايا . ولا يأخذون بتلك الأحكام . ولا عذر لهم يحول دون العقوبة .

وأما الصابئين فان كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما فى كثير من التقاليد كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد . فالأمر ظاهر أن حكمهم كحكمهم ، وان كان الخلط عندهم أكثر ، والبعد عن الأصل أشد » .

حتى أنهم اعتقدوا تأثير الكواكب ، وأحاطت بهم البدع من كل جانب .

على أنهم أقرب الى روح المسيحية من النصارى .

فان عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة تؤثر عن المسيح عليه السلام .

والنصارى صاروا أشد أمم الأرض عتواً وطمعاً واسرافاً فى حظوظ الدنيا ويقال : ان الصابئة ملة مستقلة يؤمنون بكثير من الأنبياء المعروفين .

---

(٤٧) المائدة : ٤٣ .

ولكن قد اختلط عليهم الأمر ، كما اختلط على الحنفاء من العرب ، الا أن عندهم من التقاليد والأحكام ما لم يكن عند العرب .

فان كانوا أقرب اليهم ، فلهم حكمهم ، والا فهم كاليهود والنصارى يسئلون عن العمل بدينهم بعد فهمه كما يجب ، حتى يأتيهم هدى آخر ، كأن تبلغهم دعوة الاسلام ، فان لم يفعلوا فهم مؤاخذون .

ذاك ، وقد علمنا أن أهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة صحيحة تحرك الى النظر ، أو بلغوهم أن بعض الأنبياء بعثوا ولكن لم يصل اليهم شئ صحيح من شرائعهم ، فهم يؤمنون بهم ايماناً اجمالياً كالحنفاء من العرب الذين كانوا يؤمنون بابراهيم واسماعيل ، ولا يعرفون من دينهم شيئاً خالصاً كما تقدم آنفا .

وحجة الأشاعرة على عدم مؤاخذتهم آيات كقوله تعالى :

« **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** » (٤٨) .

وقوله : « **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** »(٤٩) .

وذهب كثير منهم الى الاكتفاء ببلوغ دعوة أى نبى فى ركنى الدين الركينين ، وهما الايمان بالله وباليوم الآخر .

فمن بلغته وجب عليه الايمان بهذين الأصلين ، وان لم يكن النبى مرسلا اليهم .

وذهب جمهور الحنفية ، وكذلك المعتزلة الى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل ، فلا تتوقف المؤاخذة عليها على بلوغ دعوة رسول ، وانما يجئ الرسل مؤكدين لما يفهم العقل ، موضحين له أو مبينين أموراً لا يستقل بادراكها ، كأحوال الآخرة وكيفيات العبادة التى ترضى الله تعالى :

وأولوا آية : « **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** » (٥٠) . .

قالوا : ان المراد بالتعذيب هو الاستئصال فى الدنيا بافناء الأمة أو استذلالها ، والذهاب باستقلالها ، وينافيه ما يدل عليه استعمال

---

(٤٨) الاسراء : ١٥ .

(٤٩) النساء : ١٦٥ .

(٥٠) الاسراء : ١٥ .

« **وما كنا** » من ارادة نفى الشأن الدال على عموم السلب ، ولهم فى كتبهم أدلة ومناقشات ليس هذا من مواضعها .

وعن الامام الغزالى : أن الناس فى شأن بعثة النبى ﷺ أصناف ثلاثة من لم يعلم بها بالمرة — أى كأهل أمريكا لذلك العهد — وهؤلاء ناجون حتماً .

« أى ان لم تكن بلغتهم دعوة أخرى صحيحة » .

ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها اهمالا أو عناداً أو استكباراً ، وهؤلاء مؤاخذون حتماً .

ومن بلغته على غير وجهها أو مع فقد شرطها . وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر ، وهؤلاء فى معنى الصنف الأول .

هذا معنى عبارته المطابقة لأصول الكلام .

وأقول : عبارته فى كتاب « فيصل التفرقة » فى هذا الصنف هى :

وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذاباً مدلساً اسمه محمد ، ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع — لعنه الله — تحدى النبوة كاذباً .

فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول .

فان أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه ، لم يسمعوا ضد أوصافه .

وهؤلاء سمعوا أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب .

وأقول فى حل معنى الآية على هذا : ان أهل الأديان الالهية — وهم الذين بلغتهم دعوة نبى على وجهها وبشرطها — اذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذى بينه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجون مأجورون عند الله تعالى .

واذا آمنوا على غير الوجه الصحيح كالمشبهة والحلولية والاتحادية وغيرهم فلا ينالهم من هذا الوعد شىء ، بل يتناولهم الوعيد المذكور فى الآيات الأخرى

وكذلك حال الذين يؤمنون بأقوالهم دون أعمالهم .

فان الايمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والارادة التى تحرك الأعضاء فى الأعمال .

فان نازعه فى سلطانه طائف من الشهوة فانه لا يلبث أن يقهره

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » (٥١) .

ثم أزيد الآن على ما تقدم أن كل هذه الأقوال والتفصيلات انما هى فى المؤاخذة على اتباع دعوة الرسل وعدمها .

ولا يعقل أن يكون من لم تبلغهم الدعوة بشرطها ، أو مطلقا ، ناجين على سواء وأن يكونوا كلهم فى الجنة كأتباع الرسل فى الايمان الصحيح والعمل الصالح .

اذ لو صح هذا لكان بعث الرسل شراً من عدمه ، بالنسبة الى أكثر الناس .

والمعقول الموافق للنصوص أن الله تعالى يحاسب هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة ما بحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما .

* * *

ويظهر أن بعض القارئين فهم من كلام الامامين ، الشيخ « محمد عبده » ، والشيخ « رشيد رضا » أنهما يصححان ايمان أهل الكتاب ويحكمان لهما بالنجاة على الاطلاق وهذا غلط بعيد ، ما كان ينبغى أن يسبق الى ذهن رشيد ...

فالكلام الذى نقلناه يعطى بعض اعتبار لأناس لم تبلغهم الدعوة على وجه صحيح ، أما الذين وصلتهم رسالة محمد ﷺ ، وتمكنوا من ادراكها على نحو مستقيم ثم انصرفوا عنها دون تصديق لها واذعان . فهيهات أن يسلكوا فى عداد المهتدين الناجين .

---

(٥١) الاعراف : ٢٠١ .

ولكى يحكم على اليهودى أو النصرانى بأنه مؤمن حقاً يجب أن ينضم الى ايمانه بكتابه ايمان بالذى أنزل على محمد ﷺ ، وذلك كما قال الله : « **وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، ان الله سريع الحساب** » (٥٢) •

فاذا اختلفت بين هذه الكتب عقائد ومبادىء ، كان حكم القرآن أرجح ، وهداه أولى بالاتباع •

ولا يصح — مع تكذيب محمد ﷺ — ايمان بالله ولا عمل صالح •

فان معرفة الله كما صورها موسى وعيسى عليهما السلام ، وكما يليق بجلال الله وكما تتنزه عن الأوهام والأخطاء ، لا طريق لها الا القرآن الكريم •

أى أن التجسيم والشرك والاتحاد وغير ذلك تتنافى مع صحة اليقين ، ولا يصح مع وجودها ايمان •

ثم ان المؤمن الخالص ، العارف بربه معرفة صحيحة لا يتصور فيه أن يكفر بمحمد ﷺ !!! •

اذ كيف يكفر به ، وايمانه مساو لما عند هذا الرسول الكريم ؟ ومصدق لما جاء به ؟ •

ثم هل يعد تكذيب المصلحين عملا صالحاً ؟ •

ان من المستحيل الحكم بالخير لرجل من أهل الكتاب يكذب محمداً ﷺ بعد ما علم أن الرسول حق وجاءته البينات •

وانما نحن نلتمس العذر — كما أوضحنا — لمن حرموا نعمة التبليغ •

ذلك ••• والقرآن اذا أثنى على أهل الكتاب فهو لا يسوق هذا الثناء عاماً ، بل يخص منهم أولئك الذين صدقوا رسوله الخاتم ، وقبلوا ما جاء به •

واسمع مديحه للنصارى ، وتنويهه بما فى أفئدتهم من رحمة •••

---

(٥٢) آل عمران : ١٩٩ •

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » (٥٣) .

فمن هؤلاء النصارى ؟ وما موقفهم من الرسول وقرآنه **« .. واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين »** (٥٤) .

هؤلاء هم الذين يسلكون فى عداد المؤمنين .

أما المكذبون لمحمد ، المناوئون لرسالته ، المخاصمون لأمته ، فهيهات هيهات .

والقارىء يستبين مما تمهد أن الناس ثلاثة نفر :

مؤمن ، وكافر ، وجاهل .

فالمؤمن هو الذى آمن بالله وحده وصدق بجميع أنبيائه ، وأسلم وجهه لله وهو محسن ، مستهدياً فى طريقه الى ربه بأنوار الوحى الذى تنزل من عند الله على رسول العالمين ، الجامع لما تفرق من حكمة بين الأنبياء السابقين ، وهو « محمد بن عبد الله » ﷺ .

ونحن نجزم بأن هذا المؤمن ناج لأن الله أخبرنا بذلك فقال :

« أن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار .. » (٥٥) .

والكافر هو الذى عرضت عليه هذه الحقيقة عرضاً لا يشوبه لبس ، ولا يخالطه تحريف ولا تشويه ، فعقلها كما جاءت من عند الله ، ومع ذلك آثر جحدها . واختار انكارها ، ورفض الاذعان لها ، مع استطاعته أن يهدى قلبه ، ويرضى ربه .

---

(٥٣) المائدة : ٨٢ .

(٥٤) المائدة : ٨٣ ، ٨٤ .

(٥٥) الحج : ١٤ .

فذلك كافر نجزم بأنه هالك بائر .

« **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** » (٥٦) .

« **ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** » (٥٧) .

« **ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور** » (٥٨) .

وتاريخ الأمم التى دمر الله عليها — كما يحكيه لنا القرآن الكريم — هو تاريخ أقوام بلغتهم الدعوة جلية نقية ، فكذبوا المرسلين ، على طول ما وعظتهم وكثرة ما نصحتهم .

فلما لم يبق لهم عذر ، ولم تتصل لهم حجة نزل بهم العقاب .

« **أنا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى** » (٥٩) .

« **تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين** » (٦٠) .

« **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** » (٦١) .

« **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ، أليس فى جهنم مثوى للكافرين** » (٦٢)

---

(٥٦) محمد : ٢٨ .
(٥٧) الزمر : ٧١ ، ٧٢ .
(٥٨) الحديد : ١٤ .
(٥٩) طه : ٤٨ .
(٦٠) الاعراف : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٦١) البقرة : ٧٥ .
(٦٢) العنكبوت : ٦٨ .

أما الجاهل ، فهو رجل لم تبلغ دعوة الحق مسامعه ليستجيب لها أو يرتد عنها .

فهو يعيش حسب ما قيض له من أفكار ، أو ما ارتبط به من وراثات .

ونحن اذا تأملنا فى هذا الصنف من الناس نجدهم أقساما شتى ، بين رعاع وخاصة ، وبين أذكياء وهمل ، وبين كتابيين ، ووثنيين .. الخ .

واصدار حكم جامع ، أو ايضاح مصير مشترك ، يضم أولئك جميعا أمر عسير .

ففيهم من يسرت له بقايا وحى صالح ، فهو يعمل بها مخلصا ، ولو عرف غيرها لسارع اليه .

وفيهم من نضج فيه كمال الفطرة فهو يحترم العقل ، ويرعى الحقوق ، ويتجنب الدنايا .

وفيهم الغفل الذى يعطى قياده من امتلكه ويسير خلف غيره لأنه لا يحسن الا التقليد .

وفيهم الذى يسخر بجزء من الدين ويستعد للسخرية من سائر أجزائه اذا عرضت عليه .

وفيهم من ينكر علم الغيب جملة وتفصيلا ، ويقر بعالم الشهادة وحده .

وفيهم من يملك قدرة البحث والتنقيب ولكنه يعطلها تكاسلا .. الخ .

ومن ثم قلنا : ان هؤلاء الذين لم توقظهم من غفواتهم النفسية والعقلية دعوة الاسلام لايعدون كفارا بها .

كيف وهم لم يوصل لهم القول ، كى يدخلوا فى نطاق الآيه « **ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** » (٦٣) .

وأغلب الظن أن وزر هؤلاء يقع على الأمة الاسلامية ، الأمة التى فرطت فى رسالتها وتنكرت لمواريثها ، وحرمت العالم من النور الذى شرفها الله به .

(٦٣) القصص : ٥١

انظر الى قوله تعالى : ((**وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون**)) (٦٤) .

هذه الآية تبين حكم الله فيمن يجهل دينه .

فانه لما احتدم النزاع بين الاسلام الواضح الوفى المسالم ، وبين ناكثى العهود وبغاة السوء من خصومه المتربصين به ، وشاء الله عز وجل أن ينزل هؤلاء على قواعد الأدب الصارم ، وأن يلغى المعاهدات التى طالما عبثوا بها .. لم يجعل العقاب يتناول الجميع .

ففيهم ناس خالوا الذهن من العوام ، و من المخدوعين المغرر بهم . أو الجهال بحقيقة الدعوة وان بلغهم شىء عنها .

الواحد من هؤلاء يجب أن يسمع كلام الله كما نزل من عنده ، دون تحريف ولا تزيد ولا نقص .

فاذا وعاه ، لم نكلفه فورا بالايمان .

بل يجب أن نوصله الى المكان الذى يملك فيه جأشه ، ويطمئن فيه على نفسه وحرماته ، ويبنى حكمه على ما يعرض عليه وهو فى حرية وعافية ...

ذلك أن هذا وأمثاله معذورون فى بعدهم عن الاسلام ((**ذلك بأنهم قوم لا يعلمون**)) .

فان آمن بعد هذه الفرص المتاحة ، فهو منا .

وان كفر ، واعتزل تركناه .

وان كفر واعتدى قاتلناه .

اننا لا نشترى خصومة من يجهلنا .

ولا نعتبر علينا من ينأى بكفره عنا .

***

وقد يفيد فى بيان ما قلنا عن الذين لم تبلغهم الدعوة أن نثبت هنا (٦٥) كلاما حسنا للدكتور ((عبد الحليم محمود)) من رسالته : ((أوروبا والاسلام)) قال :

---

(٦٤) التوبة : ٦ .

(٦٥) نقلناه بتصرف يسير .

ما الذى يمنع الغربيين من الدخول فى الاسلام زرافات ووحدانا ؟ ان الاسلام واضح جلى وان تعاليمه سهلة ميسورة تنسجم مع العقل والمنطق .

فما السر فى عدم أخذ الأوروبيين بهذا الدين وعدم اعتناقهم له فى سرعة بالغة وفى كثرة هائلة ؟ ؟

الواقع أن العوامل التى تمنع الأوروبيين من اعتناق الاسلام كثيرة قـوية .

ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع الى المسلمين أنفسهم .
ولنتحدث أولا عن العوامل الخارجية ..
١ — أول هذه العوامل « الكنيسة » .
لقـد أتقنت الكنيسـة فن التنظيـم ، فلا ارتجال فيهـا لخطة ولا اضطراب لسياسة .

كل شئ فيها معد مرتب مدروس ، بحث عن روية وأعد اعـدادا تاما ...

وكان مما أعدته مشروعان كبيران :
أحدهما : للتبشير بين أتباع الأديان الأخرى .

والثانى : لصد الهجوم عن الديانة المسيحية نفسـها من مختلف النقاد ، حتى يقنع بها أتباعها .

أما فيما يتعلق بالتبشير ، فان من الضرورات الأولى لديهم أن يعرف المبعوث لغة المرسل اليهم ، وأن يدرس عاداتهم ، وتقاليدهم ، وديانتهم ، ومواطن الضعف فيهم ، والوسائل التى تجذبهم ، وأن يعلم — فضلا عن ذلك — بعض مبادئ الطب والخدمات العامة ، ويعلم قبل ذلك وبعـده طريقة الهجوم على الديانة المتوطنة ، وأسلوب الدعوة للديانة المسيحية .

وأما صد الهجوم على المسيحية فيقوم على شئ خطـير يعنينا — نحن المسلمين — أن نعرفه ، وهو الدراسة المستمرة المتجددة لأحدث الوسائل فى تشويه الديانات الأخرى .

وقد برعوا فى نشر الأضاليل عن كل دين حتى تتكون لدى الجمهور المسيحى فكرة أنه لا حقيقة لايمان ما وراء ما تقدمه الكنيسة لرواده .

وما نشر من أضاليلهم عن الاسلام لا يحصر ولا يعد .

انها أضاليل تنشر متتابعة متكررة ، وتتردد فى صور مختلفة ، وينتهى بها التكرار والترديد الى ظنها حقيقة لاشك فيها .

وتبلغ بهم الصفاقة أن يعكسوا الحقائق عكسا تاما .

فالدين الاسلامى مثلا — وهو دين التوحيد الخالص ودين التنزيه التام — يشيعون عنه أنه دين عبادة الأوثان .

ويكررون ذلك فى مختلف الأمكنة والأزمنة ، وينتهى المسيحيون أنفسهم الى الاعتقاد بأن هذا الدين انما هو : عبادة الأوثان .

وهكذا تسير الدعاية تضليلا ، وتشويها ، وعكسا للحقائق .

ومن أهم الوسائل أيضا لتحصين المسيحية ما يسمونه نظام الحرمان .

وهو نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرم قراءة أى كتاب ترى فيه خطراً على المسيحية .

سواء أكان هذا الكتاب هجوما عنيفا على المسيحية . أم دعاية بارعة للاسلام ، أو نمطا ممتازا من الاهابة بسعة الأفق وتحرير الفكر .

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق فى شأن كثير من الكتب الجديدة .

واستعملت هذا الحق أيضا ضد كثير من الكاتبين .

وكان موقفها من كل كاتب — لا يمكنها أن تستولى عليه بوسائل الرغبة والرهبة — أن تحرم قراءة كتبه ، وأن تحرمه هو من رحمة السماء .

٢ — أما الأسباب التى ترجع الى المسلمين فهى لا تقل خطرا عن الأولى .

ان أية دعوة مهما بلغت من السمو لا يمكن أن تجتذب اليها الأنظار ما لم يكن لها جهاز دعاية .

الأحزاب لا تقوم بغير الدعاية ، بل البضائع لا تروج بغير دعاية .

وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث ، مكانا يجعلها فى الدرجة الأولى من الخطر حتى أصبحت علما يدرس ، وهيئات تدعم ٠

ويعرف ذلك المسلمون جيدا ، يعرفه تجارهم ، ورجال الأحزاب منهم ، ويعرفه كل مثقف ٠

ولكنهم لا يعملون به فيما يتعلق بنشر الاسلام ٠٠ !

أين دعاتنا فى الشرق أو فى الغرب ؟ أين مبعوثونا ؟

أين المبشرون منا ٠٠ ؟ لا شىء من ذلك مطلقا ٠

ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ، ومبعوثى « الأزهر » الى الأقطار الخارجية انما بعثوا لتعليم الحساب والخط والاملاء واللغة العربية فى مدارس اسلامية ابتدائية ٠ أو اعدادية ٠ أو ثانوية ٠

ليس لنا فى الخارج قط مبعوثون لتعليم الاسلام ٠

واذا كان الدين الاسلامى ينتشر فانما ينتشر بقوته الذاتية ، رغم الهجوم عليه ، ورغم العقبات التى تعترض طريقه ٠

ولنقارن ذلك كله بالبعثات التبشيرية ، ومن أمامها ومن خلفها المستشفيات ، والملاجىء والمدارس ، والمعاهد ، والمال يغدق ، والوظائف تهيأ ٠

ولنتصور كفتى ميزان :

احداهما لا شىء فيها ، وتلك هى كفة المسلمين بالنسبة للاسلام ٠

والأخرى فيها كل شىء ، وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية ٠٠

وسبب آخر تحدث عنه « جمال الدين الأفغانى » ، وكان يرى أنه أقوى الأسباب ، ذلك هو حالة المسلمين ٠

وكثيرا ما قال « جمال الدين » ان الغربيين يستمدون فكرتهم عن الاسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين فانهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء اذلاء مستكينين فرقت بينهم الأهواء والشهوات ، وقعدت بهم الصغائر وانصرفوا عن عظائم الأمور ، وأصبحوا مستعبدين مستذلين ٠

ولو كان الاسلام دينا قويا لما كان المسلمون هكذا ٠٠٠

ينظر الغربيون الى المسلمين فى العصر الحاضر ، وينسون شيئين.

ينسون أن المسلمين فى العصر الحاضر غير مستمسكين بالاسلام، وتكاد الصلة بينهم وبينه تكون اسمية .

وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالاسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم ...

ولعل المسلمين يعودون الى دينهم كما نزل صافيا نقيا، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الاسلام الحنيف .

وآداب الاسلام كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلا قويا مهذبا كريم النفس .

ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن الاسلام فكانوا شر دعاية له ..



الوفاء الحق ، والقيـــام على أمره ، ومواجهة الناس أجمعين به ، من أولى الخصال التى يحيا بها الدعاة الى الله ، وتعد صبغة لازمـــة لسلوكهم ، بل جزءا خطيرا من كيانهم •

فهم ـ على بعد الشقة بينهم وبين الضائقين بهم ، وعلى وحشـــة القطيعة وطول الخلاف ـ يظلون ثابتين على دعواتهم ، يشرحون أصولها بدقة ، ويبينون حدودها بأمانة ، ولا يتلون الحق فى رسالاتهم لرغبة أو رهبـــة •

انهم أوفر أحلاما ، وأقوى أركانا من أن يستخفهم مستهزىء يحاول النيل منهم ، ولقد استمع رسول الله نداء المشركين الساخر حين قالوا :
« يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون • لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين » (١) •

فما تظن أثر ذلك النداء فى فجاج الأرض أو أقطار السماء ؟
لقد تاه صداه وانقطع مداه ، وما تحرك له من جانب المرســـلين الكبار شعور قلق •
واسمع الى هذا النفر الراسخ فى كفره ، المكين فى باطله وهـــو يعلق على الرسالة وصاحبها :
« واذا رأوك أن يتخذونك الا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا • ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » (٢) •

ان هذا الاستفهام المفعم بروح الاستفزاز والتكذيب والتحـــدى والتحقير ، يخرج من نفوس أصحابه ليسقط تحت مواطىء الأقدام ، فما يستفز نفوس الدعاة شعورا بهوان أو غربة •
انهم فى ايمانهم أرسخ أقداما وأمكن أحلاما وأنور بصائر من أولئك الضالين المخدوعين •

---

(١) الحجر : ٦ ، ٧ • (٢) الفرقان : ٤١ ، ٤٢ •

ان الداعية يعيش فى الحق الذى شرفه الله به مثلما يعيش الناس فى أنوار الضحوة الكبرى .

فهو بأشعته وحدها يهتدى ، وعلى ضوئها يسير .

ومن ثم فمن المستحيل أن يخشى عرفا سائدا أو تقاليد مقررة ، اذا كان هذا أو ذاك ضد ما يعرف من حق .

ومن المستحيل أن يتملق الجماهير أو يطلب رضاها !

كيف وهو يرى العامة مرضى وفى يده شفاؤهم ؟ ويراهم قاصرين وعنده وحده العلم الذى يرفع مستواهم ؟ .

ومن المستحيل أن يتهيب فى ذات الله بطش ذى سلطان ، سواء أكان مخوف الظلم أم محقق العنت .

فهو يعامل ربه قبل أن يعامل عباده أياً كانوا .

وهو يوقن بأن الحياة والموت ، والرزق والأجل ، والخفض والرفع، والأمن والقلق ترجع حتما الى مالك الملك جل شأنه .

ومن المستحيل أن يغره طمع أو يجره هوى ، أو تغريه رغبة أو تدنيه رهبـة .

فان شـأن الرسالة التى انتصب لأدائها فوق هـذه الوساوس جميعـا .

والسنة العامة فى أنبياء الله قاطبة أنهم فى نظرتهم الى جلال الله ، تتضاءل فى أعينهم شخوص المخلوقين ويذوب ما ينسب اليهم من بأس وارهاب .

قال الله جل شأنه : ((**ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقـدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا**)) (٣) .

والآية نزلت عندما كلف النبى ﷺ أن يهدم تقليد التبنى الذى كان شائعا فى العرب .

---

(٣) الاحزاب : ٣٨ ، ٣٩ .

وكيف كلف بهدمه ؟ بأن يتزوج امرأة متبناه زيد ، والذى طالما دعاه الناس : زيد بن محمد ••

وبهذا الزواج المفروض يجتاح الاسلام عمليا كل أثر لتسوية الأدعياء بالأقرباء •

ويبدو زيد — المدعو بابن محمد — على حقيقته فى النسب ، وتحيا امرأته مع رجلها الجديد على صفته الصحيحة ، لا على أنه والد رجلها القـــديم :

« ما كان محمـــد أبا أحد من رجالكم ولكن رســـول الله وخاتم النبيين » (٤) •

بيد أن هذا التكليف شق على رسول الله أعظم المشقة ، وتأذت نفسه من أن يتحدث الناس أنه أخذ امرأة ابنه ، وكان ينبغى البعـــد عنهـــا •

فرد الله سبحانه هذا التوجس ، وعاتب نبيه فيه ، مظهرا له أن المرسلين لا يتهيبون فى ذات الله ونصرة الحق ، أحاديث النـــاس وما يرسلونه من اشاعات أو يقيمونه من اعتراضات •

***

والأنبياء واضحون فى رسالاتهم ، ليس فى دعواتهم جانب غامض أو غرض مستور • يقول الله فى موسى وهارون :

« وآتيناهما الكتاب المستبين • وهديناهما الصراط المستقيم » (٥) •

وهم بهذا المنهج المشرق يلقون الناس كلهم ، الصديق والعدو ، لا يحاولون طى شىء من رسالاتهم يتألم منه هذا ، أو المواربة فى وصف حقيقة يكرهها ذاك •

وهم بهذا الوضوح فى رسالاتهم يفاصلون الناس على الكفر أو الايمان : **« ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة »** (٦) •

---

(٤) الاحزاب : ٤٠ • (٥) الصافات : ١١٧ ، ١١٨ •

(٦) الانفال : ٤٢ •

وقد كان من الممكن أن تعرض الدعوات على الكارهين والناقمين بأسلوب ملتو كليل الحد يهادن الشهوات ويسالم الافك والخرافات .. الى حين .. ولكن الله عز وجل رفض هذا الأسلوب . قال :

« فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » (٧) .

وقد تمنى المشركون لو نزل رسول الله عن بعض ما يدعو اليه . وابدوا استعدادهم لتصديق ما يلائم أفكارهم وأمزجتهم من رسالته .

لكن الحق لا يتجزأ والايمان به كذلك لا ينقسم .

ومن هنا حرض الله نبيه أن يبقى على دعوته الكاملة . ورسالته الشاملة ، غير مكترث بما يقترحه الكافرون .

« فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، انما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل » (٨) .

وظل رسول الله بدعوته كلها ، يشرح أصولها ويوضح سبيلها . ولم تفتر عزيمته فى مهاجمة الأصنام وتسفيه عابديها والتنديد بجهالتهم .

فلما حدثه عمه أبو طالب أن يدع هذا الدين وأن يصون نفسه من خصومه المناوئين قال :

« يا عم .. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ..

وتمر السنون بطيئة ثقيلة ممتنة موجعة ، والكفاح بين الحق والباطل لا تهدأ حدته وقد نقلته الأيام من ميادين الكلام الى ميادين القتال .

ومع ذلك فبعد بضع عشرة سنة من هذه الكلمة التى قالها الرسول لعمه تسمعه يقول لبديل بن ورقاء الخزاعى فى موقف الحديبية :

« انا لم نجيء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين » .

---

(٧) القلم : ٨ ، ٩ (٨) هود : ١٢ .

وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم . فان شاءوا ماددتهم ويخلوا بينى وبين الناس .

فان أظهر ، فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فيه فعلوا . والا فقد جمحوا .

وان هم أبوا . فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ولينفذن الله أمره » .

انه اصرار لم تزده الليالى الا قوة وثبات يربو مع الزمن ولا ينقص.

وربما سألت : ما العدة فى هذا النضال ؟ وما الوسائل التىاعتمدت عليها الدعوة فى بلوغ أهدافها ؟ .

والجواب أن الدين لا يتذرع فى الوصول الى غاياته الا بطرقها نفسها .

وتدرك طبيعة هذه الطرقمن قول الله لنبيه : **«فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها »** (٩) .

« فاصبر ان وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون »(١٠) .

« اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيدى ، انه أواب » (١١) .

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » (١٢) .

فالمثابرة على الدعوة والاستعانة على وعثاء الطريق بطول الصبر، وحسن التأسى وصدق الاعتماد على الله وتفانى الداعية نفسه فى حقيقة رسالته . هو طريق النجاح ومحاولة الافلات من هذه السنة العامة لا يتاح لأحد .

وفى هذا يقول الله لنبيه : **« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين »** (١٣) .

أجل : ان أنباء المرسلين تتابعت على كر الدهور مؤكدة هذه

---

(٩) طه : ١٣٠ .
(١٠) الروم : ٦٠ .
(١١) سورة ص : ١٧ .
(١٢) الاحقاف : ٣٥ .
(١٣) الانعام : ٣٤ .

الحقيقة ، ومؤكدة كذلك أن عقبى الصبر الجميل جميلة ، وأن نصر الله يجىء فى نهاية المطاف كما يجىء الصباح بعد اعتكار الظلام .

وقوانين المجتمع الانسانى فى ذلك تشبه قوانين الحياة المادية لا تنحرف ولا تتخلف ..

واسمع الى يوسف وهو يقول لاخوته : **« انه من يتق ويصبر فأن الله لا يضيع أجر المحسنين »** (١٤) .

ان هذه الآية كأى قانون مادى فى علم الطبيعة أو الكيمياء تشير الى أن الفرد الذى يستجمع هاتين الخلتين من معنى الاحسان لابد أن يدركه التوفيق وتلحظه العناية وينجح فى حياته حيث يخفق الآخرون والذين يقصرون فى هذا المضمار .

ولذلك يقول اخوة يوسف له : **« تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين »** (١٥) .

وايثار الله ليوسف لم يكن عطاء من غير مؤهل ، بل أتى بعد مراحل شاسعة من الكفاح والعفاف والمصابرة والتجمل ..

وكما تصدق هذه السنة فى حياة الأفراد تصدق فى حياةالجماعات.

فان الأمم لا ترزق التمكين فى الأرض ولا تنال حظا من عناية الله الا اذا مرت بأدوار من العمل المضنى والجهاد الشاق ، وصبرت على تكاليف الرسالات التى تحملها ، والتقدم الذى تنشده .

والقرآن الكريم يذكر السر فى تسويد الأقدمين من بنى اسرائيل:

« وجلعنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون » (١٦) .

فالصبر الطويل ، واليقين الراسخ ، هما عدة الامامة فى الأرض والصدارة بين الناس .

والسنة العامة المطردة من أزل الحياة الى أبدها فى كل كفاح بين الحق والباطل قد شرحها الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية :

---

(١٤) يوسف : ٩٠ . (١٥) يوسف : ٩١ .

(١٦) السجدة : ٢٤ .

« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال »(١٧) .

وينبغى أن نسائل أنفسنا ، ما هو الحق الذى ينتصر ، وما هو الباطل الذى يندحر ؟ .

فان فى صفحات الحياة مشاهد قد تجعل الانسان يرتاب فيما يقال له ، وهو يكاد يلمس استقرار الالحاد والفساد فى مواطن كثيرة ..

والجواب أنه ليس كل ما يوصف بأنه حق يحمل هذه التسمية عن جدارة .

ولا كل ما يوصف بأنه باطل يوصم بهذا العنوان عن صدق .

والحق الذى يكتب له الخلود يجب — ليظفر بهذه الثمرة — أن تكون الى جانبه خصائصه كلها .

اننا اذا قلنا : الطيارة أسرع من الدابة ، فلا نعنى طيارة مكسورة الأجنحة نافدة الوقود . ان طيارة بهذه المثابة يسبقها حمار معطوب الحوافر ..

ان من خصائص الحق — الى جانب سلامة جوهره — أنه ضياء للعقل ، وصدى للفطرة ، ومفتاح للخير ، وسياج للمصلحة ، وصلة لا يعلى عليها فى ربط الأمم بالحياة وبربها تبارك اسمه .

ومن خصائص الباطل أنه اتباع للوهم ، ومغالطة للفطرة ، واستجابة لطبائع السوء واقتراف للمآثم ، وعبادة الشيطان .

وقد تتكاثر هذه الخصائص وتبرز ، وقد تتضاءل وتضمر .

وقد يموج بعضها فى بعض ، ويخلط الأتباع بين شىء من هذا وشىء من ذاك .

بيد أنه من الكذب على الله وعلى الواقع أن ننتظر انتصار حق اذا تأملت فيما حوله لم تجد الا خصائص الباطل كلها من غباء وشهوة وعوج .

---

(١٧) الرعد : ١٧ .

ان الحق عندما يكون حرباً بين الوثنية والتوحيد ، فهو حرب بين العقل المتأبى على الخرافة ، المتجاوب مع ما فى الكون كله من علم ومعرفة .
وبين عقل آخر مستغلق منحط يسجد لحجر أو عجل أو ما شابههما .

ومن البديهى أن انتصار الأول هو امتداد للمعرفة ، ومكرمة للانسان ، ومنفعة للناس ينطبق عليه قول الله :

« فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع النـــاس فيمكث فى الأرض »(١٨) .

لكن ما الحال اذا عقم الحق فلم يلد نفعاً ، واكفهر وجهه فلم يتضمن بشراً ، ورمقت أصحابه فوجدتهم ملتفين حول اسم فارغ لا لب له .

أنى يكتب لهذا الحق المزيف نصر أو يسجل له خلود ؟ ؟ ..

ان المسلمين — ونقولها آسفين — ظلموا الحق الذى توارثوا آياته فى صحائفهم .

لقد التصقوا به وهم يرتكبون خطأين جسيمين .

أحدهما فى جانب الحياة نفســـها ، فلم يفقهوها ولم يوثقـــوا أواصرهم بها .

والآخر فى جانب الله ، اذ لم يفقهوا هداه ولم يسيروا على سننه .

فكانت النتيجة أن تنكرت لهم الحياة فهانوا فيها ، وأن سخط الله عليهم فلم يسعفهم بنصر هم أحوج الناس اليه .

فاذا انخذل الاسلام — وتلك حالته مطمورة فى أحوال أهله — فان ذلك ليس قدحاً فى سنن الله العامة ، ولا تكذيباً للنتائج المحتومة فى كل صراع يدور بين الكفر والايمان .

ان انتصار الحق أمر لابد منه . وغلبة أهله على غيرهم فى نهاية المطاف قانون لازم دائم .

وقد تسبق ذلك مراحل طويلة .

ولكن هـــذه المراحل ليست تسويفاً لنتيجة ينبغى حلول أوانها .

---

(١٨) الرعد : ١٧ .

بل هى — فى الأغلب — فترة من الزمن يكتمل فيها معنى الحق فى نفوس حملته ، ويمتزج بحياتهم الباطنة والظاهرة على سواء .

فترة يخلصون فيها من نزعات الهوى الخفى والجلى ، وتتم فيهم القدرة على افراغ الحياة الانسانية فى القالب الذى يريدون ، وتسييرها نحو الوجهة التى يبتغون .

فاذا بلغ هـذا الاستعداد تمامه ، فما من شك أن الباطل مندحر ، وأن رايته منكسة ، وأن أتباعه زائلون ..

وقد أكد القرآن الكريم فى أكثر من موضع هـذه الحقيقة ، وذكر — بجلاء — أن النصر حليف هـذا الحق الناضج ، وأن الباطل زاهق أمامه لا محالة :

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا . ملعونين ، أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »(١٩) .

فهذا تهديد لأعداء الاسلام أن بقاءهم على الخديعة ، واشاعتهم للأكاذيب واتباعهم للهوى سوف يوردهم — حتما — المصير الذى ورده المكذبون الأوائل .

وهو مصير لا ينجو منه ظالم أبداً . وفى سورة أخرى يقول :

« ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً . سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »(٢٠) .

فالمعارك التى تنشب بين الايمان والكفر تنتهى بالمعركة الفاصلة آخر الأمر وتطرد بها سنة الله فى المستقدمين والمستأخرين .

وكما يندحر الباطل فى ميدان التفكير والنظر تنكسر شوكته فى رحاب الحياة :

---

(١٩) الأحزاب : ٦٠ — ٦٢ .

(٢٠) الفتح : ٢٢ ، ٢٣ .

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق »(٢١) .

وفى سورة فاطر يقول :

« فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً فى الأرض ومكر السىء ، ولا يحيق المكر السىء الا بأهله ، فهل ينظرون الا سنة الأولين ، فان تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا »(٢٢) .

فعقبى الاعراض عن الحق والغرور بالضلال ثابتة .

وما أصاب الأولين لن يفوت الآخرين .

ولابد أن يدرك الأمم الحائرة ما يقمع بطرها ويطمس على بصرها .

وعندما يحيق بالمجرم سوء صنيعه يستيقظ فى نفسه ما أنامه الغرور من قبل . فيصحوا بعد فوات الوقت ويعترف بما كان ينكر ، بل بما كان يجحد ، وكثيراً ما نسمع الكلمات الأخيرة التى يرسلها المحكوم عليهم بالاعدام وهم مقودون الى حبل المشنقة ، انها كلمات مليئة بالندم والتوبة ناضحة بالايمان والاستسلام لله .

بيد أن ذلك الرشاد المفاجىء لا يغنى عن أصحابه ، ولا يؤخر عنهم العقوبة .

لقد حكم فرعون حقبة من الدهر ، كانت حافلة بالجبروت والفساد ، مشحونة بالبغى والقتل ، فلما أدركه الغرق قال : « آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين . ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين »(٢٣) .

ان هذه اليقظات الغريبة فى ضمائر المجرمين لا تدل على خير .

ومن يدرى لعلها حيلة الجبان للفرار من القصاص !! .

ومن ثم رأينا الله جل جلاله لا يدع الأمم الضالة بمثل هذا الاحتيال :

« فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون »(٢٤) .

---

(٢١) الانبياء : ١٨ .
(٢٢) فاطر : ٤٢ ، ٤٣ .
(٢٣) يونس : ٩٠ ، ٩١
(٢٤) غافر : ٨٥

ونحن نلاحظ أن عذاب الاستئصال الذى اجتاح كثيراً من المكذبين السابقين قد استحال شيئاً آخر بالنسبة الى مشركى مكة .

فان موقفهم قد ألجأ الرسول الى الهجرة وظهر كأن دولة الوثنية قد سيطرت على الموقف ، وأن الهزيمة قد لحقت بالايمان وصحبه .

لكن هــذا الظاهر المتبادر الى الأذهان لا يلبث أن يزول ، اذا عرف أن دولة الوثنية لم يمض عليها الا قليل حتى تلاشت فى موطنها نفسه . وأن سدنتها ذابوا فى حــرارة الايمان المنتصر كما يذوب الجليد على ألسنة اللهب .

وصدق الله سبحانه فى قوله : ((**وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا**))(٢٥) .

أجل انهم ما لبثوا الا بضع سنين ثم تهدمت الأصنام حول الكعبة ، تحت سطوة التوحيد المنتصر .

وانطلق صوت الرجال الذين بعثهم محمد ﷺ فى أرجاء مكة يقولون فى الموسم الجامع : لا يحج بعد العام مشرك ..

* * *

منذ نشط العمران البشرى على وجه الأرض والناس تستهويهم مآرب شتى ، وتتوزعهم طرائق مختلفة .

وكثرتهم — وهــذا أمر محزن — يغلبها الجهــل ، وتنحرف عن ســواء السبيل .

شرف الانسان عقله ، ولكن العقل طالمــا نحى عن قيادة الأفراد والجماعات .

وجمال الانسان صفاء فطرته واستقامة سجيته .

ولكن الفطر الصافية والسجايا المستقيمة طالمــا احتجبت وراء غواش من الأثرة والظلم والهوى .

---

(٢٥) الاسراء : ٧٦ ، ٧٧ .

وكما تفتك أسراب الديدان ، وأنواع الآفات بأشجار القطن والفاكهة ، هجمت علل خطيرة على الجنس الانسانى فعوجت سيره ، وشوهت فكره ، ومسخت ما برأه الله عليه من فطرة ، وما زانه به من عقل :

« ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين »(٢٦) .

وكان جهد النبيين الأول هو علاج هـذا الخلل فى السلوك الانسانى ومداواة تلك العـلل التى تفتك بالكـرامة وتنذر فى العاجلة والآجلة بسوء المنقلب ..

هذه أمة شاع فيها غمط الحقوق وبخس الكيل والميزان .

وهذه أمة شاع فيها الكبر والجبروت واجتياح الضعاف .

وهذه أمة أسرفت فى شهواتها وتعدت الاناث الى الذكران .

وهذه ، وهذه ..

أمم كثيرة تطرق المرض النفسى الى قلبها ولبها ، وذهلت من قبل ومن بعد عن معرفة ربها .

فكان كل رسول يبذل قصاراه فى سـوق الشفاء لها ، ومحاولة النجاة بها من عواقب الكفر والفسوق والعصيان ..

وانك لتسمع القرآن الكريم يحمل تواريخ هذه الأمم وعمل الدعاة الكبار فى ارشادها الى الحق وقيادتها الى الله فتراه يلتزم هذا النسق وهو يقص مصارع خمس من الأمم :

« كذبت عاد المرسـلين . اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . انى لكم رسـول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، ان أجرى الا على رب العالمين »(٢٧) .

ان هـذا النسق اطرد فى التـاريخ لقوم نوح وهـود وصـالح ولوط وشعيب .

تشابهت الرسالات ، وتشابهت الاجابات وتشابهت المصائر التى طوت الكل .

---

(٢٦) سبأ : ٢٠ . (٢٧) الشعراء : ١٢٣ — ١٢٧

وذاك ما يدعو الى الاستغراب والعجب :

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »(٢٨) ...

هؤلاء الأنبياء المخلصون عمدوا الى محاربة الخرافة الأولى فى تفكير الانسان ، وهى تقديس الأصنام والأبقار وما اليها . وفتح البصائر المغلقة حتى تعرف ربها الحق وحده .

فاذا عرفته حرصت على ارضائه ، وبعدت عن مساخطه ، واستعدت للقـــائه .

ومن ثم أمكن فطامها عن الرذائل التى هوت فيها وتيسر شفاؤها من العلل الغليظة التى رانت عليها .

ان الأمراض الاجتماعية شديدة الفتك بعيدة الأثر .

وكما يصنع الزهرى مثلا بالأجنة فى بطون الأمهات ، من تلف فى الأجهــزة وعطب فى الحواس : تصنع الخرافات والشهوات بالأفئدة والأعمـــال .

وكثيراً ما أنظر الى الأجيال الناشئة فى قرانا المصرية غارى البول الدموى نزف قواها وشل نماءها ، وكسا الوجوه بصفرة كابية .

فاذا قارنت بين أولئك الولدان البائسين ، وأترابهم من أبناء البيئات النقية شعرت ببعد البون ، اذ ترى هؤلاء يشبون فى عافية وتتورد وجوههم من قوة الحياة ووفرة الصحة .

ان الفطرة الانسانية قد تحكمها بيئات ظالمة مظلمة . فاذا هى صريعة جهالة طامسة ، وأهواء طافحة ، وعوج شنيع .

بل ان هذه الفطرة الكريمة يصيبها من الدمار ما يصيب الحقول الغناء اذا هجمت عليها قوافل الجراد .

ولم يعرف العالم فى تاريخه الطويل أزكى ولا أرقى من رسل الله فى الذياد عن هذه الفطرة .

---

(٢٨) الذاريات : ٥٢ ــ ٥٥ .

وقد قرأنا فى كتاب الله كيف برز كل طبيب منهم يشفى النفوس من سقامها ويرجع اليها رشادها العازب ، ويهديها الى سواء الصراط .

وفى دعوات الأنبياء الأولين نلحظ بساطة العرض ، وسهولة الفكرة ، ورقة الاخلاص ، وجلاء الغاية ، وتدفق الرحمة ، وصدق النصيحة ، وقوة التوجيه الى الله والاعداد للقائه .

بيد أن كل واحد منهم كان محدود الطاقة فى علاج ما يلقى من أمراض ، اذ كان جهــده محلياً غايته ملافاة ما يقع ، واستنقاذ من يستجيبون .

أما الرســالة الخاتمة ، فلم تكن « مشروعاً » صــغيراً لاصلاح قرية موبوءة .

بل كانت برنامجاً واسع الدائرة رحيب الأكناف ، يستهدف وضع خطط لوقاية العالم كله . ورسم سياسات كثيرة للاصلاح والاستشفاء ، وحشد قوى جبارة لتطهير الأرض من جراثيم الفساد .

ان هذه الرسالة تتميز فى دعوتها بأنها جهد انشائى متكامل لخلق عالم أفضل يتعاون فيه الفرد والمجتمع على نشدان الكمال ، واقرار الفضيلة ، على أساس من معرفة الله جل شأنه .

ومحور الاصلاح فى الرسالة الآخرة ، جعل الانسان انساناً .. !

وهذا شىء يدعو الى العجب !!!!

هل جعل الانسان انساناً غاية تقوم لها رسالة ، ويقترن بها خير ، وينتج عنها كمال مرموق ؟ ؟

نقول : نعم ، وذاك محور الاصلاح الالهى للعالم كله .

ان أقوى شىء فى الوجود الآن قد يكون التفجير الذرى ، وربما كان فى القرن السابق الطاقة الكهربائية .

والوجود مشحون بقوى هائلة عرف منها ما عرف وستر منها ما ستر .

بيد أن أعظم قوة فى هذا العالم وأبرز الكشوف فيه ليست تلك الطاقات المــادية ، بل انها ... الطاقة الانسانية .. !!

هذا الانسان الذى يسير بقدميه الصغيرتين على الأرض ويخطر بقامته الضئيلة .

هذا الانسان الذى لو تجمع جنسه كله من شتى القارات فى صعيد واحد ما زحم مساحة يؤبه لها من هذه الأرض التى يدرج فوقها .

ولو قيست أرضه تلك بالأعداد الكثيفة من الكواكب التى تسبح فى الفضاء ما ساوت شيئاً .

هذا الانسان الغريب هو أخطر شىء فى الكون ..

لقد خلقت له السموات والأرض وسخر له الشمس والقمر .

وصدق الشاعر اذ يقول :

وتزعم أنك جرم صـــغير وفيك انطوى العالم الأكبر !

لكن هذا الانسان العظيم بما رشح له ، وما مكن منه ، قد تعرض له أوهام تمسخه فاذا هو ساجد لحجر ، أو تائه وراء شهوة سافلة !!

ومن هنا تدافعت وصايا الرسالة الاسلامية لتبصر الانسان بقدره ، وتصونه من الدنايا ، وتحفظ عليه خصائصه العليا .

انه كبير بقلبه ، فكيف يدع قلبه نهباً للغش والهوى والظلم ؟ .

انه كبير بعقله ، فكيف يدع عقله فريسة للجهل والخرافة ؟

ان الاسلام يعتمد فى حماية الانسان من عال الكفر والفسوق على ايقاظ لبه وقلبه ، وتبصيره بمكانته وفضله ، واستبقائه انساناً لا يتدلى — بتعطيل مواهبه — الى درك الحيوانية السحيق .

واســمع الى الصيحة الأولى فى تنبيه الغافلين « **قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد** »(٢٩) .

التفكر ، هو المطلب الأول ، صحوة العقل بعد غفوته ليرى رأيه فيما يعرض والعقل قد تقيده أغلال التقليد الأعمى فلا يملك الحرية الواجبة .

ومن هنا شدد الاســلام النكير على أحلاس التقليد وصرعى كل عرف غبى .

« **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها**

---

(٢٩) سبأ : ٤٦ .

انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون • قال أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتم به كافرون • فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين »(٣٠) .

كما قضت الارادة العليا بأن الذين يستجيبون لدواعي الجحود ، ولا يسيرون وفق معالم الرشـاد ، لابد من تضليل مسعاهم ، وتركهم يخبطون فى مواطن الغفلة التى رموا بأنفسهم فيها :

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (٣١) .

* * *

شرع القرآن الكريم يلفت الانسان الى ما بين يديه وما خلفه من السماء والأرض ، ويوثق أواصره بمظاهر الكون الذى يعيش فى رحابه • ويجعل من هذا وذاك المـادة التى تكون ايمانه بربه ، وتعرفه بما ينبغى له من تسبيح وتحميد ، وما يجب عليه نحوه من انابة وعبادة • والنهج الفذ اذلك هو بصر العقل بآيات الله فى ملكوته •

وانظر الى هذا الضرب من الاستدلال والهداية ، لتعرف أن المراد منه هو ايقاظ الانسـان ، واحياء خواصه الذهنية والنفسـية ليعرف ربه اليقين •

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شـجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرا لكم فى الأرض مختلفا الوانه ، ان فى ذلك لآية لقـوم يذكرون • وهو الذى سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا

---

(٣٠) الزخرف : ٢٣ — ٢٥ . (٣١) الأعراف : ١٤٦ .

منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشـــكرون »(٣٢) .

التفكر ، والتذكر ، والتعقل ، ثم الشكر . هذه هى أسباب اليقين وطرائقه الصحيحة ، ومدارها ــ على ما ترى ــ الحـــركة الذاتية فى الانسان نفســـه .

هذه هى الحـــركة التى تصور وظيفته فى الحياة ومنزلته فى الكون ، وتؤكد أولا وآخراً قيمته الخاصة ومكانته الجليلة .

ومعنى هذا أن الانسان مكلف باستخدام حواسه على نطاق واسع ، فالسماع الغافل ، أو النظر الأبله ، أو النطق الغبى ، هبوط لا يليق بامرىء يحترم نفسه ويدرك كيف كرمه خالقه وفضله تفضيلا .

الانسان الحق عميق النظر ، فقيه السمع ، راشد القول .

ولمـــا كان الاسلام ــ كما بينا ــ يستهدف جعل الانسان انساناً فهو يجعل الكفر نتيجة طبيعية لانطماس المشاعر وبلادة الحواس :

« .. وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً »(٣٣) .

« .. يضاعف لهم العذاب ، وما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون »(٣٤) .

وعدم استطاعتهم السماع أو استبانتهم الرؤية لا ترجع ــ بداهة ــ الى رمد أو صمم ، انما يرجع الى أن القوم عطلوا مواهبهم ، وذهلوا عن قيمتها العليا ، أو سمحوا للدنايا أن تصرفها فى الأباطيل .

وقد يستغرق الغافل فى ذهوله فاذا ناديته لم يصل اليه الصوت الا خافت النبرة ضـــائع المعنى ، فكأنه ــ وهـــو قريب منك ــ على مســـافة ميل !!! .

« .. والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »(٣٥) .

---

(٣٢) النحل : ١٠ ــ ١٤ .
(٣٣) الكهف : ١٠٠ ، ١٠١ .
(٣٤) هود : ٢٠ .
(٣٥) فصلت : ٤٤ .

بل قد يصل الموت الأدبى بهؤلاء الجاحدين المذهولين أن تصل صدى الدعوات الى آذانهم ، فلا يفقهون منهـا ـ على شـدة وضوحها ـ الا ما تفقهه القطعان عندما يصفر لها الراعى لتشرب أو لتسير ..

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(٣٦) .

ان الاسلام جاء ليرد للانسان اعتباره المفقود ، وليحفظ عليه قدره المهدد أى ليجعله انساناً حقاً .

انساناً مستقيم الفطرة كما خلقه الله ، ذكى العقل ، حديد النظر ، واعى السمع ، صائب القول ، سديد الحكم .

وهذه الخصال هى مقومات الانسان ، وهى بعينها مقومات الايمان . فاذا تطرق الانحـراف الى شىء منهـا فانتظار الايمـان الحق جهـد ضائع .

ومن ثم يقول الله لنبيه : **« ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر اليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون . ان الله لا يظلم الناس شـيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون »(٣٧) .**

ان الاسلام عالج الانسانية بأصح دواء يمكن أن يقدم لها. وذلك بالتعويل على المقاومة الذاتية للانسان ، أو المناعـة الخاصة الكامنة فيه .

وحشـدها فى صـعيد واحد لتصـد أى هجوم يغرى بالكفـر والفسوق والعصيان .

وذلك سر الحديث الطويل فى كتـاب الله ، والمناشدة المستمرة للانسان ، ألا يسف وألا يخون فكره ، وألا يجحد سـمعه وبصره ، وألا يتدلى الى درك لا يليق به .

---

(٣٦) البقرة : ١٧١ .	(٣٧) يونس : ٤٢ ـ ٤٤ .

ذاك سر التساؤل المترادف **((أفلا تذكرون))**[٣٨] **((أفلا تعقلون))**[٣٩]، **((أفلا تتفكرون))**[٤٠] .

((أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يســمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصـــار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)) [٤١]

والواقع أن كل ضعف يتطرق الى القوى العقلية ، أو الى مقدرة الحواس فى الملاحظة والوعى ، فهو هدم لجزء مساو من حقائق الايمان وعاطفة التدين .

ان الاسلام حاسم فى أنه يريد انساناً مفتوح البصر والبصيرة ، لأنه يريد ايماناً عميق الجذور ، وثيق الضمانات .

أما حيث يغلب الجهل ، ويزين الهوى ، وتستحكم الغفلة ، فانا نكون بازاء حيوان لا انسان :

((أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا))[٤٢] .

هل يوجد أسلوب آخر لتكميل الانسان وتبصيره الحق وتعريفه الخير ؟ .

هل يوجد شىء آخر ، بعد أن يتقدم الوحى الأعلى فيحرك الواقف ويصلح المختل من هــذا الجهاز الانسانى العجيب ، ثم يدفعه باسم الله فى طريق عتيدة واضحة الأهداف موائمة لطبيعته الزاكية كما تتواءم المسافة بين شريطى السكة الحديد وبين عجلات القطار المنسابة فوقهما ؟؟ .

لا يوجد شىء آخر الا ذلك الاسلام .. وذلك أساس خلوده ..

ولقد قال أحد العلماء : اذا ثبت أن الاسلام هو الصراط المستقيم فلن يكون بعد محمد نبى ، ولا بعد دينه دين .

ذلك أن الخط المستقيم هو أقصر صلة بين نقطتين ، ومن ثم فلا يمكن

---

(٣٨) يونس : ٣ .
(٣٩) البقرة : ٤٤ .
(٤٠) الأنعام : ٥٠ .
(٤١) الحج : ٤٦ .
(٤٢) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ .

أن يتعدد • ولقد رأيت مبلغ الاستقامة فى تعاليم هذا الدين ، وكيف أنه رسم سياسة للاصلاح العام لا عوج فيها ولا تعقيب عليها •

ومن المستحيل تصور قادم آخر من السماء يزيد حرفاً أو يغير وضعاً من جملة الشرائع التى جاء بها محمد بن عبد الله ••

والحقيقة أن كل ألم ، أو اضطراب ، أو فوضى ، تهز كيان العالم بين الحين والحين انما مردها الى عدم أخذه بهذا الدين وشروده عن صراط المستقيم •

ان الاسلام هو كلمة الحق الخاتمة ، الجامعة المانعة ، التى لا يتصور جديد بعدها الا أن يكون هذا الجديد لغواً ، لا معنى له أو عبثاً لا خير فيه •

* * *

ويسير علينا بعد هذا الوصف المجمل للاسلام أن نرى فروقاً بين دعوته ، والدعوات التى سبقته •

ان الرسالات الســابقة كانت محلية ، موقوتة ، محدودة الزمان والمــكان •

جهد أصحابها ــ دون غمط أو انتقاص ــ انقاذ قبيلة من الناس من جهالات أو ضلالات فشت فيهم وكادت تودى بهم •

فهم ــ صلوات الله عليهم ــ أطباء حاولوا أن يشفوا أقوامهم من علل غلاظ ، وأقلهم استجيب له ، وكثرتهم جحد حقها ونكر فضلها • وهلكت أممهم صريعة بأدواء الكفر والعناد •

كذلك كان شأن «هود» فى عاد ، و «صالح» فى ثمود ، و «شعيب» فى مدين ، و « لوط » فى قرى المؤتفكة ••

أما الرسالتان الكبيرتان اللتان نهض بهما « موسى » و « عيسى » فسرعان ما تسرب التحريف اليهما ، وغلب الدخن الكثير على أصولهما وفروعهما •

هذا هو حصاد المــاضى كله عندما نتأمل فى مصاير النبوات الأولى ، والدعوات السابقة •••

أما الرسالة العظمى التى اضطلع بها خاتم الدعاة وسيد الهداة •

فان القدر الأعلى زودها بما حفظ عليها صلاحيتها المطلقة ، وأبقاها الى يوم الناس هذا ، والى أن ينفخ فى الصور • جماع الأشفية التى يتخلص بها العالم من سقامه ، وينبوع الرحمة التى يستريح بها من آلامه ، وان جحد الجاحدون :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خســـاراً »[٤٣] •

ان المقارنة العابرة بين الرسالات الأولى والرسالة الخاتمة يظهر فيها الاسلام ، وقد تفرد ، فى طوله ، وعرضه ، وعمقه •

فطوله يستغرق الأزمنة ويساير الخلود ويتجدد على الأعصار فليس بعده وحى ولا حاجة الى شىء من ذلك •

وعرضه يستوعب الأجناس كلها ، فى القارات الخمس فهو يضمهم فى رحابه ويسعهم فى جنابه ، لا يختلف أسود عن أبيض أو أحمر •

وعمقه يشمل الحقائق التى يفتقر اليها العالم فى شئونه جميعاً ، ما فرط فى شىء منها ، ولا قصر فى فتوى أو قصر فى جواب •

لقد تضمن الاسلام من العقائد ما لا يرقى اليه شك •

ومن العبادات ما يحفظ على القلب سناءه •

ومن المعاملات ما يشبع نهمة العالم مع كل تطور •

ومن الأخلاق ما يدعم الفضيلة ويمحق الشرور •

وجملته — فى انتصارهم أو انكسارهم — يخضعون للسنن العامة التى شرحنا جملتها آنفاً •

وما بد من رعاية هذه السنن فى كل عراك بين الايمان والكفر • وفى كل سباق الى امتلاك زمام الحياة •

* * *

● كيف انتشر الاســـلام : (٤٤)

من بضعة قرون وجذوة النشاط العقلى فى بلاد الاســـلام تبرد

---

(٤٣) الاسراء : ٨٢ .

(٤٤) ردود مسهبة على اقاويل المستشرقين ومفترياتهم .

رويداً رويداً . والستور الحاجبة تسدل على الفتوح الأدبية العالية التى اقترنت بظهور الاسلام وانتشاره فى أرجاء العالمين .

وانه لمحزن أن يفقد المسلمون أولى الخصائص الروحية والفكرية لدينهم العظيم ، وأن يرتدوا قليلا الى الجاهلية التى تخلص منها أسلافهم الكبار ، بل التى خلصوا منها سائر الأجناس .

وأدعى الى المزيد من الحزن أن يجىء هـذا الارتكاس فى فترة النهوض المـادى الخطير الذى شمل أوروبا .

والذى اهتبل فرصته أعداء الاسلام فسخروه تسخيراً تاماً ضد هذا الدين وضد الأمم الداخلة فيه ..

فى دور التخلف العلمى الذى شاننا ، وأوهن قوانا ، وبعثر تراثنا الثقافى فى حواضر الغرب ، أو طواه تحت طبقات من الاهمال .

فى هـذا الدور ظهر « الاستشراق » ليكون رائداً ذكياً أمام حركة المد التى أقبلت من أوروبا ، واستكشافاً يدل الغزاة على العورات المتوارية والثغور المهملة .

والمستشرقون نفر من الناس جندهم الاستعمار فى ميدان العلم أداة لطعن الاسلام وتشويه حقائقه واصطناع الفتوق فيه .

وأسلوبهم الأثير أن يلبسوا الحق بالباطل ، وأن يمزجوا — بشتى الحيل — بين بعض المعارف الصحيحة والأكاذيب المفتراة ، فى سياق يبدو لقليل الدراية أنه بحث محايد لا ريب فيه .

وجمهرة المستشرقين يرون أن محمداً ﷺ دعى لا يحمل رسـالة من السـماء .

وأن قرآنه تلفيق من عند نفسـه .

وأنه استطاع — فى ظروف مواتية — أن ينتضى السيف ويجهز على أعـدائه .

وعلى العكس من ذلك كله يرون أن النصرانيـة حق ، وأن كتبهـا وحى مقدس .

وأن استدامة وجودها ضرورة .

وأن تحطيم الاسلام أمامها فريضة حتم ..

ويختلف المستشرقون فى الطرق التى توصلهم الى الغاية .

فمنهم من يغلبه حقده فينثر من كنانته وابلا من الشتائم المقذعة ضد النبى — ﷺ — وصحابته وشريعته .

ومنهم من يطوى ضغنه ويتحين الفرص المناسبة لابداء مطاعنه .

ومنم من هو أكثر حصافة وأوفر كياسة فنراه يستعرض الاسلام بأدب ، ويروى تاريخه أو يسرد معالمه بدقة .

بيد أن ما وقر فى نفسه من تكذيب النبوة ، وما يتبعها يجعله — فى استنتاجه من الوقائع الثابتة — ميالا للتحريف والتظنن .

ومنهم من تروعه سطوة الحق فى هذا الدين ، فيؤمن بعقله وان بقى كافراً بقلبه .

ولعله يزعم أن محمداً — ﷺ — كان صادقاً لدى نفسه ، أى أنه — وان لم يرسله الله — كان مقتنعاً فعلا بأنه رسول .

ومنهم من يستحى — أمام فيضان الحقائق الذى يلقاه وهو يدرس الاسلام ويتدبر تاريخه — أن يحترم الخرافة الزاعمة بأن الاسلام انتشر بالسيف .

وهو انما يحترم عقله اذ يصدر هذا الحكم .

ومع ذلك تبدو منه هنات فى تناول الرسالة الاسلامية نفسها .

علتها ما ذكرناه آنفاً من أن المستشرقين عموماً يشتغلون لحساب الاستعمار .

وأنهم جزء من جيش يهد فى بناء الاسلام وينقض ما ظل سامقاً دهراً طويلا من أمجاد أمته .

قال الدكتور « حسن ابراهيم » :

ان بعض المستشرقين يريد أن يقلل من قيمة الرسالة ، وأن يحكم على صاحبها حكما جائراً .

ودوافعهم فى ذلك ، التعصب لدينهم ، والبغض للاسلام ، والمقت لنبيه .

وهم يطبقون على الاســلام أنماطاً من النقد المتطرف والتفكير المتعسف •

خذ مثلا الأب « لامانس » اليسوعى وهو — فى نظرنا — مثل لجمهرة المستشرقين الكاثوليك •

ان هذا الباحث — برغم أنه من أوسع الأخصائيين اطلاعاً — فهو من أشدهم تعصباً وأبينهم تحزباً •

تراه حين يعرض للمسائل الاسلامية يحيد عن الطريق المستقيم •

وقد وقف على مدى هذا التحيز الذى جعله دائم التحامل على الاسلام وأهله مسيو « اميل درمنجم » — ففند فى كتابه « حياة محمد » ما يقوله « لامانس » هذا عن الدعوة الاسلامية •

وهاك نموذجاً لمــا كتبه :

« ان الأب لامانس » يرى مثلا أنه حين يوافق حديث من أحاديث الرســول بعض آى القرآن يحكم بأن الحديث موضــوع ، وأنه دس على النبى !!

لمــاذا ؟ اعتماداً على ورود معناه فى القرآن وعلى تأييد الكتاب • !!

ومن ثم لا يعتبره « لامانس » صحيح الرواية ولا يثق به •

فحدثنى بربك كيف يمكن تدوين التاريخ اذن ؟

اذا كان كلما اتفقت شهادتان واجتمعت دلالتان ، فبدلا من أن تقوى احداهما الأخرى وتزكيها فانها تكذبها وتجرحها » •

ثم تساءل درمنجم : « لمــاذا لا يكون مثل هــذا الحديث شارحاً للقــرآن •• ؟

وهب الحديث جاء بمزيد من المعانى ، فلماذا نهمل الأسانيد التى وردت به ؟ وكيف يطلب من الناقد تجاوزها ؟ » •

ومثل آخر ، يدلك على ما يبلغه البحث من اسفاف فى تناول الحقائق وتفسيرها ، وذلك بدافع من سوء الظن ، والانقياد الى الغفلة ••

فى القرآن الكريم حروف مفردة تبتدىء بها أحياناً بعض السور •

وقد تكلم العلماء فى هذه الحروف واختلفت آراؤهم فى تأويلها •

بيد أن مجال الاختلاف — على سعته — لم يتجاوز حدود الفكر العادى ، حتى جاء أخيرا نفر من المستشرقين برأى يحار المرء كيف دار بخواطرهم !!

لقد جعلوا هذه الحروف أوائل أسماء لرجال من الصحابة قاموا بجمع القرآن •

انه تفكير يشبه تفكير الحشرات فى الملأ الأعلى ، ولا يستحق بداهة الا أن نلقاه بالهزء •

قال الدكتور « صبحى الصالح » — مفندا هذه الأقوال — :

« ولكن أغرب ما فى الباب ، وأبعده عن الحق والصواب ، ما ذهب اليه المستشرق الألمانى •• نولدكه « Noldeke » فى رأيه الأول ، الذى عدل عنه فيما بعد من الحكم بأن أوائل السور دخيلة على نص القرآن : ففى الطبعة الأولى لكتابه عن تاريخ القرآن ، بالاشتراك مع شفالى « Schwally » تظهر — لأول مرة فى تاريخ الدراسات القرآنية — نظرية لا ترى فى أوائل السور الا حروفا أولى أو أخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة •• !

فالسين من « سعد بن أبى وقاص » ، والميم من « المغيرة » والنون من « عثمان بن عفان » ، والهاء من « أبى هريرة » وهكذا •

ومع أن « نولدكه » شعر بخطأ نظريته فرجع عنها ، ومع أن « شفالى » أهملها وأغفل ذكرها فيما بعد فى الطبعة الثانية ، فان المستشرقين بهل « Bwhl » وهرشفيلد « Hirschfeld » قد تحمسا لها من جديد وتبنياها ، غافلين عن مدى بعدها عن المنطق السليم •• !!

وحسبنا أن المستشرق « بلاشير » يظهر تهافت هذه النظرية بما لا يدع مجالا لتقبلها أو احترامها •

فهو يستبعد مع لوت « Lott » ومع « Baner » من بعده أن يدخل المؤمنون الذين ذكرت أسماؤهم آنفا — وهم من هم ورعا وتقى — عناصر غير قرآنية فى الكتاب المنزل الذى لا يزيد عليه ما ليس منه الا ضعيف الايمان ، قليل اليقين •

ويرى « بلانشير » فوق ذلك : « أنه ليس من المعقول بحال من الأحوال أن يحتفظ أصحاب المصاحف المختلفة فى نسخهم ذاتها بالحروف الأولى من أسماء معاصريهم ، ان علموا أنه لا يقصد بها الا ذلك » .

ويضاف الى هذه الملاحظة القيمة أننا لا نكاد نجد مبرراً لحرص « أبى » أو « على » أو « ابن مسعود » على أن يحتفظوا فى مصاحفهم بالحروف الأولى من أسماء أشخاص كانوا ينافسونهم فى استنساخ القرآن وجمعه .

وينتهى الأستاذ « بلانشير » الى ضرورة الرجوع الى النظرية الاسلامية نفسها ، باستخراج مختلف الآراء ، وتمحيصها ومقابلة بعضها ببعض ..

ونحن نقول : ان البحث العلمى فى الاسلام ، ان كان به عيب ، فهو فرط الحرية التى استمتع بها ، والرحابة التى جعلته يقبل كثيرا من النظريات والعروض الضعيفة ، ويضفى عليها حياة ليست جديرة بها .. ولسنا نأسى على تلك الحال ، وان شغلتنا بما لا طائل تحته .

وأياً ما كان الأمر فان علينا أن نتوقع من أعداء الاسلام طائفة أخرى من المزاعم والترهات لا آخر لها .. وستخرج الحقيقة فى نهاية المطاف الاقة باهرة .

❊ ❊ ❊

وللمستشرقين تراث ضخم فى نقد الاسلام ، ومدحه وقدحه ، وهو تراث قائم رائج ، وله آثار بعيدة المدى بين الأجيال الجديدة .

ونحن على أية حال نتلقى بحوث المستشرقين بما تستحقه من تأمل وحذر .

ولئن كنا لا نستطيع تجاهل ما فيها أحيانا من دس وجور وجهالة .

اننا لا ننتقص ما قد يرد فيها من صواب وذكاء ، وحسن ادراك وأصالة حكم .

وبين يدى كتاب عن الدعوة الى الاسلام الفه بالانجليزية ، سير

توماس أرنولد » وهـو بحث واسع فى تاريخ نشر العقيدة ، توفر على وضعه هذا المستشرق المجتهد الدءوب .

وفى الكتاب وثائق قيمة تكشف عن طبيعة انتشار الاسلام فى أغلب أقطار العالم فيها كلها .

وقد بذل الرجل جهداً واضحاً ليكون منصفاً فى أسلوبه واستدلاله .

وأحسب أن التوفيق لا يخطئنا اذا قلنا : ان هـذا المستشرق من أعدل اخوانه رأياً وأنفـذهم بصراً ، وأميلهم الى أدب اللفظ واثبـات الحق .

ومع ذلك فان سيره مع عقيدته القديمة ، واخلاصه لوظيفته العتيدة وخضوعه لكثير من المؤثرات التاريخية والسياسية جعله يميل عن الصواب قليلا وهو يرسل بعض الأحكام عن الشريعة الاسلامية وعن وسائل امتداد الاسلام فى الأرض .

ونحن — بداهة — لا نطلب من الرجل أن يؤمن برسالة محمد — ﷺ — اذ هو كغيره من المستشرقين يجحدها — ولكننا نرى الحياد العلمى الدقيق يقتضى التسوية بين رسالتى « عيسى » و « محمد » جميعاً ، فلا يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر .

كما أننا لا نكلفه الاقتناع بأن تعاليم الاسلام وحى ، وأن اقبال الناس عليها يرجع قبل كل شىء الى صدقها وخلوص أصحابها .. فذلك شىء قد يكذبه ، ولا حرج عليه منا .

ولكننا نستغرب منه أن يقول : « .. ينبغى أن يعلم القارىء — منذ البداية — أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضـطهادات الاسلامية (1)

وانما وضعناه لدراسة الدعوة الاسلامية فى أنحاء العالم ..

وليس الغرض أن نؤرخ هنا للحالات التى استعملت فيها القـوة لادخال الناس فى الدين الاسلامى مما نجده مفرقاً فى صفحات التاريخ الاسلامى .

فقد عنى الكتاب الأوروبيون ببيان هذه الحالات حتى لم يعد ثمـة خوف من اغفالها .. »

اضطهادات اسلامية !!

ما هذه الخرافة ؟ ؟

أين هي ؟ ومتى وقعت ؟ وعلى من ؟

ان « السير توماس أرنولد » نفسه أول شاهد على تكذيب هـذه الفرية •

لقـد استعرض فى كتابه : كيف انتشر الاســلام ، من الصـين واندونيسيا شرقاً ، الى الأندلس والمغرب و « غينيا » و « غانا » غرباً •

وتتبع دخول الناس فى هذا الدين فى أنحاء القارات الثلاث • فلم يجد أثراً لاضطهاد دينى يمكن أن يكتب عنه أو يشير اليه •

ومع ذلك فهو يقول : انه لا يحصى حالات الاضطهاد اكتفاء بما صنع كتاب أوروبا !! الذين لم يفتهم تسجيلها •

عجباً •• لماذا لم يقل الرجل : انه لم يعثر — فى بحثه الطويل — على أى اضطهاد خلافا لمـا زعم كتاب أوروبا ؟

ولكن غلبة الكره التقليدى للاسلام على ذهن الرجل جعلته يلقى الكلام على هذا النحو •

فلما أعوزه دليل ما على ما ذكره ، نقل عن « سويرس » أن «مروان» آخر ملوك بنى أمية قال لأقباط مصر :

« كل من لا يدخل فى دينى ويصلى صلاتى ويتبع رأيى من أهـل مصر قتلته وصلبته » •

وهذه — لا ريب — كلمة مكذوبة !!

وما يعرف لها فى التاريخ المصرى أثر ولا مكان •

وما حكى مؤرخ قط أن أحدا من حكام مصر قتل قبطياً وصلبه لأنه آثر البقاء على نصرانيته !!

كذلك ما أشار اليه المؤلف من أن « الحاكم بأمر الله » اضـطهد غـير المسلمين ، فـ « الحاكم » رجل مجنون أصاب حمقه المسلمين قبل غيرهم ، وقتل آخر الأمر لسفهه •

فكيف يقال : انه صاحب سياسة اضطهاد لأهل الكتاب ؟

ان القول بوقوع اضطهاد دينى لقسر الأمم على قبول الاسلام حيف شنيع على التاريخ .

والصاق تهم لا أصل لها بدين هو أبعد ما يكون عن هذا النعت .

على أن المستشرق الباحث يعتذر عن هذا الاضطهاد المتخيل ويقول: ان الاسلام فى هذا كالنصرانية (٤٥) ، وان التأريخ للدعوات يجب أن ينظر فيه الى مسلك أصحابها الفاقهين لروحها ، لا الى نزق بعض الحكام وهاك عباراته كاملة :

فى بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الاصغاء الى ما فعله القديس ليودجر « Liudger » والقديس ويليهام «Wileham» بين السكسونيين الوثنيين أكثر مما يصغى الى أخبار التعميدات المسيحية التى كان « شارلمان » يفرضها عليهم بحد السيف .

وكذلك المبشرون فى بلاد الدانيمارك وهم القديس انسجار « Ansgar » وخلفاؤه . انهم أحق بصفة التبشير من الملك كنوت « Cnot » الذى استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والارهاب .

وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد « Gottfried » والأسقف كريستيان «Christian» من نجاح ضئيل فى تنصير البروسيين والوثنيين ، اذ كان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما ، فانهم كانوا بحق أكثر تمثيلا لنشر الدعوة من جماعة اخوان السيف « Bertheren of the Sword » وغيرهم من الصليبيين ، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار .

ولقد فرض فرسان « Mili'iachrist orbofratram » المسيحية على شعب لينونيا فرضاً .

ولكن الرسل الحقيقيين للعقيدة المسيحية فى هذه البلاد ، هم رهبان ماينهارد و تيودوريك « Mainhard and Thedoric »

وهم فى ذلك أشد أثراً وأعظم شأناً من أولئك الفرسان المجاهدين الذين قامت دعوتهم على القوة العسكرية .

وان الوسائل العنيفة التى كان يلجأ اليها أحيانا الرسل اليسوعيون لم يمكن أن تنقص الشرف الذى يتصف به أمثال القـديس فرانسيس كسافير « Francis Xavir » وسائر المبشرين من هذه الطائفة .

كذلك لم يكن فالنتين « Valentyn » بأقـل من رسـل أمبوينيا « Amboyna » فى هذا السبيل .

فقد وجه سنة ١٦٩٩ راجوات « Raiwat » الى هذه الجزيرة مرسوما يأمرهم فيه باعداد طائفة معينة من الوثنيين لتعميدهم اذا ما طاف بهم راعى الكنيسة .

ثم قال « السير توماس أرنولد » :

واذا تتبعنا تاريخ الكنيسة المسيحية ، فاننا نجد نشاط الدعوة فى اطراد مستمر .

وقد يلى عصر الحماسة التى أظهرها « الرسل » فى نشر الدين فترة جمود وعدم اكتراث .

وربما حل الاضطهاد والتنصير الاجبارى محل الدعوة الهادئة الى « كلمة الله » .

كذلك كانت الدعاية الاسلامية فى شتى عهود التاريخ الاسلامى بين مد وجزر .

ولكن لما كانت الغيرة التى عرف بها هؤلاء العاملون على نشر الدين ظاهرة جلية فى بث كل من الديانتين ، رأينا من المناسب أن نفرد لتاريخ الدعوة ، منفصلة عن أخبار الاضطهاد فى تاريخ الكنيسة المسيحية أو من المعلومات التى تتعلق بالحياة الدينية .

على أن نحصر عنايتنا فى دراسة مظهر من مظاهره يكون له مميزاته الخاصـة .

وعلى ذلك ففى مقدورنا أن ندرس الأخبار التاريخية المتعلقة بهذه الدعوة ، منفصلة عن أخبار الاضطهاد فى تاريخ الكنيسة المسيحية أو فى تاريخ العقيدة الاسلامية .

ولو انه قد يكون هناك ما يسوغ الخلط بين هاتين الديانتين أحيانا .

فكما أن الدين المسيحى لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التى اتخذها فى فيكن « Viken » — القسم الجنوبى من النرويج — الملك أولاف ترايجفيسون « Olaf Trygvsson » الذى كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول فى المسيحية أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم ، وبهذه الوسائل انتشر الدين المسيحى فى « فيكن » بأسرها .

وكما أن وصية القديس « لويس » لم تتخذ أصلا لمهمة التبشير المسيحى : تلك الوصية التى تقول : « عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسىء الى سمعتها ، فأنه ينبغى ألا يزود عن تلك الشريعة الا بسيفه الذى يجب أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء ... » .

« فكذلك ظهر دعاة مسلمون ، لم يكن شعارهم فى وسائل دعايتهم تلك العبارة القاسية التى فاه بها « مروان » آخر خلفاء بنى أمية .. » .

هكذا يقول « السير توماس » فى مقارنته التى تبدو منصفة !!

ونحن نرفض رفضاً باتاً أى تسوية بين تاريخ النصرانية وتاريخ الاسلام فى هذا المجال .

فـ « مروان » — الملقب بالحمار — لم يزعم أحد أنه من رجال الفقه أو أئمة التشريع .

ذلك لو افترضنا — جدلا — صحة الكلمة التى تلصق به .

فكيف مع أن الكلام المنسوب اليه مكذوب .. ؟ ؟

أما القديس « لويس » صاحب الوصية المذكورة بطعن الكفار فى أحشائهم فهو علم مطاع الأمر ، نافذ الوصية .

وقد سار التاريخ المسيحى فى المجرى الذى حفرته هذه الكلمة وأمثالها .

والحكم الاسلامى — فى أسوأ عهوده — لم يمتشق الحسام أبدا لارغام أحد على اعتناق الدين .

والدليل على ذلك من السياحة الرحبة التى طوفت بالمستشرق الكبير

فى فجاج الأرض الاسلامية كلها ، والاستيعاب الشامل الذى قدمه لنا وهو يشرح دخول الاسلام أغلب هذه الأقطار .

انه لم ير فيها ظلالا لاضطهاد ، بل رأى فيها السماحة بعينها ، فكيف يقع فى هذا الخطأ ؟ .

انه الكره التقليدى للاسـلام ! ! ومع ذلك فلنتجاوز هذا الموضع .

لقد قلنا : ان جمهرة المستشرقين لا يرون محمدا — ﷺ — رسولا كلفه الله بدين ، وأيده فى بيانه ونصرته بالوحى .

انه — على أحسن الفروض — رجل عبقرى أريب ، ذكى الدراسة والسياسة ، واتته الفرص وأسعفته الحظوظ ، فبلغ بنفسه ودعـوته ما بلغ ..

والسير « توماس أرنولد » يعتنق هذه الفكرة ، ويفسر على ضوئها طائفة من تصرفات النبى التى عرضت له وهو ماض فى بحثـه الذى تناولنـاه .

والرجـل فى ميدان العـلم أشرف من نفر آخرين — مستشرقين ومبشرين — يندفعون بغباوة الى مهاجمة الاسلام ونبيه بكليمات هى الى أسلوب الرعاع أقرب .

ونحن لا نؤاخذ أحداً من باحثى الغرب اذا أنكر نبوة محمد ﷺ .

فالمكذبون لصاحب الرسالة العظمى كثيرون ، حفل بهم العهد الأول، ولم ينقرضوا على مر العصور ، وما أظن الأرض ستخلو منهم يوما .

ونحن لا ندرى سر هذا التكذيب .

أهو طعن فى تعاليم هذه الرسالة ؟ وانكار لصـلاحيتها ، وافادة الناس منها .

أم هو استكثار على رجل من الناس أن يصطفيه الله لعمل ما ؟ .

من قديم نزل القرآن الكريم يستغرب هذا الموقف :

« الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قـدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون ان هذا لساحر مبين » (٤٦) .

---

(٤٦) يونس : ١ ، ٢ .

والمستشرقون الذين ينسبون محمدا ﷺ الى الادعاء كالوثنيين الذين ينسبونه الى السحر ، مخطئون — فى نظرنا — أشد الخطأ .

فمن من النبيين جميعا أجدر بالنبوة من محمد ﷺ ؟ .

انه فى سيرته ، ودعوته ، وتراثه الفكرى والروحى ، وأثره فى العالمين ، أحق بالرسالة من أى امرىء آخر .

ان أحداً من المرسلين الكبار لم يغرس فى النفوس حب الله واجلاله، وافراده بالعظمة والمجد ، والتوسل اليه بالرغبة والرهبة ، مثلما فعل محمد بن عبد الله ﷺ .

ان القرآن الكريم أول كتاب فى الحياة ، وآخر كتاب فى الحياة . يشحن الأفئدة باليقين النقى ، ويوثق رباطها بالله على نحو لا يستطيع كتاب آخر أن يقترب من أفقه .

وليس فى هذا الكتاب شىء شخصى لـ « محمد » — ﷺ — يرتفع به عن مستوى العباد ، أو يخفف عنه شيئا من أعباء التكاليف ، بل فيه هذا التجرد المحض .

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٤٧) .

ان النبوة اذا ثبتت لرجل ما عن طريق التأمل فى سريرته وسلوكه وقدرته على سوق الناس الى الله بالحب الخالص ، فأولى الناس بها هو محمد بن عبد الله ﷺ .

واذا كانت النبوة حقاً لأوسع الناس ثروة فى الأفكار والمشاعر التى ارتفع بها العالم وزكا ، والتوجيهات التى دفعته دفعاً الى سواء السبيل ، فمن كـ « محمد » — ﷺ — فى هذا المضمار ؟ .

قال الشيخ « **محمد المدنى** » :

« لقد استطاع « محمد » — صلوات الله وسلامه عليه — أن يقضى بدين التوحيد على الوثنية فى جميع صورها قضاء تاما .

---

(٤٧) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

فحطم الأصنام ، وأهدر السلطة الروحية للبشر ، ووجه العقل الانسانى توجيها قويا عمليا الى أن التحريم والتحليل انما هما لله وحده، وأنه لاواسطة بينه وبين عباده فى رضوانه أو فى حرمانه .

واستطاع أن يقر فى الناس — على اختلاف ألسنتهم وألوانهم — مبدأ المساواة لأنهم جميعا من أصل واحد « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

« لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى أو عمل صالح » .

ولم تكن الانسانية قد أذعنت لهذا المبدأ ، بل كانت الشعوب تصلى نيران التفرقة وتعيش فى جحيم الطبقات .

وهكذا تآخى بنو آدم ، وأحيوا فيما بينهم وشيجة الرحم الأولى ، ووجهوا تنافسهم وتسابقهم الى العمل الصالح الذى يرفع بعضهم فوق بعض .

واستطاع أن يغرس فى الناس مبدأ التكافل .

فالمجتمع وحدة متضامنة ، يعين قويه ضعيفه ، ويؤخذ من غنيه ليرد على فقيره لا فرق فى ذلك بين مجتمع الأسرة ، ومجتمع القرية ، ومجتمع الأمة ، ومجتمع العالم .

الاسلام هو الذى قرر هذا المبدأ ، يوم كانت القاعدة فى العالم هى استئثار الأقوياء بكل شىء من دون الضعفاء .

واستطاع أن يركز فى الناس قانونا رحيما عادلا شاملا يكفل لهم السعادة والصلاح ، ويدرأ عنهم الشقاء والفساد .

ذلك القانون الذى يجمع بين اصلاح المرء فيما بينه وبين نفسه . واصلاحه فيما بينه وبين الناس .

والذى يقيم من المرء على نفسه حارسا ووازعا ، ويجعله ينظر الى قواعد السلوك والمعاملة فى المجتمع نظرته الى ما هو مطالب به من العبادة فيلتمس الثواب بما يفعل . ويخشى العقاب فيما يترك .

والذى يبنى كل معاملة على أسس من المحبة والرحمة والعدل ، وينظر اليها من ناحية الفضيلة وما ينبغى أن يكون بين الناس من تكرم واحسان .

واستطاع ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن ينظر الى العدل نظرة رحبة فلا يفرق بين متبعيه ومخالفيه ٠

وقــد كانت هــذه التفرقة — وما زالت — سراً من أسرار الويل والشقاء فى العالم » ٠

ذلكم هو « محمد » ﷺ ٠

والحق أن المستشرقين تنكبوا طرق العلم والعدل والحياد والانصاف حين تلقفوا نبوة غيره بالاقرار ، واستقبلوا هذه النبوة بالفتور والصد ٠ ثم راحوا يفسرون سيرة الرسول تفسيرهم لسلوك رجل مبتوت العلاقة بالسماء كل ما عنده موفور من الذكاء والدهاء ٠

وصاحب كتاب « الدعوة الى الاسلام » لم يشذ عن خطة رفاقه ، وهو يتابع أعمال الرسول ، ويصف جهاده ٠٠٠

ولذلك تراه يتناول سيرة النبى مع اليهود ، ومحاسنته لهم — وهى محاسنة تنبع من أصالة الدعوة فى السماحة — فاذا هو يصف احتيـــال زعيم سياسى يكسب هؤلاء ، لغرض ، ويدع هؤلاء لغرض ٠٠!!!

وتراه مرة أخرى يتحدث عن تحويل القبلة — وذاك عمل لا يتم الا بوحى أعلى ٠

فاذا هو ينظر الى الأمر كله على أنه حركة قومية تستهدف أن يستقل العرب بوجهتهم الأثيرة الى بيتهم القديم ٠

وبذلك يظهر الاسلام وكأنه نهضة قومية خاصة ٠

ويبدو رســوله وكأنه زعيم يشبه أولئك الذين ينادون بالحــرية والاستقلال فى بعض البلدان المختلفة ٠

وهاك ما كتبه تحت عنوان : « الهجرة الى المدينة : بداية الحياة القومية للاسلام » :

قال : كان أول ما عنى به « محمد » — ﷺ — بعد أن دخل يثرب « المدينة » كما سميت منذ ذلك الوقت — أن يبنى مســجدا ليكون مقاما للصلاة ومجمعا عاما لأصحابه الذين كانوا — حتى ذلك الحين — يجتمعون لهذا الغرض فى بيت واحد منهم ٠

وكان المصلون قد تعودوا فى العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس .

وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود الذين حاول « محمد » — ﷺ — استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة .

لقد دأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية التامة فى اقامة شعائرهم الدينية ، وساوى بينهم وبين المسلمين فى الحقوق السياسة ، ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية .

فلما أخفقت آماله فى استمالتهم اليه ، وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون « محمداً » نبياً لهم ، أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة (سورة ٢ : آية ١٤٤) .

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة .

اذ كان ذلك فى الواقع بداية للحياة القومية فى الاسلام .

قد جعل من الكعبة فى مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة ، كما كانت فى الأزمان الغابرة مقصداً لحج القبائل العربية جميعاً .

ونظير ذلك فى المكانة ما كان من جعله الحج الى مكة — تلك العادة العربية القديمة — فريضة من فرائض الاسلام ، فأصبح هذا العمل شعيرة مقدسة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل فى حياته .

***

وهذا الكلام من أوله الى آخره تخليط وشرود .

فان الاسلام لم يختص اليهود بتلطفه وأحسانه ، حتى يكون متهما فى أدبه مع هؤلاء القوم .

ان الاسلام سبق بالمياسرة والتجمل فى علاقاته مع عبدة الأوثان وأهل الكتاب جميعا .

ولم يجنح الى القتال الا بعد ما أخرجه العدوان وتهدد حياته .

أما القبلة الأولى فقد اتجه المسلمون اليها فى مكة ، قبل أن يعاشروا يهود ، أو يكونوا معهم صلة ما .

وذلك طبيعى فى دين يعترف بالنبوات القديمة ويصدق أصولها ، ويخالف الوثنية الضاربة فى أرجاء الجزيرة ويخاصم شركها .

فلما حقت كلمة الله على أهل الكتاب ، وبدا من مسكلهم ازاء الرسالة الجديدة أنهم مصرون على حربها ، وأنهم — بهذه الحرب — ينسلخون عن قواعد الدين كما جاء بها شيخ الأنبيـاء « ابراهيم » ، صرف الله المسلمين عن القبلة التى تجمعهم مع اليهود والنصارى الى القبلة التى بنى ابراهيم نفسه أركانها وأقام معالمها .

وقبائل العرب كانت تنطلق صوب الكعبة لعبادة الأصنام المنصوبة حولها لا لتوحيد الله بالصلاة اليها .

فلا شبه بين فعل الرسول وبين صنيع أهل الجاهلية .

والبيت العتيق ليس بناء عربيا يحج اليه جنس معين شاده لنفسه حتى يكون شارة عنصرية .

بل هو أثر الرجل الذى ينتمى اليه اليهود والعرب جميعا ، وتنتسب الديانات الكتابية كلها اليه ، أثر ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامة عليه .

ولكن المستشرقين يصبغون الحقائق بلون ينضح بتكذيبهم للاسلام وتخيلهم العليل لحقيقة الرسالة الخاتمة .

ومضيا مع فكرة أن الاسلام دين قومى للعرب وحدهم نرى « السير وليم موير » يسطر هذا اللغو المضحك فيزعم :

أن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد !!!

وأن هذه الفكرة — على الرغـم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها — لم تخطر ببال « محمد » نفسه !!! .

ثم يقول : وعلى فرض أنه فكر فيها ، فقد كانت فكرته غامضة . !!!

اذ أن عالمه الذى يفكر فيه انما هو بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ الا لها .

ويزعم الرجل أن « محمدا » — ﷺ — لم يوجه دعوته — منذ بعث الى أن مات — الا للعرب دون غيرهم . !!

ثم يقول هذا القسيس « موير » : — بعد لغط حول عموم الدعوة :

وهكذا قد نرى أن عالمية الاسلام غرست بين تعاليم الاسلام .

ولكنها اذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فانما يرجع هذا الى الظروف والأحوال أكثر منه الى الخطط والمناهج » • !!!

نقول : وهذا كله كلام فارغ •

ويؤسفنا أن يذكر فى مجال بحث علمى محترم •

وقد طواه السير « توماس أرنولد » فلم يأبه له ، وذكر — فى بساطة — الحقيقة العلمية فى الموضوع تحت عنوان « الاسلام دين عالمى » قائلا :

لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل ان للعالم أجمع نصيبا فيها •

ولما لم يكن هناك غير اله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس كافة •

ولكى تكون هذه الدعوة عامة ، ولكى تحدث أثرها المنشود فى جميع الناس وفى جميع الشعوب ، نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى يروى أن « محمدا » بعث بها فى السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨م) الى ملوك ذلك العصر •

فى هذه السنة أرسل الرسول كتبا الى « هرقل » قيصر الروم ، والى « كسرى » فارس ، والى حاكم « اليمن » والى حاكم « مصر » والى النجاشى فى بلاد الحبشة •

وقد قيل : ان الكتاب الذى أرسل الى هرقل كان كما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم من « محمد » عبد الله ورسوله الى هرقل قيصر الروم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان تتولى فان اثم الأكارين عليك **« يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »** (٤٨) •

على أنه ، ان كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر من أرسلت اليهم

---

(٤٨) آل عمران : ٦٤ •

ضربا من الخرق ، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء .

وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الاسـلام ، فقد قال الله تعالى : « **أن هو الا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين** »[٤٩] .

« **أن هو الا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** »[٥٠] .

« **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** »[٥١] .

« **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** »[٥٢] .

« **وما أرسلناك الا كافة للناس بشـيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** »[٥٣] .

« **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** »[٥٤] .

وفى ساعة من ساعات اليأس العميق عندما كان أهل مكة يمعنون فى النفور من كلام النبى (سورة ١٦ : آية ٤٣ ، ١٤٤ الخ) وعنـدما عذبوا الرجال المستضعفين الذين هداهم النبى الى الاسلام حتى اضطروهم أن يكفروا من بعد ايمان (سورة ١٦ : آية ١٠٨) .

وعندما لجأ آخرون الى المهاجرة فى الله من بعد ما ظلمهم مضطهدوهم (سورة ١٦ : آية ٤٢ ، ١١١) .

عند ذلك تلقى النبى هذا الوعد المستغرب « **ويوم نبعث فى كل أمة شـهيداً** »[٥٥] .

وان ما يعبر به النبى فى تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الاسلام ديناً ليزداد وضوحاً فى قول « محمد » متنبئا بانتشار دعوته : ان « بلال » أول ثمار الحبشة ، وان « صهيباً » أول ثمار الروم .

---

(٤٩) سورة ص : ٨٧ ، ٨٨ .
(٥٠) يس : ٦٩ ، ٧٠ .
(٥١) الانبياء : ١٠٧ .
(٥٢) الفرقان : ١ .
(٥٣) سبأ : ٢٨ .
(٥٤) الصف : ٩ .
(٥٥) النحل : ٨٩ .

وأما سلمان ، وهو أول من أسلم من الفرس ، فقد كان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق الاسلام فى السنة الأولى من الهجرة .

وهكذا يصرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الاسلام ليس مقصوراً على الجنس العربى ، وذلك قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل .

وان القصة التالية الخاصة بارسال البعوث الى كل الشعوب للدعوة الى الاســلام لتشير الى دعوى عموم الرسالة وهى أن رســول الله — ﷺ — قال لأصحابه :

وافونى بأجمعكم الغداة ، وكان اذا صلى الفجر احتبس فى مصلاة قليلا ، يسبح ويدعو ، ثم التفت اليهم فبعث عدة رجال الى عدة قبائل ، وقال لهم : انصحوا الله فى عباده . فانه من استرعى شيئاً من أمور الناس لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة ، وانطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل « عيسى ابن مريم » ، فانهم آتوا القريب وتركوا البعيد .

ثم قال « سير توماس أرنولد » :

« .. ويؤيد دعوى عموم الرسالة ، والحق فى المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الاسلام كان الدين السماوى الذى اختاره الله من قديم للجنس البشرى كافة ثم أوحى به اليهم من جديد على لسان محمد « خاتم النبيين » (سورة ٣٣ : آية ٤٠) كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل :

« وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون »(٥٦) .

« قل ما كنت بدعاً من الرسل » (٥٧) .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين

---

(٥٦) [illegible] (٥٧) الأحقاف : ٩

آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(٥٨) .

« ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين »(٥٩) .

« قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين »(٦٠) .

« قل بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين »(٦١) .

« قل صدق الله ، فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »(٦٢) .

« ان أول بيت وضع للناس ببكة مباركا وهدى للعالمين »(٦٣) .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، واتخذ الله ابراهيم خليلا »(٦٤) .

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين »(٦٥) .

والسير « توماس أرنولد » بهذه الشواهد التى ساقها ، وبذلك الحكم الذى أصدره كان رجلا عالماً عادلا ، لم يسمح للتعصب أن ينسج على عينيه غشاوة تعمى عليه الحق ، ولا أن ينسج على ضميره حجاباً يجور به فى الحكم ..

ومن ثم قلنا : ان هذا المستشرق أدنى رفاقه جميعاً الى النصفة وأقصاهم عن متابعة الهوى .

ولعل من صدعه بالحق أن يقرر — فى هدوء — كون الدولة جزءاً من الاسلام فان بعض المفتونين — تأثراً بالغزو الثقافى الصليبى — كان يمارى فى شمول الاسلام للعقيدة والشريعة ، والأدب النفسى ونظام المجتمع ، ولشعائر العبادة ، ومراسيم الحكم ..

---

(٥٨) البقرة : ٢١٣
(٥٩) النحل : ١٢٣
(٦٠) الأنعام : ١٦١
(٦١) البقرة : ١٣٥
(٦٢) آل عمران : ٩٥
(٦٣) آل عمران : ٩٦
(٦٤) النساء : ١٢٥
(٦٥) الحج : ٧٨

مع أن نصوص القرآن وسيرة الرسول قاطعتان فى أن الاسلام دين روحى ومدنى ... وأنه للفرد والجماعة والدولة دون تفريق .

وفى ذلك يقول صاحب « الدعوة الى الاسلام » تحت عنوان « محمد مؤسس هيئة سياسية منظمة » :

ولنعد الآن الى تتبع حياة « محمد » فى المدينة .

ولكى نقدر موقفه بعد الهجرة تقديراً حقيقياً ، ينبغى أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربى فى ذلك الحين من طابع خاص ، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شعب الجزيرة .

لم يكن يوجد اطلاقاً أى منهج منظم للادارة أو القضاء كالذى نعرفه عن فكرة الحكومة فى العصر الحديث .

كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال ، بل قد ينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة أنفسهم .

فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ القبيلة أو سلطته الا رمزاً لفكرة عامة ، شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب .

بل لقد كان له مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الكثرة من أبناء قبيلته .

وأبعد من هذا ، أنه لم يكن هناك زمن لتنتقل سلطة الرئيس عند انتهاء أمده .

اذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سناً ، وأكثرهم مالا ، وأعظمهم نفوذاً وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصى .

واذا ما تضخمت قبيلة ما وتشعبت فروعاً كثيرة تمتع كل فرع منها بحياة منفصلة ووجود مستقل .

ولا تتحد الا فى ظروف غير عادية اشتراكا فى الدفاع عن الجماعة ، أو قياماً بغارات بالغة الخطورة .

ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف تمكن « محمد » من أن يجعل نفسه فى المدينة على رأس جماعة من أتباعه ، كبيرة العدد ، آخذة فى النمو ، يتطلعون اليه زعيما وقائداً ولا يعترفون بسلطانه ، دون اثارة أى شعور

من القلق أو خوف من التعدى على السلطة المعترف بها ، كما كان ينتظر أن يحدث فى مدينة اغريقية قديمة ، أو فى أى مجتمع منظم يماثلها .

وهكذا باشر « محمد » سلطة زمنية كالتى كان يمكن أن يباشرها أى زعيم آخر مستقل مع فارق واحد هو أن الرباط الدينى بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم .

وعلى هذه الصورة أصبح الاسلام — ولو من الوجهة النظرية على الأقل — نظاماً سياسياً بقدر ما هو نظام دينى » .

واستطرد « سير توماس » يقول :

كانت رغبة « محمد » ترمى الى تأسيس دين جديد ، وقد نجح فى هذه السبيل ولكنه — فى الوقت نفسه — أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً » .

وكانت رغبته — بادىء الأمر — مقصورة على توجيه بنى وطنه الى الاعتقاد بوحدانية الله .

الا أنه — بجانب ذلك — عمل على هدم نظام الحكومة القديم فى « مكة » — مسقط رأسه — واقامة حكومة دينية مطلقة ، وقام هو على رأسها خليفة الله فى الأرض بدلا من حكومة الأرستقراطية القبلية ، التى كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها » .

***

ولنا هنا تعليقات ينبغى اثباتها :

صحيح أن قيام الدولة فى الاسلام شىء لم يكن منه بد .

بل هو الكيان الاسلامى نمو طبيعى يشبه تدرج الكائن الحى فى مراتب القـوة والاكتمال وبلوغه مكانة يستطيع فيها اصلاح شـئونه وتقـرير حقوقه ...

وأغرب المطالب أن يتوجه بعض الناس الى الاسلام بالاعتراض والتســاؤل :

لمــاذا لم تبق أيها الدين رسالة عائمة مطاردة تعرض على الناس — ان سمح لها — وكأنها خيال حالم ، أو تفكير فيلسوف صغير ؟ .

لماذا تحولت أيها الدين الى فكرة تمد جذورها فى أعماق المجتمع وتنشر أغصانها فى أرجائه ، وتصنع الأجيال الجديدة وفق ما تريد ، وتدفع عن ثمارها المغيرين والخطافين ؟ . ومن الذين يتوجهون بهذا التساؤل ؟

الذين يتوجهون الى الاسلام بهذا التساؤل ، هم الذين أقاموا دولة للوثنية تضيق الخناق على التوحيد .

ودولة للصليبية تطارد المخالفين لرأيها فى كل مكان ، وتسد أمامهم منافذ القضاء .

دولة ظلت ، ولا تزال ، طوال عشرين قرناً وهى عدو لدود لمن لا يقتنع بثالوثها وقرابينها وتفكيرها المعقد العجيب .

هؤلاء وأولئك الذين أنكروا أن تقوم للاسلام دولة .

وهم الذين صاحوا — بعد أن تكسرت أنيابهم وهى تحاول عض الايمان المدرع قائلين :

ان هذه القوة لا معنى لها ويجب أن تبيد !!

وردنا على هؤلاء وأولئك ، أن الدولة فى الاسلام ركن هائل لدعم ما احتواه من ايمان واحسان .

والقوة ليست عيباً . انما العيب استغلالها السىء ، وتسخيرها لفرض الهوى واقرار الجور .

والجمال ليس عيباً . انما العيب التوسل به لاشاعة الخنا ، ونشر المنكر .

والسلطة ليست عيباً اذا باشر المرء بها أموره الخاصة ولم يحتج بها الى تسول عون أو الاستصراخ بمنقذ .

وتولى الحكم ، وادارة دفته ليسا منقصة اذا كانا انفاذاً لأوامر الله واقامة لحدوده فى الأرض .

ان الدولة فى الاسلام تنظيم وحراسة ، وصون لتراث السماء وأمان لجماهير الناس . وسياج حول الدماء والأموال والأعراض .

ولم تكن الدولة ، ولن تكون فى هذا الدين ذريعة فتك واغتصاب ،
ولا وسيلة فتنة واضطراب ، ولا أداة لتحويل الناس قسراً عن عقائدهم ،
وما ارتضوه من ألوان الايمان .

والاسلام لم يجعل من الحكم قنطرة لادخال الناس فيه كرهاً .
بل ان الايمان الناشىء عن اكراه لا قيمة له عنده ، وليس له عند
الله مثوبة .

وكما أن كلمة الكفر التى ينطق بها المؤمن كرهاً لا تخلعه من الايمان ،
فكذلك كلمة الاسلام التى يتلفظ بها تحت الضغط لا تخرجه عن الكفر !!!

والاسلام دين يرد الأعمال الى النيات ، ولا يهمل أبداً شأن القلوب .

والزعم بأن الاسلام استغل الحكم يوماً لمطاردة الكافرين وارغامهم
على اعتناقه زعم مكذوب من أوله لآخره .

وخلة فى الآخرين يرمون بها الأبرياء شأن كل مريب صفيق .

* * *

ان الشىء الذى يغيظ أعداء الحقيقة ، هو أن الاسلام زودته العناية
بتعاليم تجعله صلب المكسر ، لا يستطيع الباطل أن يجتاحه بسهولة ،
ولا أن ينال منه بيسر . بل نقدر أن نقول : لقد كان هذا الباطل يزأر فى
عرصات الدنيا دون تهيب ، ويزعج الآمنين فى كل قطر دون وجل .

فلما ظهر الاسلام ، واشتبك الباطل معه — على عادته — عاد من
هجومه مقصوم الظهر ، مخضوب الكف .

فراح يجأر بالشكوى أن الاسلام دين سيف ، وأن الحكم فى رحابه
جله صلب العود .

نعم هو كذلك ، وما عيب السيف اذا رد المعتدين ؟ ؟

وما عيب الصلابة فى الحق اذا استعصت على الفتانين ؟ ؟

ان السؤال الذى يجب أن تتحدد الاجابة عنه هو : هل كان الحكم
فى الاسلام أساساً لفتنة غير المسلمين عن دينهم ؟

هل كانت الدولة فى خدمة الدعوة من حيث استغلال أجهزتها للفتنة
والاعنات ؟

والجواب نأخذه من كلام « سير توماس أرنولد » نفسه .

لقد ذكر الرجل فى الباب الثالث عشر كيف أن الاسلام لا توجد فيه

هيئة منظمة للدعاة ، وأن انتشاره خضع — أولا وآخراً — لحماسة الأفراد وقوة ايمانهم بصدق رسالتهم ، وعظمة دعوتهم ..

والاسلام — فى هذا — يخالف النصرانية التى قامت فيها أجهزة منظمة للتبشير والدعاية على أوسع نطاق .

بل التى قامت لها دول تستأصل المخالفين ، وتضن عليهم بحق الحياة .

قال « السير توماس أرنولد » :

« ومهما تكن المساوىء التى نجمت عن حاجة المسلمين الى طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة ، فقد وجدوا ما يعوضهم عنها فى ذلك الشعور الناشىء عن المسئولية التى ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد .

ولما لم تكن هنالك واسطة بين المسلم وربه ، فان مسئولية خلاص الشخص ملقاة على كاهله وحده .

وكان من أثر ذلك أن أصبح المسلم — كما جرت العادة — أكثر تشدداً واهتماماً فى أداء واجباته الدينية ، وأشد تحملا للمتاعب فى سبيل تعليم مبادىء دينه واقامة شعائره .

وبذلك يؤثر لنفسه — وقد رسخت فى ذهنه أهمية هذه المبادىء وتلك الشعائر — أن يصبح رمزاً لخلق الداعى الى دينه بين يدى الكافر .

ومهما تكن المبالغة عظيمة فى القول ، ومهما ردد الباحثون القول بأن كل مسلم داعية الى دينه يبقى هذا القول حقيقياً .

ونجد فى ثبت يتضمن أسماء دعاة من الهنود المسلمين ، نشر فى صحيفة احـدى جمعيات « لاهور » الدينية الخيرية ، وأسماء معلمى مدارس ، وكتاب الحكومة فى مصلحتى القناة والأفيون ، وتجار — بينهم أحد العمـال فى عربات النقل بالجمال — ومحرر باحـدى الصحف ، ومجلد كتب ، وعامل فى مطبعة . ماذا صنع هؤلاء ؟ .

خصص كل واحد من هؤلاء الناس ساعات فراغهم — بعد انجاز عملهم اليومى — للدعوة الى دينهم فى الطرقات وأسواق المدن الهندية ، متلمسين مسلمين جدداً من بين المسيحيين والهندوكيين جميعاً .

فكانوا يجادلونهم ويحملونهم على عقائدهم .. ؟ ؟

قال : « ومما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشر الاسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم •

بل لقد قام نساء مسلمات أيضاً بنصيبهن فى هذه المهمة الدينية • فيرجع الفضل فى اسلام كثير من أمراء المغول الى تأثير زوجة مسلمة •

ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سبباً فى اسلام كثير من الأتراك الوثنيين عندما أغاروا على الأقطار الاسلامية •

وقد أنشأ دعاة السنوسية الذين قدموا لنشر دعوتهم شمال بحيرة « تشاد » مدارس للبنات ، واستغلوا ما تحدثه النساء بعلاقات المصاهرة من نفوذ قوى بين القبائل ـ كما كان لهن مثل هذا النفوذ بين جيرانهن من البربر ـ فبذلوا جهودهم لتكوين داعيات يجتذبن الآخرين الى صفوف الاسلام •

وفى افريقيا الشرقية الألمانية ـ تنجانيقا قبل الحرب العالمية الأولى ـ دخل فى الاسلام هؤلاء الأهالى الوثنيون الذين كانوا يتركون أوطانهم ستة أشهر أو أكثر للعمل فى السكك الحديدية أو الأراضى الزراعية ، دخلوا فيه على أيدى نساء مسلمات تعاقدوا معهن على زواج مؤقت •

فان أولاء النساء كن يرفضن أن يتعاملن فى شىء مع كافر لم يختتن بعد •

فكان بعولتهن يتجنبون ذلك العار الذى يلحق من يحمل مثل هذا اللقب بأن يختتنوا ، وبذلك يقبلون الدخول فى الجماعة الاسلامية •

وقد قيل : ان تقدم الاسلام ببلاد الحبشة فى خلال النصف الأول من القرن الماضى انما يرجع الى حد كبير الى ما بذله النساء المسلمات من الجهود .. » •

ثم قال « السير توماس ارنولد » :

حتى المسلم الأسير .. كان يغتنم الفرص فى المناسبات لدعوة آسريه أو اخوانه فى الأسر الى دينه • !!!

وقد تسرب الاسلام الى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به

فقيه مسلم سيق أسيراً فى احدى الحروب التى نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين ، وجىء به الى بلاد «Pechenegs» فى مستهل القرن الحادى عشر .

وقد بسط هذا الفقيه بين يدى كثير منهم تعاليم الاسلام ، فاعتقدوه فى اخلاص ، حتى أنه أخذ فى الانتشار بين الشعب ، وأقبلت عليه طوائف شتى .

أما سائر الـ «Pechenegs» الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الاسلام فقد ارتابوا فى تصرف مواطنيهم ، وكرهوا منهم هذا التحول ..

ثم انتهى الأمر الى نشوب القتال بينهم .

وقاوم المسلمون — وكان عددهم يبلغ نحواً من اثنى عشر ألفاً — هجمات الكفار فى نجاح .

ومع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداً بما يزيد على الضعفين ، فقد فشلوا أمامهم فشلا ذريعاً .

ثم دخلت فلول المهزومين فى دين المؤمنين القلائل المنتصرين .

ولم تأت نهاية القرن الحادى عشر حتى كان الشعب بأسره قد اعتنق الاسلام .

وكان من بينهم مسلمون نابهون ، تعلموا الفقه والتوحيد .

وفى عهد الامبراطور جهم جير (١٦٠٥ — ١٦٢٨) كان هنالك عالم سنى من علماء التوحيد يدعى « الشيخ أحمد مجدد » تميز بقدرته على مجادلة الشيعة فى عقائدهم بنوع خاص .

ولما كان هؤلاء مقربين الى البلاط فى ذلك الحين فقد نجحوا فى ايداعه السجن بتهمة تافهة .

وفى خلال السنتين اللتين قضاهما فى الحبس أدخل فى الاسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه فى السجن » !!

* * *

أن القرآن الكريم عبأ قلوب المسلمين بايمان من طراز عال خاص .

ايمان جعل صلتهم بربهم لا تسبقها صلة ، وحبهم له لا يعدله حب .

وصحيح أن الاسلام لم تتهيأ له أجهزة دعاية منظمة ترسم خطط انتشاره ، وتتعرف الميادين التى يسير فيها ، والعقبات التى قد يلقاها ، والخصوم الذين يحملون عليه عن جهالة أو عناد •

ومع ذلك فان اليقين الفردى ، وحماس المسلم لله ورسوله ، سد مسد هذا النقص الى حد بعيد •

ان المسلم — كما يتحلى بفضائل الصدق والحياء ، ويعد ذلك ضرورة فى خلائقه كانسان — له ضميره اليقظ وكماله الواجب •

يتحلى أيضاً بتعليم الجاهلين وارشاد الحائرين ، ويعد اضاءة نفوس الآخرين بأنوار الحق الذى شرفه الله به عبادة يتم بها ايمانه وتصلح عليها نفسه ويمهد بها لمستقبله عند ربه •

وهو — بداهة — لا يرجو من هذه الهداية ، الا أن يقوم بحق الله • واذا كان هناك من كسب عاجل يرجوه فى الدنيا فهو اخاء مؤمن جديد يضمه الى حظيرة المؤمنين القدامى •

والدعوة الى الله محكومة دائمـاً بأن العمل لله ، والهجرة لله ، والجهاد لله •

مفهومة دائمـاً فى نطاق اخلاص النية ، وتجريد القصد •

وقد كان الفساد فى « شكل الدولة » أو « نظام الحكم » أسرع أنواع الخلل التى أصابت بلاد الاسلام •

الا أن هـذا الفساد لم يظهر فى صورة ارغام لغير المسـلمين على الدخول فى الاسلام •

بل على العكس ، ظهر طوراً فى استبقاء الجزية على من أسلم مع وجوب سقوطها عنه • !!

وظهر كذلك فى زهد الدولة أن تقوم برسالة الدعوة على النحو المطلوب ، واكتفاء الحكم بتولى السلطة • أو بالنزاع عليها فى الداخل ، دون اكتراث بارسال البعوث الى الأقطار المحرومة من الدين كى تشرح حقيقته وتبرز ما فيه من خير للناس ورحمة للعالمين •

وقد رأيت أن الأفراد — من تلقاء أنفسهم — قاموا بهذا العبء ،

وحملوا الاسلام الى عشرات الأقطار ، وأدخلوا فيه — بحسن التلطف — ألوفاً مؤلفة .

* * *

وقد قاتل المسلمون فعلا ... وسوف يقاتلون ما بقيت المثيرات الداعية الى امتشاق الحسام .

نعم قاتلوا .

وقبل أن نضرب الأمثلة للظروف التى حملوا السلاح فيها نحب أن نبرز الصفة التى لا تنفك عن هذا القتال .

وهى أنه فى سبيل الله ، لا فى سبيل النفس والهوى .

وطلباً للآخرة لا اغتصاباً للدنيا ، وسرقة للارض ، واستعباداً للناس .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »[٦٦] .

وانظر كيف قدم القرآن أمام المجاهد فى هذه الآية أن يموت ، لا أن يبقى ، وأن يقتل لا أن ينتصر .

وذلك كيما يجعل نظرته الى الآخرة لا الى الدنيا .

وهنا يجىء السؤال المتوقع . لم كان ذلكم القتال ؟ وهاك الاجابة مفصلة .

لا جدال أولا فى أن القتال كان دفاعاً عن النفس ، ورداً للعدوان ، واحتفاظاً بما ارتضاه الانسان لنفسه من ايمان مشروع ، بل مطلوب .

وأن وزر أى حرب من هذا القبيل يقع على رؤوس الذين أشعلوها .

ولذلك لا نطيل الكلام فى هـذا النوع من القتال الذى خاضه المسلمون .

وانما نتحدث فى الحروب التى يظن بادى الرأى أنها أعلنت مقترنة بنشر الدين ، وغادر المسلمون فيها مواطنهم الى بلاد أخرى . هى التى دارت فيها المعارك ، وأصابها من ذلك ضر شديد .

ونحب أن نسأل نحن ابتداء : ما الذى ينتظر أن تكون عليه العلاقة

---

(٦٦) النساء : ٧٤ .

بين دولة مسلمة ، ودولة أخرى تدين بغير الاسلام ، وتحرم على رعاياها تحريماً حاسماً أن يستمعوا الى القرآن ، وأن يتدبروا آياته • ؟ ؟ •

بل ما الذى ينتظر اذا بطشت السلطة القائمة فى بلد ما بمن شرح الله صدره للاسلام ، فوثبت عليه وعلى أهله توقع بهم ألوان النكال ؟ •

لقد حدث فى « مكة » قديماً أن تغيظت الحكومة الوثنية من الذين نبذوا عبادة الأصنام وآثروا عبادة الله وحده •

فأعلنت عليهم حرباً شعواء لتفتنهم عن عقيدتهم ، فكانوا يجأرون بالدعاء •

« ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً »(٦٧) •

ماذا يرتقب من الدولة الاسلامية وهى ترمق من بعيد هذا المنظر المحزن ؟ ؟

أتكون صديقة مخلصة الود لهذا الحكم الجائر ؟ كلا •

ماذا ننتظر منها ؟ عدالة ؟ ألا تنتصح بحسن المعاملة لمن يدخلون فى الاسلام ؟

فاذا كان هذا النصح مرفوضاً لأن السلطة المستبدة فى الجانب الآخر تعد العدة لا لاستئصال الاسلام داخل نطاقها فحسب ، بل لاجتياحه فى الدولة التى تمثله ، فماذا يكون الموقف ؟ •

هل اذا قامت الحرب لكسر هذه السلطة الغاشمة ، وترك الناس أحراراً ، يسلم منهم من يسلم ، ويكفر من يكفر •

هل تكون هذه الحرب هجوماً اسلامياً لنشر الدعوة ؟ •

خذ مثلا الحالة فى « روسيا » أيام القياصرة الأولين •

ان الامبراطور « فلاديمير » اعتنق النصرانية وترك الوثنية •

حسناً ، فماذا صنع ؟ •

يجيب « السير توماس أرنولد » قائلا : « فى سنة ٩٨٨ جهر بالمسيحية ، وفى اليوم التالى لتعميده نبذ الأوثان التى عبدها أجداده •••!!!

ثم ماذا ؟ ... أصدر مرسوماً بأن يذعن الروس كافة ، سادة وعبيداً ، أغنياء وفقراء للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية .. !!

وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس — الرسمية .. » .

لكن هناك فريقاً كبيراً من الشعب الروسى يعتنق الاسلام .

فماذا يكون موقعه ؟ .

الموقف فى نظر القياصرة الحاكمين أن تتخذ الاجراءات لتنصير المسلمين الموجودين ومنع أى امتداد فى المستقبل لهذا الدين ، وتسمية أصحابه كفاراً ، والراغبين فيه — من النصارى — مرتدين !!!

قال « السير توماس أرنولد » :

« وفى القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهوداً جدية لتنصير القبائل الوثنية ، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم وتركوا المسيحية الى الاســلام .

وبذلت الحكومة كثيراً من ضروب الاقناع والاغراء لتعميــدهم من جـــديد .

ففى سنة ١٧٧٨ أمرت الامبراطورة « كاترين » الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثى العهد بالمسيحية على اقرار كتابى يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية ، وتجنب كل اتصال بالكفار — تعنى المسلمين — والتمسك بالدين المسيحى وعقائده والثبات عليها .

وعلى الرغم من هــذا كله . لم يكن هؤلاء الذين أطلق عليهم « التتار » والذين تم تعميدهم الا مسيحيين اسماً . أما حنينهم الى الاسلام فلم يفارقهم .

وسرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلته الكنيسة من الجهود التبشيرية ، فتركوا المسيحية واعتنقوا الاسلام .

يقول المؤلف : والحق أنه لا يبعد أن تكون أسماؤهم قد دونت خطأ فى السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين .

ولكنهم على كل حال وقفوا فى ثبات وقوة ضد أية محاولة بذلت لتنصيرهم » .

فهل تركتهم الدولة ودينهم الذى ارتضوه ؟ كلا !

يقول المؤلف :

« ويظهر أن هؤلاء التتار - لكونهم قد ظلوا دائماً مسلمين بقلوبهم - قاوموا التدابير الفعالة التى اتخذت لتجعل اعتناقهم الاسمى للمسيحية حقيقة واقعـــة .

ففى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، بذلت جهود أخرى لتنصير هذه القبائل الاسلامية عن طريق انشاء مدارس بينهم » .

وقال : « وكانوا - يعنى الروس الحاكمين - يؤملون من وراء ذلك أن يجذبوا اليهم شبيبة ذلك الجيل .

اذ ظهر لهم أنهم اذا لم يفعلوا ذلك ، كان من المحال أن يفوزوا بادخال المسيحية بين جماهير التتار .

فان « استمالة مواطنى « قازان » الراشدين - كما يقول أســتاذ روسى - أمر صعب المنال ، ولكننا نستجلب نفرا قليلا من سكان القرى الواقعة فى السهل ، ونروضهم على كنيسة الله . فاذا ما أصبحوا معنا فانهم لن يعرضوا عنا أبدا .

لماذا ؟ أهى بشاشة الايمان خالطت قلوبهم ؟ كلا .

ذلك أن القانون الجنائى الروسى كان يتضمن دائما عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكسية مهما كانت الطريقة التى أدخلوا بها ، ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحى الى الاسلام ، بتجريده من كافة الحقوق المدنية ، وبحبسه ، مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنين .

وبرغم أوامر الحكومة هذه نجحت الدعاية الاسلامية فى جذب قرى بأسرها الى عقيدة الاسلام ، ولا سيما القبائل الروسية التى تقيم فى الشمال الشرقى .

وحـــدث فى سنة ١٨٨٣ أن سيق فلاحو التتار بقـــرية أبوزوف «Apozof» الى محكمة « قازان » لأنهم تركوا المذهب الأرثوذكسى .

وقد صرح المتهمون بأنهم كانوا يدينون بالاسلام على الدوام - أى أن أسماءهم كتبت مسيحية ظلما - ، ومع ذلك حكم على ســبعة منهم

بالأشغال الشاقة لاتهامهم بالكفر ، ونفى كثير من الذين ارتدوا (!) عن دينهم الى سيبيريا » .

* * *

ماذا يصنع الاسلام بازاء حكومات من هذا القبيل ؟ .

حكومات تشرع القوانين لاضطهاده ، وترسم السياسات القريبة والبعيدة لتقييد نشاطه وشل حراكه ، وتعذيب معتنقيه ، وترويعهم فى آلهم ومالهم ؟

ماذا يصنع الاسلام للرومان وللفرس ولأمثالهم ، اذا كانت حكوماتهم من هـذا الطراز المستبد المجنون الذى لا يسمح أبداً بحرية العقـل والضمير ؟ .

اننى أعرف أن هنـاك باحثين أعمى الهوى فكرهم يتجاهلون كل هاتيك الآثام ثم يقولون — بعد أن يسوغوا الوضع فى « روسيا » وفى غـيرها — :

لمـاذا قاتل الاسلام ؟ .

ان الشىء الوحيد الذى يريح بالهم هو أن يستسلم الاسلام للذبح وأن يتقبل حز السكين على عنقه دون احتجاج أو نكير .

ان المسـلمين الآن يلقون أقبح العذاب فى « فلسـطين » وفى « الحبشة » وفى « الجزائر » وفى بقاع أخرى كثيرة .

فهل اذا نجدتهم قوة عادلة منصفة قال بعض الناس : هـذا من الاسلام تعسف فى نشر الدعوة ، وتعصب ضد الآخرين ؟ .

ان الاسلام قاتل الرومان والفرس لا ليدخل الناس فى الاسلام ، بل ليثبت حرية التدين ويزيح العوائق أمام الضمير الانسانى والفـكر الانسانى .

أيجرؤ أحـد على القول بأن هذه الامبراطوريات كان فيها ظـل لتسامح فى الدين ، أو لتقارب بين مذهب ومذهب . !!

وما لنا نذهب الى الامبراطويات القديمة نستقى منها الشواهد ؟

هذه انجلترا البروتستانتية ما موقفها من حرية التدين ؟ .

ان الحروب الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ظلت — خلال العصور الوسطى — أمداً طويلا ، وهى تنشر الفزع والهول فى أوروبا .
كل مذهب يرى أتباع المذهب الآخر كفاراً يجب استئصالهم .
وبعد دهر طويل من المذابح المتبادلة ، تراضى القوم على نوع من المعايشة السلمية يحقن الدماء ، ويعطى كل فريق حرية التدين على النحو الذى يشاء .

والحق أن هذه الهدنة لا تنبثق من احترام معنى الحرية .
ولكن تداخل الطوائف المختلفة ، وتشابك المصالح العمرانية والسياسية أكره الجميع على قبول الوضع القائم مع اكنان البغضاء له .
وهناك مثلين يدلان على طبيعة الأحوال فى ظل الحكم البروتستانتى الانجليزى :

١ — ذكرت جريدة « المقطم » بقلم رئيس تحريرها «خليل بك ثابت» — قبل خمسة عشر عاما — الواقعة الآتية فى معرض تسامح المسلمين مع أهل الأديان الأخرى ، قالت :
من طقوس « الكاثوليك » التى يمارسونها فى كل البلاد ، اقامة حفل سنوى يوم الأحد من عيد الفصح كل عام يدعى « زفة الجسد » .
فى هذا الحفل يحمل رجال الدين الكاثوليكى الصليب الكبير ، ويطوفون فى احتشاد ضخم ببعض أحياء المدن ، ثم يعودون آخر الأمر الى الكنيسة .
وهذا الاحتفال يقام سنويا فى جميع البلاد الاسلامية التى تعيش فيها أية أقلية كاثوليكية . دون أى اعتراض من جانب السلطات الاسلامية .

أما فى انجلترا — حيث يقيم عدد كبير من الكاثوليك الانجليز — فان الحكومة الانجليزية تمنعهم من اقامة هذا الاحتفال . !!!
وقد أراد الرئيس الدينى الأكبر للكاثوليك فى « لندن » أن يمارس هذه الطقوس ، فكتب الى وزير الداخلية البريطانية كتابا خلاصته :
بما أن الدستور البريطانى يضمن لجميع المواطنين حريتهم الدينية .
فانى أحيطكم علماً بأنا سنحتفل بذكرى « زفة الجسد » .

وسنقتصر على الطواف حول كنيستنا الكاثوليكية فقط .

فأجابه « وزير الداخلية » وكان حينئذ المستر « اسكويث » بكتاب جاء فيـه :

بما أن الدين الرسمى لهذه البلاد البريطانية هو « البروتستانتية » فان الحكومـة لا تسمح أبدا باظهار طقوس أخرى غير الطقوس « البروتستانتية » .

ولذلك فان الأوامر أصدرت الى الشرطة بمنع اقامة هذه الحفلة خارج الكنيسة منعاً باتاً .

٢ — منذ نحو خمسين عاماً ، وحينما كانت بريطانيا تحكم مئـات الملايين من المسلمين ، حاولت الطائفة الاسلامية فى « لندن » مع بعض زعماء المسلمين الشرقيين انشاء مسجد فى « لندن » .

فتبرع « نظام حيـدر آباد الدكن » بمبلغ كبير ، وكذلك نواب « بهوبال » ، وأمثالهم من أمراء المسلمين فى الهند ؛ كما تبرعت الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات الاسلامية ببعض المبالغ لهذا المشروع .

ولم تظهر الحكومة البريطانية معارضة لهذه الرغبة .

وكل ما صنعت أن وعدت بأن محافظة « لندن » ستختار أرضـا مناسبة لانشاء المسجد .

وتجددت المساعى مرارا من قبل الجالية الاسلامية ، وتألفت لجان عديدة من السفراء المسلمين فى لندن لتحقيق المشروع ، خلال هذه الفترة الطويلة .

ولكن التعصب الدينى المستحوذ على الانجليز لم يسمح حتى اليوم بانشاء هذا المسجد .

وبعد أكثر من خمسين سنة ، لا يزال جواب الحكومة الانجليزية كما هو : ان محافظة « لندن » تبحث عن الأرض المناسبة .

ولم يتم انشاء هذا المسجد ... ولن يتم .

ذلك ... رغم أننا سمحنا باقامة مئات من الكنائس البروتستانتية الانجليزية فى البلاد الاسلامية ، فى الماضى القريب والبعيد .

ولا تزال الكنائس والمعاهد الدينية البروتستانتية الى يوم الناس هذا يسمح بها فى كل قطر من أقطار المسلمين •

وقد يتوهم بعض الناس أن فى انجلترا مسجدا يدعى مسجد « ووكنغ » فى بلدة « ووكنغ » الواقعة على بعد خمسين ميلا من لندن •

والحقيقة أن هذا البناء هو عبارة عن غرفة صغيرة لا تزيد على بضعة أمتار •

وقد أنشأها القاديانيون المعروفة صلتهم الوثيقة بالانجليزية •

أما الانجليز أنفسهم فبرغم ما لهم من علاقات كثيرة مع الشعوب الاسلامية فانهم لم يقبلوا انشاء مسجد واحد فى لندن ، مسجد واحد فحسب ! •

وذلك على رغم الجهود العظيمة التى بذلت فى هذا السبيل •

* * *

واذا كان الاسلام يشتبك فى قتال طويل مع السلطات الغاشمة كيما يكسر القيود التى وضعتها على حريات الضمائر والعقول ، وكيما تتجه الجماهير فى ايمانها الوجهة التى تؤثرها دون حرج أو تهيب ، فهو كذلك يقاتل من أجل غاية أخرى ، من أجل اقرار العدالة بين الناس ومنع الفساد فى الأرض •

هب أمة ما لم تتعرض للمسلمين من قريب أو من بعيد •

ولكن وقعت فيها فتن عمياء جعلت اختلاف المذاهب أو اختلاف الألوان يؤثر تأثيرا سيئا على بعض الطوائف ويجعلها ضحية معرضة للعسف والارهاق •

هل نقف محايدين بازاء المآثم التى ترتكب ، والضيم الذى يتعرض له نفر من الناس ؟ ؟ كلا •

ان انعاش المضطهدين لوجه الله وانقاذهم من الهوان النازل بهم هدف من أهداف الاسلام الذى يريد أن يسوق الرحمة الى العالمين ••!!

فى « الهند » مثلا كان يقع تفاوت مثير عرفه الناس أجمعون •

كان المتدينون — استجابة لعقائدهم — يقدسون قطعان البقر ، ويحملون روثها على الأعناق •

فى حين تقع جماهير المنبوذين تحت طائلة هوان دائم ، وتحقير مرير ..

أرأيت هذه النقائض المستغربة ؟ .

انسان تهدر كرامته ، وحيوان تقبل قرونه وحوافره !!

فاذا اتسعت الدائرة التى تضم أولئك المنبوذين التعساء وبلغوا الألوف المؤلفة ، فهل يلام الاسلام اذا ساق جيوشه لتصحيح هذه الأوضاع المقلوبة ؟ .

وهل يعتبر الفاتحون للهند مهاجمين لأنهم تدخلوا — باسم الله — كى يحموا كرامة الانسان ؟ .

ومالنا نضرب المثل من أقطار وثنية .

فلنلق نظرة على أوطان المسيحية نفسها ، أما ضربت فيها الفرقة المذهبية ، واستمكن القوى فيها من التهام الضعيف ؟

ترى هل رق لقلته أو لضعفه ؟ ؟ .

اننا نضرب المثل بصراخ زعيم مسيحى يجأر من أفعال الكاثوليك معه ! .

ومتى ؟ بعد ظهور الاسلام بعدة قرون !!

كأن البغضاء المذهبية لم تنقض ذرة بعد تغير الأوضاع وانتشار الاسلام . وتوقع شىء من التقرب بين أتباع الكنائس المختلفة .

انها لم تنقص ، ولن تنقص .

قال السير « توماس أرنولد » : وربما كان يحق لـ « مقاريوس » بطريق « انطاكية » فى القرن السابع عشر أن يهنىء نفسه ، حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التى أوقعها البولنديون الكاثوليك على روسيى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية .

قال « مقاريوس » : اننا جميعا قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا فى هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين وربما كان عدد القتلى قد زاد على سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً .

فيا أيها الخونة ، يا مردة الرجس ! يا أيتها القلوب المتحجرة ! ماذا!

صنع الراهبات والنساء ؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟ ولم أسمهم البولنديين الملعونين ؟ لأنهم أشد انحطاطا وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين وذلك بما أظهروه من قسوة فى معاملة المسيحيين ا وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس •

أدام الله بقاء دولة الترك خالدة الى الأبد •

فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان •

سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهودا أم سامرة •

أما هؤلاء البولنديون الملعونين فلم يقتنعوا بأخذ الضرائب ، والعشور من اخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر •

بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ولا بأن يتركوا لهم قسسا يعرفونهم أسرار دينهم •

حتى ايطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم الى الترك لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أية حكومة مسيحية •

ثم قال السير « توماس أرنولد » : وكثيراً ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكنون للعثمانيين محبة ولا وداً ، تقدمة المدح والثناء على فضائل المسلمين الأتراك •

فمن أولئك كاتب كان له رأى سىء فى عقيدتهم يتحدث عنهم بقوله: « حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية — هكذا يقول —

وفى الحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروهما لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون — الى أى حد — هؤلاء المسلمين ذوى غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدقهم •

والى أى حد هم متفانون فى اخلاصهم ، قانتون فى مساجدهم •

والى أى حد هم مطيعون لرئيسهم الروحى !!

حتى ان الحاكم التركى العظيم نفسه لا يحاول أمرا الا بعد مشورة المفتى •

والى أى حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس فى كل يوم حيث وجدوا وأياً كانت مشاغلهم •

ما أشد مراعاتهم دائما لصومهم من الصباح حتى المســاء طول أيام الشهر بلا انقطاع •

وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم ، وما أعظم ما يرى من عنايتهم بالغرباء فى نزلهم سواء بالفقير أم بالنازح المسافر •

لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية ، لخجلنا من جمودنا ، سواء فى عبادتنا أم فى تراحمنا ، ولخجلنا من جورنا وافراطنا وتعسفنا •

فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا •

ولا شك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم هى الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية » •

ونحن ندون صيحة هذا المؤرخ المسيحى من غير تعقيب ثم ندع « سير توماس أرنولد » يتابع كلامه ، واستنتاجه ليقول :

وقد وصل مؤرخ حديث الى مثل هذه النتيجة حين قال :

« نجد كثيرين من الاغريق ، من ذوى المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين ، أنهم عندما كانوا يتجنبون الاندماج فى خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء — كانوا يدخلون فى دين «محمد» بمحض ارادتهم •

ولا بد أنه كان لتفرق المجتمع التركى من الناحية الخلقية شأن كبير فى هذا التحول الى الاسلام الذى كان كثير الوقوع فى القرن الخامس عشر ، بقدر ما كان للطموح الشخصى من هذا السبيل » •

ان فضائل المسلمين الشخصية وتسامحهم الرائع فى معاملة الآخرين واستهدافهم العدالة والرحمة مع الأجانب — وان اختلف الدين — كل ذلك جعل عدوهم يشهد لهم بالخير ، ويعترف — طائعا أو كارها — بأن الاسلام قدم لسائر الأمم ضروبا من الاحسان والانصاف لا نظير لها •

وأنه خطا بالعالم خطوات فساحا فى ميدان التسامح والرحمة .
وأنه فعل ما فعل وزمام القوة بيده ، والقدرة على سحق الخصوم لا تنقصه .

ولقد تعمدنا أن نفصل بعض التفصيل فى هذا المعنى .
لأن السير « توماس أرنولد » ذكر كلاماً بين يدى الفتوح الاسلامية لا ندرى كيف أقره ، أو كيف سمح لنفسه بتسطيره ؟ .
كلاما لا ندرى أننقم منه ؟ أم نضحك عليــه ؟ أم نضرب صفحاً عنه ؟ . باعتباره لغوا لا يمت الى التاريخ بسبب .
هذا الكلام يدور حول تعليل الفتوح الاسلامية بدوافع اقتصادية .
أى أن العرب كانوا جياعا فى جزيرتهم ، ثم خرجوا بقيادة «محمد» وخلفائه بحثاً عن القوت !!!
والغريب أن لفيفا من المستشرقين يكرر هذا القول !!!
ولا نقف طويلا لنعلق على هذا السخف .
ولكنا — قبل أن نذكره — يجب أن نتأمل هذا التضارب الغريب فى ذهن رجل فاقه كالسير « توماس أرنولد » .
ان تفكير هذا الرجل يغفو حينا ويصحو أحيانا كثيرة .
وهو — اذ يغفو — انما يكون واقعا تحت تأثير الرواسب الموروثة بين المسيحيين الذين يكرهون « محمدا » ويمقتون رسالته .
وفى خلال هذه الغفوة الفكرية يصدر ذلك القدح النابى فى رسالة الاسلام وذلك الحكم الجائر على تاريخه .
أجل ، فى خلال هذه الغفوة تمر قضايا لم يمحصها منطق ولم يضبطها عقــل . ... ثم يعاود الرجل صحوه وتعود الى ذهنه ومضاته الذكية الناقدة المكتشفة فيلزم الحياد ويذكر الواقع ، ويسجل لهذا الدين محامده ويسجل لتاريخه ما يستحقه من تقدير . ..

وربما كان القول بأن المسلمين الفاتحين خرجوا من جزيرتهم طلبا للقوت قياسا لماضى المسلمين الأولين على حاضر المستعمرين الانجليز والفرنسيين وأضرابهم فان الاستعمار الغربى الحالى لا يحدوه مثل أعلى .

ولا يدرى من ضربه فى أقطار الأرض الا أن ينتهب ويختلس •
والمعروف أن موارد انجلترا الداخلية لا تكفى الأهلين أكثر من ستة أسابيع •
وأن عليهم — ليطعموا — أن ينطلقوا فى آفاق العالمين ينشدون الرزق •

بيد أن من الشناعات العلمية التسوية بين ربانيين تركوا ديارهم فى سبيل الله وخرجوا من بيوتهم • والآخرة أحب لديهم من الدنيا • وبين خطافين تركوا قارتهم للاغارة على الناس ، ونشدان الأقوات أو اللذائذ•
ان الفتح الاسلامى شأن آخر غير ما يخبط فيه صغار النفوس •
ونحن نذكر ما يقوله هذا النفر من المتكلمين ، وليفضح الكلام أصحابه وليعرف مبلغهم من العلم •••
قال السير « توماس أرنولد » تحت عنوان « فتوح العرب وتوسع الجنس العربى بعد وفاة محمد » •

« بعد وفاة محمد » أرسل أبو بكر الجيش الذى كان النبى قد عزم على ارساله الى مشارف الشام ، على الرغم من معارضة بعض المسلمين، الذين وجلوا من الحالة المضطربة فى بلاد العرب اذ ذاك ، فأسكت احتجاجاتهم بقوله :
« لا أرد قضاء قضى به رسول الله ولو ظننت أن السباع تختطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبى » •
وكانت هذه هى أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التى اجتاح العرب فيها « سورية » و « فارس » و « افريقية الشمالية » •
فقوضوا دولة فارس القديمة ، وجردوا الامبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها •
ولا يدخل فى نطاق هذا الكتاب أن نتتبع الفتوحات العربية ، ولا أن نكشف عن هذه الظروف التى جعلت مثل هذا التوسع أمرا ممكنا •
وقد أجاد مؤرخ كبير ، عرض المشكلة التى تواجهنا هنا فى الكلمات الآتية :
قال : هل كانت الحماسة الدينية الخالصة سر تلك الفتوح الضخمة ؟

هل كانت تلك القوة الجديدة لعقيدة كانت اذ ذاك ولأول مرة آخذة فى الازدهار صافية تمام الصفاء ، هى التى أمدت جيوش العرب بالنصر فى كل موقعة من المواقع ، وأقامت — فى مثل هذا الزمن القصير — أعظم امبراطورية شهدها العالم ؟

ان الدليل يعوزنا لنثبت أن الحالة كانت كذلك (!) •

اذ كان عدد هؤلاء الذين بايعوا النبى ، وقبلوا تعاليمه عن حرية ، واقتناع صادق ، ضئيلا جدا • (!)

على حين — نجد من ناحية أخرى — أن الكثرة انما كانت تتألف من هؤلاء الذين لم ينضووا تحت لواء المسلمين الا عن طريق الضغط عليهم ، أو طمعا فى نفع دنيوى » يا للكذب !! ثم ماذا أيها المـؤرخ الكبير ؟ قال :

وقد عبر « خالد » ، وهو سيف من سيوف الله ، فى أسلوب جـد مؤثر عن هـذا المزيج من القوة والاقناع ، الذى أسلم عن طريقه وهو وكثير من رجال قريش حين قال :

ان الله أخذ بهم من قلوبهم ونواصيهم ، وأرادهم على أن يتبعوا النبى •

قال : وكذلك كان لشعورهم بالاعتزاز بقومية مشتركة أثر كبير فيما أحرزوا من انتصارات •

قال المؤرخ الكبير : وكان ذلك الشعور أشد حيوية بين العـرب فى ذلك الوقت منه بين أى شعب آخر •

وقد حمل هذا الشعور وحده الألوف المؤلفة على أن يؤثروا مواطنهم العربى ودينه على غيره من الغرباء الداعين الى أديان أخرى •

وكان أقوى من ذلك جذبا لهم الى الاسلام ، أملهم الوطيـد فى الحصول على غنائم كثيرة ، اذ يجاهدون فى سبيل الدين الجديد • ثم أملهم فى أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التى لم تتح لهم الا حياة تقوم على البؤس • تلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهى فارس والشام ومصر •

ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التى وضعت أساس الامبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت فى سبيل نشر الاسلام (!) •

وانما الذى حــدث أنه تلتها حركة ارتداد واســعة عن الديانة المسيحية .

حتى لقد ظن كثيرون أن ذلك الارتداد كان الغرض الذى يهدف اليه العرب .

ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون الى السيف على أنه أداة للدعوة الاسلامية . أو سبب القضاء على الدولة الرومانية .

وفى ضياء النصر الذى عزى اليه ، حجبت مظاهر النشاط الحقيقى للدعوة الاسلامية .

ولكن الروح التى دفعت جحافل العرب الغازية ، تلك التى تدفقت على حدود دولتى الروم والفرس ، لم تكن روح تحمس وغيرة ترمى الى تلقين الدعوة الجديدة ابتغاء تحويل الناس الى الاسلام .

بل كان الأمر على العكس من ذلك ــ هكذا يقول المؤرخ الكبير ــ فان البواعث الدينية ــ كما يظهر ــ لم تكن قد تسربت الا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية . اذن ، فما سر هذه الانطلاقة الفريدة ؟ .

يقول : ويعتبر توسع الجنس العربى ــ على أصح تقدير ــ هجرة جماعة ناشطة ، قوية البأس دفعها الجوع والحرمان ، الى أن تهجــر صحاريها المجدبة ، وتجتاح بلادا أكثر خصبا ، كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا » .

* * *

جوع وحرمان وتطلع الى ما فى أيدى الجيرة الغنية المستضعفة !!.

هذه هى بواعث الفتح الاسلامى!! كما نقلها السير «توماس أرنولد»

ان العرب الذين غبرت عليهم القرون وهم أقل الناس حظا من القوى المادية والأدبية وسط دول ضاربة العروق فى الحضارة والبأس ، قد تصورهم ذلك الذهن الأخرق ، وكأنهم « انجلترا » تحارب أهــل كينيا .

ولما كان هذا الكلام لا يرتفع الى درجة العلم الذى يناقش فنحن نهمله . .

ولكن من الانصاف لتاريخ الانسانية وكبحا لجماح المفترين أن

نختم بحثنا بهذه الخلاصة عن مسلك الاستعمار الصليبى فى البلاد التى نزل بها .

وهى خلاصة موجزة من كتاب « الصحو الافريقى » (٦٨) تأليف « بازل دافدسون » .

لقد توجه المؤلف بهذه الصيحة فى مقدمته . قال :

الى هؤلاء الذين لا تخزهم ضمائرهم لما تعانيه شعوب « افريقيا » من ذل وهوان منذ نكبها الاستعمار الدولى ..

الى هؤلاء جميعا أقول : تريثوا وسائلوا أنفسكم :

هل فى مقدور شعب منحط أن يتحمل ما تحمله شعب افريقية ؟ .

ليس العجب فى افريقيا أن تكون شعوبها متأخرة .

ولكن العجب العجاب أن تبقى كل هذه الشعوب حية برغم المهازل والمآسى التى نزلت بها .

وفى أثناء الكتابة عن حال السكان البؤساء فى وصاية الجنس الأبيض « الراقى » يتساءل المؤلف :

ما الذى يراه المسافر الى افريقية ؟ .

انه يحسب — لأول وهلة — أن ليس لهذا الشعب ماض ولا مستقبل .

الكآبة تخيم عليه وسط جو تسوده الحرارة ، وأرض تمتد فوقها الغابات .

لكن المتأمل الباحث سرعان ما تصدمه الحقيقة .

ان ثروة « افريقيا » ينقلها المستعمرون الى « أوروبا » تاركين أصحاب البلاد الأصلاء فى فقر مدقع .

والناس هناك يحسون هذه المرارة ، ويستعيدون — فى سبيل استرداد حقوقهم — قصص الكفاح الذى بدأه أجدادهم من سنين طوال ...

بدأ استعمار « افريقيا » فى أوائل القرن الخامس عشر عندما بدأت حركات الاستكشاف الكبرى .

---

(٦٨) نشرت صحيفة المسأة فى ١٩٥٨/١٠/٢٥ شرحا وتعليقا على هذا الكتاب لعبد المنعم الحفنى ..

وفى سنة ١٤٤٤ شرع البرتغاليون يستوردون العبيد من ساحل الذهب « غانة » .

وما كاد القرن السادس عشر يحل حتى كان عدد العبيد فى بعض مناطق البرتغال أكثر من عدد البرتغاليين أنفسهم .

وبهذا صار الكشف الجغرافى سرقة .

ثم تحولت السرقة الى استعباد عام .

قال : ان أوروبا لا تنظر الى « افريقيا » الا فى ضوء منافعها الخاصة وما تمليه مصالحها فحسب ، لذلك استعبدت الافريقيين واستغلتهم أسوأ استغلال .

ان « ناسوسيينور » وصف شركة افريقيا التى تأسست سنة ١٥٦٧ بأنها وجدت لكى تختطف أو تشترى أهالى « افريقيا » ثم تسخرهم فى العمل حتى الموت .

والانجليز والهولنديون سواء فى هذا الأمر ، فهم يسخرون الافريقيين تسخيرهم للخيل ، وهم — مع ذلك — أكثر أمم أوروبا تدينا ، وأعمقهم ايمانا .. !!

ثم قال تحت عنوان « خلف المسيحية » :

ومع الاستعمار جاءت أفواج المبشرين تدعو النصرانية التى دخل فيها كثير من أبناء القارة « المظلمة » . ألا ما أكثر الأطماع التى صحبت هؤلاء المبشرين .

وراء مثالية المسيح قدم اللصوص ، كما يقول المونسيور « كوخيير »

ولقد أبحر اللصوص من بلادهم تحت علم المثالية أيضا وجلبت رحلاتهم الى الشرق ثروات ضخمة من الحرير والتوابل .

ويكفى أن نعرف أن سفينة « الجولدن هند » عندما عادت سنة ١٥٨٠ الى لندن ربح فيها أصحابها ١٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى .

مع أن رأس المال كان ٥٠٠٠ جنيه .

وكان الأوروبيون يسعون — أول الأمر — خلف العبيد يختطفونهم لمآربهم ، ثم خلف العاج والفضة والنحاس بعد ذلك .

كان المستعمرون فى القارة الأمريكية بحاجة ماسة الى العبيد ٠

وكانت أوروبا أيضا فقيرة اليهم بعد تطورها السريع نحو الصناعة وهجرة الفلاحين الى المدن الكبرى ، تاركين الأرض تتطلب العـــاملين فيهـــا ٠

من هنا استورد الأوروبيون الملايين من أهل افريقيا ٠

وليس يعلم أحد العدد الحقيقى للعبيد الذين تم جلبهم ٠

ولقد قدر أحد المؤرخين البرتغاليين — استنادا الى الوثائق المحفوظة بخزائن الحكومة البرتغالية — عدد الافريقيين المختطفين من « أنجولا » وحدها بـــ ٠٠٠ر٣٨٩ر١ بين سنتى ١٤٨٦ ، ١٦٤١ ٠

وزادت تجارة الرقيق فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ويقدرها الأب « جادين » بمعدل سنوى قدره ٠٠٠ر٢٥ عبد ، خلال سنى القرن الثامن عشر ، و ٠٠٠ر٣٠ عبد ، خلال سنى القرن التاسع عشر ٠

أسهمت هذه الجموع الغفيرة — بكدها وجدها — فى بناء الحضارة الأوروبية وفى نقلها الى ربوع الأمريكتين ٠

ويقول المؤرخ الكبير « جلبر نوفريار » :

ان الدور الذى قام به العبد الافريقى فى البرازيل لهو أخطر من الدور الذى قام به الأوروبى المستعمر ٠ صاحب المزاعم الطولى فى بناء الحضارة !!

فكيف كوفىء على هذا الجهد ؟ وماذا صنعوا له ؟ ملأوا البلاد خمرا وبغاء ٠

ان قلب المدينة الافريقية النابض هو الحان ، وهو مجمع السكارى وثمرة التفكير الشيطانى للرأسمالية النهمة الى المـــال الحرام ٠

وقد قدر عدد الحانات فى مدينة « ليوبولد فيل » سنة ١٩٥٣ والتى تحمل تراخيص رسمية من الحكومة بنحو ٣٠٠ حانة فى الحى الأوروبى عدا ٤٠٠ حانة فى الأحياء الافريقية ٠

وتقدر الحانات فى كل أنحاء المستعمرات الافريقية بحان واحد لكل ٥٠٠ من السكان ٠

علماً بأن هذا العدد لا يشمل النوادى غير المرخصة ٠

أما عدد المومسات فى ظل الحضارة الغربية فقد زاد زيادة كبيرة .

وفى كل مدينة لهن رابطة يشرف عليها تاجر أقمشة أوروبى يستخدمهن كعارضات أزياء ، ويربح من وراء ذلك تلالا من المـال .

وهذا الانحلال غير طبيعى فى افريقيا فما سببه ؟ ولم كان ؟ ذلك لأنهن — كما شاعت أوروبا لهن — نسوة « أحرار » فما معنى تلك اللفظة ؟ .

المرأة « الحرة » هى ظاهرة جديدة فى المجتمع الافريقى .

فقد كانت المرأة الافريقية — قبل الثورة الصناعية وقبل انشاء المدن — تعيش فى القرية ، ولها مركزها الاجتماعى . وكانت تعمل وتكسب .

وكان لها حق التملك ، وأهلية البيع والشراء ، ولم تكن هناك عانسات فى هذه الأيام البعيدة .

اذ أن البنت — عند بلوغها سن الزواج — تتزوج بسرعة .

أما بعد اقامة المصانع وانشاء المدن وهجرة الشباب اليها فان المرأة لم تجد زوجاً لها فى القرية وهاجرت مثله الى المدينة ، وفيها لم تجد عملا . فأصبحت عضواً عديم القيمة تماماً .

ومن هنا انتشرت الدعارة . ووجدت المرأة من أرباحها الكثيرة عذراً لهـا .

حتى انها احتقرت الزواج ؛ واندفع الآباء — لفقرهم — يهبون بناتهم لهذه المهنة الخسيسة ، فارتفعت أسـعار الزوجات وصارت مشكلة اجتماعية خطيرة » .

* * *

هذه هى الأحوال المـادية والروحية فى ظلال الصليبية المنتصرة .

فهل تجد شبهاً بينها وبين أحوال البلاد التى دخلها المسلمون فعاشوا مع أصحابها اخوة واختلط بعضهم بالبعض الآخرة ، لا يدرى سيد من مسود ولا تابع من متبوع ؟

اننا نتلقى اتهامات المستشرقين لأسلافنا الصالحين ، ثم نذكر أن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

على أن القارىء المعتدل بعد ما ينتهى من قراءة كتـاب السير « توماس أرنولد » يشـعر أن الهنات التى وقعت به لا تنقص قدره ولا تبخس حقه .

الاسلامية فى العصور الأولى •

فهو جهد علمى نفيس ، وجملة من الوثائق التاريخية المحترمة •

وهو ملىء بما يرد أحاديث الافك التى وجهت الى المسلمين دون وعى•

ويعتبر — فى نظرنا — من أفضل الكتب التى أرخت لسير الدعوة

***

وقد ترددت مطاعن المستشرقين هذه ، مقترنة ببعض الشبهات فى كتاب آخر ، هو « تاريخ العرب » لـ « فيليب حتى » •

والأستاذ « فيليب خورى حتى » يشبه « سير توماس أرنولد » فى سعة اطلاعه وطول باعه ، واحاطته الظاهرة بتاريخ العرب والمسلمين •

ولكنه يختلف عنه فى أمور ذات بال •••

فهو أقل انصافاً ، وأسوأ ظناً ، وأسرع الى قذف التهم دون سبب ، بل مع وجود أسباب التبرئة ••

وسوقه للأحداث ينم عن أنه مصر على خدمة غرض معين •

واصراره على هذه الخدمة يخرج به — طوعاً أو كرهاً — عن مقتضيات السرد العلمى الدقيق ، ذلك السرد الذى يجب أن يبدو فيه أو يجب أن يوصف به ، والذى يجعل للكتابة حظاً من القيمة •••

وقد قلنا ، ونؤكد القول اننا لا نرتقب من المستشرقين — كى نرضى عن بحوثهم — أن يؤمنوا برسالة محمد •

بيد أننا نرتقب منهم أن ينحوا عن أنفسهم مواريث الضغينة وهم يقلبون أعماله وآثاره ، وألا ينفسوا عن تحاملهم وهم يقصون — باسم العلم — أنباءه وأنباء الأمة التى صنعها •

لقد أحصيت أكثر من سبعين موضعاً فى كتاب تاريخ العرب لـ « فيليب حتى » لا تتفق مع طبيعة البحث النزيه •

ولا يمكن أن تقبل من رجل يصطنع الحياد فى أسلوبه ويظهر متجرداً لخدمة العلم •

وبعضها يبلغ حداً مزرياً من التفاهة • وذلك عدا ما تجاوز عنه الأستاذ « محمد مبروك نافع » أو تعمد — كما ذكر فى ترجمته — تهذيب عبارته ، حتى لا يكون نبوها صارفاً للقارىء عن المضى فى الكتاب •••

ومع ذلك فالكتاب ملىء بالشبه التى بثت بمهارة هنا وهناك ، وربما اكتشفها الراسخون فى العلم من القراء النقدة ، أما غيرهم فانه يقع فريسة لها ..

ونحن سنتجاوز الأخطاء التى لا تستحق التفنيد .

نعم سنترك مثلا قوله :

« بمجىء الاسلام زاد عدد الجن اذ هبطت مكانة الآلهة الوثنية الى أمثال تلك المخلوقات » !! ص ١١٨

وقوله : « وفى فترة من فترات الضعف أغرى محمد الموحد فاعترف بقوة هذه الالهات من آلهة مكة والمدينة . ووافق على فضلها ، ولكنه فيما بعد رجع عن ذلك » !! ص ١١٩ .

وقوله : « وتجد فى القرآن الشبه الوحيد الواضح لبعض محتويات الكتب المقدسة الفارسية فى تصوير الجنة والجحيم ، وقد رسمت بريشة غمست فى ألوان مادية (سورة ٨ ـ ٥٦) . وهذه لها نظيرها فى كتابات المجوس المتأخرة » ص ١٥٤ !

وقوله : ـ راوياً عن رفعت ـ : ان البدوى فى أيامنا هذه عندما يطوف حول الكعبة يردد باللغة العامية هذه الكلمات : ـ « يارب البيت اشهد أنى جيت . لا تقول ما جيت . اغفر لى ولوالدى . والا تغفر لى غصباً تغفر لى ترانى حجيت » ص ١٦٥ .

وقوله : « ولما أحس عبد الملك بحاجته الى مركز للعبادة تعلو مكانته على كنيسة القبر المقدس ، وينافس مسجد مكة الذى كان اذ ذاك فى يدى منافسه على الخلافة « عبد الله بن الزبير » ويصرف اليه جماهير الحجاج . فانه أسس فى نفس الموقع ببيت المقدس قبة الصخرة » ص٣٢٨

وقوله : « ان الجهاد فى السنوات الحديثة يظفر باهتمام أقل فى العالم الاسلامى ويرجع السبب فى ذلك الى ترامى أطراف البلاد الاسلامية وازدهارها تحت حكومات أجنبية » ص ١٦٨ .

هـذه الكلمات الفارغة وأشباهها كثيرة فى أسـلوب الكاتب ، وهى كاشفة عن طريقته فى فهم الاسـلام ، ونظنها من الخطأ بمكان يغنى عن البيان .

وفى صفحة ٣٠٢ يقول : « لقد كان للقانون الرومانى دون شك أثر فى التشريع الأموى سواء أكان ذلك الأثر مباشراً أم من طريق التلمود وغيره من الوسائل . ولكن مدى ذلك الأثر غير معروف تماماً » .

وغريب أن يبنى الرجل هذا الحكم الخطير على أثر مجهول المدى .

ولكن شهوة اتهام الاسلام ، وانتقاص فضله ، ورد تراثه العقلى الى غيره .

وقد لاحظنا فى عشرات المواضع أن المؤلف شديد الحرص على اتهام الاسلام بأمرين خطيرين :

أولهما : أن الجهاد سبيل للنهب والسلب ، واستنزاف الأمم المغلوبة ، والتسلط عليها بالقهر ، وتقسيمها طبقات يستذل بعضها — كالمسلمين من غير العرب مثلا — ويسترق الآخر لخدمة الفاتحين وملذاتهم .

والثانى : أن الاسلام لم يؤسس حضارة ما ، وأن العقل الاسلامى ليس الا صدى لأفكار الأجيال الأولى ، وان المسلمين ليسوا أكثر من نقلة لتراث غيرهم .

وربما زادوا فيه شيئاً ، ولكنهم لم يبتكروا شيئاً ألبتة .. !!

وكتاب « تاريخ العرب » تتكرر فيه هذه المثالب ، بطريقة رتيبة . وسياسة مرسومة بحيث يخرج القارىء من أغلب الفصول وهو يشعر ، بأن محمداً رجل نقل رسالته عن الأولين ، فليس نبياً يوحى اليه .

وأن أمته جماعة من البشر استغلت ظروف القوة التى واتتها حيناً من الدهر فزحفت على الأمم المجاورة لتأكل خيرها وتنهب أرضها وتنتحل فلسفتها وتشريعها .

وأنه اذا كانت هناك مدنية تؤثر عنها فهى مدنية[٦٩] الشعوب المغلوبة على أمرها اغتصبها العرب لأنفسهم ، وذهبوا بفخرها زوراً وبهتاناً .

---

(٦٩) من حق مؤلف « تاريخ العرب » وقد تعقبنا اخطاءه ان نثنى على الجهد العلمى الشاق الذى يبدو فى مادة الكتاب الغزيرة ، وذلك الاستيعاب الرحب لنواحى الحياة الادبية والعقلية فى عصور كانت مغشاة الحجب .. ثم فى ذلك الترتب الجميل للحوادث ، والمقابلات التى قد يصحبها ضيق القلب ولكن لا تنقصها سعة الذهن .

والكتاب من هذه الجهة عمل يجب ان يعرف وان يدرس .

وأما الاسلام فلم يكن ، ولن يكون مصدر خير ، لا لأهله ، ولا للعالم !!!

ونرى لزاماً علينا أن نفيض القول فى هذين الأمرين متعرضين لما ذكر الأستاذ « فيليب حتى » من اتهامات ، ترجع فى جملتها الى التعصب الكامن لا الى البحث الرصين .

* * *

لقد دأب الأستاذ « فيليب حتى » على تنقص الجهاد الاسلامى ، ورمى بواعثه بالسوء ...

وتعمد فى غير موضع أن يصم الفاتحين بأنهم كانوا يطيرون الى المغانم .. وأنهم — بعد ما استقر الأمر لهم — أثقلوا الشعوب المهزومة بأنواع المغارم .. وألوان التحقير .

ومن ثم فان اعتناق الاسلام يرجع — فى نظره — الى الفرار من الهوان المادى والأدبى .

نقول : وهذا الكلام ، افك كله .

فان للاسلام فى طريقه الى القلوب صحائف بيضاء .

ما أثر عنه أنه اعتمد على غير الاقناع والتلطف ، ولا قامت فى دولته — على طول تاريخها — نظم سياسية أو اجتماعية تساند العقيدة بالبطش والجبروت ، وتدفع الى الدخول فيها بالارهاب والاكراه ...

ولسنا نعرف فى تاريخ المذاهب والديانات ملة يترقرق السماح فى روحها ، والأدب فى عرضها ، والعدل فى معاملة خصومها ، كما نعرف ذلك فى الاسلام .

لكن بعض المستشرقين ، أو كثرتهم ، عندما تواجه هذه الحقيقة ، تحاول أن تجاوزها دون تنويه بها ، أو تحاول ذكر أسباب مختلفة لها .

= والواقع أن المتأمل فى الكتاب يحس أن المؤلف كثيرا ما ينحرف مع تيار الحقيقة الغالب فيحسن الوصف والتعليل ، حتى اذا شعر — بايحاء خفى — أن ذلك ربما كان شهادة حسنة للاسلام وأهله عاد الى تعصبة يتهم المسلمين بأنهم نقلة فحسب ، وأنهم تلامذة للاغريق والهنود والفرس ، وأن فتوحهم ضرب من الاستعمار النهم ..

وقد يجد بعضهم الجرأة من نفسه على المماراة فيها ، وتلمس شبه شتى لتعكير صفوها …

ولما كانوا يدخلون مضمار البحث العلمي وفي صدورهم علل دفينة ، ولهم مآرب أخرى فلا عجب اذا اضطربت أحكامهم أشد الاضطراب ، خصوصاً فيما يتصل بالرسالة وصاحبها .

وماذا تنتظر من رجل يتناول الاسلام ابتداء وهو مقتنع بأن صاحبه دعى ؟

فاذا شدهته السيرة بأحداثها النقية شرع يدور حول نفسه باحثاً عن مخرج يرضى به تكذيبه السابق ، لا عن مخرج ينسجم به مع منطق الأحداث .

وما تنتظر من رجل لا يفهم الا أن الفتح الاسلامى غارة لطلب المغانم ، وانتهاب الدنيا ، فاذا صدمه ما اتسم به الفتح من ترفع ورحمة نكس على رأسه ليصطاد اشاعة يجسمها ، أو خطأ يدندن حوله …

ولا أدرى من ألوم وأنا أخط هذه السطور .. ؟ .

مؤرخينا الذين أولعوا بسرد الصغائر ، وتدوين كل تافهة وآبدة ؟ .

أم المستشرقين الذين ينقبون عن شىء ما ليرووا به حقدهم المرير على الدين ؟ ؟ خذ مثلا ، جندياً من الظرفاء فى جبهة فارس ، يظفر فى أعقاب المعركة بأقراص الخبز الرقيق فيقول متفكهاً : لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذه الرقاق .

هذه الفكاهة التى رأى مؤرخونا أن يثبتوها ، لأنهم مغرمون بتسطير الأخبار مهما تفهت يجىء مستشرق ما فيقول : ألم أحدثكم بأن أسباب الفتح اقتصادية ؟ ؟

ولو ظفر ثوار الجزائر بكعكة فرنسية لتحولت الحرب الاستعمارية حسب هذا المنطق الى عدوان جزائرى !!! .

وهناك قصة أخرى يرويها المؤرخون ، ولا بأس أن يقف لديها المستشرقون .

جندى عربى يترك أسيرة فارسية من الأميرات نظير ألف درهم !!

فيقال له : كنت تستطيع أن تفتديها بأكثر من ذلك ؟ .

فيقول الأعرابى : ما كنت أحسب هناك عدداً آخر يزيد على الألف .!!

ان هذه القصة التى ينقلها — عنا طبعاً — الأستاذ « فيليب خورى حتى » لها دلالتها الناطقة بجهل الفاتحين ، وانحطاط مستواهم ...

كما يدل نبأ الفلاح الأمريكى الذى اشترى شلالات « نياجرا » على غباوة الأمريكان عموماً ... !!! .

ونحن لا نردد هذه التوافه الا لغرض أهم نحب توضيحه . هو أن الروايات الفردية المجردة المبتورة عن ملابساتها ، لا يجوز أن يفهم منها تاريخ ولا أن ينتزع منها قضايا وأحكام ..

فلنترك حكايات الأعراب السذج الى حكاية يرويها المؤرخون عن زعيم عربى كبير هو « عمرو بن العاص » .

هذا الرجل هو فاتح مصر ، وقدرته العسكرية والادارية ليست موضع جدال .

وقد ولاه عمر بن الخطاب حكم البلد الذى افتتحه فسار فيه سيرة محت من أذهان المصريين الذكريات السود عن حكم الرومان الأقدمين .

و « عمرو » رجل يرى فى نفسه الجدارة لولاية مصر .

ويرى تنحيته عنها هضما لكفايته أولا ، وجحداً لصنيعه ثانياً .

فكيف اذا عزل عن مصر ليجىء بدلا عنه رجل أهون شأناً وأضأل قدراً ، كعبد الله بن سرح .

ان ذلك تصرف يحفظ عمراً ، ويطلق لسانه بالسخط .

و « عمرو » ليس ممن يتنازلون عن حق لهم ، وليس ممن يقبلون — لله — أن يعتزلوا الفتن وينشدوا أجر الجندى المجهول على ما قدموا .

وربما كانت له وجهة نظر فى هذا المسلك الذى استولى عليه وهو يندد بسياسة عثمان .

وعثمان — غفر الله له — كان مخطئاً فى تولية عبد الله بن سرح امارة مصر .

والغريب أنه لما بدا عجزه طلب من عمرو أن يعاونه !! .

ونتساءل : أكان على عمرو أن يعاونه بكفايته — احتساباً — ولو لم يكن الرجل للولاية أهلا ؟

ان ذلك مثل أعلى ، بلا شك ، وهو ما طلبه الرسول ﷺ من المسلمين حين تضطرب سياسة الحكم .

ففى الحديث « ستكون بعدى أثره وأمور تنكرونها !! قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أدوا الذى عليكم وسلوا الله الذى لكم » .

وفى رواية « اصبروا حتى تلقونى على الحوض » .

وأداء الواجب ، والصبر على الحرمان ، هما الضمان الأوثق لمصلحة الأمة . وهو النصح الذى لا ينتظر غيره من الرسول ﷺ .

بيد أن عمراً غاظه أن يعزل عن ولاية هو لها كفء ، وأن يكلف بمساعدة وال يراد نفعه بأجر المنصب الكبير فقال : « انى أكون كماسك قرنى البقرة وغيرى يحلبها » !

وهى كلمة ساخرة ، لا تعدو أبداً أن تكون ازراء على الوالى الجديد ، ولا يفهم منها أبداً أن العرب الفاتحين جاءوا لنهب مصر ، وسرقة خيرها — كما يفهم المستشرقون — .

وعمرو ، وغير عمرو . أفراد قلائل فى جمهرة المؤمنين الخلص الذين جاءوا مصر ، وليس فى مشاعرهم وأفكارهم الا أنهم جند الله ، وفداء الاسلام ، وطلاب للآخرة .

وصفهم رسل المقوقس بهذه الكلمات .

« رأينا قوماً الموت الى أحدهم أحب من الحيـاة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة .

ليس لأحـدهم فى الدنيا رغبة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم .

وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد .

واذا حضرت الصـلاة لم يتخلف منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالمـاء ، ويخشعون فى صلاتهم » .

هذه السمات الناضحة بالنبل ، والمصورة لخلال الفاتحين وغاياتهم ، لا يجوز أن يعكر نقاءها قول أرسله أحد الناس فى ساعة غضب ، كاشفاً به عن وجهة نظره فى موقف من المواقف الشخصية ...

ومرة أخرى : لا ندرى من نلوم ؟ مدونى الآثار دون شرح ووعى .
أم من يتلقفها من أعداء الاسلام ليحملها ما لا تطيق وما لا يدور ببال .. ؟

واتهام الفاتحين بالظلم والنهب مقصود به اظهار الشعوب التى اتصلوا بها وكأنها دخلت الاسلام فراراً من الضغط الاقتصادى ..

وتدليلا على هذا يذكر الأستاذ « فيليب حتى » عن مصر « أن دخلها هبط من ١٤ مليون دينار على عهد عمر بن الخطاب الى ٥ ملايين فى عهد معاوية ، كما هبط الدخل فى العراق من مائة مليون فى عهد عمر الى ٤٠ مليوناً أيام عبد الملك . ثم يقول : لا شك أن أحد الأسباب التى أدت الى هبوط دخل الدولة ، كان اعتناق الاسلام » .

ويعلق الأستاذ « فيليب حتى » على تكليف غير المسلمين بدفع الجزية فيقول : « ان الاعتراف بهذه الديانات وحسن معاملة أهلها — برغم تجريدهم من السلاح وحملهم على دفع الجزية مقابل الحماية الاسلامية الممنوحة لهم — يعتبر أكبر ابتداع سياسى أحدثه « محمد » » .

وهذا التعليق اللين الملمس ، يعتبر — فى نظرنا — تفسيراً رديئاً ومشوهاً لدخول المصريين وغيرهم فى الاسلام .

بل هو اخفاء متعمد للأسباب الصحيحة التى جعلت شعوب الأرض تؤثر الايمان بالدين الجديد وتتخلى من تلقاء نفسها عن معتقداتها الأولى .

كيف يتهم المصريون مثلا بأنهم تركوا ديانتهم القديمة حتى يستريحوا من الضرائب التى فرضت عليهم ؟

ان المصريين — برغم انهزامهم العسكرى أمام الرومان ، وسقوط واديهم الخصب فى يد الدولة الجشعة ، وبقائهم ستة قرون فى قبضة حكامهم الغرباء — أبوا — برغم هذا كله — أى ينهزموا روحياً أمام قوى الفاتحين ، وبقوا على دين غير دين الرومان ، ثم على مذهب غير مذهبهم .

وتحملوا فى ذلك طوفان من الدم جعلوه بداية لتاريخهم ، ثم سلسلة من التضحيات العقيمة لم يجد شىء منها فى ثنى عزائمهم عن العقائد التى ارتضوها .

فهل يصح فى الأذهان أن قوماً يظلون القرون على هذه الصلابة ثم بغتة يبيعون دينهم لأنهم يرفضون البقاء عليه نظير ثمن بخس دراهم معدودة ؟ .

الواقع أن تصوير الدخول فى الاسلام بأنه للفرار من الخراج أو الجزية تصوير سمج .

وأن أكاذيب المستشرقين تطل من ورائه نابية الملامح .

ان تحول نصف المصريين الى الاسلام فى مدى عشرين سنة ، لم يكن نتيجة ارهاب أو اعنات ، فان هذه الوسائل أفلست فى تغيير عقائد المصريين مئات السنين .

لقد كان هذا التحول نتيجة وعى كامل ، ورضا سمح ، ورغبة بينة .

والحق يقال : ان المؤرخ الانجليزى « ويلز » كان أدنى الى الانصاف والصدق عندما بين فى كتابه « معالم تاريخ الانسانية » أن انتشار الاسلام كان يشبه ثورات شعبية على التقاليد السالفة ، وانجازاً فى الوعى الانسانى وتطلعاً الى نور جديد .

ثم ان فرض الضرائب على الأرض الزراعية شىء لا مكان لاستغرابه أو استنكاره .

ان هذه الضرائب مفروضة الآن فى كل مكان وتجبيها الحكومات دون حرج .

وهل الخراج الا الضريبة ، بالتسمية الحديثة ؟ .

فما معنى ابراز ذلك على أنه بدعة عربية ؟ أو سنة اسلامية ؟ .

ان جمع الضرائب شأن مدنى تباشره كل حكومة ، والذى يطلب فى هذه الأحوال أن تكون الضريبة عادلة ، وأن تكون مصارفها سليمة .

ونحب أن نسأل كل مؤرخ : أكان العرب أعدل أم الرومان ؟ .

أكان الحكم الاسلامى أرحم أم الحكم القيصرى ، والكسروى ؟؟

وندع الجواب للمؤرخين غير المسلمين ، ونرتضى ما نقله الأستاذ « فيليب حتى » نفسه من فرح الشعوب بعدالة المسلمين ورحمتهم وتعاونها المطلق مع النظام الوافد والدين الجديد .

وقد تحدث الأستاذ « فيليب » عن الجزية ووصفها بما يدل على دهشته ، أو اعجابه أو استغرابه •

ونريد — لنلقى ضوءاً على هذا الموضوع — أن نقول :

ان أهل الذمة يعتبرون فى الكيان الاسلامى مواطنين « مسلمى الجنسية » ان لم يكونوا مسلمى العقيدة ، أى أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم •

ومقتضى هذا الوضع أن يتساووا مع المسلمين فى الأعباء المالية ، أو يقتربوا منهم على القليل •••

فاذا كان المسلمون مكلفين بفروض مالية دينية كالزكاة ، ومغارم الجهـاد •

على حين لا تؤخذ من غيرهم زكاة ، ولا يطالبون بجهاد ، وتجب على المسلمين حمايتهم ، فهل العوض المالى الواجب حينئذ يسمى ظلماً ؟؟

هل العدل أن يكلف المسـلمون ببذل المـال والدم ، ويعفى الآخرون من كل شىء ، ويتركوا وافرين ناعمين ؟ •

ونسأل الأستاذ « فيليب » كما سألنا غيره من قبل : هل الجزية التى ابتدعها محمد — على حد تعبيره — أشرف أم المذابح الدينية التى نشأت عن اختلاف الرأى والتى ظلت أوروبا ملوثة بها الى مطالع العصر الحديث ؟ •

ان الشح بحق الحياة على المخالفين فى العقيدة ، أو المتحررين فى الرأى كان ديناً وتشريعاً لدى الأوروبيين القدماء •

والتقرب الى الله باختطاف أرواحهم ، واستلاب أموالهم هو القانون الذى طبق فى الأرض ، استرضاء لاله السماء •

واسـمع الى ما يقوله العالم الجزويتى البرتغالى « فرانسـوا دى ماسيدو » فى تقديس محاكم التفتيش ، وتسويغ أحكام القتل والنهب التى ظلت ثلاثة قرون تصدر ضد أحرار الفكر ، والمخالفين فى الدين ، يقول هذا الرجل العجيب :

« ان محاكم التفتيش قد نشأت فى السـماء قبل أن توجد على الأرض !! •

والله سبحانه وتعالى هو الذى قام بوظائف أول محكمة للتفتيش!!.

فهو أول مفتش مارس سلطاتها ، حينما أهلك الملائكة المتمردين الخارجين على طاعته ..

ثم مارسها عندما عاقب آدم وقابيل — الذى قتل أخاه .

وحينما أهلك بنى آدم بالطوفان .

ثم أمر موسى أن يقوم بها نيابة عنه حين أمره بعقاب العبرانيين فى الصحراء بالموت الأليم ، ونار السماء تأخذهم والأرض تبلعهم فى قرارها السحيق .

ثم نقل الله رسالة القيام بهذه الوظائف الى القديس « بطرس » الذى قضى بالموت على المرتدين « أنيانيا وسفيرا » .

ثم جاء بعد ذلك آباء الكنيسة الكاثوليكية وهم خلفاء القديس « بطرس » وورثته وفوضوا أمر القيام بهذه الوظائف الى القديس « منيك » وأتباعه » .

أرأيت هذا التعليل البارع .. ؟ ان الذين فعلوا هذه المناكر ضد خصومهم هم الذين يتهمون المسلمين بأنهم حملوا المصحف فى يد والسيف فى أخرى .

فاذا بهرهم دخول الأمم أفواجاً فى دين الله دون شائبة قسر ؛ قالوا : فروا من دفع الجزية .

انهم يتوهمون القشة فى وجوه الآخرين وينسون الخشبة فى أعينهم .

ان الاسلام كان ولا يزال نعمة الله على الناس قاطبة ، والوسيلة الفذة لايضاح الحقيقة وصيانة الحقوق ، وكبح الباطل ، وصد الجبروت ..

ولعل من الأساطير المفسرة لامتداده الأول ، أو الأساليب المعبرة عن أهدافه الخالدة ، ما يتناقله الرواة عن معركة « بلاط الشهداء » التى جرت على حدود فرنسا .

لقد زعموا أن ألفاظ الأذان تسمع فى سكون الليل خلال المقابر التى تضم رفات المجاهدين .

أجل ، لقد مات أولئك الشهداء فى سبيل هذه الكلمات العظيمة :
الله أكبر ، الله أكبر • أشهد أن لا اله الا الله • أشهد أن لا اله الا الله » ••

هذا ما سمعه الأحياء أو تخيلوا سماعه من نداء موتانا •

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

فماذا يتخيل الناس سماعه من قتلى المستعمرين ، ومن خلال أجداثهم المبعثرة فى افريقية وآسيا ؟ •

ماذا يسمعون من هتافهم ؟

ذهب ذهب !! بترول بترول ! نهب نهب ••

هل يسمعون الا هذا ؟؟

« ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار • جهنم يصلونها ، وبئس القرار » (٧٠) •

ولنختتم بحثنا الطويل بهذه الكلمات القامعة لغرور المستشرقين : وتقليد المفتونين •

قال الأستاذ الزيات : « لم تكن الفتوح الاسلامية اذن فتوح استعمار وجباية ، وانما كانت فتوح تحرير وهداية •

كانت فتوحاً فى الأرض للحرية والعمران ، وفتوحاً فى العقيدة للتوحيد والايمان ، وفتوحاً فى الشريعة للحق والعمل ، وفتوحاً فى السياسة للاحسان والعدل ، وفتوحاً فى اللغة للأدب والبلاغة ، وفتوحاً فى العلم للاحياء والتجديد ، وفتوحاً فى الفن للابتكار والطرافة » •

ومن رسالة كتبها المغفور له الأستاذ « عبد الوهاب عزام » يوم كان سفيراً لمصر فى باكستان ، نقتطف تلك الجمل الرائعة :

« •• ومن أطراف الجزيرة العربية الى خليج القسطنطينية شطر الشمال والى حدود الصين وما وراء نهر السند شطر الشرق ، والى بحر الظلمات حيث دفع « عقبة » فرسه فى البحر صائحاً :

« لو علمت وراءك أرضاً لسرت غازياً فى سبيل الله ، ثم الى نهر اللوار فى فرنسا والى أرجاء أخرى ، سار المسلمون مقاتلين ومصالحين ،

---

(٧٠) ابراهيم : ٢٨ • ٢٩ •

ويفرقون الجيوش المجتمعة بالقهر على الباطل ، ليجمعوها بالعدل على الحق ، ويلقون الأقوام والألوان ، فى اخوة الاسلام •

كانت موقعة بلاط الشهداء سنة أربع عشرة ومائة موقعة امتحن فيها المسلمون وقتل كثير منهم ، وانتصر « شارل مارتل » على « عبد الرحمن الغافقى » •

وروى الراوون أن الناس لبثوا حقبة يسمعون الأذان ، أذان الشهداء فى بلاط الشهداء ، لم يسمعوا فى الآفاق أو فى أنفسهم طبل الحرب ولا صلصلة السيوف ، ولا صياح المحاربين ، ولكنهم سمعوا الأذان شعار التوحيد والايمان والصلاة والفلاح •

ذلكم كان مقصد هذه الوقائع وشعارها وسرها وعلانيتها •

أكتب هذه الكلمة فى « كراجى » من أرض السند ، لست بعيداً من أطلال مدينة « الديبل » مدينة الصنم الكبير الذى حطمه المسلمون فى السند ، كما حطموا « هبل » فى مكة ، وحطموا كل صنم من الحجر أو البشر بين مكة والديبل ، وفى أرجاء من الأرض كثيرة •

يقول المسلمون هنا كلما رأوا نخلا — والنخل كثير فى أمكنة شتى من هذه البلاد — : هذه آثار العرب ، كانوا حينما صاروا أو خيموا ينبت النخل •

قلت : وينبت الايمان والحق والخير ومعان أخرى كثيرة •

انظروا الى العرب المسلمين يسيرون من بلادهم فى البر والبحر الى المشارق والمغارب ، على بعد الشقة وضآلة العدد ، وعظم المطلب ، يسيرون الى المشارق والمغارب دعاة توحيد وأخوة ، ورسل شريعة عادلة وخلق كريم ، الله ربهم ، والناس اخوانهم ، والأرض كلها ديارهم ، غلبوا ولم يذلوا ، وفتحوا ولم يخربوا ، وتسلطوا فساسوا بالعدل ، وولوا بالحق ، وخلطوا الأمم بعضها ببعض فى أخوة الاسلام التى لا تميز بين الأقوام والألوان والأوطان ، وذاع فى الأرض عدلهم وشاعت بين الناس سيرتهم ، فسالم من سالم ، وحارب من حارب ، قوما أصحاب شريعة من العدل والرحمة ، دعوتهم الأخوة وسيرتهم مكارم الأخلاق •

قوماً بيوتهم مساجد ، ورحالهم معابد ، يحاربون على شريعة ويسالمون على شريعة .

ما الذى يسر للمسلمين الفتح ، ونشر سلطانهم فى المشرق والمغرب فى سنين قليلة .. ؟

الايمان الذى ملأ قلوبهم فى مبدأ سيرهم ونهايته ، وصحبهم من « بدر » الى بلاط الشهداء ، وحالفهم مشرقين ومغربين وهازمين ومهزومين والثقة بوعد الله فى فتح الأرض ، والسيطرة عليها بالحق والعدل . يسر لهم الايمان واليقين كل عسير ، وذلل لهم كل صعب ، وأصغر لهم كل كبير ، وجمع كلمتهم على الجهاد فى سبيل الله والصبر على ما يلقون ، بل حبب اليهم لقاء الموت راضين مستبشرين .

وكذلك يسر لهم الفتح أنهم ساروا الى الأمم على شريعة جامعة ، وقانون محكم ، لا يعتدون ، ولا يبغون ، ولا ينقضون العهد، ولا يخفرون الذمة ، « تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » .

وأنهم جماعة نظام ، وجند طاعة فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والحرب والسلم .

وأنهم لم يسيروا فى الأرض ابتغاء المال والملك والسلطان والجبروت ولكن دعاة دين عظيم ، وشرع قويم ، وخلق كريم ، ورسل عدل ورحمة، وأخوة ومواساة ، شعارهم تلك الآية :

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »[71] .

عباد زهاد ، شعارهم الأذان ، وحداؤهم القرآن ، وما رأى الناس جيوشا من العباد قبلهم سارت للدعوة الى الحق ، وتمكين عدل الله فى الأرض .

بهـذا طار ذكرهم وانتشر صيتهم ، لقد أخرجوا عبادة الله من الصوامع المنعزلة الى أرض الله الواسعة .

وأنهم سيطروا فأزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين ، وأمنوا الناس على ما تعمله أيديهم . وما يناله جدهم وسعيهم ، فاستبشر

---

(٧١) الانبياء: ٩٢ .

الزارع والصانع والتاجر ، وشمل الناس الأمن مقيمين وظاعنين ، وبادين وحاضرين ، وعم الرخاء واستبحر العمران .

وكثير من الأمم انتظروا العرب ليفتحوا بلادهم ، وينقذوهم من الجبارين المسلطين عليهم ويشملوهم بما شاع عنهم من العدل والرحمة والأخوة والمساواة .

لقد ساروا على الأرض قوانين من قوانين الله وسنناً من سننه التى لا تعطل ولا يصدها عن غايتها شىء .

❊ ❊ ❊

وقال قائلون فضلوا وأضلوا — وكم منيت هذه الأمة بالمفترين ، يغضون من أقدارهم ويهونون من مآثرهم — قالوا : طلب القوة والطمع فى الغنائم هو الذى نشر هؤلاء العرب فى أرجاء الأرض .

قاس هؤلاء الدعوة الاسلامية على الاستغلال الذى يسمى الاستعمار فى حضارة هذا العصر وعلى المستعمرين الذين كل شىء عندهم قهر وتسلط ، واستغلال ونهب ، وشره وحرص ، وتفريق بين الناس ، وعبادة للمال من دون الله .

فقل لهؤلاء : ان الانسان ربما يحارب على الخبز ولكنه لا يطلب الشهادة فى سبيله ، ان الانسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به ، لا أن يموت فى طلبه ، فما بال هؤلاء العرب المسلمين طلبوا الموت حيثما ذهبوا وحقروا العيش أينما وجهوا ؟

ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب فى أرضها ، ورغد العيش على ضفاف نيلها ، جاوزوها الى صحارى النوبة وسهول افريقية ؟

ما بالهم وقد فتحت لهم الأندلس ورأوا النعيم المقيم ، جاوزوا جبال البرانس ليستشهدوا فى بلاط الشهداء ؟

ما بالهم وقد دانت لهم فارس ، جابوا صحارى مكران الى السند ، وعبروا نهر جيحون الى ما وراء النهر ؟

وما بالهم يتركون النعيم والخير العميم والعز المقيم فى الأرض التى سيطروا عليها ليجوزوا فيافى قاحلة ، ويحاربوا أقواماً غلاظاً شداداً

فى بلاد تنتظرهم فيها قبورهم . ان الأمر لأعظم مما توهموا ، وأسمى مما تخالوا .

* * *

وبعد : فالحرب هى الحرب فى كل أرض وكل عصر ، فيها قتل وفيها أسر وفيها غلب وسلب وليس عجباً أن يفرح المجاهد الذى شرى نفسه فى سبيل الله بغنيمة ينالها ، وليس بعيداً أن يكون فى سواد الجند من تكون الغنيمة همه ، ولكن جيوش المسلمين سارت داعية الى الاسلام مجاهدة فى الله ، ترجو الشهادة قبل الغنيمة ، وتتهيأ للموت قبل الطعام .

ان النهر العظيم الذى ينحدر من منبعه الى منتهاه يسير بالحياة والخصب ، قد يجرف أرضاً ويحمل غثاء ويغرق ناساً . ولكن الله أجراه للحياة والخصب لا ليسير بالكدر والغثاء ، ويهلك الأحياء .

فأعيدوا النظر أيها الضالون ، وأنعموا الفكر لعلكم تهتدون .

هذا سطر من كتاب ، وموجة من عباب ، والكتاب هو تاريخ الفتح الاسلامى على سعته وطوله ، والعباب هو مجد العرب المسلمين ، لا يزال يعى الزمان صداه ، ويحلم التاريخ بذكراه .

فمن عبقرى عادل يفقه التاريخ ويكتب الكتاب ، ويصور فى السطور أمواج هذا العباب ؟

* * *

ذلك .. ويجد القارىء بقية نقاشنا للأستاذ « فيليب خورى » والرد على شبهاته عند الكلام عن محاولات الهدم التاريخى ، وواجب الدعاة بازائها .

* * *

الدعـــوة وحملتها

سألنى صديق : أليس لرجال الدعوة فى الاسلام تاريخ موجز أو مفصل يسرد أعمالهم ويقص جهادهم ، ويكشف عن أطراف الميــدان الرحب الذى انساحوا فيه ، وبثوا تعاليم الاسلام فى أرجائه ؟

تدبرت هذا السؤال ملياً ، وأعيانى الجواب السريع الشافى .

فقلت : ان المقام يقتضى شيئاً من الأناة فى الرد ..

ذلك أن هناك من يرى الدعوة فى الاسلام فريضة شائعة وواجبــاً عاماً كسائر الفرائض والواجبات التى نيطت بعنق الفرد .

وأنها لا ترتبط بجهاز معين يختص بها ويسئل عنها ويكفى غيره مئونة الاهتمام وتقديم الحساب .

أى أنه كما كلف المسلم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، وكما كلف بالصدق والعفة كلف بنقل الايمان الى الأفئدة الفارغة وارشاد الحيارى والتائهين الى صراط الله المستقيم .

فالدعوة الى الله تشبه جملة الفضائل النفسية والتكاليف الشرعية التى لا ينفرد بها مسلم دون مسلم .

ويظهــر أن انعدام « طبقة الكهــان والقساوسة » من المجتمــع الاسلامى ، واحساس كل تابع لهذا الدين بأنه رجل له ، محاسب أمام الله وحده عنه ، جعل انطلاق الاسلام فى المشارق والمغارب أثراً لهــذا الشعور القوى .

ومن ثم فليس هناك تاريخ خاص بالدعوة ، كما أنه ليس هناك تاريخ خاص للأمناء والأوفياء ، والمقيمين الصلاة والمؤتين الزكاة ..

نعم .. ان لبعض الناس فضل عناية بتوصيل القول ، ونشر العلم ، ورد الشبه .

بيد أن التفوق العلمى عند نفر من المؤمنين لا يمس هذا العموم فى واجب البلاغ .

ولا يزال انتشار الاسلام فى أعماق افريقيا وآسيا راجعاً الى الجنود المجهولين من جماهير المسلمين الذين يعملون فى شتى الحرف ، والذين لم تشغلهم ضروب التكسب فى الدنيا عن رعاية آخرتهم فنشروا الاسلام بالاقناع والقدوة الطيبة .

والواقع أن هذا الكلام الذى يأخذ به « سير توماس أرنولد » على جانب كبير من الصدق .

ولكنه — فى نظرنا — يمثل جانباً من الحقيقة ، ولا بد من القاء ضوء على الجوانب الأخرى . .

لقد قامت حكومات اسلامية شتى فى القارات الثلاث القديمة .

وكان يجب عليها أن تصدع بأمر الله ، وتؤلف الوفود من العلماء لغزو ثقافى واسع النطاق يقرب حقائق الاسلام من الشعوب المحرومة ويكذب عشرات الشبه التى روجها المفترون ضده .

غير أن هذه الفريضة الاجتماعية الجليلة لم تلق العناية المطلوبة ، ولم يتوجه لها الحكام المالكون للسلطة .

ولعلهم رأوا ترك هذا العبء للأفراد يعالجونه كيف شاءوا .

وقد سمعت زميلا يأسى لسياسة حكام الأندلس ، ويستغرب اهمالهم البعوث لغرب أوروبا طوال ثمانية قرون .

مع أن الحاجة كانت ماسة لاختيار علماء مزودين بوسائل النجاح يجوسون خلال هذه الديار ، ويقفون أهليها على حقيقة الدين الذى يعادون ...

ان عقبى تقصيرهم كانت — ونقولها محزونين — اجتياح دولتهم واستئصال شأفتهم .

ومع أنى أستبعد انفتاح أبواب غرب أوروبا عصر ذاك لدعاة مسلمين ، وأكاد أجزم بأن التعصب الشديد سيحصد أولئك الدعاة أنى ذهبوا ..

الا أننى أرى أن المحاولة واجبة ، وأن التوقف عن نشر الدعوة لا يجوز بناؤه على وهم أو وجل .

وماذا لو كلف حكام الأندلس بعض العلماء المخلصين بالسفر الى هذه البقاع ؟

فان نجحوا فبهـا ونعمت • والا نالوا الشـهادة فى سبيل الله ، وأعذروا الى ربهم فى التبصرة والهداية ؟ ••

ولنفرض أن التعصب المسيحى الداكن كان سيمنع الدعاة من ابلاغ رسالات الله •

فماذا نقول فى الحكم الاسلامى بالهند ، وقد ظل ثمانية قرون فى هذه المناطق الفسيحة الحاشدة بالخلائق ؟

ان انتشار الاسـلام هنالك يعود الى بسالة الأفراد فى التبشـير والانذار ، واخلاصهم العميق فى خدمة الحق واسعاد الناس طراً به •

ولا شك أننا دفعنا أفدح الأثمـان ، لتلك الأخطاء التى اقترفهـا قديماً الساسة المسلمون ، والحكام القاصرون •

وأجدنى هنا مسوقاً لتصحيح غلط شائع فى فهم الدعوة ورجالها •

أننا نضفى هذا الوصف على لفيف الوعاظ والأئمة المذكورين ، الذين يحسنون النصح ، ويحترفون الكتابة أو الخطابة ، ويحصرون نشـاطهم الذهنى والعاطفى فى الوعد والوعيد ، وفى التحدث عن الدار الآخـرة لنشل الغارقين فى لجج الدنيا •

وهذا التحديد لا أصـل له ، وهو تغليب لجزء من الرسـالة على بقيتها •

والحق أن الدعوة الى الاسلام انما تأخذ مفهوماً من طبيعة الرسالة الاسلامية نفسها •••

وهذه الرسالة يتجاوز فيها الايمان بالغيب مع فن التشريع للمجتمع والاصلاح للحكم ، وتقترن فيها العقائد ، بالعبادات ، بسياسة المـال والدولة •

ويشتبك فيها الكلام عن حقوق الله بالارشاد الى حقوق عبـاده جميعاً ، والكلام عن الدار الآخرة بالكلام عن الدنيا وكيف نجتاز فترتها ، ونخلف وراءنا من قواعد الحق ما يضمن سيرها على سواء الصراط •

ولا يمكن شطر هذا الدين ، ولا تجزئة النسبة اليه ، ولا العمل ببعض تعاليمه ، واطراح البعض الآخر .

ان الانسان الحى يتكون من لحم وعظم وعصب وعروق ودماء تمتد فى البدن متداخلة مختلطة ، لا تتصور حياة فى ميزة كل منها على حدة .

كذلك الاسلام عقيدة وقانون ، وخلق واقتصاد ، ونصح ومعاملة .

والأمة المسلمة توزع نشاطها العام على المطالب الكاملة لهذه الرسالة ، كما توزع مملكة النحل أفرادها على وظائفها العتيدة ، فى تعاون واتساق .

وعندما نفهم الدعوة بهذا الشمول يمكننا أن نذكر رجالها فى شتى الميادين .

فالحاكم العادل ، والمشرع الضليع ، والأديب الموجه ، والمجاهد المخلص ، والواعظ النصوح ، بل الثائر على المظالم ، والمتمرد على الطغيان .

كل أولئك من رجالات الدعوة الاسلامية ويمكن التأريخ لهم على هذا الضوء المبين ، ونستطيع أن نذكر لهم نماذج كثيرة على مر العصور .

وربما كان الوصف الذى عرف به هؤلاء الدعاة واهى الصلة بالوعظ والارشاد .

فـ « جمال الدين الأفغانى » كان مشغولا بالاصلاح السياسى ، ونفخ روح الحياة فى أمة خمدت أنفاسها تحت أقدام الطغاة .

و « محمد عبده » وصاحبه « رشيد رضا » كانا معنيين بالاصلاح العلمى ، ومحو الخرافات التى شلت التفكير الاسلامى دهراً طويلا .

و « محمد بن عبد الوهاب » ركز اهتمامه فى تطهير الايمان من أدران الشرك والعودة بالأمة الى اليقين المصفى الذى ورثته عن رسولها العظيم .

وهؤلاء الرجال وأمثالهم قدموا للدعوة من الخير ما قدمه مثلا « أبو حنيفة » و « مالك » وسائر الأئمة الفقهاء فى ميدان الفتوى

والتشريع ، وما قدمه من قبل الخلفاء العدول والفاتحون العسكريون ..
فى ميدان السياسة الداخلية والخارجية .

والمثل الأعلى لذلك هو رسول الله ﷺ الذى انبثقت أشعة الدعوة من سيرته فى جميع المجالات (١) :

« فهو عابد تتورم أقدامه من السهر بين يدى الله .

وهو قائد يومض بالنور كل أفق فيتعلم منه الساسة والقضاة والفرسان والوعاظ والخواص والعوام على السواء .

نسكه وتعبده ﷺ ، صفة بارزة فى طبعه الكريم .

فقد كان يجد فى العبادة قرة عينه وطمأنينة نفسه .

ولو أنه كان من النساك الذين انقطعوا للرهبانية أو المتصوفة الذين انصرفوا عن الدنيا ، لما كان فى نسكه وتعبده بدعاً .

وانما الذى يلفت نظر الباحث فى حياة بطل الأبطال ، هو ذلك الجمع الغريب بين النسك الذى يبلغ أرقى مراتب التعبد ، وبين القيام على أمور الدنيا التى كان يعيش فيها بكده ، ويعول كثيراً من الأهل والفقراء ، ويناضل أمماً بأكملها ، ويسوس دولة فتية فى وجه العالم .

يوفد الى الملوك ويدعوهم ، ويستقبل الوفود ويكرمهم ، ويبعث السرايا ، ويقودها ويجادل من حوله من الأديان وأهل السلطان ، ويهىء للنصر ، ويحتاط للهزيمة ، ويبعث العمال ، ويجبى الأموال ويقسمها بنفسه ويقول : « ان لم أعدل فمن يعدل » ؟

ويشرع للناس دين الله فيفصل المجمل من الوحى ، ويوضح الغامض ، ويرسم السنن . فيخرج من الأصل فروعه ، ويرد ما لم يطلعه الله عليه الى ما أطلعه الله عليه .

وهو — فى كل ذلك — يؤدى العمل اليومى الذى ينوء به أبطال هذه الدنيا .

وبين هذه الهموم والمشاغل يتجلى « محمد » ﷺ الناسك العابد بالليل والنهار أعظم انقطاعاً الى الله ممن انقطعوا اليه فى رؤوس الجبال .

---

(١) للدكتور عبد الوهاب عزام .

ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من بطل الأبطال ﷺ ، مثــلا قائماً بنفسه فى تاريخ البشرية ، مثلا منقطع النظير •

كان يقسم يومه ، جزءاً للناس ، وجزءاً لأهله •

فاذا طغى ما للناس انتقص من الوقت الذى هو لأهله ، واحتفظ بما هو لله •

وقد واظب على ذلك مواظبة لا نظير لها تستحق مزيد الاعجاب من أنصاره وخصومه على السواء •

فقد كان مثلا من أمثلة الجد الكامل ، والتوجه الخالص •

اذا انصرف للعبادة بجملته ، واذا قام بعمل آخر لم يفتر عنه حتى يتمــه •

وقد أجمع مؤرخوه من أهل الملل المختلفة على أنه كان يعطى العمل الذى يشغله كل حسه وكل قلبه •

وكان ذلك يتجلى فى علاقته بالناس •

فما حدثه أحد الا التفت اليه بوجهه وجسمه ، وأصغى اليه تمــام الاصغاء •

ولا يقطع الحديث حتى يكون المتكلم هو الذى يقطعه •

ذلك الجد الذى يلازم النفوس المؤمنة ، هو سر النجاح فى كل الأعمــال •

سواء أكانت للدين أم للدنيا • وفيه كان بطل الأبطال صورة صادقة منيرة لأصحابه وتلاميذه •

بل ذلك المثل من الجــد فى كل شىء ، هو الــذى أنجب ـ ممن صحبه ـ أكبر رجال الدولة ، وسواس الأمم •

فجعل من رعاة الابل والغنم ومن صغار الزراع والتجار خلفــاء « كسرى » و « قيصر » يعلمونهما ما فاتهما من العدل والاحسان » •

* * *

على أننا فى عصر يمتاز بالتخصص العلمى •

وتكثر فيه ألوان الثقافة كثرة يصعب استيعابها على ذهن واحد مهما بلغ من المضاء والالتماع •

حتى أن الطبيب يتوفر على دراسة عضو واحد من أعضاء البدن ، لأن الاحاطة بعلوم الجسم كله أضحت مستحيلة •

فاذا استبحرت المعارف على هذا الاتساع البعيد جاز أن يختص فريق من العلماء بدراسة الدعوة الى الاسلام فحسب •

وأن يستكمل — لهذا الاتجاه وحده — ما يتطلبه من ثقافة معينة ومن دربة خاصة •

وجاز لنا أن نسمى أولئك الذين كرسوا حياتهم لهذا الغرض « دعاة الى الله » •

وربما توزع الأصحاب والتابعون على وظائف الرسالة بما يشبه هذا الاختصاص •

فمنهم من عنى بسياسة الحكم ، ومنهم من عنى بالقضاء ، ومنهم من عنى بالجيش ، ومنهم من اشتغل بالتعليم والتربية •

وان كانوا — رضوان الله عليهم جميعاً — لم يقصروا قيد أنملة ، وان تنوعت مناصبهم العملية — فى حراسة الحقيقة الدينية العامة ، وأداء واجب الدعوة والأمر والنهى ••

فلنقبل اذن الواقع الذى تحسنه ظـروف كثيرة ، ولنسم أولئك المتخصصين من قدامى ومحدثين « دعاة الى الله » •

وكل ما نشترطه فى المنتصبين لحمل هذه الأمانة أمران :

أولهما : جودة المعرفة بأصول الاسلام وفروعه ، حتى اذا درسوه للناس نقلوا اليهم حقائق الرسالة كاملة •

فعلم الناس منهم أن الاسلام ليس صلة تربط الناس بربهم فى ساحة المسجد فقط حتى اذا خرجوا منه وهت وتلاشت ، كلا ••

انه صلة قائمة توجه المؤمن فى شئون حياته كلها • وتقيم المجتمع والدولة على أنحاء مرسومة لا يمكن الافلات منها •

والأمر الآخر ، أن الداعية روح مفعم بالحق والنشاط والأمل واليقظة .

فمهمته العظمى أن يرمق الحياة بعين ناقدة وبصر حديد .

حتى اذا رأى فتوراً نفخ فيه من روحه ليقوى ، واذا رأى انحرافاً صاح به ليستقيم .

انه فى المجتمع جرس الخطر يدق من تلقاء نفسه كلما عرض لتعاليم الاسلام ما يعكر صفوها ويعوق انطلاقها ..

والأمة الاسلامية فقيرة جداً الى ذلكم النوع من الدعاة الأيقاظ الذين يحيون لتبليغ الرسالة نظرياً ، ومراقبة تنفيذها عملياً .

نعم .. ان أيديهم قد تكون عاطلة من أسباب التغيير لأى منكر ينجم .

ولكن ألسنتهم فى حلوقهم سوف تكون سوط عذاب ان لم تكن صوت انذار لأولئك الذين يجورون على حدود الله ..

وصلة الدعاة بالحاكمين تتطلب زيادة من ايضاح .

ان الداعية ديدبان غيور على الدين وان افترقت عنه سياسة الحاكمين .

ومن ثم فان أى رباط يصله بالجائرين لن يكون الا خيانة لقضايا الايمان .

وللحسن البصرى موقف ينبغى أن نلقى عليه قليلا من الضوء لخطورة دلالته ..

فقد قال الشيخ « على محفوظ » : لولا لسان « الحسن » وسيف « الحجاج » لوئدت الدولة المروانية فى مهدها .

ألم تر الى الحسن وقد جلست بين يديه صفوف من الناس يصغون اليه وهو يخرج بهم فى أساليب الكلام من باب الى باب ثم يقول لهم فيما يحدثهم به :

قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الولاة فانهم ان أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر ، وأن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر ، وانما

هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع » !

وفى أزمة مالية اشتد كرب الناس لها وذهبوا يستفتونه فى حلها ، فقال لهم :

غلا السعر فى عهد رسول الله ﷺ ، فقال الناس :

يا رسول الله : ألا تسعر لنا ؟ فقال : « ان الله هو المسعر . ان الله هو القابض ، ان الله هو الباسط ، وانى والله ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه » .

بهذا وأمثاله كان يزرع هيبة الملوك والولاة فى صدور الناس .

وبهذا وأمثاله كان يبعث الرضا فى أفئدتهم عن الحكم القائم .

أقول : وهذا الكلام يؤخذ به الحسن ولا يؤخذ عنه .

وهو لأول وهلة يشينه ولا يزينه .

فان الأزمات الاقتصادية اذا أخذت بخناق الجماهير وتطلعت الى حل يفك حلقاتها وكان فى التسعير ما يحد جشع التجار . وينقذ جمهرة الناس . لم يسغ أن يقال لهم : حرم رسول الله التسعير .

ان التسعير اجراء لا تطيقه الحياة المعتادة .

ولكنه — فى ابان الحروب والنوازل — ضرورة يطالب بها الحاكم ولا يعذر فيها ... وسياسة معاملة الولاة — كما يحكيها الحسن — لا تصور الحقيقة الدينية .

بل هى — فى ظاهرها القريب — تنافى الاسلام . وتهدم قواعد الحرية والعدالة التى شرعها وأخضع لها أعناق الحاكمين ... !

وأين هذا الكلام الذى يقوله الحسن فى ترضية الناس بولاية بنى مروان من قول عمر بن الخطاب فى خطبته بالجابية[٢] :

« أيها الناس .. اقرأوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله .

انه لن يبلغ ذو حق فى حقه أن يطاع فى معصية الله .

---

(٢) ضاحية بدمشق .

ألا انه لن يبعد من رزق الله ولن يقرب من أجل أن يقول المرء حقاً ، وأن يذكر بعظيم ...!!!

ألا وانى ما وجدت صلاح ما ولانى الله الا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله .

ألا وانى ما وجدت صلاح هذا المال الا بثلاث : أن يؤخذ من حق، ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل .

ألا وانما أنا فى مالكم هذا كولى اليتيم ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف » .

ذلك وكتب الى أبى موسى الأشعرى :

« أما بعد .. فان الناس نفرة عن سلطانم ، فأعوذ بالله أن تدركنى واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة .

أقم الحدود ولو ساعة من نهار .

واذا عرض لك أمران : أحدهما لله ، والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله .

فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى .

وأخيفوا الفساق واجعلوهم يداً يداً ، ورجلا رجلا .

وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك فانما أنت رجل منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا .

وقد بلغنى أنه قد فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها .

فاياك يا « عبد الله » أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم الا السمن وانما حتفها فى السمن .

واعلم أن العامل اذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام » .

وقال العتبى : بعث الى « عمر » بحلل فقسمها فأصاب كل رجل ثوب ، فصعد المنبر وعليه حلة مضاعفة — ثوبان — فقال : أيها الناس .. ألا تسمعون ... ؟

فقال « سلمان » : لا نسمع ، قال : ولم يا أبا عبد الله ؟

قال : لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حـلة ، قال : لا تعجل يا أبا عبد الله •

ثم نادى : يا عبد الله ••• فلم يجبه أحد •

فقال : يا عبد الله بن عمر ••

قال : لبيك يا أمير المؤمنين •

قال : نشدتك بالله ••• الثوب الذى اتزرت به هو ثوبك ؟ قال : اللهم نعم •

فقال سلمان رضى الله عنه : أما الآن •• فقل نسمع •

* * *

وقد عجبنا من هذا الكلام المنسوب للحسن البصرى وتدبرناه طويلا لنعرف بواعثـه • فرأينا أن الحسن جاء فى أعقاب فتن مدلهمة قسمت المسلمين طوائف يضرب بعضها عنق بعض •

وأن هذه الفتوق فى كيان الدولة الاسلامية يخشى — لو بقيت — أن تطيح بالاسلام حكومة وشعباً •

وأن انصراف الناس الى حديثها ومرائها كاد ينسيهم روح الايمان وشعائر التقوى •

لذلك اتجه الرجل الى جمع العامة على صلاح القلوب ورقابة الآخرة مؤثراً أن يطمئن الحاكم من ناحيته بترك الكلام فى سيرته وترك التعرض لسياسته • راجياً — بذلك — أن يدعه الحاكم يعلم الناس الدين ويبصرهم بشرائعه وأحكامه •

ونحن — من التجارب التى أفدناها — نعرف موقف الحسن البصرى على حقيقته ، ونحب أن ننصف الرجل •

فقد جاء فى أعقاب الفتنة الكبرى ، وبدأ نشاطه الدينى فى ظروف صعبة •

جاء بعد هزيمة على بن أبى طالب المؤيد من جمهرة الأمة ، وحامل لواء الحق فى ذلكم الصراع الأسيف •

ولم تكن هزيمة أمير المؤمنين محدودة النتائج ، اذ آل بعده الأمر الى قلة ليست له بأهل ، كما أصيبت القيم الدينية نفسها اصابة جسيمة

وبدا للناس أن المثل العليا لا مكان لها فى ميادين الحياة ، وأن الالتحاق بالركب السائر لن يستطيعه الا من يفر من مقتضيات الايمان والخلق .

وعلاج هذه الحال المنكرة وقع عبؤه على أمثال الحسن البصرى من العلماء الذين حرصوا على صبغ المجتمع العام بالتعاليم الاسلامية ، وتمسيك الأمة بمثلها كلها ، وغرس الوفاء للحق فى حاضرها ومستقبلها .. على أن يتحروا نهجاً من التربية المحايدة الدقيقة لا يعرضهم لصدام من الحكام المتغلبين على الأمر ولا يدفع هؤلاء المتسلطين على الأمة الى فض تلك المجامع وتعطيل هذه الدروس .

وهنا يبدو ما كان يعانيه الحسن وأمثاله من حرج ، وما يعرو كلامهم حيناً من اضطراب .

فرغبتهم فى خدمة الاسلام وصيانة تراثه توجب عليهم الكلام الكثير .

ومحاولتم طمأنة ذوى السلطة — ليتركوهم وما فرغوا أنفسهم له — توجب عليهم الاغضاء ، أو التجاوز ، أو الاحتيال ، لا حرصاً على حياتهم الخاصة بل حرصاً على منار الاسلام الذى رفعوه .

فمن يدرى ربما يعم الظلام لو ذهبوا وذهب معهم . ؟

ذاك ما يمكن الاعتذار به عن كلمة « الحسن » .

ثان تاريخ الرجل فى ميدان الوعظ والارشاد والنصح العام حافل بالخير ، ملىء بالصالحات .

***

ونسأل أخيراً : هل هناك تاريخ للدعاة الذين ذكرنا طريقتهم ، وأوضحنا واجبهم ، وشرحنا فائدتهم للاسلام وأهله ؟

انهم كثير فى ماضينا وحاضرنا ..

بيد أنهم لا ينظمهم سجل ، ولا يضبط مآثرهم كتاب .

وما أحرانا وأجدرهم باستدراك هذا النقص .

***

● **من صفات الدعاة :**

للدعاة الى الله أوصاف وآداب يمتازون بها عن سواد الناس .

فهم نماذج جيدة لكل ما حوى الاسلام من تعاليم ، واستن من مكارم .

والشمائل التى نحصيها الآن من أحوالهم وأفعالهم قد تبدو — لأول وهلة — نعوتاً عامة تطرد فى جماهير المسلمين ولا يختص بها نفر من النـــاس .

بيد أن هذه النعوت — وان شاع جنسها أو ثبت أصلها لعـــامة المؤمنين — فان أنصبة الدعاة من معناها يجب أن يكون أربى وأزكى .

ان حقائق الدرس بعد أن يشرحها الأستاذ فى الصف قد تظهـر متساوية لدى الجميع .

وقد يظن أن التلاميذ ومعلمهم أصبحوا سواء فى وعيها .

وهذا بعيد .

فان الأستاذ لديه من رسوخ المعلومات ووضوحها ، ومن القدرة على تقليبها وعرضها ما يعز على غيره .

والناس قد يوجد فيهم فريق كبير ممتلىء القلب بالايمان .

بيد أن هذا الامتلاء ربما لا يعدو أصحابه .

والاناء — لكى يرشح على ما حوله — يجب أن يفيض ، وأن ينزل فيه ما يزيد على سعته وما ينسكب من جوانبه .

ونفوس « الدعاة » كذلك لابد أن يكون لديها مقادير من اليقين ، والحماس ، والفضل ، يتجاوزها الى ما عداها ، ويجعل الاستفادة منها ميسرة للآخرين .

فاذا قلنا : على الداعية أن يعرف ربه ، فلسنا نعنى المعرفة التى يكلف اياها كل مؤمن .

بل نعنى مزيداً من المعرفة ، يجعل صاحبه أنور قلباً ، وأرحب فقهاً ، وأدوم استحضاراً ، وأنضر استذكاراً .

وعلى هذا الأساس نحصى ما يجب أن يتخلق به الدعاة من أوصاف وآداب :

١ — **الصلة بالله :** وتلك هى الدعامة الأولى فى أخلاق « الدعاة » .
اذ كيف تدعو الناس الى أحد ، صلاتك به واهية ، ومعرفتك له قليلة ؟

ان الذين يدعون الى مرشح من المرشحين أو الى مبدأ من المبادىء لابد أن تكون أواصرهم بهذا الشخص أو بذاك المبدأ قائمة .

ومن ثم لا يفهم بتة أن يتصدى أحد للدعوة الى الله والأخذ لصراطه ، وهو لا يعرف الله ولا يدرى صراطه .. !!

ولذلك يقول الله جل شأنه :

« الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيراً » (٣) .

وقد عرف الله نفسه الى خلقه فى آيات بينات استفاض بها الكتاب العزيز ، وفى كلمات نفيسة زخر بها تراث النبوة .

والناس يتفاوتون فى مدى استيعابهم وفقههم لهذه المأثورات المشرقة بنور الله .

والدعاة — بداهة — أجل المؤمنين نصيباً من هذا النور .

والمهم أن ندرك طبيعة هذه الصلة الالهية ، انها روح ينفث الحياة ، وينبض بالحركة والقوة ، ويشيع الضوء والدفء .

« أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٤) .

وهذه الصلة تشمل فى موكبها أرقى ما فى الحياة ، وأكفل أسباب النجاة .

ولذلك يرفض الاسلام أى مقارنة تسويها بغيرها :

« وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات » (٥) .

---

(٣) الفرقان : ٥٩ .

(٤) الانعام : ١٢٢ .

(٥) فاطر : ١٩ — ٢٢ .

وحق على الدعاة — وذلك مكانهم العتيد — ألا يهنوا فى الحيـــاة وألا يهونوا ٠

وألا يعدلوا بنسبتهم الى الله شيئاً ٠

وأن ينظروا الى الحياة على أنهم أكبر منها ٠

وأن تغلب رؤيتهم لله كل ما يملأ العين فى زحام الأحياء وتكاثرهم٠

❊ ❊ ❊

ان وعى الناس للحقائق المبعثرة حولهم يختلف اختلافاً كبيراً ٠

وقد قال علماء النفس : ان المرء ربمـــا استغرقته حالات انتباه مرقوت ٠

وربما مرت الأشياء فى ذهنه ببؤرة الشعور ، وقد يضعف الاحساس بها قليلا حين تنزل الى حاشية الشعور ٠

وفى حالات التعود يعالج الانسان أموراً كثيرة ، ويتم أفعالا شتى، وهو ذاهل عنها ٠

ويكاد لا يدرى كيف قطع أشواطها ، وذاك ما يسمونه « شـــبه الشعور » ٠

لكن ما الذى يشعر به هذا أو ذاك ؟ ٠

ان وظائف البشر فى الحياة هى التى تحدد نوع هذا الشـــعور ودرجتـــه ٠

ولـــا كان العباد قاطبة مكلفين أن يعرفوا ربهم ، وأن يؤدوا له حقوقاً معينة ، فان شعورهم به وبحقه ، يخالط أعمالهم وأحـــوالهم . وينزل من نفوسهم منازل بعيدة التفاوت ٠٠

وأغلب العامة يقيمون الصلاة مثلا ، والمسيطر على أنفسهم هـــو ما يقارن كل عادة مأنوسة وكل طريقة مدروسة ٠٠

أى شبه الشعور !! لا الوعى الكامل ، ولا القريب من الكمال ٠

وقد تتألق فى حيوات الناس لحظات ذكر يقظ ، وانابة مخلصـــة ثم يستأنفون مسيرهم فى دنياهم ، وتعفر جبينهم متاعبها ومآربها ٠٠

فهل صلة الدعاة بربهم من هذا القبيل ؟ ٠ لا ٠٠ لا ٠٠

ان الدعاة الذين يكرسون أوقاتهم لله ، ولدفع الناس الى سبيله ، لابد أن يكون شعورهم بالله أعمق ، وارتباطهم به أوثق ، وشغلهم به أدوم ، ورقابتهم له أوضح .

أى أنهم ان هبطوا من مجال الضوء المشرق .. فالى قريب منه .. الى منطقة شبه الظل كما يقال .

أما اذا سقطوا فى عتمة ، فان ذلك أمر لا تتحمله وظيفتهم .

ومن ثم فهيهات أن يعرضوا له ، أو أن يرضوا به اذا زلوا فيه ..

وعرفانهم بالله يلزمهم شاطئ الأمان اذا كان كثير من الناس يغرق فى لجج هذه الدنيا أو تطويه فى سبحها الشاق عواطف الرغبة والرهبة .

وهنا يجب أن أؤكد حقيقة هى ألزم ما تكون للدعاة .

فان قوانين اللذة والألم تسرى على الناس قاطبة ، وتجعلهم يرغبون ويرهبون ببواعث لا حصر لها .

وأولى ثمرات الايمان تهذيب هذه الطبيعة وكبح جماحها .

والمفروض أن الداعية العارف بالله قد بلغ من منازل الايمان منزلة تجعل رجاءه فى الله وحده يسبق كل رغبة الى مخلوق ، كما تجعل خشيته لله أسرع الى فؤاده من أى رهبة تخامر نفسه أمام ذى سلطان .

ان ابن الرومى — شأن كثير من الشعراء فى الزمان الماضى ، وكثير من الصحافيين فى زماننا هـذا — تعرض بمدح ذوى الجاه لاكتساب جوائزهم .

فاسمع اليه وهو يقص هذه التجربة مع أحدهم :

ظلمت حاجتى فلاذت بحقوبتك	فأسلمتها لكف القضـاء
وقضـاء الاله أحـوط للنا	س من الأمهـات والآبـاء
غـير أن اليقين أمسى مريضـاً	مرضـاً باطنـاً شديد الخفـاء
لو يصـح اليقين ما رغب الرا	غب الا الى مليـك السماء
وعسـير بلوغ هاتيك جـداً	تلك عليـا منازل الأنبيـاء

وأخطأ ذلك الشاعر حين وصف توحيد الله فى الرغبة والرهبة بأنه عسير •

ان ذلك سهل على كل من نور الله قلبه ، وسدد فى الحياة خطوه

وهو خلق لا يجوز أن ينفك عنه داعية الى الله •

ومن الصلة بالله اعزاز كتابه ، وادمان تلاوته ، وتدبر معانيه ، وعقد مقارنة مستمرة بين المثل التى يحدو العالم اليها ، والواقع الذى ثوى الناس فيه ، لتكون هذه المقارنة حافزاً على تذكير الناس بالحق ، وقيادتهم الى الله ، وتأهيلهم لرضوانه ••

وقرب الداعية من كتاب الله يجب أن يكون متعة لروحه ، وسكناً لفؤاده ، وشعاعاً لعقله ، ووقوداً لحركته ، ومرقاة لدرجته •

وانظر الى هذا الدعاء يتزلف به النبى ﷺ الى ربه ، ويطلب اليه أن يوثق أواصره بكتابه :

« اللهم أنا عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، وفى قبضتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو أعلمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى مكنون الغيب عندك ، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبى ، وضياء بصرى ، وذهاب حزنى ، وجلاء همى وغمى » •

* * *

٢ — **اصلاح النفس** : وهذا جهد لا ينفك عنه مسلم ، وهو بالدعاة ألصق •

ولعل أولى هدايا الصلة الحسنة بالله أن يعرف المرء نفسه ، وأن تنكشف له نواحيها جميعاً فلا يؤتى من ناحية يجهلها •

أما الذين نسوا ربهم فهم فى عماء من أمر أنفسهم ، يخبطون فى الحياة خبط عشواء وينساقون على غير هدى •

« ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون » (٦) •

---

(٦) الحشر : ١٩ •

والداعية المشتغل بهداية الناس انما يفعل ذلك على ضوء من اصلاحه لنفسه هو .

فاذا أراد فطام العامة عن رذيلة البخل مثلا . عالج أولا شح نفسه . وتعرف الى المراتب التى تدرج فيها والوسائل التى اصطحبها — وهو يستأصل من نفسه هذه الطبيعة — أو بتعبير أدق : وهو يكفكف شرها ويتوقى ضيقها .

حتى اذا عرف — عن خبرة خاصة — ما الذى صنع بنفسه ؟ فانه سوف يعرف — بصدق وقوة — ما يقول للناس . وسوف يصل بكلماته — والحالة هذه — الى صميم نفوسهم .

ان نفس الداعية . ينبغى أن تكون حقل تجارب .

ومن النتائج المستفادة يعرف أفضل البذور ، وأنسب الأوقات ، وأجدى الأساليب .

ومن صدق الداعية مع ربه — فى أخذ نفسه ابتداء بكل اصلاح — يكون مدى ما يصيب من توفيق فى عمله مع الناس .

ومن أعجب النقائض فى دين الله ودنيا الناس أن هناك نفراً ممن يتسمون بالدعاة يحسبون أن ما يقولون لغيرهم من علم انما هو أمر يخص المخاطبين فحسب وقد يعنى الناس أجمعين الا اياهم .

انهم نقلة فحسب . انهم « أشرطة مسجلة » أو « اسطوانات معبأة » تدور بعض الوقت ليستمع الناس اليها وهى تهرف بما لا تعرف . ثم تودع أماكنها لتدار مرة أخرى اذا احتيج اليها .

ان هذا الجماد الذى أنطقه الذكاء الانسانى هو صورة للجماد الذى أنطقه الاحتراف ، أو للانسان الكذوب الذى ينصح الجمهور بأمور هو أبعد ما يكون عنها ، وينفرهم من أشياء هو أقرب ما يكون للوقوع فيها .

والدعاة الذين يحيون على ذلك النحو المتناقض هم آفة الايمان ، وسقام الحياة .

وهم الثقل الذى يهوى بالمثل العليا ويمرغها فى الأوحال .

والغضب الالهى لا ينصب بعنف وقساوة على مرتكبى الخطايا بجهالة .

انه ينصب على أولئك الذين يقترفون الدنايا وهم يعلمون ، أو الذين يقترفونها وهم ينفرون منها الآخرين •

وذاك سر تشبيههم تارة بأنهم حمير ، وطوراً بأنهم كلاب •

ولم يوصمون بهذه الألقاب الشائنة ؟ •

ذلك أنهم تكذيب عملى الكلام الذى يلقون ، والمبدأ الذى اليه ينتمون •

وانهم بمسلكهم دليل على أن الشهوة تغلب العقل ، والهوى يهزم الرشد •

أى أنهم عذر قائم بين يدى كل مقصر ، واياس من الصلاح الحق أمام بغاته من السامعين والمطلعين •

وكثير من هؤلاء المنتسبين الى الدين بألسنتهم ، الخارجين عليه بأعمالهم ، من يلون الدين برغبته ويمزج تعاليمه بشهوته •

فهو — أولا — يتعرف ما يشتهى ، فاذا حدده ألبسه ثوب الدين •

وربما أقنع نفسه بأن شهوته هذه حق محض ، ثم سعى الى بلوغها وكأنما هو يؤدى عبادة ولا يشبع نهمه • !! •

وقد يقاتل دونها وهو يزعم انما يقاتل عن دين • •

ان هذا الفساد المعقد عند نفر من الدعاة لعنة ماحقة ، وذاك سر تناولهم بأقسى عبارة :

((واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون • ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون)) (٧) •

ان الرجل القذر البدن لا يغنى عنه أن يحمل بين يديه قطع الصابون •

والكريه الرائحة لا يجديه أن يرى ومعه زجاجات من العطور •

---

(٧) الاعراف : ١٧٥ — ١٧٧

ودعاة الدين الذين تهب من سيرتهم سموم حارقة ، انما هم عار على الدين وصد عن سبيله .

وقد عاب الله على أحبار اليهود أنهم كانوا دواب ناقلة لكتب العلم لا بشراً كراماً يحسنون الافادة مما معهم .

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » (٨) .

والمراد من الدعاة المسلمين أن يتحسسوا أنفسهم ، وأن يداووا ما قد يكون بها من علل ، تلك العلل التى تشيع بين من يرزقوا العصمة ، والتى يستحيل أن تخلو منها يوماً .

فان المرء يولد وفيه من الطباع ما يستدعى دوام اليقظة وطول المعالجة .

ثم تعرض له فى حياته عادات شتى ، الردىء فيها أكثر من الطيب .

ثم ان له من رعيته الخاصة من يسئل أمام الله عنهم ، ومن يتأسى الناس بسيرته فيهم ، فكيف يغفل عن واجباته فى هذه الأنحاء كلها ؟ .

ان سهره على خاصة نفسه وأهله أمر لا محيص عنه كى تثمر دعوته وتحمد طريقته .

* * *

٣ — دقة الفهم للدين والدنيا :

والداعية الحصيف رجل يشخص العلة التى أمامه ويهىء لها الشفاء المناسب من كلام الله ورسوله .

وبذلك يجىء نصحه طباً للمريض ، ورحمة تذهب عناءه ، ونوراً يهديه السبيل .

والقدرة على هذا الأسلوب لا يلقاها الا من استجمع :

١ — ثروة طائلة من نصوص الكتاب والسنة تكون رصيداً عنده لأى داء وافد أو مرض عارض .

---

(٨) الجمعة : ٥ .

٢ — احاطة تامة بطبيعة البيئة ، وأحوالها الجلية والخفية ، وظروفها القريبة والبعيدة .

فان الداعية الحكيم هو الذى يبلغ رسالته بتلك الطريقة .

فيسوق من الحق الالهى ما يقوم العوج الانسانى بلباقة وفقه .

ويرسل من العظات ما يكون دواء حاسماً لما يحسه الناس فى أنفسهم من عبرة واضطراب .

وذلك هو نهج القرآن فى بناء الأمم واقامة النهضات .

لقد نزل منجماً حسب الحوادث ، لم ينزل جملة واحدة .

بل وافقت كل طائفة من الآيات حالة تتطلبها كما يتطلب الظمأ الرى .

وعلى الداعية أن يدرس جيداً تواريخ النزول وأسبابه ، والملابسات التى قيلت فيها ألوف الأحاديث .

وأن يحسن ترتيب هذه الهدايات السماوية الجلية بحيث توافق الأوضاع التى تصلح لها أتم الموافقة .

وهذه هى سياسة الدعوة ، أو هذه هى الحكمة فى علاج الأمور باسم الله ، وقليل من الدعاة من يلهمها .

« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر الا أولوا الألباب » (٩) .

من أئمة المساجد من يحفظ بعض الخطب ثم يلقيها على مستمعيه دون اكتراث بشئونهم ، ومن الوعاظ من يحشد أطايب الكلام وجواهر الألفاظ ، ثم يبعثرها على الجمهور فى درس أو محاضرة .

ومنهم من يخلط بين عدة موضوعات ، ويتصيد من هنا ومن هناك كلاماً كثيراً لا رباط بين أجزائه الا أنه كلام فى الدين يعرض على الناس هذا العرض المهوش .

والعلة أن فى ذهن الرجل معلومات قليلة أو كثيرة يمتلىء بها حيناً ثم يفرغها .. وحسب .

---

(٩) البقرة : ٢٦٩ .

وليس هذا دعاء الى الله انما هو — بين أصحابه — سباق فى القاء المحفوظات !!

وهناك قوم آخرون على النقيض ممن ذكرنا .

تمر بهم الأحداث الخطيرة وتواجههم المناسبات الهامة ، فليقونها بكلام غث ، ومشاعر باردة .

ذلك أنهم فقراء أشد الفقر فى معرفة الكتاب والسنة وسير السلف الصالحين .

انهم لايدرون ما يقال ، لأنه ليس لديهم ما يقولونه .

ولست أدرى كيف يتعرض لامامة الناس ووعظهم رجل قصير الباع فى الدراسات الاسلامية ؟ .

كل ما يستظهره من كتاب الله بضع آيات وسور .

وكل ما يعيه من سنة الرسول جملة من الأحاديث لا تسد جوع المجتمع الى فنون التوجيه وألوان النصح .

وكثير من المشتغلين بالدعوة الاسلامية مصابون بهذا العوز الفظيع .

ظاهرهم أنهم يحملون الاسلام فى حناياهم .

والواقع أن الاسلام هو الذى يحمل عبئهم ، ويتحامل على نفسه وهو يسير بهم فى متاهات الحياة ودروبها .

* * *

وقد نشأت من قصر النظر الى علل المجتمع ، وقلة الزاد من هدايات السماء ، مفارقات تستدعى العجب .

فهذا واعظ يدخل احدى القرى البائسة ليحدث أهلها المستوحشين عن آفات الرياء !

وهذا آخر يخطب فى المدن عن جرائم القتل والأخذ بالثأر . .

وفى الذهن الفقير تتمدد المعلومات القليلة وتصبح كل شىء .

سمعت رجلا يجرى على لسانه هذه الكلمات لابن عطاء الله السكندرى :

« سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار » ، « ادفن نفسك فى أرض الخمول .. » الخ فكرهت هذا الكلام ، وأنكرت سياقه !! .

ان الجملة الأولى تقال لفرد من الناس ملكه جنون القوة ، واستحوذ عليه الاعتداد بنفسه .

فبنى خطته على أنه اذا أراد فعل ، واذا عزم فعلى المردة والأملاك جميعاً أن يذعنوا له .

ومن ثم فهو لا يتصور أن يردع همه أو يغلبه أحد فى الأرض والسماء على أمره .

هذه الكلمة حق داخل هذا النطاق وحده .

وهى — خارج هذا النطاق — لا عمل لها ولا مكان .

ولذا أنكرت أن تجرى على لسان خطيب فى مجتمعنا الذى تجتاحه أزمات متعاقبة من ضعف الهمم وخور العزيمة .

وكذلك كلمة « ادفن نفسك » انها لمغرور يريد أن ينضج قبل أوانه ، ولمفتون يحب الظهور ، ينخدع بالقشر عن اللب .

وليس لها مكان فى أمة ألح عليها العجز ، فهى ما تنهض حتى تتعثر .. .

وسوء الاستشهاد كما يقع فى هذه الحكم المجلوبة كرهاً ، يقع فى كتاب الله وأحاديث الرسول .

فنرى بليد الفهم من هؤلاء يجىء بالأثر ، هو فى نفسه حق ، ولكنه فيما ضرب له وقص من أجله بعيد بعيد .

وعندى أن هذا ضرب من تحريف الكلم عن مواضعه .

أرأيت اذا انطلق رجل طيب أمين ، الى قوم أغرار يحرص على وعظهم ، ويتعشق هدايتهم ، أفيليق أن تثنيه عن مراده بقول الله :

« انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .. » (١٠) .

ان سوق الآية هنا خطأ ، فمجال الآية الوحيد ، وهو المجال الفذ الذى نزلت فيه .

---

(١٠) القصص : ٥٦ .

أعنى تسلية الداعى الذى تعب ونصب وهو يحاول ارشاد شخص عنيد دون جدوى .

أرأيت هذه الألوف المؤلفة من العوام المتواكلين ، الذين يجرون أقدامهم على الأرض فى كسل واسترخاء ، وينظرون الى السماء فى بلاهة وغباء ؟ .

هل أولئك الموتى هم الذين يقال لهم : **« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو »**(١١) .

ان سوق الآية هنا خطأ .

ومجالها الوحيد الذى تعمل فيه ، هو بين قوم انتشوا من الحياة الدنيا حتى سكروا .

قوم أبطرهم الغنى وأغواهم التشبع ، وحجب أبصارهم عن الحقائق العليا .

فهم مشغولون بحاضرهم عن آخرتهم ، مذهولون بأنفسهم عن ربهم .

ان الآية انقاذ لقوم يكادون يغرقون فى النعيم .

فكيف توجه لأقوام يكادون يهلكون عطشاً الى ضرورات الحياة الدنيا ؟ ! !

* * *

ومصاب الاسلام فى أعصار كثيرة ، وفى هذا العصر خاصة ، يجىء من الدعاة الذين يعجزون عن الموازنة بين شتى تعاليمه .

اما لشلل فى مداركهم يمنعهم من الاتزان واحسان الفهم والاقتباس والتوجيه .

أو لنقص فى ثروتهم العلمية فهم يحفظون شيئاً وتغيب عنهم أشياء .

ومنذ بضع مئات من السنين سقط المجتمع الاسلامى كله فريسة

---

(١١) الحديد : ٢٠ .

لعصابات من المتصوفة ، هونت لديه العمل للدنيا باسم الاقبال على الآخرة ٠

فكانت عقبى هذا التوجيه الضال دماراً أصاب المسلمين فى كيانهم العلمى والعسكرى والسياسى ٠

ان الاقبال على الآخرة حق ٠

ومن ذا الذى يجرؤ على تهوين الآخرة أو يغض من الاستعداد لها ٠؟ ؟

غير أن الطريق الى ذلك ليس بالانصراف عن الدنيا — كما يفهم الكسالى وأهل البلادة — بل بامتلاك الدنيا وتسخيرها لله٠

ان أى تاجر مسلم على عهد رسول الله ﷺ كان كأى تاجر وثنى أو نصرانى أو يهودى نشاطاً وذكاء وضربا فى الأرض وبصراً بالسوق وطلباً للربح ٠

كل ما هنالك من فرق أن غير المسلم قد يكرس مكاسبه لنفسه وعاجلته ٠

أما المسلم فهو يدخر لآخرته — قليلا أو كثيرا — من سعيه ٠

ولم يفهم فقيه فى المستقدمين والمستأخرين أن التدين يكسر نية التكسب أو يضعف الخطو فى ميدان الكدح والارتزاق ٠

حتى ظهر أولئك الدعاة السفهاء ، فأخزوا الاسلام ، وأذلوا بنيه فى كل ميدان ٠

ان الدعوة الى الله تتطلب من المنتصب لها اطلاعا غزيرا على القرآن الكريم ، وعلى سيرة الرسول ﷺ ، بوصفها التطبيق العملى الرشيد لروح القرآن ، ثم سير الخلفاء والأصحاب فى جهادهم المادى والأدبى لارساء دعائم الاسلام وابلاغ رسالات الله ٠٠

ولعل هذا القدر من دراسة العصر الأول يعطى صورة دقيقة عن تعاليم الاسلام فى كل شأن ٠

فاذا استكمل الداعية هذا النصيب الواجب بقى عليه أن يدرس عالمه الذى يعيش فيه دراسة فحص واستقصاء ٠٠

أجل بقى عليه أن يكون ذا خبرة واعية بالميدان الذى سيعمل فيــه : حتى يدرك كيف يصلح دنيا الناس بدين الله ..

* * *

● **الاخـــلاص :**

الاخلاص روح الدين ولباب العبادة وأساس أى داع الى الله .

فاذا غاض هذا المعنى أو تضاءل لم يبق هنالك ما يستحق الاحترام لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

فى أعمال الحياة المعتادة قد يكون الاخلاص شرطا لاتقانها وتجويدها وضمان ثمراتها .

وهو اخلاص يعنى اطراح بعض المآرب الصغيرة واستهداف بعض المثل العالية .

وقد ينفك هذا الشرط ويتعــامل الناس بالمظــاهر ويتجاوزون عما وراءهــا .

ولكن فى ميدان الدين لا يرتفع عمل أبداً ما لم تصحبه نية صالحة ، وما لم يقترن بارادة وجه الله وحده .

بل ان التدين الذى تكتنفه الأهواء ضرب من العوج النفسى والالتواء الخلقى يثير التقزز ويستدعى الاشمئزاز .

والاخلاص فريضة على كل عابد وهو فى محرابه الخاص ، يتعامل مع ربه فحســب .

فاذا اتصل الأمر بالدعاة فهو فريضة آكد ، وعقيدة أوثق .

واتساع نطاق العمل ، واشتباكه مع أحوال الناس ، ورضاهم وسخطهم وقوتهم وضعفهم يجعل الداعية أحرص على استدامة ذكر الله ومطالعة وجهــه حتى لا يضل الغــاية ولا يحيد عن النهج فى زحمة هــذه الحيــاة .

بيد أننا نلاحظ — آسفين — أن ميدان الدعوة الى الله غص بأقوام يجعلون وجه ربهم آخر ما يرعى ويرغب .

كأن الأمر لا يعدو أن يكون حرفة تدر ربحا قليلا أو كثيراً .

وكأن الحرص لا يهيج الا استدامة هـذا الربح أو اسـتزادته باسترضاء الرؤسـاء الذين يجرونه ويملكون — فى نظرهم — بسطه وقبضـه ٠

وقد رأينا الدعاة المحترفين ، يقومون بواجباتهم وليس يسيطر عليهم الا تهيب مخالفة الرئيس أو تملق عواطفه ٠

ومما يدعو للضحك أن أديبا كبيرا من مؤلفى الروايات الغربية ، أجرى على لسان البطل فى احدى القصص — وكان يحتضر ، وأمامه القس يباشر مراسمه الدينية — أجرى على لسانه هذه الكلمات :

أيها القس المحترم ، سأحدث رؤساءك بأنك أديت عملك باتقـان ، وأنـك تستحق الترقية ٠٠ !!!

وفى احدى قرى الريف لوحظ أن امام المسجد كان يصلى المغـرب بآيتين من أواخر السور ٠

فاذا حضر العمدة الصلاة كان هذا الامام يتحرى أن يصلى المغـرب بسورتين كاملتين يجود قراءتهما فى الركعتين الجهريتين ٠ !!

ولا شك أن هذا هو الرياء المحبط للأعمال ٠

ودلالته الصارخة أن الرجل يصطنع من أجل الناس صلاة أطـول وأجود ٠٠

وأن الأمر لو وكل الى صلته الخاصة بالله ، لكانت الصلاة أقل وزنا !!

ومن يدرى لعله — لولا ضرورات العيش — ما صلى قط ٠

وفراغ الأفئدة من قصد الله ، وانتباهها الى صلات الناس دليـل على أن الايمان دعوى مكذوبة ٠

فكيف يتصور من هؤلاء أن يعلموا الناس الايمان ، وأن يدعوهم الى الله ؟

ان الداعية المرائى يقترف جريمة مزدوجة ٠

انه فى جبين الدين سبة متنقلة وآفة جائحة ٠

وتقهقر الأديان فى حلبة الحياة يرجع الى مسالك هؤلاء الأدعياء ٠

وقد رويت آثار كثيرة تفضح سيرتهم وتكشف عقباهم ٠

والذى يحصى ما أصاب قضايا الايمان من انتكاسات على أيدى أدعيـاء التدين لا يستكثر ما أعد لهم فى الآخرة من ويل •

روى عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ :

« يؤمر يوم القيامة بناس من النار الى الجنة ، حتى اذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا الى قصورها وما أعد الله لأهلها فيها ، نودوا : أن اصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها •

فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا الجنة — وفى رواية : قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك ، وما أعددت فيها لأوليائك لكان أهون علينا — •

قال : ذاك أردت بكم • كنتم اذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ، تراؤون النـاس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم النـاس ولم تجلونى ، وتركتم للناس ولم تتركوا لى •• اليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب » رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى •

* * *

ان اصطياد الدنيا بالدين مأساة عزت على الأساة ، وليس لها الا الله •

وقد نبه القرآن الكريم الى أن نفراً من الذين يلبسون شـارات الايمان ، يصدون الناس عن الايمان •

وممن يتكلمون عن الله يأكلون باسمه أموال الناس سحتاً •

قال جل شـأنه : **« ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »**[١٢] •

وهـذا هو الذى جعل الشـاعر « أحمـد الزين » يرفع عقيرته بهـذه الأبيات :

ودعى فى الدين ، والدين يشكو   فعـلات كالـكفر منـه لعينـه

قال ما يشتهى من الجـاه باسم الـ   ـدين زوراً فى الأمة المسـكينه

---

(١٢) التوبة : ٣٤ •

هو فيهم كالذئب بين دجاج أو شياه يختار منها السمينه
فقد الدين واليقين وصار المال والجاه دينه ويقينه
اتخذ الافك والتملق دينا فجميع الأديان تلعن دينه

* * *

وضعف الاخلاص يعود الى قلة المعرفة لله ، أو الى سوء الظن به .
وان كان ضعفاء الاخلاص لا يعترفون بشىء من هذا .
ولعلهم يزعمون لأنفسهم معرفة لا تسبق . وظناً لا يفضل .

أترى الى هذا الأعرابى الجلف الذى شاء أن يعلم رسول الله التقوى والعدالة ؟ والذى علق على قسمته للغنائم بقوله : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .. ! ؟ ؟

انه شخص تذرع بما زعم من ايمانه لينفس عن طبيعة مملوءة بالسفاهة والتطاول والحقد ..

فهو يصب جاهليته فى قالب من المحافظة على المثل العليا . ليبدو أمام الناس كبيراً وهو فى حقيقته صغير .

ثم هو قد تكلف الايمان رداء يوارى سوأته لأن الايمان هو « النقد الرائج » فى هذه الجماعة الناهضة .

ولو أن هناك عوضاً آخر مكانه من أى مبدأ ، أو أى منهج لما تردد فى اعتناق هذا العوض والأخذ به .

فالأمر عنده ليس ديناً يتبع ، تستضىء به النفس ، وتنزل على أحكامه .

وانما الهم الأول والآخر هو انطلاق هذه النفس لاشباع دناياها ومآربها فى ظل الدين ان وجد ، وفى ظل غيره ان عرض .. ! !

والأدعياء فى ميدان الدين مصيبة جسيمة ، تنكب بها تعاليم الدين ، وتضطرب حالته ، وتنكس رايته .

عن على رضى الله عنه أنه ذكر فتناً تكون فى آخر الزمان . فقال له عمر : متى ذلك ياعلى ؟ .

قال : اذا تفقه لغير الدين ، وتعلم العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة .. رواه عبد الرزاق أيضاً فى كتابه موقوفاً .

وهناك حديث ابن عباس المرفوع وفيه : « ورجل أتاه الله علماً فبخل به عن عباد الله ، وأخذ عليه طمعاً ، وشرى به ثمناً فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار ، وينادى مناد : هذا الذى آتاه الله علماً فبخل عن عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً . ويظل كذلك حتى يفرغ الحساب » .

ولا نحب أن نشتط مع الخيال حين نبحث فى بواعث العمل وننشد خلوصه لله وحده .

فان التعامل مع البشر يقتضى الاعتراف بمطالبهم ، ورغائبهم ، وميز ما يحمد منها وما يعاب .

الناس — وبينهم الدعاة — يشتهون الدنيا ، ويستويهم متاع الحياة .

فان الله غرس ذلك فى طبائعنا ، واصفاً ذلك فى كتابه :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث »(١٣) .

والناس — وبينهم الدعاة يحيون فى جماعات تستشرف للتقدم والمكاثرة وتغريها أسباب المنافسة والانتصار ، وتتبعها حشود من الأهل والولد والأتباع .

ولهذه الحالات آثار عميقة فى توجيه السلوك الانسانى يمنة ويسرة . . .

وفى الناس تشيع أمراض نفسية خطيرة .

فذاك مصاب بجنون العظمة .

وذاك بعقدة الضعة .

وذاك بكنز المال .

وذاك بكره الآخرين .

وذاك بعبادة الذات .

---

(١٣) آل عمران : ١٤ .

وذاك لا يستطيع أن يحيا الا ذنباً .
وذاك لا يستطيع أن يكون الا رأساً ... الخ .
وهــذه العلل الكامنة عوامل فعالة فى انحراف النشاط الفردى والجماعى .
وقد تكون السبب الأوحد فى انهيار أمم وفناء حضارات .
بله القضاء على شخص أو الجور على نفر من الناس .. !!!
والدعوة الى الله يجب — وسط هذه العواصف النفسية والتيارات القلبية — أن يأخذوا طريقهم الى الله نقياً نظيفاً .
فليأخذوا نصيبهم من الدنيا دون تزيد ولا جشع ولا استشراف .
فاذا كان ذلك على حساب ذرة من رسالتهم ، فليجعلوه دبر آذانهم ومواطىء أقدامهم .
وليجعلوا علائقهم بالنــاس على قاعدة الحب فى الله والبغض فى الله ..
فلا يؤثروا شارداً لقربة ، ولا يقصوا صالحاً لوحشة منه وضيق به ..
وعلى الدعاة أن ينقبوا فى خبايا أنفسهم ، فلا يجعلوا للهوى سبيلا .
هناك من ينقد الآخرين للتشفى ، وهناك من يحمدهم للصداقة .
وهناك من يجسم الصغائر لفلان ويقف خطيبا ضده ، ومن يغضى عن العظائم لفلان ويغلق فمه عنه ..
وتلك جميعاً أحوال يشينها الخبث ويشدها سوء القصد ، ولا شىء فيها لله جل شأنه .

ان العمل الخالص — الطيب — ولا يقبل الله الا طيباً — هو الذى يقوم به صاحبه بدوافع اليقين المحض وابتغاء وجه الله ، دون اكتراث برضا أو سخط ، ودون تحر لاجابة رغبة أو كبح رغبة .
وفى أصحاب هذا الاخلاص ، والمستمسكين بحبله يساق ذلكم الحديث الرقيق :
عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه خرج الى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله ﷺ يبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ .

قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ .

قال : « اليسير من الرياء شرك ،

ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ،

ان الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين ان غابوا لم يفتقدوا وان حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل مظلمة » .

رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى كتاب الزهد له وغيره .

وقال الحاكم : صحيح ولا علة له .

ذلك .. والمرء قد تغلبه نفسه ، وتدس عليه أغراضاً لا تليق به .

وربما انساق — عن غير وعى — لمواطن تضطرب فيها النية ، ويختلط فيها التجرد بالأثرة .

ولكى يعتصم الداعية من هذه اللوثات ، ويبرأ الى الله من عقباها أرشده النبى ﷺ أن يتوجه الى الله بهذا الدعاء :

« اللهم انى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلمه ، وأستغفرك لما لا أعلمه » .. واقرأ هذه القصة :

حاصر « مسلمة » حصناً فندب الناس الى نقب منه ، فما دخله أحد .

فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم فنادى « مسلمة » أين صاحب النقب ؟ فما جاء أحد .

فنادى : انى قد أمرت الآذن بادخاله ساعة يأتى ، فعزمت عليه الا جاء .

فجاء رجل فقال : استأذن لى على الأمير فقال له : أنت صاحب النقب ؟ .

قال : أنا أخبركم عنه ، فأتى « مسلمة » فأخبره عنه ، فأذن له فقال :

ان صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً :

ألا تسودوا اسمه فى صحيفة الى الخليفة .

ولا تأمروا له بشىء .

ولا تسألوه ممن هو .

قال : فذاك له .

قال : أنا هو .

فكان « مسلمة » لا يصلى بعدها صلاة الا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب .

***

● **الشـجاعة :**

لعل أعتى الأعمال وأملأها بالقدرة ، وأجرفها للعوائق ، ما استند الى طباع الانسان المادية أو رغائبه النفسية .

انه اذا هاجت فى دمه « غريزة الجنس » انطلق الى اجابتها وهو مسحور بوحيها ، مدفوع بأزها لا يكاد يقفه شىء ! !

واذا تاحت له فرص الحصول على أمنية حارة نشط من عقال . وملكته قوة على النضال ، ومضى قدماً فى طريقه يتوسل بالعنف أو بالحيلة ليبلغ غايته ...

ان الناس ينبعثون عن دوافعهم الخاصـة ، كما تنبعث القذائف من مكامنها .

ومن ثم نجد أغلب الوقود الذى تتحرك به الحياة منبجساً من أعماق الأثرة ، ومستمداً عرامه من تشبث البشر بأنفسهم وضرورات حياتهم وفهمهم الفردى لمـا يريدون ...

وتقرير هذه الحقيقة لابد منه فى أى حديث يدور حول غرس الايمان فى أرجاء العالم ، وتنزيل الناس على أحكامه ، وتعليقهم بقيمه ومثله .

فان البواعث الضعيفة لليقين لا تجدى شـيئاً أمام عصف النزوات المحتـاجة .

واذا لم يفلح الايمان فى تكوين أسس للخير ، قوية التيار ، غلابة النفوذ ، شديدة النفاذ ، فهو لن يكسب فى ميدان الحياة معركة ..

واذا لم يكن الصالحون من وضوح النية وروعة السلوك وتألق السيرة ، على النحو المعجب البارز ، فهيهات أن يفوز بهم مبدأ ، أو تنجح بهم فضيلة ، أو تخذل أمامهم رذيلة .

يجب — لكى ينتصر الطهر فى هذه الحياة — أن يكون فى نفوس أصحابه أبرز من العهر فى سيرة العاهرين .

ولكى تسود العدالة فى الأرض يجب أن يتعلق بها سدنتها تعلقاً أشد من اشتهاء الظلمة لظلامهم .

واذا كانت هناك نفوس ضربت على العسف ، وتوحشت به فى أعمالها حتى لكأنها سباع مفترسة فما يغنى فى صدها أن تلقاها فى زحام الحياة مقاومة مستأنسة ، أو براثن من حرير .. !!

ان طبيعة الشر عنف المصدر ، وحدة المسير .

ومقتضى ذلك أن يكون الايمان قادراً على الظهــور ، قادراً على الحركة ، قادراً على المقاومة ، شجاعاً فى تصرفاته جميعاً .

ومن أجل ذلك كانت الشجاعة خلقاً أصيلا فى الداعية الى الله ، وشيمة لا تنفك عنه وهو يتقلب بين الناس ...

مدد هذه الشجاعة الواجبة ، ونبعها الدافق . أن حق الله لابد أن يســود ، وأن هداه لابد أن يعلو ، وأن منهجه لابد أن تتضح معالمه وترسو دعائمه .. وأن المنتسبين اليه ما ينبغى أن تخفت أصواتهم ، ولا أن يغلبوا على تعاليمهم .

وأن خصومهم فى هــذه الأرض لا حظ لهم من مهابة ، ومهما عرض لهم من قوة فانهم **« ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »**(١٤) .

وقد ذكرنا آنفاً أن جمهور الأمة الاسلامية مكلف أن يأمر بالمعروف وأن يحققه :

مكلف أن ينهى عن المنكر وأن يغيره .

مكلف أن يخاصم الآثام وأن يضيق بفعلتها .

ان الأمة جمعاء مكلفة أن تكون شجاعة فى حماية الدين ، ورد العادين على حدوده من المجان والفجار .

فاذا خذلتها قواها دون القيام بهذا العبء ، فقد تخلت أمام الله عن رسالتها ، وسقطت من عينه ، وحرمت من رعايته .

« اذا رأيتم أمتى تهاب أن تقول للظالم : ياظالم فقد تودع منها » .

ذاك حق الاسلام على أمته عامة .

---

(١٤) البقرة : ١١٤ .

فأما حقه على الدعاة المنتصبين لحمايته المضطلعين برسالته فهو أثقل وأجل .

على أولئك الدعاة أن يضاعفوا يقظاتهم وتضحياتهم ، وأن يكرسوا أوقاتهم وأفكارهم لتعرف حاجات الحق واجابتها ، وتفقد مواطن الضعف فى أسواره وحمايتها ، وتحسس مظان الهجوم عليه لاحباط كل كيد ، وارهاب كل خصم .

الدعاة الموظفون لحراسة الاسلام هم جيش للدفاع عن الايمان ، يشبه الجيش الموكل بحراسة الأمن .

والعجب العاجب أن الجند المكلفين بحراسة الأمن قد يفقد بعضهم روحه وهو يطارد لصاً أو يصاب بعاهة مؤلمة وهو يؤدى واجبه .

ذاك فضلا عن السهر المستديم والجهد الموصول .

أما جند الدعوة من أئمة ووعاظ ومرشدين فكأنما أخذوا عهداً على الدهر ألا يمسهم سوء .

فهم يسمنون والدين ينحف ، ويراحون والدين مكدود ، ويعيشون متخاذلين على حين يتساند جيش الشيطان لبلوغ هدفه وادراك أمله ..

اذا لم يكن الداعية المسلم شجاعاً ، مطيقاً لأعباء رسالته ، سريعاً الى تلبية ندائها ، جريئاً على المبطلين ، مغواراً فى ساحتهم ، فخير له أن ينسحب من هذا المجال ، وألا يفضح الاسـلام بتكلف ما لا يحسن من شـئونه ...

وهاك صوراً للثبات على الحق والمجاهرة به وابراز شاراته فى المجتمع دون تهيب أو وجل .

***

● **بعض الصور للثبات على الحق والمجاهرة به :**

قام أعرابى بين يدى « سليمان بن عبد الملك »

انى مكلمك — يا أمير المؤمنين — بكلام فيه بعض الغلظة فاحتمله — ان كرهته — فان وراءه ما تحبه ان قبلته .

قال : هات يا أعرابى .

قال : فانى سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن من عظتك تأدية لحق الله وحق امامتك .

انه قد اكتنفك رجال أساءوا لأنفسهم فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم !!!

خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، سلم للدنيا !! فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ...

فانهم لن يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة عسفاً وخسفاً .

وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك .

فأعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره .

قال سليمان :

أما أنت يا أعرابى ، فقد سللت لسانك ، وهو أقطع سيفيك .

فقال : أجل لك — يا أمير المؤمنين — لا عليك .

* * *

وقام أعرابى بين يدى « هشـــام بن عبد الملك » فقال : أتت على الناس سنون .

أما الأولى فلحت — أزالت — اللحم .

وأما الثانية فأكلت الشحم .

وأما الثالثة فهاضت العظم . وعندكم فضول أموال ، فان كانت لله فقسموها بين عباده .

وان كانت لهم ففيم تحظر عنهم ؟

وان كانت لكم فتصدقوا عليهم بها ، فان الله يجزى المتصدقين .

فأمر « هشام » بمال فقسم بين الناس ، وأمر للأعرابى بمال فقال : أكل المســلمين له مثل هــذا ؟ قالوا : لا ، ولا يقوم بذلك بيت مال المســلمين ! !

قال : فلا حاجة لى فى ما يبعث لائمة الناس على أمير المؤمنين .

* * *

وقال أبو الدرداء : أضحكنى ثلاثة ، وأبكانى ثلاثة :

أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدرى • أراض الله عنه أم ساخط عليه ؟

وأبكانى فراق الأحبة : محمد وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدى الله يوم تبدو السرائر ، ثم لا أدرى أأصير الى الجنة أو الى النار ؟

وقال « سليمان بن عبد الملك » لأبى حازم : ما بالنا نكره الموت ؟

قال : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران الى الخراب •

وحكى عن « العز بن عبد السلام » أنه أفتى مرة بشىء ثم ظهر له أنه أخطأ •

فنادى فى مصر على نفسه : من أفتى له « ابن عبد السلام » بكذا فلا يعمل به ، فانه أخطأ فيه •

وارسال المفتى المنادين يشهرون بفتواه على هذا النحو • خلق عجيب ، ودلالة على أمانة فى العلم لا نظير لها •

ولعلها استجابة لكلمة «عمر بن الخطاب» الى «أبى موسى الأشعرى» حيث أرسل له كتاباً يقول فيه :

« ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع الى الحق فان الحق لا يبطله شىء ، واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » •

وعدد «معاوية» على الأحنف ذنوباً ، فقال الأحنف : ياأمير المؤمنين •• لم ترد الأمور على أعقابها ؟

أما والله ، ان القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا ، وان السيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا •

ولئن مددت لنا بشبر من غدر ، لنمدن اليك باعاً من ختر •

ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك ••• قال معاوية : فانى فاعل •

وحجب رجل عن باب السلطان فكتب اليه :

نحن نعوذ بالله من المطامع الدنية ، والهمم القصيرة ، وابتذال الحرية •

فان نفسي — والحمد لله — أبية ، ما سقطت وراء همة ، ولا خذلها صبر عند نازلة ، ولا استرقها طمع ولا طبعت على طبع .

وقد رأيتك وليت عرضك من لا يصونه ووصلت ببابك من يشينه ، وجعلت ترجمان عقلك من يكثر من أعدائك وينقص من أوليائك ، ويسيء العبارة عنك ، ويوجه وفد الذم اليك ، ويضغن قلوب اخوانك عليك ، اذ كان لا يعرف لشريف قدراً ولا لصديق منزلة .

***

وما أجمل هـذه الأبيات التى تصور لنا مواقف كريمة للبطولات العجيبة .

قالت الخنساء :

نهين النفـوس وهـون النفـو ... س يـوم الـكريهة أوقى لهـا

وقال يزيد بن المهلب :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حيـاة مثل أن أتقـدما

وقالت امرأة من بنى كندة :

أبوا أن يفروا والقنا فى نحورهم ... ولم يرتقوا من خشية الموت سلماً

ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ولـ ... كن رأوا صبراً على الموت أكرما

***

● **العلم والعلماء :**

قال ابن عباس : ذللت طالباً فعززت مطلوباً .

وكان يقال : أول العلم الصمت ، والثانى الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العقل ، والخامس نشره .

ويقال : اذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقـول .

وقال على كرم الله وجهه :

« لا يرجون عبد الا ربه ، ولا يخافن الا ذنبه ، ولا يستحى من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحى اذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله أعلم .

واعلموا أن منزلة الصبر من الايمان . كمنزلة الرأس من الجسد .

فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد ، واذا ذهب الصبر ذهب الايمان » .

***

والشجاعة فى الجهر بالحق تنبعث من اجتماع خلقين عظيمين :

أولهما : امتلاك الانسان نفسه ، وانطلاقه من قيود الرغبة والرهبة ، وارتضاؤه لوناً من الحياة بعيداً عن ذل الطمع ، وشهوة التنعم .

فكم من داع يبصر الحق ويقدر على التذكير به ، ولكنه يحتبس فى حلقه فلا يسمع به أحد ! !

لماذا ؟ لأنه لو نطق لحرم من هذا النفع ، أو لغضب عليه هذا الرئيس ، أو لفاته هذا الحظ .

فهو — ايثاراً لمتاع الدنيا — يلزم الصمت ، ويظلم اليقين .

ولو كان عفيف النفس ، راضياً بما تيسر من عيش ، مكتفياً بالقليل مع أداء الواجب عن الكثير مع تضييعه ، لكان له موقف آخر .

وما أحسن قول القائل :

أمت مطامعى فأرحت نفسى ... فان النفس — ما طمعت — تهون

وقوله :

ملكت نفسى مذ هجرت طبعى ... اليأس حر والرجاء عبد ! !

« وعن سعد بن أبى وقاص » رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله أوصنى وأوجز فقال :

« عليك باليأس مما فى أيدى الناس فانه الغنى » .

« واياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك وأنت مودع ، واياك وما يعتذر منه » .

رواه العسكرى ، والحاكم ، وغيرهما ، وصحح اسناده .

وقال أبو سعيد « الحسن البصرى » رحمه الله :

« لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع فى دينارهم فاذا فعل ذلك استخفوا به ، وكرهوا حديثه ، وأبغضوه » ..

وروى أن أعرابياً سأل أهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا : الحسن .

قال : بم سادكم ؟

قالوا : احتاج الناس الى علمه ، واستغنى هو عن دينارهم •

فقال : ما أحسن هذا •

وقال « على بن عبد العزيز » القاضى رحمه الله تعالى :

يقولون لى : فيك انقباض وانما | رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم | ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما | بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى | ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
اذا قيل : هذا منهل قلت : قد أرى | ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض ما لا يشينها | مخالفة أقوال العدا فيما أو لما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى | لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ؟ | اذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم | ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا | محياه بالأطماع حتى تجهما

وثانيهما : أما الخلق الآخر الذى تعتمد الشجاعة عليه فهو ايثار ما عند الله ، والاعتزاز بالعمل له ، وترجيح جنابه على جبروت الجبارين ، وعلى أعطيه المغدقين •

والركون الى القدر بازاء أى وعد أو وعيد ، على أساس أن الرزق والأجل الى الله وحده **«وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير»**[١٥] •

ولليقين فى هذه الميادين منطق ينفى الجبن ويورث الجرأة •

ذلك أن الداعى الى الله — اذ صدقت به صلته — لم يبال أن يفتدى الحق بعمره مفضلا أن يقتل شهيداً على أن يدفن الحق ، ولا يجد من ينصفه ، ويشرفه ويعلى رايته •

---

(١٥) الأنعام : ١٨ .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وقال « : سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام الى امام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » .

حكى أن « عبد الملك بن مروان » أتوه برجل من الخوارج ، فأراد قتله ، فأدخل على عبد الملك ابن له صغير يبكى ، فقال الخارجى :

دعه يا عبد الملك ، فان ذلك أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه اذا حفزته طاعة الله فاستدعى عبرتها .

فأعجب « عبد الملك » بقول ، وقال له متعجبا : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟

فقال : ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء ..

فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ! !

وكان « خالد بن الوليد » يسير فى الصفوف يدبر الناس ويقول : يا أهل الاسلام ، ان الصبر عز ، والفشل عجز ، وان النصر مع الصبر .

وقال أعرابى : الله يخلف ما أتلف الناس ، والدهر يتلف ما جمعوا .

وكم من ميتة علتها الحياة ، وحياة سببها التعرض للموت .

* * *

● **خلال جامعة :**

ذكرنا أطرافاً من الصفات التى يجب أن يستكملها الداعية .

وأطلنا الشرح حيث أحسسنا أن خلقاً ما ينقص المتعرضين للدعوة فى هذه الأيام .

ولو ذهبنا نستقصى الخلال التى تلزم من يتعرضون لهذا المنصب لطال حبل الحديث .

فلنكتف بذكر هذه الحقيقة .

ان الداعية يؤدى وظيفة سبقه النبيون اليها ، وانه أحق الناس

باقتباس شـــمائلهم ، والاقتداء بهداهم ، وأخـــذ الأسوة من محياهم ومماتهم .. ! !

وأنجح الناس فى أداء هذه الرسالة من ترى وراثات النبوة فى خلقه وسلوكه ، وعبادته وجهاده وتضحياته ، وكبريائه على الدنيا ، ومقاومته لفتنتها ، ومعاملته لذوى السلطان غير راغب ولا راهب .

ولنعلم أن الخطبة البليغة المعجبة ، والكتاب المبين الذكى ، والجماهير العاشقة المتعصبة ، لا تساوى كلها قشرة نواة اذا كانت علاقة المرء بربه واهية .

فلنترك الكلام فى صفات الداعية من الناحية النفسية لنشير الى خلال تلزمه من الناحية العقلية والعلمية .

ولسنا فيما نذكره مقيدين بترتيب ما ، بل نثبت ما عن لنا كيفما اتفق .

الداعية مدمن قراءة وصديق الكتـــاب ، يأنس اليه ويرقب كل جديد فيـــه .

على أن القراءة المهوشة عبء على الذهن .

وكثرتها تصبح عديمة الفائدة ، ما لم تدر القراءة حول محور معين يرتب معارفها ، وينسق أفكارها .

ويدع فى المستودع ما يحتاج اليه فى الغد ، ويقدم للاستهلاك ما يتطلبه اليوم .

وصاحب الرسالة له حاسة خاصة تلتقط — على عجل — ما يعنيه .

وسرعان ما يديره فى رأسه ويربطه بفكرته ، ويقرن به من المعانى ما يناســبه .

وصاحب الرسالة — مهما سمت درجته — تلميذ يطلب العلم من المهد الى اللحد .

ويستفيد ممن دونه كما يستفيد ممن فوقه .

ولن يصل أحد فى الدنيا الى درجة التشبع التام من المعرفة .

« وفوق كل ذى علم عليم »(١٦) .

---

(١٦) يوسف : ٧٦ .

وأغلبنا يجود عقله فى ناحية ، ويربو انتاجه .

وهو فى ناحية أخرى ، اما انسان عادى ، واما طفل ساذج .

والداعية المسلم يجب عليه — بعد الاستبحار فى الكتاب والسنة — أن يدرس التاريخ الاسلامى والتاريخ الانسانى معاً .

لا ليكون سجل ولادات ووفيات ، سواء للأشخاص أم للدول ..

بل ليعرف الطبيعة البشرية على الواقع ، وليعرف سنن الله فى خلقه ! !

وتاريخنا الاسلامى مشوب بخلط كثير للأسف .

وصحيح أن المنتصرين يزورون التاريخ لحسابهم فى أنحاء العالم كله .

لكن الحقيقة قلما تتوارى — برمتها — فى أثناء هذا الافتعال .

فما أكثر وجهات النظر التى تدون ! وما أكثر الذين يمحون ما يثبت غيرهم !

والباحث الذكى يستطيع أن يجمع معالم الحق — قدر الاستطاعة — من بين الأقوال المتناثرة والآراء المتنافرة .

وأول ما نلفت النظر اليه فى تاريخنا ، أنه غير موجه لحساب الدعوة الاسلامية .

ولا نبغى ألبتة بهذه الملاحظة التزيد على الأحداث أو بتر جزء منها لحساب فكرة معينة ، معاذ الله .

بل نبغى اسقاط القشور والتوافه والأكاذيب ، وانصاف الحقيقة فحسب .

ان الأولاد فى مدارسنا يتعلمون السيرة ، على أن الغرض من بعثة الرسول هو هدم الأصنام ونشر التوحيد .

ثم ماذا بعد ذلك ؟ لا شىء !! .

أما المبادىء التى اشترعها الاسلام للمجتمع والدولة ، وصاغ فى نطاقها الأمة العربية الأولى ، ثم الأمة الاسلامية ، فقلما تذكر !! لماذا ؟ .

وتدرس دولة الخلافة ، فتذكر الفتوح الأولى وكأنها هجمات أمة فتية على دول شاخت فانهزمت .. وهذا باطل .

فان العرب — من غير الاسلام — ما كانوا أكفاء ليقفوا فى حرب ما أمام « الفرس » أو « الروم » فضلا عن مقاتلة الدولتين معاً فى جبهات متصلة ، فى وقت واحد ...

وهكذا تمضى دراسة التاريخ — تاريخ أمتنا — وكأنما كتبه خصومها .. !!

ان الداعية المسلم أنفذ بصراً الى الوقائع ، وأدرى بأسلوب سوقها من غيره .

ثم نحن فى تاريخنا فسحنا صدورنا للاشاعات على حساب الحقيقة نفسها .

وانظر مثلا الى « السيوطى » وهو يتكلم عن القرآن فى كتابه « الاتقان » .

ان صفحات كثيرة من كتابه ليست الا سواداً فى بياض .

حشاها — عفا الله عنه — بأقوال ساقطة .

ولو تركها مكانها لماتت من تلقاء نفسها .

واحياؤها ضرب من العبث العلمى ، ما كانت له ضرورة ولا ثمرة ..

كذلك تاريخنا السياسى محشو بأمور من هذا النوع ، حبذا لو تجرد عنها .

وعلى الداعية المسلم أن يأخذ منه الحق المجدى ، وأن يتجاوز ما عداه .

* * *

ودراسة علم النفس — بفروعه الكثيرة — مفيد جداً .

ان هذا العلم نما وتشعب فى الدراسات الغربية الوافدة .

وان كانت أصوله مبعثرة فى مواريثنا الثقافية لا تخطىء رؤيتها العين البصيرة وهى تقرأ فى كتب الأدب والتصوف .

على أن أى قارىء لـ « علم النفس » يجب أن يحذر المجازفات التى تكثر فى مبحثه .

فان هناك أموراً تساق وهى تحمل طابع اليقين .

على حين أنها لا تعدو الظن العلمى فحسب .

وقد تكون نتيجة خبرة خاصة لصاحبها .

والحقائق العامة لا تولد بهــذه الطريقة ، ولا تسلم لمن يزعمها بهــذه السرعة .

وانما نوصى الدعاة بدراسة هذا العلم . لأنه أهدى من الفلسفات القديمة فى وصف الانسان وغرائزه ، وميوله ، وتحليل عواطفه واتجاهاته ، واحصاء نشـــاطه العقلى ، وتتبع مظاهره من انتباه الى ذاكرة ، الى خيال . الخ .

كما أن الفرع الاجتماعى منه يصف — بعمق — صلة المرء بغيره ، وما يسيطر على الجماعات من أفكار ورغبات وما يلين قيادها أو يعسره .

وقد امتدت بحوث علم « النفس » الى طوائف العمال ، والأطفال ، والمنظمات الانسانية المختلفة .

ومن الضرورى للداعية أن يتعرف على خصائصها . وأن يجمع ألواناً من الخبرات المحترمة فى شئونها ، ألواناً تعينه على اصــابة الحق وهو يحدث الناس .

* * *

وعلى الداعية أن يكون ملماً بقسط محترم من جميع علوم الكون والحياة و « الطبيعة » و « الكيمياء » و « النبات » و « الحيوان » و « الفلك » و « تقويم البلدان » وغيرها ..

ان هذه المعارف ليست نافلة فى حياته ، ولا فى توجيهاته .

بل هى زاد لابد منه لتصحيح فكره ، وضبط صلته بالعلم ، وارسال النصائح محفوفة بوعى دقيق ، وحس بالغ ، وادراك للهدف الذى تنطلق اليه .

بل ان التغذية علم يفتقر الواعظ الى الاحاطة بجمل كثيرة منه .

وهو لن يحسن الكلام فى الزهد ، والصوم ، والسلم والحرب ، الا اذا عرف ما تقوم به الأبدان ، وأجرى على ضوئه ما ورد من آثار ..

ثم نحن نريد الاستيثاق من أن العقل الذى تصدر عنه الحقائق الدينية صائب النظرة ، سديد الخطوة ، منطقى المقدمات والنتائج .

ومن ثم فنحن نوصى بتدريبه على التفكير الرياضى ، وهو التفكير الذى نرجو أن تتكون ملكته من دراســة « الحساب » و « الهندسة » و « الجبر » •

ان العقل الخرافى لا يؤتمن على الهزيل من مصالح الناس ، فكيف يؤتمن على الجليل من دين الله •• ؟ ؟

وربما تصفو الحياة للمغفلين الذين عناهم المتنبى فى بيتيه :

تصفو الحيــاة لجاهل أو غافل عمــا مضى منهـــا وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفســه ويســومها طلب المـحال فتطمع

لكن هؤلاء المغفلين لا يسند اليهم عمل ، ولا يوثق بهم فى مهمة ، ولا يعرف لهم فى المجتمع مكان • فهل ينفون من دنيا الناس ليتصدروا فى دين الله •

يجب أن نؤكد لأنفسنا وللناس أن دين الله أشرف من أن يؤخذ عن أفواه الحمقى ••

* * *

وعلى الداعية أن يكون طويل الباع فى ضروب الفلسفة ، الخلقى منها والاجتماعى والسياسى ، وأن يكون عميق الفهم للمذاهب المحدثة •

فان « أبا حامد الغزالى » من سعة فهمه لآراء الفلاسفة الأقدمين ، كان يضيف اليها أدلة لم تخطر ببالهم ثم يكر عليها جميعاً بالنقض ••

ونحن نرى لدراسة الفلسفة ثمرات تعود على الدين بشتى الفوائد ، فان الفلسفة موضوعها : الانسان والمجتمع وما وراء المادة •

أى أنها تعمل فى الميدان نفسه الذى يعمل فيه الدين •

وأفكار رجالها لا تخرج عن أن تكون موافقة للدين ، أو مضادة ، أو محايدة •• ودراسة الأفكار المتجهمة للايمان ، والشاردة عن صراطه المستقيم ، لا بد منها لدحض الشبه ورد المفتريات وتفنيد الأخطاء •

ان الله طلب من المشركين أن يذكروا أدلتهم : **« قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »**(١٧) •

---

(١٧) البقرة : ١١١ •

فاذا كان للبعض برهان مزعوم أو سلطان موهوم ، فعلى رجال الحق أن يزيفوا برهانه ، ويدمغوا سلطانه .

أما الأفكار الفلسفية الأخرى ، فأرى ضرورة دراستها .

لأنها تعين على تجلية الحق الذى أنزله الله ، وتبين مدى ما فيه من رشـــد .

وشىء آخـــر مبهم ، هو أن الدين منكوب من قديم بلصـــوق خرافات به .

وأهله منكوبون من قديم بشيوع البغى بينهم .

وهذا وذاك قد يجوران على الفطرة التى ارتضاها الله ديناً لعباده .

وقد يصل الفيلسوف البعيد الى جزء خطير من هذه الفطرة بسلامة صدره وسداد فكره .

على حين يعجز العبدة الجهلة، أو أهل الكتاب — الذين أعماهم الغرض وأضلهم البغى عن ادراك هذا الجزء من الفطرة الدينية أو احسان تصويره كما أنزله الله .

ويؤسفنى أن أصرح بأن بعض محترفى التدين أبعد عن الدين من بعض الفلاسفة الذين رزقوا سناء القلب واللهب .

ولذلك يجب أن ندرس الفلسفات المختلفة ، من المقاييس الخلقية ، الى الخطط الاقتصادية والسياسية التى بلغها القوم باجتهادهم فى غيبة الوحى الصحيح عنهم .

ولننتفع بهذه الدراسات فى تصوير الحق والدفاع عنه واحسان عرضـــه .

وعلى الداعية أن يفهم طبيعة الزمان الذى يحيا فيه ، ويعاشر أهله .

وأن يدرك الاتجاهات السائدة فى العالم بالنسبة الى المادة والروح والشورى والفردية والغيب والشهادة .

وأن يتعرف على طبائع الأجناس البشرية ، والدول القائمة ، وأن يلم بنزر يسير من حياة قادتها وميولهم وأهدافهم ، وعقائدهم ومذاهبهم .

فان هذه الخبرة تدعم منطقه ، وتصوب حكمه .

***

وليعلم الداعية أن أسوأ شىء يواجهه فى ميدان العمل ، أن يتحدث الى قوم حديثاً ينبىء عن قصور فكره أو عدم فهمه .

ان كل ما يبنيه سينهار فوق رأسه ، وسيجد مستمعوه أنهم أعرف منه بالحياة .

وأنهم — بالتالى — أبصر بما يصنعون للسير فى دروبها ، بعيداً عن توجيهات هذا الواعظ المسكين الذى لا يدرى شيئاً عن طبيعتها .. !!

وقديماً يقول المتعلم لشتى الفنون :

عرفت الشر لا للشر لكـن لتوقيه
ومن لايعرف الشر من الناس يقع فيه

ونحن نقول : يجب على الداعية أن يتعلم الخير والشر جميعاً .

لا ليقى نفسه فحسب من الشرور ، بل ليقى غيره من الناس كذلك .

ان غزارة الثقافة وسعة الأفق وروعة الحصيلة العلمية خلال لابد منها لأى داعية موفق ..

والداعية الذى يشـعر بغربة فى ميدان الأدب يجب أن يترك ميدان الدعوة لفوره .

فان الذى يحاول خدمة الرسالة الاسلامية دون أن يكون محيطاً بأدب العربية فى شتى أعصارها انما يحاول عبثاً .

وأنى لرجل محروم من حاسة البلاغة أن يخدم ديناً كتابه معجزة بيانية ، ورسوله امام للحكمة وفصل الخطاب ؟ ؟

الداعية لا بد أن يدرس آداب العربية ، القديمة والحديثة ، وأن يدرب نفسه على الأداء العالى ، والعبارة الرائقة

وليس القصد أن يكون كلامه انشاءاً منمقاً . كلا ، فهذا مزلقة له ولرسـالته .

وانما القصد أن يحسن صوغ العلم النافع ، والحقائق الركينة فى أسلوب يبرز ما فيها من نفع وقوة .

وقد قالوا : الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً .

وكذلك القول الحسن ، والخطاب الجميل .

***

● **الدين والعلم :**

يظن نفر من الناس فى هذا العصر أن الدين أمسى من المخلفات البالية .

وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده وتعدو حدوده وتسير وحدها . دون رعاية لرب خالق ، أو تهيب لجزاء منتظر ..

ويتعلق أولئك الواهمون بأن العلم فض مغاليق الكون واكتشف أسراره .

وأرصد لكل مشكلة علاجاً من عنده لم تبق للدين موضعاً ، ولا لقضاياه مكاناً . وهذا الكلام افك كله ..

ومهما نقبت فيه فلن تجد الا ظلمات الادعاء والغرور ، ونضح الجهالة والشرود .

واتباع هذا اللغو مفتاح لأبواب من الفوضى والخيبة تلحق العالم آخر الدهر .

بل ان العالم يتعثر الآن فى بوادرها ، ويوشك أن يسقط فى براثنها ، ما لم يتب الى الله ، ويقلع عن هذا الغى ..

ان الدين — كان ، ولم يزل ، وسيظل — ملتقى العقول السليمة والفطر القويمة .

ما أخطأ منهجه فكر ثاقب ، ولا ضل صراطه طبع نظيف ..

وان العلم مهما اتسعت آماده ، وامتدت أبعاده ، وترادفت كشوفه ، فلن يجىء الا بما يصدق الوحى ، ويدعم الايمان ، ويمكن لهداية الرحمن . والا بما يزيد الأنقياء بصراً بجلال الله ، وقياماً بحقه وثقة بلقائه الموعود .

ثم ان التهمة التى توجه الى الدين الآن ليست جديدة .

والقول بأن الايمان لون من خرافات الأمين ، سبق أن قاله المشركون من عبدة الأصنام .

قال تعالى : « وما يكذب به الا كل معتد أثيم . اذا تتلى عليه آياتنا

قال أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »(١٨) .

وقال : « **ومنهم من يستمع اليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هـذا الا أساطير الأولين »**(١٩) .

« **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »**(٢٠) .

والزعم بأن الدين شىء من خرافات الأولين ضرب من الجرأة التى يتسم بها سفهاء كل عصر يرمون بها المرسلين .

كأن الالحاد فى آيات الله ذكاء وتقدم ، والاستجابة لهديه جمود وتأخر ! ! .

وذلك هو الضلال المبين .

فان اتباع الدين والانقياد لتعاليمه يقتضى تفتحاً ذهنياً يتجاوب مع آيات الله فى كونه ، كما يقتضى عزيمة قوية لفطام النفس عن المظالم والآثام .

وهذا الجهاد يجعل كفة المؤمنين — فى أية موازنة — أرجح ، ويجعلهم أحق بالاحترام فى الدنيا والآخرة .

اذا كان اتهام الدين بأنه فكرة متأخرة ، ليس الا سفاهة قديمة .

فكذلك ما ينضم الى هذا الاتهام من تبجح أهل الزيغ وتطاولهم .

كأنهم ورثوا ذلك الكبر بالالحاد عن فسقة الجاهلية الأولى الذين كانوا يلقون رسـول الله فيسخرون منه ويستعجلون العقاب المعد للجاحدين .

« **واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزواً أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون . خلق الانسـان من عجل ، سأوريكم آياتى فلا تستعجلون »**(٢١) .

ان القوم هم القوم ، حذوك النعل بالنعل .

---

(١٨) المطففين : ١٢ — ١٤

(١٩) الأنعام : ٢٥ .

(٢٠) الفرقان : ٥ .

(٢١) الأنبياء : ٣٦ ، ٣٧ .

وان المرء ليتفرس فى وجوه عشاق الالحاد فى هذا الزمان •

فلا يرى فى ملامحهم البدنية والنفسية الا ملامح المفتونين الصغار الذين تلونا عليك نبأهم من أعداء النبيين المكرمين •

الدعوى هى الدعوى ، والسيرة هى السيرة •

أما الثرثرة باسم العلم وتقدمه فهى شكل ليس له موضوع •

فان العلم دليل على الله وقائد اليه •

وهيهات هيهات أن يفد العلم بقضية تنقض الاعتقاد فى وحدانية الله ووجوب طاعته وضرورة الاعداد للقائه •

« يوم يقوم الروح والملائكة صفا ، لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صواباً • ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً »(٢٢) •

ان الاسلام دين يبنى كيانه المادى والأدبى على التعمق فى العلم والتزيد من الثقافة ، وعلى دوام الصلة بعمل القدرة العليا فى مجال العالم الرحب •

وأولوا العلم فى هذا المضمار قرناء لملائكة الله فى التصديق بعظمته والشهادة بعدالته ••

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط •• »(٢٣) •

والمتأمل فى القرآن الكريم يوقن بأن الكون مدرسة الايمان الحق •

وأن العلم مدده الموار ونبعه الفوار •

وأن كل خطوة الى الأمام فى دراساته انما هى زيادة جديدة فى دلائل التصديق ، وأسباب اليقين •

ان الاسلام يربو على العلم كما يربو الجسم على الغذاء الجيد •

وينمو باستبحار المعرفة كما يغلظ النبات على الشعاع والماء •

فياعجباً كيف يزعم زاعم بأن الاسلام ضد العلم ، أو أن الاسلام ذهب أوانه لأن العلم قد توطدت أركانه ؟ ؟

---

(٢٢) النبأ : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢٣) آل عمران : ١٨ .

ان هذا ارتكاس فى الفهم وانطماس فى البصائر :

« أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضـله الله على علم وختم على سـمعه وقلبه وجعل على بصره غشـاوة فمن يهديه من بعـد الله ، أفلا تذكرون »(٢٤) •

ثم لننظر أى كمال تبلغه الانسانية بعيـداً عن منطق الايمـان وايحاء الدين •

ان دسائس النفس لبلوغ مآربها لا حصر لها •

وما لم يحكمها ضمير موصول بالله فانه يستحيل أن تخلص للخير أو أن تتجرد من الشر ••

وقد حصل المستعمرون فى هـذا العصر على أنصبة ضخمة من العلم النظرى ، والتفوق المـادى ••

فماذا صنعوا به ، وماذا أفادت الدنيا منه ؟

ملكوا القوة فكانت فى يد الفاتح الغالب سلاحاً للنهب والغصب ، وأداة للجبروت والكبرياء ، ووسـيلة لقهر الأمم ، وتكبيل عقـولها وضمائرها بالأغلال •

ان الحياة التى يستهدفها الالحاد لسكان هذا الكوكب المرهق ، حياة لا صواب فيها ولا رحمة •

حياة يصرخ فيها المدل بتفوقه صرخة الزعيم الصهيونى القـديم « قارون » عندما قيل له :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـرة ، ولا تنس نصـيبك من الدنيـا »(٢٥) •

« قال انما أوتيته على علم عندى »(٢٦) •

حياة يقول فيهـا سراق الحقوق وموقعو البخس اذا قيل لهم :

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين • بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ »(٢٧) •

---

(٢٤) الجاثية : ٢٣ •
(٢٥) القصص : ٧٧ •
(٢٦) القصص : ٧٨ •
(٢٧) هود : ٨٥ ، ٨٦ •

« قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز »(٢٨) .

ان الالحاد ليس خراباً قلبياً فقط ، وليس ظلاما فكريا فقط .

بل هو — الى جانب ذلك وهـذا — دمار اجتماعى يقوض أسس الشرف ويرد منابع العفاف ، ويطلق ألسنة العاهرين بمطاردة أهل الطهر وأولى النهى قائلين :

« أخرجوهم من قريتكم ، انهم أناس يتطهرون »(٢٩) .

ان الحيـاة — بعيداً عن فضـائل الدين وشـعائره — انطلاق حيوانى محض .

ولا يجوز أن ينخدع العقلاء بمظاهر الارتقاء التى تلوح أحياناً بين أقوام متحللين من شعب الايمان وتعاليم الدين .

فان أزمات العالم التى تتهدده بالويل والعذاب الأليم انما تنشأ من غرائز السوء التى تمت فى ظلال الالحاد وانطلقت من عقالها انطلاق السباع من غابها .

وما ترجع البركة الى الأرض الا اذا عاد النـاس الى ربهـم منيبين راشدين .

روى مسـلم فى صحيحه : أن رسـول الله ﷺ قال — فيما يرويه عن ربه — :

« انى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما حللت لهم .

وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا .

وان الله تعالى نظر الى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، الا بقايا من أهل الكتاب .

وقال : انما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك .

وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله المـاء ، تقرؤه نائماً ويقظان .

---

(٢٨) هود : ٩١ .

(٢٩) الأعراف : ٨٢ .

وان الله تعالى أمرنى أن أقاتل قريشاً . فقلت : رب اذن يثلغوا[٣٠] رأسى فيدعوه خبزة[٣١] .

فقال : استخرجهم كما أخرجوك ، واغزهم نغزك . وأنفق فسننفق عليك . وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك .

قال : وأهل الجنة ثلاثة :

ذو سلطان مقسط متصدق موفق .

ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم .

وعفيف متعفف ذو عيال » ..

ومما يساوى جحود الدين وانكار أصله جملة ، الزعم بأنه يصلح للعوام وحدهم .

وأن أمره ونهيه ووعده ووعيده عناصر تستخدم فى ترويض الجماهير والزامها الجادة .

أما الخاصة من أولى الرأى وذوى الثقافة ، فربما كان فى ارتفاع مستواهم وزكاء ضمائرهم ما يغنى عن اقام الصلاة وايتاء الزكاة . والتبشير بالجنة والانذار بالنار !

وهذا كلام من أبطل وأكذب الكذب .

بل هو أوغل فى الضلال مما يبدو لأول وهلة .

فان رذائل الصغار صغيرة مثلهم ، وجرائم العامة محدودة الشر . محصورة الخطر ، مستدركة النتائج .

والواقع أن أحوج الناس الى الدين وأوامره ونواهيه هم أولئك الخواص من كبراء وعلماء .

فان منزلتهم فى المجتمع ، ومكانهم من تصريف شئونه يجعلان الرقابة على ضمائرهم ألزم ، واشرابهم مخافة الله أشد .

ان الضمير الفردى والعالمى ، لما ابتعد عن الدين ، ارتكب من الجرائم ما تقشعر له الجلود .

ولن يعود للعالم حظ معقول من السلام والاستقرار الا اذا رجعت اليه عاطفة التدين .

---

(٣٠) يشدخوا .

(٣١) الرغيف المكسور .

ثم انه اذا كان الله حقاً — وذاك ما لا ريب فيه — فما معنى أن يتقيه قوم دون قوم ، وأن يهتم بوحيه بعض الناس ، ويستغنى عنه بعض آخر ؟

ألا فلنعد الى اقامة التربية العامة على دائم الدين ، وتكوين القلب النقى والنفس اللوامة ، واشعار الكل أن الحساب الحق يوم الدين **« يوم يقوم الناس لرب العالمين »**(٣٢) •

* * *

لقد عاشرت أقواماً يبنون حياتهم على فلسفة الضمير المجرد — كما يزعمون — ويتحللون من فروض العبادات ومراسم الدين •

ويوهمون مخالطيهم أنهم بلغوا من الكمال شأواً كالذى يبلغه النساء أو أسمى •

وأعترف أننى لم أستبن شرهم للأيام الأولى من التعرف عليهم •

أو بتعبير أصرح : خدعت بتلك الدعوى ، وظننتهم على نصيب من الخير لا بأس به ، وان تك فاتتهم أنصبة أعظم وأكرم •

ثم شاءت الأقدار أن تكشف خبيئتهم ، وأن تمزق الأقنعة التى أحكموا نسجها على طبائعهم •

فبدوا لى كما هم ، يختلون الدنيا باصطناع المثل العليا !!

ويتحرون الدقة فى أنواع من السلوك لا تعويل عليها •

ثم يخنسون لانتهاب ما خف حمله وغلا ثمنه من متاع الحياة !! ••

فقلت :

كل امرىء صائر يوماً لخلته ... وان تخلق أخلاقاً الى حين

أحدهم ألف فى الضمير كتاباً جريئاً ، حط فيه من قدر العبادة والعباد •

ثم سمح له « ضميره » أن يخدع أحد المسئولين الكبار وأغراه بشراء الكتاب على أنه خدمة لله ورسوله ، الله الذى كذب قوله ، والرسول الذى خرج على سنته •

---

(٣٢) المطففين : ٦ .

ان ضميره استباح عقد الصفقة على هذا النحو المؤذى الخاتل !

لأن أصحاب الكلام عن قيمة الضمير فى تسيير الناس لا حرج عليهم أن يجعلوه مستتر وجوباً كبعض الضمائر فى علم النحو !! ..

وأما الرجل الآخر .. فكان كثير التباكى على مستوى خطباء المساجد ، مما جعله يترك الجمعة والجماعات .

ويعلن أن ترك الصلاة لا يخدش كرامة ولا ينزل بقدر ! . وأن الخلق المجرد أولى بالتقديم وأجدر بالدعاية والرعاية ..

ومرت الأيام على صاحب التنويه بالخلق المجرد ، والكمال المطلق ، فاذا هو ذئب متربص بأعراض الفقيرات المستحقات للعون ، يستغل حاجتهن لاشباع نهمته .

عليه لعنة الله .

ان الدين وحده هو العاصم من تلك الأوساخ .

وان الطعن فى الدين شنشنة عصابة كفور يجب على الانسانية أن تحذرها وأن تسد فاها ، فلا تنطق بهجر ، ولا تصد عن سبيل الله .

ما أزكى المجتمعات الموصولة بالسماء المستكينة الى الله ، النازلة على أمره ، المتحرية رضاه .. !!

وما أروع المجتمعات التى يسـودها اجلال للفضائل ، واعزاز للمكارم ، وتواص بالرحمة والبر .

تأمل فى الصورة التى ترتسم أمام عينيك من خلال القصـة التالية .

ثم قارن بين ما توحى به من فضل ، وما توحى به قصص الالحاد من نكر .

ذكر «أبو نعيم» فى كتاب «معرفة الصحابة» والحافظ «أبو موسى المدينى» من حديث أحمد بن أبى الحوارى قال :

سمعت « أبا سليمان الدارانى » قال : حدثنى علقمة بن يزيد بن سويد الأزدى قال : حدثنى أبى عن جدى سويد بن الحارث قال :

وفدت سابع سبعة من قومى على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا ، فقال : ما أنتم ؟

قلنا : مؤمنون .. فتبسم رسول الله ﷺ وقال : ان لكل قول حقيقة .. فما حقيقة قولكم وايمانكم ؟ ..

قلنا : خمس عشرة خصلة ، خمس أمرتنا بها رسلك أن نؤمن بها . وخمس أمرتنا أن نعمل بها .. وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية . فنحن عليها الآن ، الا أن تكره منها شيئا .

فقال رسول الله ﷺ : وما الخمس التى أمرتكم بها رسلى أن تؤمنوا بها ؟ .

قلنا : أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت .

قال : وما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟ .

قلنا : أمرتنا أن نقول لا اله الا الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت الحرام من استطاع اليه سبيلا .

فقال : وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ .

قلنا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء .

فقال رسول الله ﷺ : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبيـاء » .

ثم قال : وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة ..

ان كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غداً تزولون ، واتقوا الله الذى اليـه ترجعون ، وعليـه تعرضون ، وارغبوا فيما عليـه تقدمون ، وفيه تخلدون .

فانصرف القـوم من عند رسـول الله ﷺ ، وحفظوا وصيته وعملوا بها » .

* * *

لقد رأيت مجتمعات الالحاد ، وما تغتر به من معرفة سطحية ، وما تفيض به من مآثم خلقية .

واستطيع الجزم بأن هؤلاء المحرومين من نعمة الدين — فرادى وجماعات — ليسوا أهلا لأية ثقة .

نعم .. ان هؤلاء الناس قد تضبطهم أوضاع مقررة ، وحدود ملزمة .

ولكن أى أوضاع وأى حدود ؟ ؟ .

انها — جميعاً — محدودة من الجهات الأربع بالمصالح والمآرب كى لا تطغى شهوة على شهوة ، ولا تصطدم منفعة بمنفعة ! .

أى ان الأمر لا يعدو تنظيم الأهواء المادية والنفسية تنظيما يتيح لكل فرد أخذ نصيبه منها ، دون بخس ولا شطط ما أمكن ، فهل تلك رسالة الخليقة ؟ ..

ما أحوج العالم الى نور الايمان ، يتحسس به طريقه دون عثار ولا شرود .

ان هؤلاء البله — الذين يظنون الدين وهماً — لا يحسبون أى حساب للفرض الآخر ، ولما يترتب عليه من أمور هائلة :

« قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ... »(٣٣) ؟ .

انهم يبنون حياتهم على أنه لا اله ، وبالتالى لا حقوق ألبتة لاله موهـوم .

وبالطبع لا بعث ولا جزاء ، ولا اكتراث بشىء من هذا كله .

فاذا كان التفكير الذى يسير هؤلاء باطلا من ألفه الى يائه ، موغلا فى الافتراء من ابتدائه الى انتهائه ، فأى خراب نفسى واجتماعى تخلقه هذه الفلسفات السقيمة ، وأى جحود خسيس تشيعه فى الحياة هذه الطبائع اللئيمة ؟ ؟ .

ان العالم — فى غيوم هذا الكفر الأسود — قد حرم البركة فى شئونه كلها .

والبركة كلمة لا تعنى الجزاف ، أو الفوضى ، أو سوء التقدير ، وغفلة التدبير ..

كلا ، كلا .. فتلك معان ولدتها أذهان مريضة !!.

ان البركة هى رعاية السماء لعملك المتقن .

---

(٣٣) فصلت : ٥٢ .

فلا يخطىء هدفه ، ولا يفقد ثمرته .

هى التوفيق لاستغلال الشىء على أحسن وجوهه ، ووضع الأمور فى مواضعها دون عناء أو عوج .

هى الافادة الكاملة من الوقت والمـال .

فلا يضيع هذا فى لغو ، ولا يضيع ذلك فى باطل .

البركة هى هداية الله للجهد الانسانى . فلا يذهب فريسة خطأ ، ولا يفشل نتيجة غضب .

والمرء الكافر محروم من هذه العناية العليا .

والمجتمع الكافر يدور حول نفسه فى حركة مجنونة ، عالية الجعجعة ، رديئة النتائج !! ..

قال تعـالى : « **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله ، ان الله لا يخلف الميعاد** »(٣٤) .

وقال : « **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** »(٣٥) .

نعم — والله — أضل أعمالهم .

لقد رأيت المحرومين من الايمان والاخلاص يعملون الكثير .

ومع ذلك كأنما أعمالهم بذر وضع فى تربة رديئة ، فهى لا بروز لها ولا ازدهار ، ولا ظل لها ولا أثمار .

قال الدكتور « محمد البهى »(٣٦) :

« واذ كاد يختفى من حياة الانسان المعاصر اله السماء ، خفت فيها نور الخير ، واضمحل الباعث عليه فى نفس هذا الانسان ، وقويت بواعث الأثرة .

وبالتالى قويت دوافع الانتقام والسيطرة عنده ، بدلا من أن تقوى دوافع الانسجام بينه وبين غيره .

فلم يقف استخدامه هذه المعرفة الطبيعية والرياضية التى هدى اليها عند حد النافع منها لخير البشرية ورفع مستوى الأفراد صحياً ، وعقلياً ، وخلقياً .

---

(٣٤) الرعد : ٣١ . (٣٥) محمد : ١ ..

(٣٦) عن مجلة رسالة الاسلام بتصرف .

بل تعدى ذلك الى اختراع المبيدات :

(ا) فلم يقف بصنع السيارة عند حد المركبة العادية .

بل صنع الدبابة وقاذفة اللهب .

(ب) ولم يقف بصنع الطيارة عند النوع الذى يساعد على تقريب المسافات البعيدة وتعزيز التفاهم العالمى عن طريق المبادلات التجارية وتبادل الآراء بين الشعوب .

بل صنع قاذفات القنابل ، والطائرات المقاتلة ، والصواريخ الموجهة .

(ج) ولم يقف بصنع السفينة عند الأنواع التى تستعمل لنقل المدنيين ، أو حمل البضائع التى تستهلك فى الحياة العامة .

بل صنع البارجة ، والمدمرة ، والغواصة .

(د) ولم يقف فى تطبيق تلك المعرفة الرياضية والطبيعية عند حد توفير الغذاء ، واللباس ، والدواء .

بل اخترع الغازات السامة ، وجراثيم الموت ، والألغام البحرية والبرية .

(هـ) ولم يقف فى صنع الآلات الميكانيكية التى تستخدم فى الزراعة والحياة المدنية عند الحد الذى يساعد على توفير المحاصيل وضمان الراحة له .

بل صنع ما يهدد حياة البشرية جملة ، وهى القنابل الذرية والهيدروجينية .

وكلما نجح « العلم الحديث » فى اختراع آلة للاهلاك والافناء اجتهد فى اختراع ما يقى منها أو يقلل من أخطارها ، عن طريق استحداث آلات أخرى .

وهكذا .. تراه يسترسل فى اختراع المهلك والمبيد ، ثم فى اختراع ما يقلل من آثار الاهلاك والافناء .

وبذلك .. أصبح مجال « العلم الحديث » هو التنافس على تكثير مصادر الشر حتى اذا أفزعته سعى للنجاة منها !! .

وزاد الانسان — عن طريق هذه المعرفة الشريرة — فى اختراع

وسائل الهدم والابادة أكثر من اختراعه وسائل الراحة والصيانة للجنس البشرى •

وليس ما اخترعه من وسائل الهدم والتدمير أكثر فقط من وسائل البناء ، والراحة ، والصيانة •

بل ان ما أنفقه على تلك المخترعات الهدامة يزيد أضعافاً مضاعفة على ما ينفقه فى الحياة المدنية ، ورخائها المنشود للأفراد والمجتمعات •

ولهذه النفقات المضاعفة على وسائل الهدم ، القليلة فى ميدان البناء انخفض مستوى المعيشة •

وظهر عندئذ العامل الاقتصادى فى الحياة المدنية الحديثة ، ذا أثر قوى فى توجيه سياسة الشعوب ، وذا سلطان واسع على اتجاه الأفراد ، وعلى التحكم فى ميولهم وحرياتهم ••

ومن ثم أصبح سعى الانسان المعاصر يكاد يكون مركزاً فى توفير لقمة العيش ، له ولأسرته •

ومن هنا أيضاً خفت القيم المثالية والخلقية فى نفسه ؛ ولأنه آصبح يتخذ من لقمة العيش ميزاناً تقديرياً للسلوك العملى فى الحياة » •

ثم قال : « تلك نتيجة « العلم الحديث » يدمر ولا يبنى ، ويجيع ولا يشبع ، ويسترق ولا يعتق •

وكما خلق الانسان المعاصر الآلة الصماء ، أخرس فى دنياه الانسان المتكلم !

وكما حرك الآلة فى غير وعى ، أصاب الانسان الكامن فيه بفقدان الوعى •

فذبلت مواهبه ، بل ذابت خصائصه •

ولم يصب العلم الحديث الانسان بسلب خصيصته العظمى ، الا لأن هذا العلم اتجه الى خلق وسائل الشر أكثر من اتجاهه الى ايجاد وسائل الخير •

ولم يكن ذاك ، الا لأن الانسان المعاصر عبده من دون الله ، ووضعه فى الأرض مكان اله السماء ؛ واستغنى بمخترعاته عن الاستعانة بالله ،

وخدع نفسه بأنه أصبح رب هذه الأرض ، لأنه يملك علم ما فى الأرض ، وكذا علم ما فى السماء » .

والويل للعالم أجمع من عقبى هذا الغرور ...

***

● أزمة التدين :

كان المرتقب — وتلك مكانة الدين وحاجة الناس اليه — أن تفيض الأمم الى ساحته ، وأن تهرع الى مثابته ، وأن يستريح العامة والخاصة الى كنفه .

غير أننا نلحظ — آسفين — أن بنيان الايمان هزته زلازل عنيفة .

وأن العصور الأخيرة أقبلت ، وشعوب غفيرة خواء الأفئدة منه ، ضعيفة الانقياد اليه .

ولهذه الحال علل نجملها فيما يأتى :

١ — رواج العملة الزائفة بين بيئات التدين واستطاعة كثير من الماكرين أن يستخفى وراء مراسم الدين وهو فارغ الباطن من حقيقته .

واقد كنت أحس أحياناً أن كلمة « الله » — فى هذه البيئات — هى آخر كلمة تذكر ويقصد بها مدلولها .

وأن أغلب المنتمين الى الدين يدارون عاهات نفسية وعقليـــة ، أو يعوضون نقصاً مادياً أو أدبيـــا .

أما الدخول فى الدين على أنه التزام انسان سوى بفرائض جليلة . وأعمال عظيمة فذاك ما لا يحسنون ، بل ما لا يطيقون ..

الصبى يتظاهر بصمت الوقار ، فهل صمته دين ؟ .

والمحروم يتظاهر بالزهد ، فهل زهده عفة ؟ .

والكذاب يوجل من المجتمعات ، فهل انسحابه عزلة ؟

كما أن كثيراً من أدعياء التدين يغطون مسالكهم الناقصة بعناوين دينية . ويسلكون ميادين العبادة والتقوى وهم أبعد خلق الله عن تلك المعانى الطاهرة .

وقد لاحظ الأذكياء من قديم الزمن ذلك التناقض المثير ، ونددوا به ، وحملوا أقسى الحملات على أصحابه ...

الا أن الحملة على التدين المصطنع شىء آخر غـير الحملة على الدين الحق •

قال أبو العلاء — يصف مقترفى الرذائل الذين يدعون النـاس الى الله — :

دعوا وما فيهموا زاك ولا أحـد — يخشى الاله ، فكانوا أكلباً نبحاً

وليس عندهموا دين ولا نسك — فلا تغرك أيـد تحمل السبحا

وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم — يسبحون،وباتوا فى الخنا سبحا!!

لو تعقل الأرض ودت أنها صفرت — منهـم فلم ير ناظـر شـبحاً

وقال فى الواعظ الذى يطلب الدنيا وينفر الناس منها :

بخيفـة اللـه تعبـدتنا — وأنت عين الظـالم اللاهى

تأمرنا بالزهد فى هذه الد — نيـا وما همـك الا هى

وقال فى تدين البله من العامة وأشباههم :

وقد فتشت عن أصحاب دين — لهم نسك وليس لهم رياء

فألفيت البهائم لا عقـول — تقيم لهـا الدليل ولا ضياء

واخوان الفطانة فى اختيال — كأنهمـو لقـوم أنبيـاء

فأما هـؤلاء فأهـل مكر — وأما الأولون فأغبيـاء

فان كـان التقى بلهاً وعياً — فأعيار المـذلة أتقيـاء

ونحن نقر هذه الآلام التى اعتلجت فى نفس « المعرى » ودفعته الى ارسال هذه النفثات الحارة اللاذعة •••

وصيحات الانكار على تجار الدين والمنافقين به ليست وليدة الخلق الناقد لدى بعض الناس •

فقد أحصينا من كتـاب الله وسنة رسـوله جملا أملأ بالحق ، وأروع مما ينظم الشعراء •

كما أثبت العلماء الراسخون فى أسفارهم فصولا حافلة بالآثار التى تنعى على المرائين والمتأكلين وذوى النيات المغشوشة .

بل ان صاحب الرسالة العظمى صلوات الله وسلامه عليه يعتبر الثائر الأول على فنون الاحتراف والدجل باسم الدين .

وهو يبنى الايمـان على نقـاء الفطرة وسلامة القلب ، وهجـر التكلف والمراءاة .

الا أننا نأسف ، لأن أمتنا تطرقت اليها علل الأمم البائدة ، وفشت بينها سيئات أهل الكتاب .

والتدين الفاسد سبب خطير لصرف الكثيرين عن الدين الحق .

ان الأخلاق الرديئة والسير المنحطة اذا غلبت على تصرف المنتمين الى الدين أصابت الدين فى الصميم .

ومن أقسى الضربات التى أصابت الدين وعوقت مسيره ، خضوع طوائف منه لسيطرة المستبدين .

بل مسارعة هذه الطوائف لاجابة أهوائهم ، واطاعة نزواتهم ، والميل بتعاليم الدين نفسها وفق ما يطلبه أولئك المستبدون .

ان الأمم — من أعصار خلت — تعطشت الى الحرية والى العدالة .

وودت لو حيت كريمة الجانب مرعية الحق كما يرضى الله لها .

وكان الواجب أن يكون رجال الدين ، عند حدود مبادئهم الواضحة وفى صفوف الجماهير اللاغبة الكادحة .

غير أن الذى حدث — للأسف الشديد — كان العكس فى أغلب الأحيـان .

فلم ينضم رجال الدين الى أصحاب الحقوق المستباحة .

ولم ينسحبوا بعيداً عن المعركه يرقبون النتائج .

بل انضموا الى الحكومات الجائرة ، وظاهروها على بغيها .

فلما سقطت هذه الحكومة سقط الدين معها بداهة .

وذلك سر الأزمة الطاحنة التى تعرض لها الدين فى الغرب .

والتى شاء نفر من الجهال أن ينقلها الى الشرق الاسلامى مع بعد الشقة ، وتفاوت الملابسات .

لقد كان الالحاد طابع الحكم والعلم فى أوروبا خلال القرن الثامن عشر الميلاد •

ولم تزل سطوة الالحاد عاتية فى نواح عدة النشاط الانسانى •

ولم تعد للدين بعض المكانة الا فى الأيام الأخيرة •

وهى مكانة اسمية حيناً •

أو مكانة احتفظ بها لغرض خسيس يعرفه المستعمرون حيناً آخر •

ومعنى هذا أن الدين سوف ينتهى مرة أخرى الى المصير الذى وقع فيه أولا •

ذاك كله فى أوروبا حيث تسود النصرانية •

أما فى أقطار الاسلام ، فقد وقعت هنات متقطعة من أشخاص انتسبوا الى الدين وخدموا الحاكمين الغاشمين ••

بيد أن جمهرة القراء والوعاظ والقضاة والفقهاء لزموا المعارضة أو البعد •

ومن ثم لم يحمل الاسلام أوزار مظاهرة للاستبداد • ولم يعد يوماً ما مسئولا عن ظلم اجتماعى أو فساد حكومى •••

ذلك مما يهرف به بعض المتخرجين فى المدارس الاستعمارية •

أولئك الذين لقنهم الغزو الثقافى طائفة من الأباطيل كى يحاول بها النيل من الاسلام وتاريخه ، ونسبة مثالب الآخرين اليه •

وشتان بين دين ودين ، وتاريخ وتاريخ •

يروى أن أحد العلماء رأى الشرطة يسوقون لصاً الى الحاكم ، فسأل : ما هذا ؟

قالوا : سارق يجب قطع يده •• !!

فقال : سبحان الله ، سارق السر يسعى به الى سارق العلانية !

ان التعليق المرير على تصرفات السلطات الباغية كان طبيعة الجماهير الاسلامية من عامة وخاصة •••

ولسنا ننكر أن هناك متأكلين بالدين ساروا فى حواشى الحاكمين ، وزينوا لهم ما يصنعون •

وظلموا بذلك الدين والأمة ، وخانوا الأمانة التى حملوها •

الا أن سيرة أولئك لم تخف على ألوف العلماء فحقروها ، وعلى الألوف المؤلفة من العوام فأنكروها ..

فان تعاليم الاسلام — كما سبق البيان — ليست حكراً على طائفة تعلمها وتدفع عنها .

بل أمرها شائع بين السواد الأعظم من المسلمين ..

لكن الذى نحذره — وقد فشا الجهل بالدين — أن تكون مسالك ذوى الملق والزلفى للحاكمين سبباً فى سوء الظن بالدين نفسه ..

فانه — مع انتشار الجهالة — سيظن أن الاسلام هو ما يقوله أو يفعله أولئك الكذبة الفجرة .

وسيقال : ذلكم موقف الدين — لا موقف أدعيائه — من الفوضى والعدوان .

وهذا يعنى أن الدين سيذهب ضحية أتهام خاطىء ، وأوهام ليس لها سناد .

واذا استطاع الطغاة أن يسيروا بالدين فى ركابهم ، وأن يسخروا رجاله فى مآربهم . فقد آذنت شمسه بمغيب ، وارتفعت الثقة به ، والتمس الناس الشبع لفراغم الروحى فى فلسفات شتى ، والتمسوا الحلول لمشكلاتهم فى أنظمة أرضية أخرى .

***

ولما كان الحكم مقروناً بسلطات مغرية ومحفوفاً بمنافع جمة ، فان الذين يتحلب ريقهم للذات العاجلة سراع الخطا الى أصحابه ، مدمنو الوقوف على أبوابه .

وفى البيئة المحلية قد يفقد الناس ثقتهم فى الدين ، واذا رأوا نفراً من المتحدثين باسمه يسترضون الحكام ، ويسكتون على ما يعجزهم تسويغه من آثام ، ويهيئون « الفتوى » لما يمكن اصطياد علة له من أحكام الشرع ..

وتلك ولا شك مصيبة جسيمة .

ولكن أجسم منها وأدهى ، ما يصيب الدين فى الميدان العالمى الواسع عندما يتخلى أصحابه عن كل قيمة رفيعة ومثل فاضل .

وعندما يجعلون من الدين تكأة للغصب الحرام ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل •

فكم يحتقر الناس الضمير الدينى عندما يرون اليهود فى فلسطين أداة قذرة فى يد الاستعمار • يجتاح بها كيان شعب مستضعف ، ويحرمه من كل كرامة مادية وأدبية مفروض أن تتوفر للانسان ؟ •••

وكم يحتقر الناس الضمير الدينى اذا رأوه وراء هـذا الاستعمار نفســه يتحرك فى رحاب الحياة ، ووقوده الذى يدفعه هـذا الحقد وذاك الطمع ؟

الحقد على الاسلام ، والطمع فى استلاب أهله وابتزاز أمنه •

فى «أوروبا» الآن دولة شيوعية ضخمة ، تكفر بالله واليوم الآخر • ولسنا بصدد احصاء الأسباب التى أنشأت هـذا الكنود ، وانما بصدد الكلام عن سر بقائه الى الآن •

ان « روسيا » فى الميدان الدولى — تظاهر استقلال العرب ، وتحارب الاستعمار ، أو ذاك — فى رأينا — ما واتتها الفرص لتتظاهر به•

فاسمع ما يقوله « خروشوف » عن الدين وهو يتحدث عن أمريكا والدول الضالعة معها(٣٧) :

« انهم لا يرون أنفسهم على حقيقتهم ، ومن عجب أنهم لا يزالون يتعلقون بعبارات الديمقراطية ويتمسحون بأذيال الأديان » •

وضحك « خروشوف » ثم استطرد ·

« ومع ذلك فلو أن الله الذى يدعى « دالاس » أنه يؤمن به كان موجوداً حقاً فاننى واثق أننى أقرب اليه من « دالاس » الذى يدعى أنه قسيس » •

اننا ننعم النظر فى هذا الكلام ونعجب ، لمــاذا يكون رجل ملحد أقرب الى الله من رجل مؤمن ؟

ان هذا القول المرسل بهذه الجراءة سببه أن « الروس » واثقون من أن ساسة أمريكا والغرب عموماً سماسرة أديان لفكرة تســتهدف استذلال أغلب النوع الانسانى •

---

(٣٧) من مقال لرئيس تحرير الأهرام .

وفى طليعة الذين ينبغى استذلالهم أو استئصالهم ، المسلمون المسالمون .. !!

فاذا كانت تلك أغراض الاستعمار الصليبى ، فهل تراه يشرف الدين بمسلكه ويجعل الشيوعيين مثلا يحسنون الظن به أو يفكرون فى العودة اليه ؟ كلا .

وما يقال فى مسلك اليهود والنصارى ، يقال أيضاً للمسلمين أنفسهم .

فان الاسلام جدير بأن ينهزم فى البيئات المحلية ، والمجالات العالمية جميعاً اذا كان أتباعه اللاصقون به ، أناساً تنحط بهم مبادىء الايمان ، وتؤخذ من أفعالهم أقبح أسوة .

ان الدين يجب أن يتجرد لله ، وأن يتجرد حماته من كل هوى يدنيهم الى حاكم ومن كل خور يهزمهم أمام شهواته .

وعندما تشرق تعاليم الدين خلال السير الرائعة لأقوام طيبين ، فان حفاوة الجماهير به واعزاز الخاصة له لا ينقطعان ...

* * *

ومما صرف الناس عن الدين فى هذا العصر ، التخلف العقلى الملحوظ عند بعض رجال الدين . وندرة ثروتهم من الثقافات العامة ، وضآلة أنصبتهم من فقه الحياة والأحياء .

ومن السخف انتظار نهضة للدين على أيدى رجال يحبون حبواً فى أوائل طريق المعرفة .

بينما سبق خصومهم سبقاً بعيداً فى دراسات الكون والحضارة والتاريخ حتى لكأنهم أحاطوا بكل شىء خبراً .

وانفصال العلم المادى عن الايمان نكبة هائلة للدين .

وربما كان المسلمون برآء من مبادىء هذا الانفصال فى القرون التى خلت .

لكنهم مؤاخذون اليوم بقصر باعهم فى العلوم المادية .

وهم مفرطون فى جنب الله وجنب أنفسهم ما بقوا فى هذا القصور .

والغريب أن الاستعمار تمكن من فصل التعليم المدنى عن التعليم الدينى فى بلاد الاسلام كلها .

وهو شئ لم يعرف فى تاريخ الاسلام طوال العصور الماضية .

بل انه قسم التعليم الدينى نفسه أقساماً شتى .

ونتج عن ذلك أن تخرج أئمة ووعاظ ودعاة للاسلام لا يعرفون الا ١٪ مما يجب أن يعرف ! .

وتكليف علماء الاسلام بتبليغ رسالته — وتلك حالهم — كتكليف جيش ما بكسب معركة فى ميدان لا يعرف طبيعته ، ولا يدرك بدايته ولا نهايته .

فهو لا يدرى كيف يسير ، ولا من أين يؤتى .. ؟ ؟ .

ذلك .. وانى لأعجب أشد العجب من ايمان لم يقم على التأمل فى الكون ولم يقم على دراسة الأحياء .

ان أمداد اليقين التى ذكرها القرآن الكريم ليست شيئاً آخر غير النظر الدارس والخبرة الذكية .

هذه هى غذاء اليقين ونماؤه .

أى ايمان يقوم بعيداً عن تلك الأسس فهو قشر ليس له لب .

وأى ايمان تضعف أمداده من النظر والخبرة فهو كالجسد الفقير الى أسباب التغذية والتهوية .

يعجز عن أى جهد ويجثو أمام كل داء .

ان الاسلام نقل التسبيح والتحميد من كلمات حالمة تقال فى صومعة قصية : الى كلمات مدوية ترسل فى أثناء التعليق على الأحداث الجارية ، وعلى شئون الحياة الصاخبة سواء فى ميادين الحروب أم فى ميادين السلام .

تدبر كيف افتتحت سورة « الحشر » بقول الله تعالى :

« سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم »[٣٨] ؟ .

---

(٣٨) الحشر : ١ .

وكيف تلا ذلك مباشرة قوله :

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجـوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصـونهم من الله .. »(٣٩) .

ان تنزيه الحق جل شأنه معنى أثبت فى الآية الأولى منتزعاً من طبيعة الوقائع فى الآية الثانية وما تلاها .

فان الذين يظنون بالله ظن السوء حسبوا أن جحود اليهود ، وغدرهم بالعهود وافسادهم فى الأرض ، واغترارهم بالمال والقوة أمر ان ينحسم .

وأنهم متروكون حتى ييأس أولوا الألباب من عودة العدل والرشد الى الأرض .

فجاء صدر السورة مبيناً أن الامهال لا يعنى الاهمال .

وأن ارخاء الحبـل للمجرمين لا يعنى افلاتهم من العقـوبة . تنزه الله عن ذلك ..

وكما وجب تسبيح الله بعد التدبر فى أحوال الناس على ما رأيت ، وجب تسبيحه بعد التدبر فى نظام الكون نفسه .

واقرأ سورة الأعلى لتشهد صدق ذلك :

« سبح اسـم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى »(٤٠) .

والحمد فى هذه المواطن كالتسبيح ، نعم ، قد تشكر الله على طعام يغذوك من جوع .

« كلوا من رزق ربكم واشكروا له ... »(٤١) .

فلتشكره كذلك على وحى يهديك من ضلالة ، وعلى قرآن يخرجك من ظلام .

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا »(٤٢) .

---

(٣٩) الحشر : ٢

(٤٠) الأعلى : ١ — ٥ .

(٤١) سبأ : ١٥ .

(٤٢) الكهف : ١ .

بل انه أهل الحمد على ابداعه لهذا العالم الساحر ، وجعله الليل والنهار خلفة للكفاح والهدوء « **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور** .. »[٤٣] .

ان اليقين ليس كائناً حبيساً فى جحور معتمة ..

انه كائن حى ، منطلق ، جواب آفاق ، سيار فى فجاج البر والبحر .

ولذلك فانى أعجب مرة أخرى لايمان معزول عن علوم الكون ومعارف الدنيـا .

وأستغرب علام يعتمد ؟ وبم يحيا ؟ .

ان الأوهام والخرافات والأفكار الرجراجة لا تجد مفراً تأوى اليه أفضل من الأذهان المقطوعة عن العلم ، والمحجوبة عن حقائقه ..

وهـذه الأذهان آفة الايمان .

فان الدين كما يتحول فى القلوب المغشوشة الى رياء ودجل ، يتحول — فى العقول الناقصة — الى خبط وشعوذة ... !!

وقد عنى رجالات الاسلام بمستقبل الدين ، وبحثوا صلاته بالعلم ، وفتشوا عن العقبات التى تمنع امتداده وتصد عن سبيله .

سواء منها ما أتى من قبل خصومه أم ما نشـأ عن غفلة أهله وسوء تدبيرهم .

ونرى — لزاماً علينا — اثبات مقال جيد لسماحة السيد الأستاذ « محمد تقى القمى » فى هذا الموضوع نشر تحت عنوان « الدين فى معترك السياسة العالمية » قال :

« الدين قوة منـذ وجد . ومثل تلك القوة كمثل أية قوة تظهر فى الأرض .

ينبرى لها المعارضون والخصوم بغية القضاء عليها . ويتجه اليها الطامعون والمستغلون رغبة فى استغلالها لمصالحهم .

وفى هذا الاستغلال الذى يبتلى به الدين قضاء على مثله العليا وعلى جوهر رسالته السامية .

---

(٤٣) الانعـام : ١ .

والمتتبع لتاريخ الأديان يلاحظ أن أخطر خصوم الدين فى كل عصر ، جاحد ينكره ، أو مستغل يريد أن يسخره ، وأمامنا على ذلك أمثلة شتى من التاريخ .

فقد طالما رأينا الدين فى حرب مع منكريه ، ورأيناه فى خصام مع مستغليه .

ورأينا الحكام والسياسات تلتمس فيه سنداً وعوناً ، ورأينا رجاله فى خدمة حاكم أو سياسة .

والويل للدين ان استغل فى خدمة أشخاص أو سياسات .

والتاريخ يحدثنا عن الحروب الدامية بين الدين ومنكريه ، كما يحدثنا عن ملوك حكموا باسمه .

لا اعتناقاً لمبادئه بل استغلالا لقوته الهائلة كى يظهروا على عدوهم ، أو يطمئنوا على مجدهم ونفوذهم ، ويعيشوا بعونه فى راحة وهناءة .

وكان الحكام يخالطون الكهنة أو يندمجون فيهم .

لا لشيء ، الا رغبة فى السيطرة على النفوس باسم الدين وحتى يجذبوهم الى خدمتهم فى شتى الميادين .

وكان الملوك يهدفون الى تسخير الدين حين كانوا يتشحون بأثواب القداسة ويرأسون الديانات .

وقد أسرف بعضهم فى ذلك ، لو حاول أن يفيد من ديانتين متباينتين فى وقت واحد .

كما فعل « قسطنطين » الذى لم يكتف بأن يكون الكاهن الأعظم فى الديانة الوثنية السائدة . بل كان فى الوقت نفسه حامى المسيحية وناشر فكرتها ، ومؤسس القسطنطينية مركز الكنيسة الرومانية الشرقية .

على أن الدين — رغم ما واجه من عنت خصومه ومستغليه فى كل عصر — ظل قوى النفوذ ، واسع السلطان ، مسيطراً على القلوب .

وذلك لأسباب أهمها أن العلم كان بيده ، بل كاد يكون احتكاراً لرجاله على مدى العصور .

ولا نريد أن نوغل فى القديم أكثر من هذا .

فلنذكر القارىء بآثار كهنة سومر — أقدم الديانات ، أو كهنة بابل أو غرائب علوم كهنة مصر ، أو أسرار مربذان فارس ، أو ما الى ذلك •

بل حسبنا أن نذكره بأن العلم كان بيد الكنيسة المسيحية •

وان الاسلام جعل للعلم قداسة كالدين ، فكان كل درس يبدأ باسم الله والتعوذ من الشيطان الرجيم •

وكان طلاب التفقه فى الدين يدرسون « الفلسفة » و « الرياضة » و « الفلك » و « الطب » و « الكيمياء » ، كما كانت المعاهد الدينية هى نفسها مدارس علوم الحياة •

وكان علماء الدين هم أساتذة تلك العلوم •

لكن معاهدنا الدينية الاسلامية هجرت هجراً كلياً علوم الحياة ، كما أن الغرب المسيحى انحرف، عنها الى حد كبير • وان ظلت المدارس الدينية فى بعض بلادهم تساهم مساهمة كبيرة فى تثقيف الشباب مع صبغهم بروح الدين •

والدليل على ذلك ما قرأناه فى الصحف بالأمس القريب عما وقع فى « بلجيكا » وهو البلد الأوروبى المتحضر تحت عناوين بارزة ، مثل « بلجيكا على أبواب حرب أهلية » •

ومجمل الخبر أن الحكومة البلجيكية خفضت المعونة التى تقدمها الى المدارس الكاثوليكية ، وأن هذا أثار كثرة الشعب — ومنهم تلاميذ تلك المدارس طبعاً •

فاحتشدت مظاهرة فى الشوارع من مائة ألف كاثوليكى ، فيهم رئيس وزارة سابق ، وأعلنت احتجاجها على هذا التصرف •

ولقد وقفت أمام هــذه الأنباء التى شغلت الرأى العالمى أياماً وقفة طويلة •

وقرأت فيما بين السطور قوة الدين ومركز رجال الدين كأساتذة للجيل المعاصر هناك •

وقارنت بين ربطهم العلم الدينى بالحياة وبين ما نحن عليه الآن •

وانه منذ زهد رجال الدين عندنا فى علوم الحياة ، بدا العلم يشق طريقه غير آبه بالدين ولا حافل به •

وبدأ الشبان يفهمون أن العلم شيء والدين شيء •

وانصرفوا — بكل عقولهم — الى العلم ، وانصرفوا بكل قلوبهم عن الدين •

حتى أصبحنا الآن أمام علماء يسخرون كل ما فى الطبيعة لاثارة الشهوات ، واشاعة جو من الرذيلة فى أرجاء الأرض •

وها هم أولاء ، يشتغلون ليلا ونهاراً ، خفية وجهراً ، ليطلقوا الذرة ، ليس يهمهم أن يدمر اطلاقها ذلك قارات بأكملها •

ثم هم يتسابقون فى صنع صواريخ تطلق فى الجو فتهلك الملايين بأشعتها دون أن تهوى الى الأرض •

ولا يأبهون أن ينزل العذاب والشقاء بالبشر أجمعين •

والعلم سلاح قوى خطر •

ان وقع فى يد الفضلاء نفعوا به ، والتمسوا به الخير ، وأناروا به البصائر ، وهدوا به الى عظمة الخالق •

وان وقع فى يد السفهاء آذوا به كثيراً وأضروا به كثيراً وجروا به على البشرية أفظع الشرور •

وقديماً فطن العلماء الى هذه الحقيقة ، فالتزموا قواعد لم يحيدوا عنها طوال العصور ضمنوا بها بقاء العلوم فى يد الأخيار من أهل الفضيلة ، وبذلك حفظوا البشرية من الشرور •

فكهنة « بابل » و « مؤبذ » و « فارس » كانوا لا يبوحون بأسرار علومهم لمن ليس أهلا لها ، ومن لا يطمأن اليه ، خيفة أن يؤذى به أحداً من النـــاس •

وكهنة « مصر » كانوا يقولون : ان سر الموت والحيـــاة هو سر الأسرار •

ولابد أن يبقى خافياً عن العامة والا خربت الأرض ومن عليها •

وهكذا العلم فى عصرنا صمام الأمان وهو الدين •

ثم انتقل سلاح العلم من أيدينا الى أيدى غيرنا •

وتحول هذا السلاح النورانى من خدمة الخير المطلق ليسخر فى خدمة الشر المدمر •

فماذا فعلنا نحن رجال الدين ؟

ان الشقة بيننا وبين علوم الحياة ظلت تتسع حتى وصل الأمر الى أنه لو عرض على طالب جامعى أن يدرس فى معاهد الدين ابهت وأخذ . كأنما أنذر بالموت .

هـذا بعد أن كانت المعاهد الدينيـة — الى زمن غير بعيد — تلحق بالمسـاجد .

ان الدين — كقوة — فقد كثيراً من جنوده بتسريح الشباب من ميدانه ، وباعتزال رجاله معترك الحياة بعد أن كانوا يعيشون فى صميمها ويأخذون بيدهم زمام التعليم وهو ضرورة للانسان كالمـاء والهواء .

بينما خصوم الدين ومستغلوه الذين كانوا فى المـاضى أفراداً أو جماعات متفرقة أو حكومات محلية محدودة القوى ، تحولوا الى كتلتين عالميتين .

احداهما تحاربه حرباً عنيفة قاسية .

والأخرى تحاول أن تستغله استغلالا كاملا .

وكلتاهما تؤذى الدين الحق ، وتقوض دعائمه ، وتعصف بكل مقوماته عصفاً . نعم لقد أصبح الدين فى العصر الحديث — بعد ما ارتبطت أجزاء العالم المتباعدة — يواجه كتلتين قويتين تشملان رقعة العـالم تقريباً .

كتلة تنكره وتبنى سياستها على محوه ، وتحاربه بشتى الوسائل ، وتصفه بأنه مخدر أو « أفيون » للشعوب ، وتسف فى التعريض به . وتعزو اليه كل جدب يصيب النفوس ، وكل نقص يصيب الزروع .

وكتلة أخرى تظهر بمظهر المؤيد للدين ، رغبة منها فى استغلاله ضد غريمتها .

فهى تعمر المعابد ، وتشجع على بناء الكنائس ، وتسرف أحياناً فى هـذا اسرافا كثيراً .

وهذه الكتلة التى تتظاهر بتأييد الدين ، هى نفسها تتحفنا بأفكار وتقاليد وتصرفات ، أقل ما يقال فيها : انها تبث روح الاستخفاف بالدين ، وتغرى الناس بالخروج على تقاليده وتعاليمه .

أليس فى تصرفاتها بفلسطين ، والجزائر ، وغيرهما دليل على الاستخفاف بالمسيحية والاسلام ؟

أليست هذه الكتلة هى التى تفسد الشباب وتصرف الناس عن الدين بما تنشره من أفلام داعرة وأفكار انحلالية ؟

ثم اننا كرجال للتقريب نرى أيادى تلك الكتلة ـ مع الأسف ـ وراء النشرات المفرقة ، والمحاولات البارعة لايجاد الخلاف فى صفوف المسلمين أو توسيع شقته بين أبناء الدين الواحد ، وفى مقاومة أية فكرة تستهدف جمع الكلمة .

وأخيراً نرى هذه الكتلة لا تروج بيننا غير الخرافات ،

وهى ـ وحدها ـ كفيلة بالقضاء على الدين .

***

هذا هو وضع الدين فى العالم ، ومركزه فى معترك السياسة العالمية ، ونصيبه من بطش الكتلتين العالميتين اللتين تهدد كل منهما الأخرى وتبغى افناءها ، واللتين تجران على العالم كله القلق الشامل ، والاضطراب الزائد ، والخوف المزعج ، وعدم الثقة .

والدين وحده هو الذى يستطيع أن يتحكم فى هذا الموقف ويتغلب على الأهواء البشرية « وهيستريا » الحرب ، والذى يستطيع أن يرد الطمأنينة الى النفوس .

ولكن كيف يمكن من أداء رسالته كقوة معنوية يحسب حسابها ، ويرجع بالبشرية الى صوابها ؟ .

سؤال ليس من السهل الاجابة عنه فى بقية مقال .

الا أن ذلك لا يمنعنا من أن نشير اليه فى عرض سريع .

التعليم كان سلاحاً بيد رجال الدين وحدهم .

والعلم والدين لم يفترقا الا فى أوقات لا تكاد تذكر .

والتثقف والتدين كانا دائماً متلازمين .

ولم يكن الدين يعرف بدعة القديم والحديث ، ولا كان العلم ينتزع الشباب من أحضان الدين . فماذا عرانا حتى ضاعت من بين أيدينا هذه الوحدة المتماسكة ؟

اعتزلنا وأوجدنا قديماً وجديداً ثم قدمنا سلاح التعليم لأنصار الجديد واكتفينا بأن نحافظ على القديم •

وبذلك سرحنا جنودنا من الشباب ، وتركناهم مطية لغيرنا ، وعرضة ليكونوا حرباً علينا •

نحن أمام جيل جديد ، فماذا أعددنا لهم اليوم لنضمن صلتهم بالدين غداً ؟ •

ان المعاهد انفصلت عن المعابد ، والمساجد ابتعدت عن المعاهد ، وبذلك انحرف العلم عن قدسيته ، والدين عن رسالته •

ولا خلاص الا أن نهتم بالمعاهد اهتمامنا بالمساجد ، بل لا نبنى مسجداً الا بنينا بجانبه معهداً ، ولا معهداً الا بنينا بجانبه معبدا •

فليعد طلبة الدين أنفسهم ليكونوا رجال التعليم •

وبذلك يفتحون آفاقاً جديدة ، ويخدمون العلم كما يخدمون الفضيلة ، ويكتسحون المكاتب والمدارس والجامعات ، فيحلون محل الملحدين والمارقين •

ومما لا شك فيه أنهم بعملهم هذا يضمون للدين قوة وبقاء ، وللبشرية سلامة وأماناً ، ولأنفسهم مكانة تليق بهم فى حاضرهم ومستقبلهم ، والله يوفق العاملين » •

* * *

ان علماء المادة الذين يكفرون بعد بحث واستدلال ، يمكن أن يثوبوا الى رشدهم ، فيؤمنوا بعد بحث واستدلال ••

ذلك أن كفرهم الأول أتى من قلة فى الحقائق التى تجمعت بين أيديهم ، أو خطأ العلم نفسه فى ترتيب المقدمات واستخراج النتائج ••

أو جاء من مبالغة فى التعويل على معلومات قليله ، أو لعله شرود عن منهج فى الوصول الى اليقين ••

ونحن لا نيأس من عودة هؤلاء الى الدين ماداموا مخلصين فى البحث ، جادين فى تحرى الحق ••

أما الذين نيأس منهم ، ونضيق أشد الضيق بهم فهم المقلدون فى الكفر ، الذين يلحدون فى «مصر» على صيت تقدم العلم فى «أمريكا» •

هذا الذباب الكفور يظن أن من الانحشار فى زمرة العلماء متابعة ما يتطاير من كلمات باطلة تنسب الى هذا العلم أو ذاك ، وتلقى الشكوك حول قيمة الدين ، ومباحثه ومناهجه ..

ونحن ننبه الى تفاهة أولئك المقلدين الصغار ليحذر الجيل الجديد شباكهم وينأى بقلبه وفكره عن الحادهم .

ثم نحن نلفت النظر الى أن كفر العلمــاء الماديين بالأديان كما صورت لهم ، أو كما ألفوها فى بيئتهم ليس كفراً بالله ، أو طعناً فى ضرورة الايمان وحقيقته .

ان الأديان علق بها من الخرافات شىء كثير .

بعضه اقترن بجوهرها ، واستحال فصله عنها .

وبعضه اختلقته الدعايات الكذوب ، فما يعرف الوحى الالهى معها على نقائه بل يستخفى وراء أغشية منفرة .

وكفر العلمــاء الأذكياء ، بالخرافة المضافة أو المزعومة ، أمر لا يلامون عليه .

بل هو المرتقب منهم ومن غيرهم .

وهذا الكفر لا يطعن فى صدق الايمان بالله الواحد ، بديع السموات والأرض ، خالق كل شىء بقدر ، وهاديه الى نظامه بحكمة ..

وجمهرة العلماء من هذا القبيل .

ان التجاوب بين البصر ، والشعاع والمرئيات ، كالتجاوب بين الفطرة السليمة ، وطبيعة الحياة ، ومصدر هذه الطبيعة .

ومن ثم فنحن لن نفتأ نكرر ، أن الايمان الحق والعلم الحق صنوان .

وأن أحدهما لن يصطدم بالآخر أو يقف فى طريقه .

ذلك .. ومما يحسن لفت الأنظار اليه أيضاً ، أن الذباب الكافر فى بلادنا متخلف كثيراً عن ملاحقة الركب العلمى الحديث .

فهو اليوم يحيا فى فتات من بحوث علماء القرن التاسع عشر .

ويكرر مقررات طرأ عليها تغيير كبير فى هذا العصر .

وربما رأيت أحدهم يذكر النظرية العلمية — التى لا تزال فى مجال

الظن — على أنها حقيقة مؤكدة دون وعى الى أن هناك نظريات أخرى جدت وانتقل بها الفكر العلمى من حدس الى حدس •

ولم يزعم العلماء — الذين يحترمون أنفسهم — أنهم بلغوا بها منزلة الجزم •

وندع الكلام فى هذا المجال للأستاذ « محمد فريد وجدى » قال :

« اتفق أهل العلم فى القرون الأخيرة — بعد كفاح أسلافهم لرجال الدين زهاء عشرة قرون متوالية فى سبيل حرية النظر — على اطلاق كلمة « العلم » على المحصول العقلى والعملى لجميع مجالات البحث من أول ما اشتغل به الفلاسفة الأولون وجميع من جاء بعدهم من أهل التفكير الحر •

والعلماء فى أوروبا جنحوا الى هذا الشمول بعد جهاد شاق وضغط شديد •

وقد صبروا على ما عوملوا به من العسف ، وما سيموا به من الاضطهاد •

حتى استشهد منهم فى القيام بحقه أكثر من ثلاثمائة ألف فى ثلاثة قرون متوالية ، احراقاً بالنار ، واغراقاً فى اليم ، وذبحاً بالمدى ، وما لا يمر بخيال أحد من صنوف التعذيب التى تقشعر منها الأبدان •

وكان الذين يتولون هذه الحركة العدائية للعلم هم رجال الدين — المسيحى — •

فلما نشأت البروتستانتية فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، واشتغل رجال الدين بالخلافات المذهبية وأظهر قادة هذا المذهب الأخير تسامحاً مشكوراً حيال العلم والمشتغلين به ، تحرر العلم من رقابة خصومه •

فنهض رجاله ، وقد امتلأوا حقداً على الدين وأهله ، يشهرون بهم وبالعقائد السماوية معهم ويبالغون فى نقدهم ، ونقد مذاهبهم •

وكلما أمعن هؤلاء فى تناحرهم ، وأغرقوا فى جهودهم ضد أنفسهم ، عمل أهل العلم على جمع صفوفهم وتقوية جهات ضعفهم وشغل العالم بنتاج أفكارهم •

وعلى قدر ما كان يثمره العلم من الاكتشافات ومن اختراع الآلات ، وتدارك الحاجات كان يزداد تأثير فلسفته فى العقول ، ويتضاعف الشعور باحترامه فى النفوس ، حتى عند من ليس له أدنى نصيب منه من العامة وأشباههم .

فأصبح للعلم بعد هذا التطور العظيم منزلة فى القلوب تفوق منزلته فى العهود الماضية .

ولما توالت مكتشفاته البخارية والكهربائية والمغناطيسية فى القرن الماضى وما سبقه ، اكتسب سلطاناً على النفوس لم يكن فى العصور الأولى لغير الدين ، وتناسى الناس العقائد ، بل أغفل ذكرها أكثرهم .

كان شعور أهل العلم فى هذا الدور — وقد استغرق نحو من قرنين — شعور من أسقطوا الدين ، وقضوا على دولته أبد الأبد ! وقد صرحوا بذلك فى أغلب مؤلفاتهم .

ثم اكتسب « العلم » — بالاجماع الذى انعقد حوله — مكاناً ممتازاً .

فلو كان هذا الاجماع على العلم المطلق البالغ أقصى مداه بحيث يستحيل نقص أى حرف منه ، لكان تقديسه من أوجب الواجبات على كل عاقل .

ولكن العلم الانسانى الى هذه الفترة ، كان لا يزال بحاجة الى التمحيص .

وكان كثير مما يعتبرونه بداهات علمية لا يزال يعوزه التحقيق .

وكانت المذاهب التى عللوا بها قيام الوجود بنفسه لا تزال ظنية .

وكان كثير منهم يعرف هذا ولا يجاهر به حتى لا يحط من مكانة العلم الذى أصبحت له — بفضل هذا التقديس المحيط به — شخصية أدبية تخر العقول أمامها ساجدة .

وقد بالغ بعضهم فى هذا الغلو حتى وصفوه بالعصمة المطلقة واعتبروا أنفسهم أهله الأقربين الذين من حقهم أن يحتكروا شرف التكلم باسمه .

فقرروا أن كل قول ينافى أصلا من أصوله المقررة أو اكتشافاً سبق له أن حكم باستحالته ، أو رأياً جديداً يوهن بعض ما أيده .

لا يجوز أن يلتفت اليه ، فضلا عن دراسته والعناية به مهما كانت الغاية التى يرمى اليها •

أما محاولة اثبات بعض العقائد الدينيـــة ، أو لفت النظر الى ما يؤيدها من حوادث أو الأخذ فى تمحيص ظواهر جديدة تمت الى عالم الروح بسبب ، فقد كان هذا فى رأى الكهنوت العلمى الجديد من الاسفاف الذى يجب أن يترفع عنه المنتسبون الى العلم بعد أن بلغ الغاية القصوى من حصر العوامل الوجودية والعلل الأولية •

فى هذا الدور — وقد بلغ أوجه فى القرن التاسع عشر — انتشر الالحاد بين العلماء ، وذاع بين الطلاب والمتصلين بهم ذيوعاً ينذر بانتهاء عصر الدين • كما كان يذيعه مروجو هذا العهد فى كتبهم ومجلاتهم •

وشعر رجال الأديان بالخطر فقبعوا فى معابدهم يقرأون الطعن فيهم والتشهير بهم ، ولا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم •

هذا هو الذى عنيته عندما حذرت من « خطر العلم على العقول الشرقية » وعندما ناشدت أن تتألب لدفع هذا الخطر جميع العقول البشرية •

ومرادى بهذه العقول هنا : التى أفاقت من غشية هذا الخطر ، لا العقول التى لا تزال غارقة فى حمأته ، أو خابطة فى دجنته •

وسيتبين القارىء مما يلى استقامة معنى هذا التعبير ••

لم يكد يهل القرن العشرون ، ويهتدى بعض العلماء الى تفتيت الذرة فى سنة ١٩٥٧ ويثبت أنها قوة وكهرباء — وكان قد سبق ذلك اكتشافات أخرى فى المادة ونواميسها — حتى هب رجال العلم من سباتهم وأعادوا النظر فيما لديهم من صروح النظريات القديمة •

واليك ما قاله العلامة «جوستاف لوبون» فى كتابه «تحول المادة» :

كان العالم يختال بالعلم الذى هو ثمرة جهود بذلت فى عدة قرون •

وكانت الوحدة والبساطة سائدتين بفضله فى كل مجال من مجالاته •

وظلت هذه العقيدة فى المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها ، الى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت

على الفكر العلمى أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الدهر ·

فان الصرح العلمى الذى كان لا يلمح صدوعه الا عدد قليل من ذوى العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة وصارت التناقضات والمجالات التى فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا يكاد تبلغها الظنون ·

تلك المكتشفات — التى نوهت بها آنفاً — قد كشفت اللثام عن الظنيات التى بدأت تفضحها الكتب الحديثة ·

وبذلك دخل العلم نفسه فى دور من الفوضى كان العلماء يظنون أنه مسلم منها ·

وقد كتب المسيو « لوسيان بوانكاريه » العلامة الرياضى الكبير يقول :

انه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاماً ويجمع عليها المجربون اجماعاً عاماً ·

بل يسود اليوم فى ميدان العلوم الطبيعية نوع من الفوضى ·

واتسع المجال للاجتراءات المكنة ولم يظهر أن ناموساً من النواميس ضرورى ضرورة مطلقة ·

فنحن نشهد فى هذه الآونة أعمالا هى أشبه بالهدم منها باقامة بناء نهائى ·

فالآراء التى كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسساً ثابتاً ، صارت اليوم لدينا موضوعاً للمناقشة ··

ثم ختم العلامة « جوستاف لوبون » هذا الفصل بقوله :

من حسن الحظ أنه لا شىء أحسن ملاءمة للترقى العلمى من هذه الفوضى ·

فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ·

والحجاب الذى يغطيها منسوخ — غالباً — من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد العلم الرسمى ·

فلا يمكن عمل خطوة للأمام الا بعد تفكك عرى الآراء السابقة ·

والأشد خطراً على تقدم العقل الانسانى هو تقديم الظنيات للقراء ، لابسة حلل الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم .

والتطاول لوضع تخوم للعلم ، ورسم حدود لها يمكن معرفته كما كان يود ذلك « أوجست كونت » .

***

وقال العلامة الرياضى الكبير « هنرى بوانكاريه » العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتابه « العلم والافتراض » بعد ما وصف استسلام العلماء لكل ما أطلقوا عليه اسم العلم :

لما تروى العلماء قليلا لاحظوا مكان الفروض من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن صاحب التجربة لا يستغنى عنها كذلك .

حين ذاك سأل بعضهم بعضاً : هل كانت هذه المبانى العلمية على شىء من المتانة ؟ ثم تحققوا أن نفخة تكفى لجعل عاليها سافلها .

هذا . وانى أستطيع أن أسرد هنا عدداً كبيراً من هذه الاعترافات ، وكلها تدل على افاقة العقلية العلمية من غشيتها ، وعلى أنها استردت اتزانها .

ولست فى حاجة لأن أقول بعد هذا : انه بزوال هذا السد الفولاذى الذى كان قائماً أمام العقول انفتح أمامهم مجال النظر الصحيح والاستدلال القويم وخلصت من كابوس الانخداع الذى رزحت تحت تأثيره عشرات السنين .

ولكن هل بلغ هذا التطور العظيم انصاف العلماء ومريديهم من كل قبيح فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ كلا .

فلا يزال السواد الأعظم فى غفلة من هذا ، ولا يزالون ينشرون الالحاد حيث يوجدون .

ولم يفت هذا الأمر أئمة العلم الأعلين .

قال العلامة « جوستاف لوبون » فى كتابه المتقدم ذكره :

« لا مشاحة فى أن الأصول التى كان العلم يختال بها اختيالا ،

لم تزل من الأذهان كل الزوال وستبقى دهراً طويلا — فى نظر الدهماء — حقائق مقررة •

وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها •

ولكنهـا قد فقدت كل ما كان لهـا من القيمة فى نظر العلمـاء الحقيقيين » •

وبعد .. فهذا هو خطر العلم الذى أشرت اليه فى مقالى وبينت ضراوته على كثير من العقول •

وليس يخاف اليوم على أحد ، ما تتشبث به هذه العقول من الاصرار على مجافاة الدين والحكم عليه بالزوال ، تمسكاً منهم بالنظريات العلمية القديمة التى سقطت ، وأثبتنا لك رأى العلماء فى سقوطها وسقوط منزلتها •

لذلك أهبنا بالعقول الذكية التى استنارت بالعلم الحق أن تتألب على دفع هذا الخطر عن الدين •

فانه رأس المقومات الأدبية للنوع الانسانى ، تلك المقومات التى ان سقطت سقط معها صرح الاجتماع كله ، ولا يغنى عنها العلم المادى ، كما لم يغن عن الأمم البائدة •

وها هى ذى الأمم التى أفلتت من شكيمة الدين تتغانى بوسائلها العلمية ولا يغنى عنها علمها الزاخر شيئاً •

ثم قال : الدين والعلم — فى نظر الماديين العصريين — نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يتفقان •

ذلك بأنهم قصروا الكون على المحسوسات وأنكروا ما وراءها جملة وتفصيـلا •

فلا روح ، ولا خلود ، ولا ملائكة ، ولا غير هذا من العـوالم الغيبيـة •

ثم هم تصوروا الدين على الشكل الذى يرون عليه المتدينين •

ولكنهم لو أنصفوا كما أنصف فى هذا العصر أكابرهم ووقفوا على ما فتح الله به على العالم العصرى من الحجج العيانية فى اثبات عالم ما وراء المـادة ، ثم نظروا للدين فى أصله وينبوعه وعلاقته بالـروح

الانسانية نظر لحكيم المتبصر ، لعلموا أنهم كانوا فى أحكامهم الأولى غلاة ومفرطين ، ولأصبحوا من أعز أبناء الدين كما أصبح اليوم كذلك أكبر العلماء الماديين .

ولسنا نيأس من رجوعهم . فقد رجع من هو أشد منهم بطشاً « ومضى مثل الأولين »[٤٤] .

* * *

● **لا مكان للالحاد بيننـــا :**

ما هؤلاء الناس ؟

انهم ليســوا « عــرباً » ولا « عجماً » ولا « روس » ولا « أمريكان » !!

انهم مسخ غريب الأطوار . صفيق الصياح ، بليت به هذه البلاد اثر ما صنعه الاستعمار بها وترك بذره فى مشاعرها وأفكارها .

فهم — كما جاء فى الحديث — من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . بيد أنهم عدو لتاريخنا وحضارتنا . وعبء على كفاحنا ونهضتنا ، وعون للحاقدين على ديننا والضانين بحق الحياة له ولمن اعتنقه .

ان هؤلاء الناس الذين برزوا فجأة ، وملأت ضجتهم الأودية كما تملأ الضفادع بنقيقها أكناف الليل ، يجب أن يمزق النقاب عن سريرتهم ، وأن تعرفهم هذه الأمة على حقيقتهم حتى لا يروج لهم خداع ولا ينطلى لهم زور ..

ان هؤلاء الذين يلبسون مسوح العروبة ، ويندسون خلال صفوف المجاهدين ، ويزعمون أنهم مبشرون بالقومية العربية ، ورافعون لألويتها ، وفى الوقت نفسه ينسحبون من تقاليد العروبة ، ويهاجمون أجل ما عرفت به ، ويبعثرون العوائق فى طريق الايمان ورسالته .

ان هؤلاء الناس ينبغى أن يماط اللثام عن وجوههم الكالحة ، وأن تلقى الأضواء على وظيفتهم التى يسرها الاستعمار لهم ، ووقف بعيداً يرقب نتائجها المرة .

---

(٤٤) الزخرف : ٨ .

وما نتائجها الا الدمار المنشود لرسالة القرآن وصاحبها العظيم محمد بن عبد الله ﷺ ...

لقد قرأنا ما يكتبون ، وسمعنا ما يقولون ، ولم يعوزنا الذكاء لاستبانة غايتهم .

فهم ملحدون مجاهرون بالكفر .

يقولون فى صراحة : ان الاسلام ليس الا نهضة عربية فار بها هذا الجنس العظيم فى القرون الوسطى .

واستطاع فى فورته العارمة أن يجتاح العالم بقيادة رجل عبقرى هو الزعيم الكبير محمد ﷺ . !!

أى أن هذا الدين الجليل نبت من الأرض ولم ينزل من السماء !!
وأنه انطلاقة شعب طامح فاتح . وليس هداية مثالية غدائية جاءت من عند الله ، لتنقذ العرب من جاهلية طامسة كانوا بها فى مؤخرة البشر . الى حنيفية سمحة رفعت خسيستهم . ثم انتشر شعاعها بعد فى أنحاء الأرض ، كما تنتشر الأضواء فى عرض الأفق لدى الشروق .

والفضل فى ذلك كله لله وحده . الذى اصطفى محمداً وامتن عليه بالهدى والحق ، بعد أن قال له : **« ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان »**(٥) .

وقال : **« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم »**(٦) .

كما يقول فى العرب الذين أرسل فيهم :

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين »(٧) .

فأى زحف عربى هنالك ؟ ؟

وأية عبقرية أنشأت من عندها هذا الغيث المرع لأهل الأرض ؟ ...

---

(٥) الشورى : ٥٢ .   (٦) النساء : ١١٣ .
(٧) آل عمران : ١٦٤ .

ان الزعم بأن الاسلام « ثورة عربية » أكذوبة كبرى وأضلولة شـــائنة .

وان هذا القول ، ليس تكذيباً للاسلام فقط ، بل دعوة خطيرة الى تكذيب الديانات كلها والى اشـــاعة الكفر والفسوق والعصيان في أنحاء الأرض .

والغريب أن هؤلاء الناس يخاصمون الاسلام بعنف ، ويحاربون أمته بجبروت ويهادنون الأديان الأخرى من سماوية وأرضية .. !!

كأن الاسلام هو العدو الذى كلفوا باستئصاله وحده .

لا .. بل هـــو العقبة الفذة التى وضعت المعـــاول فى أيديهم لاهالتها تراباً ..

أجل ، وهل للاستعمار عدو فى هذه البلاد الا الاسلام ؟

انه مصدر المقاومة العنيدة ، وروح الكفـــاح الباسل الذى أعيا المهاجمين ، وأحبط مؤامراتهم ...

ومن ثم فعلى الاستعمار أن ينسج خيوطه حوله ليقتله ، ويحول بينه وبين الحياة الكريمة ...

ولقد ابتدع القوميات الضيقة ، واستحياها بشتى الأساليب لينال من كيان هذا الدين .

فلما سقطت أمام الاســـلام فى المعركة ، دس أتباعه تحت لواء « القومية العربية » وزودهم بضروب من الادعاء ليزحموا العرب المخلصين فى هذا الميدان ولينالوا من الاسلام بطريقة أخرى ...

وتفسير « القومية العربية » هذا التفسير الكفور الكنود ، هو حرب أخرى ضد الاسلام .

وانه لجدير أن يتسمى هؤلاء باتباع « القومية العبرية » لا العربية .. أليسوا يعملون لمصلحة الاستعمار واسرائيل ؟

ولقد مرت أربعة عشر قرناً على اشتباك العروبة بالاســـلام . أو بتعبيرنا — نحن أهل الايمان — على تشريف الله للعرب بحمل هذه الأمانة وابلاغها للناس ..

ونظرة الى الماضى البعيد تعرفنا — بسهولة — أن العرب مرت عليهم أدهار قبل الاسلام لم يكونوا فيها شيئاً مذكوراً .

ثم جاء هذا الدين فدخلوا التاريخ به ، وطار صيتهم تحت رايته .

وصدق الله اذ يقول : « **وانه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسئلون** »(٤٨) .

ثم أخطأ العرب فظنوا هذا الدين العالمى الذى نزلت فيهم آياته يمنحهم امتيازاً خاصاً ، ويجعلهم عنصراً أرقى من سائر الأجناس .

ونشأ عن هذا الخطأ رد الفعل الذى لابد منه .

فقامت الشعوب الأخرى تدافع عن قيمة دمها ، وكرامة عنصرها .

وهذه الأغلاط المتبادلة علتها حنين البشر الى الجاهلية واستثقالهم مؤنة السعى لتحصيل الكمال الانسانى .

فاذا عز على شخص تافه أن يكون نقياً ، وأن ينسبه عمله الى المجد والعلاء ، ذهب ينتحل نسباً آخر الى أسرة أو وطن أو جنس ليرتفع به دون جهد .

وتلك كلها عصبيات باطلة ، ونزعات نازلة ، ولا محل لها فى دين ، ولا وزن لها عند رب العالمين .

ولكن المهم أن العرب الأولين لما أرادوا المفاخرة والتمييز كان الاسلام متكأهم ومعقد فخارهم .

فبأى شىء يملأون أفواههم اذا لم يذكروا الاسلام ؟

ان وطابهم خال ، وتاريخهم صفر .

حتى جاء الأفاكون فى هذا الزمان بالبدعة التى لم يسمع بها انسان .

فاذا العروبة — فى نظرهم — يجب أن تتجرد من الايمان .

وزعموا — قبحهم الله — أنها بالانسلاخ عن الدين تسمو وتسير .

بل ان أحد الكتاب من هذه العصابة ، وجد الوجه الذى يطالع به الناس ليقول : ان الاسلام جنى على العروبة !! .

وان اللغة العربية انتشرت أبعد مما انتشر الاسلام ! .

(٤٨) الزخرف : ٤٤ .

وان الاسلام — لأنه عالمى — ضار بالقومية العربية •

وظاهر أن هــذا الكلام — بقطع النظر عن بطلانه — انما يروج لحساب الاستعمار الغربى منه والشرقى على سواء •

وأن قائله يخدم أهداف الغزاة الذين عسكرت جيوشهم فى بعض أقطار العروبة ، وأنزلت بها الهون ووقفت على حدود البعض الآخر تتربص به الدوائر •

وكاتب آخر من العصابة يطلب منا — بالحاح — أن ننسى التاريخ لأنه لا يضم الا رفات الموتى ، وأن نتطلع للمستقبل فحسب •

ونسى هذا الغر أن اليهود فى كبد الشرق الأوسط ، أقاموا دولتهم بأمداد من التاريخ الموحى ، وأنهم جعلوا اسم « اسرائيل » علماً عليها •

انه حلال للناس جميعاً أن يستصحبوا تاريخهم فى كفاحهم •

أما نحن — المسلمين — فحرام علينا أن نذكر فصلا من هذا التاريخ ، وأن نستوحى منه عوناً فى جهاد ، وأملا فى امتداد •

انها قومية عبرية لا عربية ، تلك التى يبشر بها الملحدون وكارهو الاســلام •

ولقد عرف الأولون والآخرون • أننا — نحن المسلمين — أحنى الناس على العروبة وأوصلهم لمجدها ، وأخلصهم لقضاياها ، وأن هؤلاء القوميين لا خير فيهم •

بل انهم مصدر شر طويل ، وأذى ثقيل •••

ان حضــارة العروبة وخصائصها الروحية والاجتماعية وتراثها الماضى وأمانيها المستقبلة لا يمكن — ألبتة — سلخها عن الاسلام •

وليس معنى هــذا أن الأديان الأخرى مهدرة القيمة ، منكورة الحق • كلا •

فان العرب — فى ظل الاسلام — عاشوا مع العرب النصارى ، جيراناً طيبين ، بل اخواناً متحابين !! •

ان الشر الذى نريد ايصاد الأبواب دونه ، هذه القومية الكافرة الذليلة الكنود التى تخاصم الاســلام جهرة وتحاول عبثاً حطم أمته وتبديد شريعته ••• ونحن لها بالمرصاد !!

ونحب أن نسأل أولئك الذين يملأون بالتفاخر الكذوب أفواههم ، ويريدون أن يخيلوا لأولى الأفهام القاصرة أن العرب يمكنهم الاستغناء عن الأمة الاسلامية ، كما أن العروبة يمكنها الاستغناء عن الاسلام ... !!!

نحب أن نسأل هؤلاء : هل قرأوا التاريخ ؟ وهل وعوا دروسه ؟ .

وهل فى وجوههم بقية حياء تجعلهم ينزلون على حكمه ؟ .

ان العروبة فى أشد أزماتها لم تجد منقذاً لدى المسلمين المخلصين من أجناس الأرض الأخرى .

بل ان العرب لما تكسرت صفوفهم تحت سنابك التتار الزاحفين من الشرق وانهارت سدودهم أمام الصليبيين المنحدرين من الغرب ، وكادت تذوب هذه الأمة فى دوامة العواصف المطبقة ذوبان الملح فى الماء ...

فى هذه اللحظات العصيبة تقدم المسلمون من الأجناس الأخرى يصدون العدوان ويدفعون عن ديار العروبة ويبسطون حمايتهم المشكورة ...

قال الأستاذ « عبد الحميد العبادي » :

اجتاح التتر أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً .

ثم دخل زعيمهم « هولاكو » بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ وقضى على الخلافة العباسية .

ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر .

ولقد أرسل « هولاكو » الى سلطان مصر اذ ذاك وهو الملك المظفر « قطز » كتاباً ملأه تهديداً ووعيداً وطلب اليه فيه المبادرة الى الخضوع له والاستسلام اليه .

فثارت حمية السلطان واستنفز الناس لجهاد التتار ، فتثاقلوا لما ثبت فى الأذهان اذ ذاك أن التتر لا يغلبون ... !!!

ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال وليصحبه من يشاء ، عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم .

فسار بالجيش الى فلسطين مقدماً أمامه الأمير « بيبرس » .

وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند « عين جالوت » وذلك فى رمضان سنة ٦٥٨ هـ •

يقول « المقريزى » فى وصف بلاء « قطز » « وبيبرس » والجيش المصرى فى ذلك اليوم العصيب : « فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان التقى الجمعان ، وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتر . وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء . فتحيز التتر الى الجبل •

وعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه •

فالقى الملك « المظفر » عند ذلك خوذته عن رأسه الى الأرض وصرخ بأعلى صوته :

« وا اسلاماه ! » وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة . فأيده الله بنصره •

وقتل « كتبغا » مقدم التتر ، وانهزم باقيهم •••

وأبلى الأمير « بيبرس » أيضاً بلاءاً حسناً بين يدى « السلطان » •

ومر العسكر فى أثر التتر الى قرب « بيسان » •

فرجع التتر وصافوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول •

فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم ، وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديداً . فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول :

« وا اسلاماه » ثلاث مرات : « يا الله •• انصر عبدك « قطز » على التتار » •

فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى •

ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم •

هذه وقعة « عين جالوت » التى صد فيها الجيش المصرى سيل الغزو التترى الجارف •

واستنقذ بها الشام من أيدى التتار ، ورد عن « مصر » والمغرب الاسلامى كيدهم وجبروتهم .

وفوق ذلك فانه وقى فى ذلك اليوم — على غير علم منه — « أوروبا » وحضارتها الناشـئة دماراً محققاً ، وذلك باعتراف مؤرخى أوروبا أنفسهم » .

تلك هى صورة الكفاح الذى اشتعلت نيرانه فى الشرق ، والذى كاد يأتى على الأخضر واليابس ويدع العروبة والاسلام حطاماً .

ان أحداً لم يقد حركة الكفاح الناجح بايمان وعزم الا « قطز » و« بيبرس » وغيرهم من الأعاجم ...

فاذا طويت هذه الصفحة طالعتك صفحة أخـرى أملأ بالوقائع الرهيبـة .

فقد تتابع هجوم « أوروبا » على هـذه المنطقة التى تسمى الآن « الشرق الأوسط » .

واستطاعوا — بعد مذابح عصيبة — أن يؤسسوا امارات لاتينية فى عدة نقط خطيرة .

والهجوم الصليبى الذى دوخ العرب والمسلمين فى هـذه الفترة لم يكن حـركة محدودة الغـاية ، بل كان حـركة استئصال شـامل للاسلام وأمته .

استعدت لها دول أوروبا كلها بالمـال والرجال وأرصدت لها من القوى المـادية والعاطفية ما يحقق ذلك الغرض .

قال الدكتور « عبد اللطيف حمزة » :

فيم أجاب المسلمون عن هذه الحركة ؟ ..

نشأت المقاومة الحربية التى أجاب بها المسلمون عن هذه الحركة أولا بـ «الموصل» وثانياً بـ «حلب» و «دمشق» وثالثاً بـ «مصر» .

ومعنى ذلك أن الأتراك السلجوقيين هم أصحاب الفضل الأول فى مناجمة الصليبيين .

وبعبارة أخرى : اذا كان على الاسلام والمسلمين أن يشكروا الدولة التى جاهدت فى سبيلهم ضد الصليبيين فانهم يشكرون الدولة التركية

وحدها ، قبل أن يشكروا الخلافة العباسية نفسها ، أو الخلافة الفاطمية التى كانت وقت قيام الحرب الصليبية فى غاية العظمة والقوة .

وكم يتعجب الباحث حقاً من اهمال الخلافة الفاطمية يومئذ مع قوتها وعظم هيبتها ، حتى لكأن الدولة الفاطمية فى « مصر » نظرت الى انتصار الصليبيين فى الشرق على أنه مانع قوى للترك من محاولة غزو «مصر» .

أجل لقد أهملت الخلافة الفاطمية الدفاع الحقيقى عن الاسلام ، وهاك البرهان :

أشرنا أولا الى أن الفرنج نجحوا فى أخذ « الرها » و « أنطاكية » .

فلما وقع ذلك اجتمع من ملوك الاسلام صاحب الموصل ، وصاحب ماردين ، وصاحب سنجار ، وهم جميعاً من ملوك السلاجقة .

أما مصر — وكان أمرها يومئذ الى الوزراء دون الخلفاء — فان وزيرها « الأفضل بن بدر الجمالى » لم ينهض باخراج العساكر المصرية .

قال التاريخ : وما أدرى ما كان السبب فى عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال(٤٩) ؟

ثم قال التاريخ : والعجب أن الفرنج لما خرجوا الى المسلمين كانوا فى غاية الضعف من الجوع وعدم القوت ، حتى أنهم أكلوا الميتة .

وكانت عساكر الاسلام فى غاية القوة والكثرة . ومع ذلك فان الصليبيين هجموا على المسلمين وكسروهم وفرقوا جموعهم ، وانكسر أصحاب الجرد السوابق ، ووقع السيف فى المجاهدين والمتطوعين ، فكتب أمراء السلاجقة الى الخليفة المستظهر العباسى يستنصرونه .

فأمر الخليفة من ذهب من قبله الى « بركيا روق »(٥٠) ابن السلطان ملك شاه السلجوقى يستنجده ، كل ذلك وعساكر « مصر » لم تهيأ للخروج(٥١) .

---

(٤٩) اقرأ النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ١٤٧٧ وما بعدها طبعة دار الكتب المصرية) .

(٥٠) كان « بركيا روق » السلجوقى ابن « ملك شاه » صاحب النفوذ المطلق فى بغداد اذ ذاك وكان يذكر اسمه فى الخطبة بعد الخليفة .

(٥١) النجوم الزاهرة : (ج ٥ ص ٤٨) .

وحينما كان الفرنج يحاصرون بيت المقدس كان به « افتخار الدولة » من قبل المستعلى بالله خليفة مصر .

فبقى الفرنج فى حصاره أربعين يوماً ..

وبلغ ذلك « الأفضل بن بدر الجمالى » ، فأبطأ فى الخروج .

ثم خرج بعشرين ألفاً من عساكره ، ووصل القدس بعد أن نجح الفرنج فى دخوله والاستيلاء عليه فعلا .

فعاد « الأفضل » الى مصر بعد أمور وقعت له مع الفرنج الذين بقى القدس فى أيديهم « ولا حول ولا قوة الا بالله » .

ولما تم للفرنج أخذ بيت المقدس وضعوا السيف فى أهله ، ووصلوا بخيولهم الى معبد « سليمان » وجمعوا اليهود فى الكنيسة وأحرقوها عليهم ، وأقاموا تلك المذبحة الشنيعة التى وصفها « جودفرى » فى خطاب له بعث به الى البابا قائلا :

ان خيولنا كانت تخوض الى ركبتيها فى بحر من دماء الشرقيين فى ايوان « سليمان » ومعبده .

فعل الصليبيون المسيحيون بالقدس ذلك كله .

فلما وصلت هذه الأخبار السيئة الى « دمشق » ، هاج الناس فيها وماجوا ، وخرج المستنفرون منها ، ومعهم قاضى المدينة ووصلوا الى بغداد ، وحضروا فى الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا ، وبكوا .

وقام القاضى فى الديوان ، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من يمضى الى العسكر السلطانى ، ويعرفهم بهذه المصيبة » .

فماذا حدث ؟ .. لا شىء !!

يقول التاريخ : فوقع التقاعد لأمر يريده الله تعالى .

تخاذل وانقسام وتفريط .

وخيانات فاشية لأمانات الله ورسوله .

وذهول معيب عن حماية الدين والشرف والأهل والولد ...

وفوضى ضربت فى كل ناحية وجعلت الدفاع المقدس الواجب بعيد الوقوع وقليل الجدوى .

أين العرب يوم اذ ... ؟ وماذا فعلوا ... ؟ .

فى وسط هـذه الغيوم الكثيفة انشقت الغيوب عن رجل جمع الشتات ، ونفخ روح القوة فى الكيان المتداعى .

ولم فلول المسلمين المبعثرة هنا وهنالك تحت راية الاسلام البعيدة عن نعرات الأرض وعصبيات الناس ..

ذلك هو البطل العظيم « صلاح الدين الأيوبى » ..

ولا بأس أن نذكر هنا طرفاً عن عمل هـذا الرجل كتبه المرحوم الأستاذ « عبد الحميد العبادى » تحت عنوان « العفو عند المقدرة » يعنى عفو الاسلام عن عداته بعدما استمكن منهم — قال :

من أفظع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين فى البيت المقدس عداة استيلائهم عليه فى سنه ٤٩٢ هـ .

أجمعت على ذلك جميع المصادر الاسلامية والصليبية على السواء .

فلنورد للقارىء مجملا لمـا حدث عند فتح « صلاح الدين الأيوبى » تلك المدينة فى سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر « صلاح الدين » جيش الصليبيين فى وقعة « حطين » سار الى « عسقلان » فافتتحها .

وأخذ يتأهب للزحف منها الى بيت المقدس .

وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار .

فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب اليهم تسليم تلك المدينة التى يقدسها المسلمون كما يقدسها الصليبيون .

ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً ، عند ذلك أقسم لهم أنه لن يفتحها الا بالسيف .

وتقدم « صلاح الدين » الى بيت المقدس وأخذ فى مهاجمتها ، ونقب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تقتحمها ... !!! .

فلمـا رأى الصليبيون ذلك أنفذوا الأمـير « بليان » لمفاوضة « صلاح الدين » .

فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذى منحه مدناً صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان الى ما طلب مستمسكا بيمينه التى أقسمها .

عند ذلك قال له « بليان » : ان فى المدينـــة ستين ألف مقاتل سيخرجون اليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدمروا كل ما يسعهم تدميره ثم يقاتلونه حتى يقتلوا عن آخرهم .

ولقد راع هذا التهديد « صلاح الدين » فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف فى ابرار قسمه ، وأن فى وسعه أن يعتبر كل من فى المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، وله أن يضرب عليهم الفداء .

وقد أخذ « صلاح الدين » بهذا الرأى ، وتم الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً .

وأن تكون المدة التى يؤدى فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوماً .

فمن وجد فى المدينة بعدها كان ملكاً مسترقاً للسطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه .

وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ .

وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهى مصادفة عجيبة .

وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير « بليان » ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار .

ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر .

ثم يأتى البطرك الكبير يجر من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقدر بمال ؛ فلم يعرض « صلاح الدين » لشىء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه .

وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة .

وانقضت الأربعون يوماً ولا يزال فى المدينة آلاف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء .

يقول المؤرخ الصليبى « أرنول » — ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشـــهود — :

فتقدم « العادل » الى أخيه السلطان « صلاح الدين » وقال :

« سيدى .. لقد أعنتك بحمد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة ، وانى أستوهبك ألفاً من أولئك الأرقاء ، فأجابه السلطان الى طلبه وعند ذلك أعتقهم العادل من فوره .

ثم جاء « بليان » والبطرك وطلبا مثل الذى طلبه العادل فوهبهم « صلاح الدين » ألف رقيق أطلقوا فى الحال .

وأخيراً يلتفت « صلاح الدين » الى أصحابه ويقول :

« لقد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع « بليان » و « البطرك » وقد بقى أن أؤدى أنا صدقتى » !!!

ثم أمر رجالاً من حرسه أن ينطلقوا فينادوا فى جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى .

يقول « أرنول » : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهاراً كاملا من لدن شروق الشمس الى أن خيم الظلام » .

ثم يمضى المؤرخ المسيحى المذكور فيقول — متحدثاً عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه — :

« ان نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن الى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلوهن فى الحرب .

فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند « صلاح الدين » باكيات معولات يشكون اليه سوء حالهن .

فما كان منه الا أن أطلق لكل من لها زوج فى حبسه زوجها ، وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها مما ألهج ألسنتهم بالشكر له والثناء عليه » .

ويقول المؤرخ الانجليزى « لين بول » :

« لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة الا أخذه بيت المقدس، لكان ذلك كافياً فى عده أعظم الفاتحين فى عصره فروسية وأكبرهم قلباً ، بل لعله كذلك فى أى عصر من العصور » .

و « صلاح الدين » — كما نعلم ويعلم الناس — كردى مسلم لا ينسب الى عدنان ولا الى قحطان .

وهو الذى لم يحرر فلسطين العربية وحدها ، بل حرر ديار العروبة كلها شرقها وغربها ...

بأى واعز ؟ ولأى دافع ؟

واعز الايمان ، ودافع الاسلام .

***

● **أساس الوحدة العظمى :**

هل غبرت على ذلك العهد قرون طوال ؟

عهد اجتماع كلمتنا والتئام شملنا فى المشارق والمغارب . كلا !

ان الأمد غير بعيد ، انها فترة قصيرة فى عمر الأمم ، وفترة أقصر فى امتداد الزمن وان بدت لنا — نحن أبناء الجيل الحاضر — وكأنها الواقع المألوف من أيام طوال .

الحقيقة أن المسافر من « داكار » على شاطىء « المحيط الأطلسى » كان يتجه شرقاً الى مكة والى ما وراءها حتى أعماق «الهند» و «الصين» فما يجد شرطياً يعترض طريقه ليسأله أين جواز السفر ؟ وأين تأشيرة الدخول والخروج ؟ ؟

لقد كانت هذه البقاع المترامية تعمرها أمة واحدة وتحكمها دولة واحدة وتخفق فى أجوائها راية واحدة ، وتسرى فى أوصالها عاطفة مشتركة .

فكأن المرء — حيثما طرحته النوى — يمشى بين ذوى رحمه ، وينتقل بين أقرانه وأحبابه ..

وكما يسافر « المصرى » من « القاهرة » الى « الاسكندرية » أو « أسيوط » دون حرج ، يسافر المسلم أو المسيحى بين قارات ثلاث فلا تتعقد له نقلة ، ولا يتعسر له أمر ولا يستوحش هنا أو هناك ...

ان الوحدة الروحية والسياسية التى ربطت بين أسلافنا الى سنوات معدودة حقيقة لا شك فيها .

حتى جاء هذا الاستعمار الملعون فمزقها شر ممزق .

وأهال عليها أكواماً من التراب ليخفى معالمها ويمحو صلاتها بالأذهان

والأفئدة ، ويخلق شعوباً متناكرة متدابرة لا يحفظ أحدها للآخر نسباً ، ولا يرعى له وداً •

وكم تحسب الأمم التى تخلفت عن هذا القطيع المنكر ؟

انها بضع وثلاثون دولة أو اقليما • أو شعباً يكافح لنيل حريته •

ففى افريقيا : مراكش ، وتونس ، والجزائر ، وتشاد ، وغانا ، وغينيا ، ونيجيريا ، وأوغندا ، وصوماليا ، وايرتريا ، والحبشة المسلمة ، والسودان ، ومصر ، وليبيا ، بأقاليمها الثلاثة •

وفى آسيا : اليمن ، والسعودية ، والكويت ، والعراق ، ولبنان ، وسوريا ، والأردن ، وفلسطين ، وايران ، وأفغانستان ، وباكستان ، والهند المسلمة ، واندونيسيا ، والمحميات العشر ، وأزبكستان ، وتركستان ، ومسلمى القوقاز ، وسائر روسيا ، ومسلمى الصين ، وتركيا •

وفى أوروبا : ألبانيا ، ومسلمو يوغوسلافيا ، وقبرص ، وسائر البلقان •

أى أن أكثر من ثلث المؤسسة المعروفة الآن بمؤسسة الأمم المتحدة يتكون من أجزاء الأمة الاسلامية التى قطع الاستعمار أوصالها ، وبعثرها على هـذا النحو المؤسف وحظر عليهـا أن تتواصى بدين أو تتعارف على ايمان •••

هل هذا عصر الأمم الصغيرة ؟ كلا •• انه عصر التكتلات الضخمة !

ففى «روسيا» مائتا مليون انسان ، وفى «الصين» ستمائة مليون •

وهما دولتان اثنتان تدور فى فلكهما عـدة دويلات شيوعية ، لا تنفك عنهما •

أما نحن فان الاستعمار يجىء الى قطعة من الصحراء ، ويرسم حولها حدوداً موهومة لمنطقة لا يسكنها الا مليون من الناس ثم يصنع فيها دولة لها ملك ووزراء وسفراء !!

ولمـا كانت هذه القطعة من الأرض ليست لها امكانيات دولة فهو يستبقى هذا الشذوذ باعانة يقدمها من جيبه الخاص •

اى والله • هذا المـال المقدم لاستبقاء الفرقة يحسب على أصحابه صدقة •

ان هذه الدول من ناحية تعداد السكان ، ومن الناحية الاقتصادية لا يخدم قيامها المفرق أحداً غير المستعمرين •

ذلك أن الأمة الاسلامية المترامية الأطراف يكمل بعضها بعضاً فى كل ميدان •

ويشد أعصابها المعنوية والعسكرية قلب واحد ، وأمل واحد •••

ذكر الدكتور « محمد البهى » :

أن الرحالة الألمانى « باول شمتز » فى كتابه « الاسلام قوة الغد » الذى ظهر قبل الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٦ حذر الغرب المسيحى من استمرار التوتر فى السياسة بين حكوماته وشعوبه •

وأنذر هذه الحكومات والشـعوب بأن الشرق الاسلامى يتحفز للسيطرة بعد التخلص من السيادة الأوروبية لأنه يملك فعلا مقومات الغد •

قال : واذا ما قوى الشرق الاسلامى ضعف الغرب وكان لا محالة من أفول نجمه ، ثم أشار الى مقومات هذه القوة فى الشرق الاسلامى وحصرها فى ثلاثة عوامل :

١ — فى قوة الاسلام كدين ، روعة الاعتقاد به والاستمساك بمثله ، وفى مؤاخاته بين أتباعه على اختلاف الجنس واللون والثقافة •

٢ — وفرة مصادر الثروة الطبيعية فى رقعة الشرق الاسلامى الذى يمتد من المحيط الأطلسى على حدود « مراكش » غرباً الى «المحيط الهادى» على حدود « أندونيسيا » شرقاً •

وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية •

بل الاكتفاء ذاتى لا يدع المسلمين فى حاجة ما الى « أوروبا » أو الى غيرها اذا ما تقاربوا وتعاونوا •

٣ — أخيراً •• أشار الى عامل مهم هو خصوبة النسل البشرى لدى المسلمين ، مما يجعل قوتهم العديدة متزايدة نامية •

فاذا اجتمعت هذه القوى الثلاث فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة ووحدة الله ، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة عددهم المتزايد ، كان الخطر الاسلامى خطراً منذراً بفناء أوروبا وبسيادة دعوة عالمية فى منطقة هى مركز العالم كله •

ويقترح « شمتز » — بعد أن فصل هـذه العوامل الثلاثة من طريق الاحصاءات الرسمية ، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الاسلامية . كما تبلورت فى تاريخ المسلمين ، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم — يقترح أن يتضامن الغرب المسيحى شعوباً وحكومات ويعيدوا الحرب الصليبية فى صورة أخرى ملائمة للعصر الحديث وفى أسلوب نافذ حاسم .

ونحن نتساءل : أكان الاستعمار ساكناً فى انتظار توصيات ذلكم الرحالة الألمانى المنكود ؟ لا .. لا ..

انه منذ قرن يحل « المسألة الشرقية » ، أو تركة « الرجل المريض » لمصلحته الخاصة ...

لقد تواثبت دول أوروبا كلها على دولة الخلافة تواثب الذئاب على جريح مشبع اللحم والشحم .

كل يبغى اختطاف شلو منه ، وتمزيع بضعة تملأ ماضغيه .

واستطاعت هذه الدول الماكرة أن تصنع فتوقاً مروعة بين الدولة المترنحة وشعوبها الكثيرة .

فضربت الترك بالعرب ، والعرب بالترك ، وخلصت من مؤامراتها المحكمة الى النتيجة التى تنشدها .

اذا انتثر عقد الأمة الواحدة ، وتطايرت حباته الى كل ناحية .

وطلع فجر القرن الأخير أشأم أغبر .

طلع على أمـة مستباحة ، ودين نسجت الأكفـان لدفنه تحت أطباق التراب .

ونحن لا نبكى ولا نستبكى كى تعود دولة الخلافة ...

كما أننا نرسل هذا الكلام وليس فى أذهاننا صورة متميزة لنظام يجمع شمل المسلمين عسكرياً وسياسياً .

وانما الذى يعنينا أولا وآخراً أن يبقى « الاسلام » حياً ، فى هذا العالم يؤدى رسالته ويبلغ دعوته .

وأن يكون معتنقوه — على اختلاف أوطانهم — متمكنين من اقامة شعائره وانفاذ حدوده ، والعيش وفق تعاليمه وغاياته .. !!!

لقد أعجبنى من رئيس الحكومة أن يقول :

اننا أصحاب فلسفة اجتماعية خاصة لا تنبع من الشرق ولا من الغرب .

وهذا صحيح ، فان المتسول البائس هو الذى يمد يده لهذا أو لذاك ، يلتمس الغنى الفكرى أو العاطفى أو المـادى .

ونحن ما كنا ولن نكون متسولين .

اننا صدرنا الفلسفات النقية فى الخلق والحكم والمعاملة دهراً طويلا الى أهل الأرض طراً ..

ولن تزال أسباب الغنى فى تربتنا هذه ، وبين أيدينا نحن .

فكيف نستجدى فلسفة اجتماعية من شرق أو غرب ؟

ان كل ما نصبو اليه ، وما نناشد الغرب والشرق فعله ، أن يدعونا وشأننا وأن يكفكفوا نوازع الجشع والحقد التى تعكر صفونا ، وتستفزنا لقتالها ونحن كارهون ...

الاسلام الذى تطمره الآن عواصف متتابعة الهبوب .

وأمته التى انفرد الخصوم بكل جزء منها كما ينفرد قطاع الطريق برجل مليء فى مكان موحش ..

هذا الاسلام من حقه أن يحيا ، وهذه الأمة من حقها أن تأمن .

لماذا تتألب الدنايا والرزايا عليه وعليها ؟

قال الأستاذ « محب الدين الخطيب » تحت عنوان « الأمة اليتيمة : هل آن لها أن تعلن رشدها » ؟ :

المسلمون اليوم — فى « آسـيا » وجزائرها ، فيما وراء السد الحديدى منها حتى « سيبيريا » شمالا ، وشبه جزيرة القرم غرباً .

وفى أوروبا من « المجر » و « يوغوسلافيا » و « ألبانيا » الى « سلانيك » وسائر « خاليكدكيا » حتى « كوملجتة » و « تراقيا » وما ارتفع عنها من سيف البحر الأسود ...

وفى افريقيا من معالمها الى مجاهلها ، وما بين ذلك أو وراءه من سواحل ، ومكامن ، وأدغال ، وأودية وآفاق .

هذه الأمم والشعوب الاسلامية – فى « آسيا » و « أوروبا » و « افريقيا » – التى يزيد تعدادها الآن على خمسمائة مليون نسمة . قد تتفاوت كثيراً فى مستواها الاجتماعى وفى مبلغها من الانطلاق أو التقيد ، وفى وسائلها من الثروة والمعرفة والتقدم الصناعى والاقتصادى ؛ وفى ثقتها باستعدادها للحيوية والنهوض ، ومعرفتها بالطريق المؤدى الى ذلك .

انها قد تتفاوت فى كل ما ذكرنا .

غير أنها تشترك جميعاً فى كثير من السجايا والمبادىء والروابط .

وفى طليعتها الايمان بالدستور الاسلامى الخالد « **انما المؤمنون اخوة** »(٥٢) وبالأمر الالهى الصريح الذى لا هوادة فيه « **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** »(٥٣) .

ومهما نسى المسلمون من أخلاق دينهم ، أو تهاونوا بشىء من مبادىء تشريعهم ومهما تخلفوا عن مزايا ملتهم ، فانهم لن ينسوا أن المؤمنين اخوة ، ولن يشكوا فى أن الاعتصام بحبل الله هو آله النجاة ، يوم تتهيأ لهم القيادة الحكيمة الحازمة التى تمضى بهم فى طريق النجاة .

ان لهذه الاخوة الاسلامية المشتركة فيما بين المسلمين حقوقاً متشعبة النواحى ، وواجبات متعددة المظاهر والمقاصد .

ولو أن هذه الحقوق والواجبات أحصيت ودرست ونظمت واتخذ العقلاء الرحماء من قادة المسلمين وسائل لبعث الحيوية فيها وفى أهلها ، الى أن يتم توجيههم فى طريق العمل الانسانى والبعث الاسلامى ولو بالتدريج – لكان من ذلك العمل الكبير أعظم حادث فى تاريخ الانسانية بعد حادث القيام الأول للاسلام .

أنا أعتقد من عشرات السنين أن الانسانية فى حاجة الى البعث الاسلامى .

---

(٥٢) الحجرات : ١٠ .

(٥٣) آل عمران : ١٠٣ .

وأنها تتخبط فى أنظمتها الحاضرة ولا تجد لها مخرجاً من هـذا التخبط الا بأنظمة الفطرة القائمة على أسس الأخلاق .

وأنظمـة الفطرة القائمة على أسس الأخلاق لا تحتاج الى من يخترعها من جديد .

ذلك أنها موجودة بالفعل فى نظام الاسلام الذى أهمله المسلمون فصاروا حجاباً بين الانسانية وبين معرفة هذا النظام .

فاضطر الغرب الى أن ينزلق فى أنظمة أملى عليه اليهود بعضها . وأغروه ببعضها أو جعلوه منهـا أمام أمر واقع ، أو كانت لهم يد فى تعديل البعض الآخر ، أو توصل غير اليهود الى بعض المبادىء فوجدها اليهود داخلة فى برنامجهم فأيدوها وروجوها وفسروها ونشروها حتى صارت من صلب ذلك النظام المعمول به فى الغرب ، والذى أخذنا نقتبس عنه تقاليد حياتنا منذ نحو مائة سنة .

فغشى دواوين حكمنا ، وأسواق تجارتنا ، وساد فى مجامعنا . وسابق نساؤنا رجالنا اليه فى الأزياء والآداب والمعاشرة ، حتى آمنا به وكفرنا بما سواه .

وأصبح الرجل المستقيم منا هو الذى يمدحه الناس بأنه ملتزم لذلك النظام الأجنبى وغير مخل بشىء من أصوله أو فروعه أو آدابه .

ولو أن المسلمين انتفضوا انتفاضة حكيمة يرجعون بها الى أنفسهم . ويعيدون تنظيم مواريثهم ويتعاونون على اقامة نظامهم الفطرى الذى يتعاملون فيه بمقاييس الايثار لا بمقاييس الأثرة .

فانهم لا يلبثون أن يوجد فيهم من أبنائهم جيل ترى فيه الانسانية جمال الاسلام .

ويتبين لها أنه هو ضالة الانسانية التى كانت تنشدها ، فيتجدد بذلك تاريخ الانسانية جميعاً .

ترى متى يكون ذلك ، ومن الذى يبدأ به ؟ ؟

لمـا اجتمعنا قبل عشرة أيام[٥٤] بمقر « المؤتمر الاسلامى كان

---

(٥٤) فى مساء الاثنين ٦ صفر سنة ١٣٧٤ هـ .

مما قلته لاخوانى ممثلى أكثر شعوب الاسلام المجتمعين فى تلك الجلسة — وفيهم رجال من « الصين » و « الملايو » و « التركستان » فى شرق « آسيا » . ورجال من « تونس » و « الجزائر » و « مراكش » فى الغرب من شمال افريقية ، وآخرون من أوطان اسلامية متعددة :

« ان الطوائف المواطنة لنا فى بلادنا ، والملل الكثيرة المعاصرة لنا ، تنعم كلها بمؤسسات طائفية وملية تسهر على مصالحها الحيوية من حيث هى طوائف وملل ، كما ترعى شئونها الملية والتشريعية والاجتماعية والثقافية ، الا المسلمين فانهم وحدهم أبناء « الملة اليتيمة » فى هـذا المجتمع البشرى منذ نحو ألف سنة ، أو على تعبير الشيخ «محمد عبده» : منـذ استعجم[٥٥] الاسلام بمن اصطنعهم بعض الخلفاء العباسيين من المماليك .

فما لبث المماليك أن صاروا ملوكا حتى سارت الأمة الاسلامية تحت ألويتهم فى طريق الضعف والانحلال . الى أن قامت النهضة فى أوروبا قبل ثلاثمائة عام .

فكان موقف ولاة أمور المسلمين منها موقف المتفرج .

فالغرب يسير قدماً نحو القوة وعلومها وأسبابها .

والشرق الاسلامى يرجع القهقرى بأخلاقه وعلومه وأنظمته .

حتى كانت النتيجة الطبيعيـة وقوع أكثر المسلمين فى قبضـة الاستعمار ، وهم كالأيتام الذين ليس لهم من يرعاهم .

بينما الطوائف المجاورة لهم يقـوم على شئونها الملية والطائفية والثقافية والتشريعية والاجتماعية منظمات تسهر عليهم ليل نهار .

فتنظم مصادر قوتهم ، وتتعاون معهم على التقدم بهم فى مضمار الحيـاة .

وتعد للمستقبل الأجيال الصالحة من أبنائهم ليكون كل جيل أقوى من الذى قبله .

---

(٥٥) نحن نرى خلاف ذلك ، نرى ان خدمات العرب والعجم للاسلام متساوية ، وانه لا مجال للقول بان جنسا ما اساء للاسلام . واذا انفتح هـذا المجال — ونرجو الا ينفتح ابدا فاننا نسال الله المغفرة للجميع ، فان اساءتهم كذلك متساوية ، وليس العرب احسن من غيرهم حالا .

والآن وقد بدأنا نستيقظ من نوم طال علينا ليله ، فلو أن هـذا «المؤتمر الاسلامى» كون نفسه واتخذ أهبته لتكون منه المنظمة الاسلامية التى تدرس شئون المسلمين ومواريثهم الطيبة ، ومواطن ضعفهم وأسباب علاجها ، وتحاول أن تكون لها بهم الصلة الأدبية الحكيمة التى تدعو اليها أخوة الاسلام ، فان هذا المؤتمر سيملأ حينئذ «الفراغ» الذى يشعر به المسلمون منذ ألف سنة فيزول به يتمهم .

بل سوف يرون أنهم بلغوا به سن الرشد ، وأنه قد آن لهم أن تصدر عنهم — فى حلبة التسابق بين الأمم — الأعمال التى يبرهنون بها على أنهم فى طليعة الأمم الرشيدة .

لما كان يقال فيما مضى : «المسلمون الى خير ، ولكن الضعف فى القيادة» كان يراد من هذه الكلمة أن للمسلمين من مواريث الحق والخير ما يكفل لهم استئناف البعث والنهوض والتقدم .

غير أنهم لم يكونوا يجدون من قادتهم الرجال الذين يأخذون بأيديهم الى ميادين العمل التى ينتفعون فيها بتلك المواريث .

فهل يأخذ «المؤتمر الاسلامى» الآن على عاتقه أن يملأ هذا الفراغ ، وأن يتولى هذه القيادة لأهل الملة الاسلامية فى «مصر» والعالم الاسلامى؟

وقد يخطر على البال من مدلول كلمة «المؤتمر» أنه خاص بمهمة ثم ينتهى بانتهائها ، وهذا خطأ .

وقد يتبدد هذا الخاطر باعلان أن «المؤتمر الاسلامى» دائم ، وسيكون هو نفسه من مواريثنا للأجيال الآتية ، وأنه عام يهتم لكل ما يهم المسلمين فى تربيتهم الخلقية ، وتكوينهم الاجتماعى ، وتثقيفهم القومى والملى والعالمى ، وسيعمل لبعث تشريعهم الذى كان لهم مدة ثلاثة عشر قرناً الى أن قضى عليه فى أيام الخديو اسماعيل .

وأحب أن أقرر الحقيقة الآتية شرحاً لصلة العروبة بالاسلام :

كما أن محبة ابن طنطا أو ابن أسيوط لطنطا أو أسيوط لا تنافى محبته لمصريته لأنها جزء منها وحلقة فى داخلها كالحلقات التى تنعقد فى بحيرة الماء حول الحصاة عند القائها فى البحيرة .

كذلك الوطنية المصرية أو العراقية لا تنافى العروبة لأنها جزء منها وحلقة فى داخلها كحلقات المـاء حول تلك الحصاة .

والعروبة والقومية الأندونيسية وأمثالهما لا تنافى أخوة الاسلام وجامعته الشاملة .

لأن جامعة الاسلام هى الحلقة التى تلى حلقة الانسانية وتجمع بين بنى الانسان . فالجامعة الاسلامية جزء منها تجمع الأمم الاسلامية وأوطانها .

والوطنية المصرية جزءاً من العروبة تجمع أبناء النيل .

وابن طنطا أو ابن أسيوط يستطيع أن يجمع بين محبته لبلدته ثم وطنه ثم عروبته ثم جامعته الاسلامية كما يستطيع أن يجتمع مع سائر البشر بكل من يرعى قواعد الانسانية من أبنائها .

واذا كان من الخير أن يكون المؤتمر داماً ، وسيكون من مواريثنا لأبنائنا الذين يخلفوننا عليه وعلى سـائر مواريث الحق والخير المنتقلة اليهم عن الماضى . فان فى طليعة واجباتنا نحوهم أن نعد لهم المدارس الصالحة ليتربوا فيهـا التربية الاسلامية ، وليتثقفوا فيهـا الثقافة الاسلامية ، وأن ننظف لهم كتب التاريخ الاسلامى من الأكاذيب التى أقحمها عليها المغرضون وشوهوا بها سيرة المثاليين من شموس صدر الاسلام الذين أشرقت بهم الدنيا وسعدت .

وان مصر التى صارت اسلامية بعد أن لم تكن اسلامية والتى تتولى اليوم دفة سفينة العروبة بعد أن لم تكن عربية ، انما صارت اسلامية وعربية لأن الذين عرفت بهم الاسلام والعروبة قبل ثلاثة عشر قرناً كانوا مثلا أعلى للعـدل الاسلامى المثـالى ، وكانوا مثـلا أعلى للأخلاق العربية النبيلة .

فاستقبل المصريون هذا الدين الاسلامى بالبشر والمحبة والرضا .
وتنازلت مصر عن لغتها لتجميل منطقها بمنطق العروبة الذى أحبت أهله واقتدت بهم وسارت فى طريقهم .
ومن الخير أن يكون من أساس الثقافة الجديدة لأطفال المسلمين

تعريفهم بالمسلمين الأولين الذين عرفت الشعوب هذه الهداية الاسلامية من سيرتهم ومن عدالتهم وشهامتهم ونبيل أخلاقهم .

فكانوا المؤسسين الأولين لمجتمعنا الحاضر ، ورواد الدعوة الى أخوة الاسلام ورابطة العروبة .

ان المهمة التى سيأخذها « المؤتمر الاسلامى » على عاتقه — اذا سار فى هـذا الطريق الى الجنة — أعظم مهمة اضطلع بها مصلحو الأمم فى أممهم .

وهى تضارع عمل الصدر الأول للاســلام عندما قاموا بتعريف الاســلام للأمم .

غير أن مهمتنا نحن هى تعريف الاسلام لأهله حتى يعودوا مسلمين .

ومن شأن جمال الاسلام اذا تحلى به أهله حقاً أن يكون عملهم به ، وسيرتهم القائمة على أخلاقه وسيلة لمعرفة الآخرين به .

من عرف شيئاً صار صديقا له ، ومن جهل شيئا عاداه .

وان تسعة أعشار عداوة غير المسلمين للاسلام ناشئة فى هــذه العصور عن فقدان القدوة ، وعن تقصير المسلمين فى أن تكون معاملاتهم وأخلاقهم وتصرفاتهم ممثلة لاسلامهم .

فخيل الى غير المسلمين أن معاملاتنا وأخلاقنا وتصرفاتنا المخالفة للاسلام من الاسلام ، فكرهوه لذلك » .

* * *

آثرنا أن نثبت هذا الأمل لأنه صورة لمــا يجيش فى نفوس كثيرة تتأذى من حاضر المسلمين ، وترغب لهم فى مستقبل أفضل ...

والمؤتمر الذى نيطت به هذه الأمانى لم ينهض — للأسف — بها ولا بقليل منها .

ولعل الله يهىء للمسلمين قوماً أمثل ... !!

* * *

وسـائل الدعـوة

● القـدوة الحسـنة :

ان صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس الى الايمان ٠

وخلقه الفاضل هو السـحر الذى يجذب اليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب ٠

أتظن جمال الباطن أضعف أثراً من وسامة الملامح ؟

كلا ٠٠ ان طبيعة البشر محبة الحسن والالتفات اليه ٠

وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث الاعجاب بهم والركون اليهم ٠

ومن ثم فان الداعية الموفق الناجح هو الذى يهدى الى الحق بعمله ، وان لم ينطق بكلمة ٠

لأنه مثل حى متحرك للمبادىء التى يعتنقها ٠

وقد شكا الناس فى القديم والحديث من دعاة يحسنون القول ويسيئون الفعل !!

والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم ٠

لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر شغب يمس قضايا الايمان ويصيبها فى الصميم ٠

ولا يكفى – لكى يكون المرء قدوة – أن يتظاهر بالصالحات أو يتجمل للأعين الباحثة ٠

فان التزوير لا يصلح فى ذلك الميدان ٠

ولابد أن ينكشف المخبوء على طول المعاملة وامتداد الزمن وتمحيص الأحداث ، وسرعان ما يبدو معدن النفس على الحقيقة العارية ٠٠٠

ذلك أن النفس المتحركة من هذا الروح فهى كالآلة الدائرة بما يعمر خزانها من وقود ٠

أما النفس المحرومة من هذا الروح فهى كالآلة التى تدفع باليد حيناً لا يلبث أن يغلبها العطل والعطب فتتوقف وتسكن ...

والمصيبة الطامة أن بعض المنافقين يحسبون أن تمثيل دور الايمان لا يحتاج الا الى شىء من التكلف والمصانعة ، كما أن بعض المتهاونين يحسبون أن لباس التقوى يمكن نسجه بشىء من ادمان الرسوم واتقان الهمهمة .

وهذا ضلال بعيد ، فالأمر أخطر مما يظنون ...

ان التدين الحقيقى صورة لجوهر النفس بعدما استكانت لله ونزلت على أمره واصطبغت بالفضائل التى شرعها ، وترفعت عن الرذائل التى حرمها ، واستقامت على ذلك استقامة تامة .

هذا التدين وحده هو الذى تلتمس منه الأسوة ويقتبس منه الهدى .

ويؤسفنى أن أقول : ان هذا الضرب من التدين العالى نادر الآن ، وأن أشعة الكمال المنبعثة من وهجه لا تكاد ترى .

بل ان نفراً من الناس الذين لا دين لهم أقرب الى المسلك الصحيح وأجدر بالقوامة على شتى الوظائف من الذين انتسبوا الى الدين ، وحملوا عنوانه دون اصطباغ به وتشرب لروحه .. !!

وعندما ينكب الدين بأقوام كثيرين على هذا الغرار فالمجال واسع لشيوع الالحاد وانتشار المعصية والعدوان ..

قال لى صديق : ان فلاناً « الأوروبى » اذا وكلت اليه مهمة خرجت من بين يديه متقنة الأداء ، ظاهرة الجودة .

أما فلان الذى يكثر الصلاة فقلما يريحنى فى احسان واجب ..

لقد جزعت لهذه المقابلة بين الشخصين ، ولم يسؤنى منها أنها باطل — اذ هى حق — .

وانما ساءنى منها أن ذلك « المتدين » الكسول دعاية شنيعة ضد الصلاة .

انها القدوة الرديئة تعمل عملها ضد المثل الرفيعة والمبادىء الفاضلة .

وقد لاحظت أن الأجنبى — فى أغلب الأحيان — يرى خدشاً لكرامته

وطعنا فى كيانه أن يصدر العمل عنه ناقصاً ، فهو يجوده احتراما لنفسه ، وصيانة لشخصه .

على حين تجد مواطناً ينتمى الى الدين — كما يزعم — ثم هو يقوم بالعمل على أسوأ الوجوه ويبسط لسانه بالجدل الطويل فى تسويغه واقناع الآخرين بقبوله !!!

ولعنا لم ننس قصة المهندس الذى أشرف على بناء جسر السلطان أبى العلاء — وكان أجنبياً — فانه لما رأى عمله لم يصل الى درجة الكمال التى ينشدها رمى بنفسه من فوق الجسر العالى فهوى بين أمواج النيل وكاد اليم يبتلعه لولا اسعاف المنقذين .

لقد أحس غضاضة من أن يعيش بعدما فشل فى احسان العمل الذى كلف به .

انما أثبت هذه القصة لأنى أعرف أناساً مثله ، وقعوا فى شر من تفريطه ، وخرج العمل من بين أيديهم مبتوراً مشوهاً فلما عوتبوا شرع كل منهم يتنصل ويعتذر أو يهز كتفيه ملقياً التبعة على غيره .

ولعله بعد ذلك جلس الى مكتبه يجرع القهوة فى كبرياء !!

أيصلح هؤلاء أمثلة للاسلام ؟ ؟

قل لى بالله : كيف يهوى سلوك الفرد منا الى هذا الحد ثم ينتظر أن يحترم الاسلام ويقبل عليه ؟ ؟

ان الدعوة الى الاسلام تكون أولا بعرض ثماره فى الأخلاق والأحوال أعنى ثماره فى أتباعه المؤمنين ويومئذ ترجى الاجابة ويرتقب الاهتداء ..

ولنعد الى أسباب انتشار الاسلام أيام السلف الصالحين ..

ان خلق الدولة ، وصلاح أنظمتها ، وكفالتها أكبر حظ من العدالة والسعادة للأفراد كان الباعث الأعظم على دخول الناس فى دين الله أفواجاً وقبولهم عن طيب خاطر الانضواء تحت راية الاسلام .

بل غبطتهم لأن دائرة هذا الدين بلغت فى الرحابة حداً جعلتهم يأوون اليها وهم وافرون أعزاء ..

حتى أيام اضطراب أجهزة الحكم فى الدولة الاسلامية وقصورها عن التحليق مع المثل الرفيعة التى نشدها الاسلام فى اختيار الحكام .

ان هذا القصور لم يقدح فى مدى الخير الذى يحرزه الناس — على اختلاف اللون والمذهب — تحت علم الدولة الجديد !! .

ذلك أنه أعلى درجة ألف مرة من الخير الذى رأوه فى ظل أكاسرة فارس وقياصرة الروم .

وحين تتابع أوصاف المسلمين الفاتحين — كما شرحها بعض المنصفين من المستشرقين — نجد أن الجماهير رمقت حملة العقيدة الظافرة بشىء من الدهشة ، ورأت فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل ، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم عليها !! .

أجل .. زاحموهم عليها ، ونافسوهم فيها ، واعتنقوها ليعملوا بها مثل أو أجل من أصحابها الذين نقلوها مصداق قول الرسول الكريم « رب مبلغ أوعى من سامع » ؛ « رب حامل فقه الى من هو أفقه منه » .

* * *

الاعجاب بالاسلام فى أحوال الفرد والاعجاب بالاسلام فى أحوال الدولة هو وحده السبب الفعال فى تزاحم الخاصة والعامة على هـذا الاسلام وارتضائهم له ..

والاعجاب لا ينبت فى النفس خبط عشواء .

أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول الخرفة ؟ .

أتظن الأخلاق الرضية تعجب بالأخلاق الرديئة ؟ .

أتظن المتقدم فى أفكاره ومشاعره يعجب بالمتخلف فى هذه وتلك ..

كلا .. كلا ..

ان المسلمين استحقوا أن يتأسى الناس بهم ، وأن ينسجوا على منوالهم ، وأن يقلدوهم فى أقوالهم وأعمالهم ، وأن يهجـروا لغاتهم الأصلية الى اللغة العربية الوافدة .

لأن المسلمين كانوا يمثلون فى العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة .

والمعجب بك قد يذوب فيك ، وذلكم هو ما حدث فى « المستعمرات » القديمة من قرون الشرق والغرب .

أعنى لـ «فارس» و «الروم» يوم زحفت عليها جيوش الاسلام ، وانساب فى جنباتها .

ان من الغباء البالغ أن تنتظر أحداً يؤمن بك عقب انتصار فى معركة جدل ، أو انتصار فى ميدان حرب .

ان المقهور فى أحد الميدانين قد يستسلم راضياً أو ساخطا .

بيد أنه لن يتبعك عن اخلاص ، ولن يشاركك الشعور والفكر أبداً .

ومن ثم نرى لزاماً علينا التوكيد بأن القدوة وحدها ، وما يبعث على الاقتداء من اعزاز واعجاب هما السبيل الممهدة لنشر الدعوة فى أوسع نطاق .

* * *

● **التطيم والتذكير :**

الاهتداء الى الحق نعمة جزيلة ، وانشراح الصدر به خير غزير ...

وأول ما يجب على أصحاب الحق — وقد عرفوه — أن يفتحوا عيون الآخرين على ضوئه ، وأن يعرفوا الجاهلين به ، وأن يجعلوه فى الحياة واضحاً كشعاع الشمس ، شائعا كأمواج الهواء ..

ذاك ما يفرضه الحق على أصحابه .

ألا يجعلوه عليهم حكراً ، وألا يحرموا من نفعه أحدا ، وألا يدعوا نفساً تعيش بعيدة عن هداه ..

وليس ذلك — بداهة — عن طريق القسر ، بل عن طريق لفت الأنظار وايضاح الخفى وشرح المبهم ..

فان فتك الجهل بالناس ذريع ، وغلبة الأوهام على أفكارهم تذهب بهم بدداً فى كل فج ، وتخيل اليهم أنهم على صواب ، والواقع أنهم موغلون فى الضلال ..

والسر هو الجهل ، الجهل بأقسامه كلها ، من بسيط ، الى مركب ، الى جهالة الطيش والهوى ..

والعالم بحاجة ملحة الى أن ينشط أهل الايمان الصحيح لشرح أصوله وابداء صفحته ، ودحض الشبه المثارة حوله ، واستخراج الجهال من الكهوف المطروحين بها لتمتلىء صدورهم بأنفاس الحقيقة الرحبة .

لقد تدبرت أفكاراً وسيراً شتى لجمهور من العصاة والأراذل .

فوجدت أن الجهل الفاضح ينسج حولهم غلالة قاتمة ، ويذرهم أشبه بفطمان الدواب فى قصور الادراك ، وعوج العمل ، وشدة الغفلة .

وانظر ما يفعل الله لنبيه اذ بعثه فى العرب الأولين :

((.. لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . انا جعلنا فى أعناقهم أغـــلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون))[١] .

هذه صورة مجتمع محبوس وراء جدران معتمة لا يتسرب منهـــا بصيص نور .

ومن ثم نرى أصحابه صرعى الذهول والجمود .

وعلاجهم — ولو ينقطع العذر — أن تراح تلك السدود ، وتذوب هاتيك القيود ، ويسلط على عقول هؤلاء ، وقلوبهم فيض من الوحى ينقلهم من حال الى حال ..

ان حاجة البشر الى العـلم الكثير كحاجة الأرض المجدبة الى الغيث الهاطل .

ولابد أن يسخر الدعاة جميع وسائل التعليم والايقاظ ، كى ينصفوا الحق ، ويوصلوه الى الخلق ..

وأمر آخر ... ان العالم نفسه قد ينسى ، وتشغله فتن العيش وصوارف اللغو عن القيام بما ينبغى منه ..

وهنا يجىء دور التذكير فى ابعاد سنة الغفلة عنه .

وكم من مبتعد عن الجادة تكفيه فى العودة اليها همسة ناصح أو صيحة زاجر .

---

(١) يس : ٦ — ٩ .

فاذا هو راجع الى رشاده مستقيم على الصراط ..

« وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »[٢] .

وعمل الواعظين — فى أغلب الأحيان — هو ذلك التذكير النافع .

وهو تذكير لا يستغنى عنه الناس يوماً ، اذ طالما يعصف النسيان بأفكارهم ، ويبعثهم على السير فى الحياة دون وعى أو هدف .

أليست تلك طبيعة البشر ؟ .

« **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم** »[٣] .

واسناد الهوى الى القلوب يومىء الى تغلغل الصوارف عن الجد ، واستحواذها على صميم الانسان ..

والنسيان بهذه الصفة مساو للجهل .

فان نتائج « فقدان الذاكرة » هى — نفسها — نتائج عدم العلم ...

ولذلك يقول الله جل شأنه : « **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون** »[٤] .

وقد نتساءل : كيف ينسى المرء نفسه لأنه نسى ربه ؟ .

أو نقول : انما نسى ربه لأنه ذكر نفسه !!

والجواب أن المنافقين المندفعين وراء شهواتهم ، المستغرقين فى اشباع مطامعهم ورغائبهم لا يذكرون شيئاً من مصالحهم الحقيقية ، ولا يستفتحون طريقاً يصون لهم معاشاً أو معاداً ..

انهم يرتعون فى الدنايا رتع الدواب فى الربيع حتى تهلك بتماً واعتلالا ..

والشخص الذى تصرعه أهواؤه لا يدرى شيئاً عن حاضره ولا مستقبله ، ولذلك يعتبر ناسياً نفسه .

انما جاء نسيانه لنفسه من نسيانه لربه .

---

(٢) الذاريات : ٥٥ .

(٣) الأنبياء : ١ — ٣ .

(٤) الحشر : ١٩ .

ولو ذكر حقوق الله وانتصب لأدائها لآتاه الله رشده ، وبصره بما ينفعه ويرفعه ومسكه بما يضمن العافية له فى دينه ودنياه .

التذكير المستمر ضرورة اذن للناس جميعاً ، ما بقوا بشرا مطبوعين على النسيان ، وما اختلف عليهم الليل والنهار . ذلك أن اختلاف النهار والليل ينسى . كما قال الشاعر .. وتزداد الحاجة الى التذكير فى بيئة عن بيئة .

فالبيئة الساذجة الخشنة ليست خطراً على العفة كالبيئة المشحونة بالمغريات المستثيرة للكوامن ...

ومن ثم فنحن نرى العصر الحاضر يوجب على حملة الايمان وحراسه أضعافاً مضاعفة من اليقظة والحماسة لحماية الدين وأخذ الناس به ، وردهم كلما طاش لب أو أفلت قياد .

الدعوة الى الحق واجبة فى كل حين . وهى فى هذه الأيام أوجب .

والدفاع عن الحياة مطلوب . وهو عند تحرش الذئاب ، واحاطة الأخطار أحفز للحس وأدعى للاستعداد والانقضاض ..

والسبيل الى الله مهددة الآن بجحافل من الملحدين والفساق تجر العامة جراً الى الجريمة وتصرفهم صرفاً عن العبادة ، وتزين لهم بألف وسيلة ، أن يهجروا الايمان والعمل الصالح .

ولك حال تنفى النوم ، وتقض المضجع ..

وهى حال تذكرنا بالخصائص الأصيلة فى هذا الدين العظيم ، دين الاسلام .

انه دين حريص على تجلية الحق ومقاومة الباطل .

يجأر بالدعوة ويصرخ بتوحيد الله ، ويهيب بالناس أن يقبلوا على الصلاة والفلاح بكرة وأصيلا .

دين ، ما ان يرى المنكر حتى يشتبك معه ، وينفر منه .. ويطوى الأفئدة على كرهه . انه دين لا يهادن الضلال لحظة .

ان استطاع تغييره فعل ، والا ترك فى القلوب نية تغييره عندما تسنح فرصة ! لقد زود الله هذا الدين بأسباب البقاء التى أعوزت ديانات

سابقة فتلاشت تحت ضغط الوثنيات الجاهلة حيناً أو تحه ضغط الجبروت الحاكم حيناً آخر .

مصارع الديانات السماوية القديمة — لا مصارع بعض النبيين — هى التى جعلت العناية العليا تزوده بكتاب « لا يغسله المـاء تقرؤه نائماً ويقظان » بعد أن بادت كتب وطمس التحريف والافك معالمها ، وبعد أن لانت أحكامها وتعاليمها للوضاعين وعباد الهوى .

وهذه التجارب القديمة نفسها هى التى جعلت الاسلام يغالى بقاعدة الأمر والنهى .

فليس الصلاح أن تعبد الله وتحيا مسالماً لمجتمع عاهر .

هذه عبادة مزيفة ، لا تنسب صاحبها الى تقوى .

العبادة الصحيحة ، هى التى تدفع صاحبها الى انكار المنكر على درجة ما ، جهد الطاقة .

والاسلام دين يتحرك بالحق ، ولا يسكن به ، ان الحركة سر الحياة ، والركود طريق الموت .

ومن هنا وصفت أمة الاسلام بالخاصة الأولى فى دينها ، وهى الغيرة على الحق ، وطبع الحياة الخاصة والعامة به .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. »(٥) .

ومهما ساء الأمر وأظلمت الدنيا « فلا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

* * *

● الخطـــابة :

ودعماً للحق فى أنحـاء الجماعة جعل الله الخطابة من شـعائر الاسـلام ..

١ — ففى كل أسبوع يحتشد المسلمون فى **المسجد الجامع** ليسمعوا داعية الى الله يذكر به ويعلم دينه .

---

(٥) آل عمران : ١١٠ .

٢ — وفى كل عيد يجتمع الرجال والنساء فى الميادين الرحبة أو فى المصليات المحيطة بالقرية ليسمعوا التوجيه المناسب بعد صلاة العيد ،

٣ — وفى كل موسم جامع للحجيج تلتقى وفود الأمة الاسلامية المترامية الأطراف حول « عرفة » لتستمع الى خطاب خطير يتناول شئونها ويشرح قضاياها ومبادئها .

وبديهى أن الخطابة فى الاسلام ، غير الخطابة التى يرى شبحها الآن حائلا مائلا .

ان الصلة بين خطب اليوم وحقيقة الدين كالصلة بين « سيف المنبر » وأسلحة القتال فى البر والبحر والجو .

الخطابة فى الاسلام مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التى تجعل هذا الدين يزحف من قلب الى قلب ، ويثب من فكر الى فكر .

وينتقل مع الزمان من جيل الى جيل ، ومع المكان من قطر الى قطر ..

وذاك هو السر فى أن نبى الاسلام كان يخطب كل أسبوع وكل عيد ، ويخطب أو ينيب عنه أميراً يخطب فى وفود الحجيج عند جبل الرحمة .

وتتفجر ينابيع الخطابة الصحيحة من معانى القرآن وأغراضه ...

فان القرآن هو الكتاب الهادى للأحياء ، ذو القدرة الفذة على استثارة أفكارهم واستجاشة مشاعرهم ، والسمو بهم الى ما يشاء .

فلا جرم كانت الخطابة المستمدة منه وقود نهضة وضياء أمة .

فى كل بضعة أيام يقف رجل واع حصيف ليعرض قبساً من آياته ، أو يسير فى هدى هذه الآيات الى احدى الغايات التى جلاها القرآن الكريم .

ان الاسلام دين حى .

ومن دلائل حياته وامتداده ، أن رسوله وخلفاء رسوله كانوا — باستمرار ، يصلون أمداد الوحى بين الناس ، فما يضعف صوت السماء ، وما ينقطع ، مع هدير الخطيب الذى يتحدث باسم الله ، بين عباد الله ..

وصوت السماء هنا ليس نداء الى عزلة ، أو أمراً بانسحاب ، كلا كلا .

انه صوغ الحياة نفسها وفق ارادة الله وقيادة الأحياء الى الحق الذى تحاول الشياطين اختطافهم دونه •

ولذلك لا تسمى خطابة اسلامية هذه الكلمات الميتة التى يسمعها الناس فى بعض المساجد ثم يخرجون ، وهم لا يدرون ماذا قال خطيبهم • لأنه لم يصل أحداً منهم بروح القرآن ، ولا أنعش قلباً بمعانيه ، ولا علق بصراً بأغراضه •

القرآن كتاب طواف فى الكون ، وصاف لآفاقه ، متغلغل فى شئون الحياة يتناولها بالسرد والحكم •

ويشرح وصاياه للفرد والمجتمع والدولة فى شمول وهيمنة ، ويستشف خبايا الأنفس والعقول ، فلا يدع ريبة وشبهة الا أزاحها • يستحيل أن يفرط فى قضية تعنى الناس من معاشهم أو معادهم • ان لم يتناول الجزئيات كلها بالفتوى الحاسمة فان أسلوبه فى خلق الضمير الزاكى والفكر الراقى يغنى ويكفى ويهدى للتى هى أقوم •

والخطابة الاسلامية حقاً ، هى التى تأخذ من القرآن وتسير معه • كان رسول الله ﷺ أحياناً يخطب بسورة «ق ، **والقرآن المجيد**»(٦) •

وكان عمر أحياناً يخطب بسورة النحل « **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** »(٧) •

واذا كانت لغة التخاطب قديماً قلما تتفاوت مع لغة الأداء فان فهم العامة للقرآن لا يبعد ولا يخفى •

أما الآن فربما لا يخطب بالقرآن نفسه •

بيد أن المعانى الواسعة المحيطة المتحدثة عن السلم والحرب والغنى والفقر • والانسان والجماعة ، والدنيا والآخرة ، والجسم والروح ، المعانى المتحدثة الى الانسان وحده ، أو فى عمله أو مع أهله ، المفصلة لضروب الأحكام فى شتى الشئون •

هذه المعانى هى الينبوع الذى تستمد منه الخطابة الاسلامية •••

والمعنى الرائع لا يكفى ، فلا بد من كساء حسن له •

والقرآن معجزة أدبية أخرست المتحدين على كر العصور •

---

(٦) سورة ق : ١ •

(٧) النحل : ١ •

فكيف — بالله — يتعرض لخطابة الناس باسم الاسلام رجل ضعيف البصر بمعانى الكتاب الكريم .

أو بصير ببعضها ولكنه محروم من نعمة الأدب ، وحلاوة الأداء ؟ ؟

الخطيب الذى يصلح للتحدث عن الاسلام ، رجل خبير بالحياة وعللها ، مكين فى الوحى الأعلى .

يأخذ منه — بلباقة — ما يشفى علل الناس ويصلح بالهم .

ما يتألف به نافرهم ويسكن ثائرهم .

ما يدحض به نزعات الالحاد ويحبط كيد الشيطان .

ما ترق به القلوب القاسية وتنفرج به الأسارير المنقبضة .

ما يشعر الناس بعد الانصراف عنه أنهم فقراء الى الله ، محتاجون الى هداياته ، لا بصيرة لهم الا منه ولا ملجأ الا اليه .

وموضوع الخطبة الاسلامية : هو الحياة الأولى والآخرة جميعاً .

لأن ذلك هو المجال الذى يعمل فيه الاسلام ، وتتطرق اليه الآيات .

وأذكر أنى ألفت كتابى « خلق المسلم » و « عقيدة المسلم » من الخطب التى ألقيتها على المصلين أيام الجمع .

بل ان موضوعات كثيرة من كتابى «الاسلام والأوضاع الاقتصادية» و « الاسلام والاستبداد السياسى » كانت ضمن حديثى للمصلين فى أثناء القاء هذه الخطب الجامعة .

ولم لا ؟ ان نبى الاسلام جعل حقوق الانسان موضع خطبته فى حجة الوداع .

وجعل انهاء المعاهدات التى عبث بها المشركون كلمة الاسلام فى الموسم الذى سبقها .

وبعث علياً يتلو على الناس سورة « براءة » التى تحمل فى طياتها تلك النذر .

المهم — مهما اتسع الموضوع — أن تكون كلمة الله فيه ، وأن يكون اليقين المحض باعثه ، ووجه الله الكريم غايته ، والسير فى موكب الاسلام سمته وقوته .

وقد تتسع الدروس والمحاضرات لمـا تضيق عنه الخطب المنوطة بأسبابها والمربوطة بأوقاتها •

فان الخطبة تقتضى عرضاً سريعا محدوداً لحقائق مفروض أن تكون فوق الجدل أما فى أثناء الدروس والمحاضرات ، فانه قد يقبل الاسترسال والاستطراد ، والأخذ والرد •

وقد تحتاج الموضوعات المطروقة لضروب شتى من الشرح والتمثيل •

ولمجالس العلم مكانة كبيرة فى الاسلام •

اذ هى المجال الطبيعى للتفهم والتفهيم ، ولتلقى الحقائق فى أناة وبحث • ويمكن تنظيم تلك المجالس وفق حاجات الجماعة ، وتبعاً لمـا تتناوله من أنواع العلوم وفنون المعرفة •

ولم تكن لدروس الوعظ مواعيد مرسومة على عهد رسول الله ﷺ •

بل كان هديه تخول الناس بالموعظة ، مخافة أن يسأموا ، فهو يرمق أحوالهم ثم يرسل الحكمة حيث يتطلبها الوقت ••

ولعل ذلك كان اكتفاء بالخطب المقررة فى أيام الجمع وغيرها •

وسنتكلم عن هذا اللون من الثقافة ـ أعنى الدروس الرتيبة ـ عند الحديث عن القصاص •

على أنه يهمنا هنا الافاضة فى أن الحديث الدينى كثيراً ما يتسم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد •

ولمـا كان الأمر موضع خفاء عند المشتغلين بالتربية الحديثة رأينا أن نلقى ضوءاً على هذه السمة البادية لنتعرف على حقيقتها •

* * *

● **الترغيب :**

الحث على فعل الخير وأداء الطاعات والاستقامة على أمر الله • جاء فى الكتاب والسنة مقروناً ببشريات كثيرة ، وحكم مذكورة ••

والدعاة عندما يغرون العامة والخاصة باتباع الدين لا يسأمون من تكرار هذه الجوائز المضروبة والعلل الباعثة •

ونستطيع أن نذكر أمثلة لهذا الأسلوب من النصح الشائع فى الاسلام •

١ — قد تطلب الطاعة من الانسان ، لأن أمر الله يجب أن يلبى ٠

فالله ولى الأمر ، وولى النعمة ، الخالق من عدم ، المطعم من جوع ، الكاسى عن عرى ، الساتر من فضح ٠

فحقه اذا أمر ، أن نسارع الى اجابته ، وأن يرانا عند ارادته ... من يطاع اذا جحد أمره وأهمل شرعه ؟ ٠

كيف نخلع طاعته من أعناقنا ، وهو أولى من يهرع الى ساحته ، ومن يقال له : سمعنا وأطعنا ؟

« أفرأيتم ما كنتم تعبدون ٠ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٠ فانهم عدو لى الا رب العـالمين ٠ الذى خلقنى فهو يهدين ٠ والذى هو يطعمنى ويسقين ٠ واذا مرضت فهو يشفين ٠ والذى يميتنى ثم يحيين ٠ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين »(٨) ٠

وتعليل الطاعات المطلوبة بهذه العلة يحتوى على قدر من الحق لا شك فيه ٠

٢ — وقد نطلب من الناس التحلى بمكارم الأخلاق ، والتزام العدالة فى الأحكام والارتقاء بالسلوك العام الى مستوى يليق بأمجاد الانسان ، خليفة الله فى أرضه ٠

ونغريهم على ذلك بأن هذه أشياء حسنة أمرنا الله بها ٠ وهو لا يأمر الا بالحسن ٠

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعماً يعظكم به .. »(٩) ٠

أجل نعم ما يعظنا الله به ٠

وفى بيان أسرار ذلك الحسن المنوه به يمكن أن نوضح طرفاً من معنى الخير ، فى الصدق ، والعفة ، أو فى الصلاة والصوم ، كاشفين حقيقة الوصايا الالهية ، وأنها لا يمكن أن تنطوى أبداً على شر مرذول ٠

« ان الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ٠

---

(٨) الشعراء : ٧٥ — ٨٢ ٠ (٩) النساء : ٥٨ ٠

قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين))(١٠) .

والترغيب فى الخير بهذه العلة يحتوى على قدر من الحق لا ريب فيه .

٣ — وقد نحض الناس على تقوى الله والمبادرة الى اقامة حقوقه ورعاية حدوده ، وتحرى مرضاته فى كل ما طلب . لماذا ؟ .

لأن الضمير البشرى الزكى لا يمكن أن يتألق بين حنايا الانسان ويختص به بين متاهات الحياة ، ودسائس الأهواء ، وفتن الشياطين الا اذا كان موصولا بالله يستلهمه الرشد ويستمد منه العون ويستدره التوفيق .

« يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ...))(١١) .

« يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ...))(١٢) .

والفرقان المجعول ، هو البصيرة التى يستهدى بها المؤمن ، فلا يخلط بين حق وباطل .

وهو النور الذى يمشى به فلا يزل ولا يحار .

وكل انسان فى الدنيا بحاجة الى هذه البصيرة الهادية لتنقذه من المشكلات وتنجو به فى الملمات .

والترغيب فى تقوى الله — لهذه العلة — يتضمن جزءاً من الحق لا شك فيه .

٤ — وقد نرغب فى الايمان والعمل الصالح ، لأنهما سبيل العيش والرغد وضمان الحياة السعيدة .

والمرء بطبيعته يحب النفع العاجل ، ويؤثر أن يجنى ثمار استقامته وفرة وأمناً وستراً .

---

(١٠) الأعراف : ٢٨ ، ٢٩ .
(١١) الحديد : ٢٨ .
(١٢) الأنفال : ٢٩ .

ونحن نرى الاطماع بسعة العيش ويسر الرزق ينتقل فى شتى الرســالات •

ألا ترى نوحاً يقول لقومه : « **استغفروا ربكم انه كان غفاراً • يرسل السماء عليكم مدراراً • ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** » (١٣) •

ثم يجىء على لسان رسولنا ﷺ :

« **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله** »(١٤) •

ثم هو يعد الجماعة المؤمنة بالنصر والتمكين ، وانقضاء أيام الفزع والرهبة ، وطلوع فجر السيادة فى الأرض ، والطمأنينة عليها •

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهـم وليبدلنهم من بعــد خوفهم أمنــاً ، يعبــدوننى لا يشركون بى شــيئاً •••** »(١٥) •

وهذه العدة الجميلة من أسباب البقاء على الايمان وتحمل مشاق الرسالة •

والترغيب فى الخير بهذا الأسلوب يتضمن قدراً من الحق كذلك لامرية فيه •

٥ — وقد ندفع الناس الى الرضا بمكاره الحق ، واحتمال تكاليف الايمان بما قد ينتظرهم هناك ••• فى الدار الآخرة من نعيم مقيم ومنزل كريم ••

ألا ترى الفارس المسلم « جعفر الطيار » يخوض غمرات الموت ويواجه حر الكفاح ولفحه المظمىء وهو يرتجز :

يا حبــذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها •• !!

ان الدنيا منقضية لا محالة ، اذ من الذى خلد فيها قبلنا ؟ فكيف يمهد الانسان لنفسه حياة بعدها ؟ •

---

(١٣) نوح : ١٠ ــ ١٢ •   (١٤) هود : ٣ •

(١٥) النور : ٥٥ •

ان الألوان الزاهية التى اصطبغت بها أوصاف الجنة تغرى بالزاد المقرب اليها ، وتجعل العاقل يستكثر منه ويدخر .

((واذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكا كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً))(١٦) .

وقد اطرد فى القرآن والسنة نعت الجنة بما يجعلها أمنية المتقين ، ومستقر الركب المرتحل بعد سفر طويل ...

والترغيب فى الصالحات بهـذا الأسلوب مسـتقيم مع الحق ، ولا شىء فيه ...

* * *

● **الترهيب :**

وكما تقاد النفس عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة .

فتكف عن الرذيلة وجلا مما يعقبها من منغصات ، أو تندفع الى الفضيلة خوفاً من مغبة التراخى والتفريط .

١ ـ فالذى يشتهى لذة محرمة قد تقمع سورتها فى نفسه بذكر الله ذى الجلال .

والذى يسـتهين بالحقوق ويغتر بقوته فيجتاحها دون مبالاة ، قد نخوفه بذى الجبروت الذى اذا سخط عليه خسف به .

والله سـبحانه وتعالى قوى متين ، وعزيز ذو انتقام ، وديان لا يموت ..

والتخويف به حق وأثر الخوف بعيد المدى .

انه فى الدنيا يصنع الكثير .

فالطالب الذى يخشى السقوط يحصل علومه .

والتاجر الذى يخاف الافلاس يضاعف نشاطه .

والموظف الذى يكره التخلف يثابر فى عمله .

---

(١٦) الانسان : ٢٠ ـ ٢٢ .

ولذلك قال يحيى بن معاذ : مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر لدخل الجنة .

وترك المعاصى تهيباً لله واتقاء سخطه دين !!

ومن حق الله أن يهاب ويخشى ، وفى حكم الصالحين : « لا تنظر الى صغر الخطيئة ، ولكن انظر الى من عصيت » .

وقال « على » كرم الله وجهه : « اذا استعظمت الذنب فقد عظمت حق الله ، واذا استصغرته فقد صغرت حق الله ، وما من ذنب استعظمته الا صغر عند الله ، وما من ذنب استصغرته الا عظم عند الله ... » .

والخوف الذى يتحدث الشارع عنه ليس شعور قلق تهتز به النفس ويذهب فيه اتزانها ، ويكون ما يسمى الآن عقدة .. كلا ، انه احساس فطرى يؤدى نتائجه فى سهولة .

فالنظيف — مثلا — يتقى الأقذار ويخاف دنسها ويحتاط أن يعلق ببدنه أو ثوبه شىء منها .

وهذا الخوف كمال نفسى ، وليس مرضاً ولا شبه مرض .. .

٢ — والترهيب من الآثام قد يعمد الى ابراز ما فيها من قذارة لا تليق بالانسان العالى الشأن .

فالاسلام يسمى المعاصى قاذورات ، وينأى بالفطرة السليمة أن تدلى اليها فضلا عن تألف مواطنها .

والحقيقة أن المتأمل فى أحــوال المجرمين يرى مســخاً غريباً فى أنفســهم .

حتى لكأنهم يتحولون الى أنواع من السباع والدواب ، وان ظلوا فى اهاب البشر .

ولا عجب ، فالمرء الذى يمرن على الرذيلة ويستمرئها يصل الى درك من السوء لا أمل بعده فى سلامة .

وهذا معنى قول الحسن : « ان بين العبد وبين الله حداً من المعاصى معلوماً ، اذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفق بعدها الى خير » .

وهذا هو المسخ الذى وقع مثله لبنى اسرائيل لما عتوا عن أمر الله .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم ذمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار .

والمغالاة بكرامة الانسان ، وافهامه أن المعاصى لا تليق بمنزلته هى التى أوحت الى « ابن القيم » أن يقول :

فحى على جنات عـدن فانها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

ان سوط الارهاب تحـول هنا الى صوت عذب وحـدا رقيق والمعنى واحـد .

ولعل من ذلك قول عمر : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه . . ! !

والكشف عما فى الرذيلة من قبح ، شائع فى الكتاب والسنة .

انظر كيف نصح الله أولياء اليتامى :

« **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً** »[17] .

وانظر الى نصح رسول الله للرجل الذى يحب الزنا كيف قال له : أتحبّ أن يكون لكذا وكذا ؟ من محارمه .

ان هذا النصح يبين خاصة من خواص الشر ، تحدث عنها علماء الأخلاق ، وهى أنه شذوذ لا يمكن أن يتحول بين الناس قانوناً عاماً .

٣ — وقد نخوف من الذنوب ومواقعتها ، ببيان خطـرها على الايمان نفسـه .

فالمعاصى بريد الكفر ، واقترافها — دون حذر — فجور يدل على موت القلب .

وفى الحديث « ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا .. فطار » .

ذلك أن الايمان هو الصانع الأوحد للضمير الذى يوثق به ..

---

(١٧) النساء : ٩ .

فان مراقبة الله جل شأنه أساس مكين فى توقى الشرور والتحرز من الدنايا ٠

ولأمر ما أقسم الله بالنفس اللوامة ٠

والنفس اللوامة هى التى تترفع عن الاثم ، وتنفر عن مقارفته ومن مؤالفته ٠

وتدفع صاحبها أبداً الى حال أزكى ودرجة أرقى ٠

كأنها لا ترضى بما هى فيه حتى تنتقل الى مرحلة أطيب ٠

فاذا بلغتها تكشف لها ما هو أعلى فتنشده ، وهكذا دواليك حتى تلقى الله ٠٠

ولأمر ما طلبت منا التوبة النصوح ٠

والتوبة النصوح هى التى يتولد منها احساس يقظ ، كأنه ديدبان حارس ، كلما دلف الشيطان ليزل الانسان الى معصية ، نبه الى الخطر ، وحمى من السوء ٠

والنفس اللوامة والتوبة النصوح تسميتان تشيران الى ذلكم الضمير الدينى الوازع عن الشرور الباعث على الطاعات ٠

٤ — وقد يكون الارهاب عن المعصية ببيان شؤمها فى العاجلة وضررها الذريع فى جسم الانسان وأهله وولده ومكانته ٠

وبذلك ينزجر الانسان عن مواقعتها خشية ما يصيبه من بلائها كأنه طائر أبصر الحب فى الفخ فعلم أن حتفه فيه لو وقع عليه ، فهو يتركه نجاة بنفسه ، وطلباً للسلامة ٠

والواقع أن المعاصى مفتاح لمصائب فادحة وكرب جسام ٠٠

والرتع فيها يجر الويلات على الأفراد والجماعات ٠

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير »(١٨) ٠

ولولا أن الله يهب للخلائق فسحة ليستفيقوا ويقلعوا لكان المحق هو الجزاء السريع لمخازيهم ٠

وتلك رحمة من الله ، فهل يستغلها العصاة ؟

---

(١٨) الشورى : ٣٠ ٠

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ، فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً »(١٩) .

وهذا التأخير لا يعنى ارجاء العذاب الى يوم القيامة .

فان لكل سيرة رديئة أجلا موقوتاً تستحق عنده العقوبة .

ثم تنزل بالفرد أو الجماعة ، فى هذه الدنيا ، قبل الآخرة .

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون »(٢٠) .

وقد انتشرت فى الكتاب والسنة النذر بتلك العقوبات العاجلة .

روى البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« يامعشر المهاجرين ، خصال خمس ، ان ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن :

١ — لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها الا فشا فيهم الطاعون وظهرت الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم .

٢ — ولم ينقصوا المكيال والميزان الا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان .

٣ — ولم يمنعوا زكاة أموالهم الا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا .

٤ — ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله الا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم .

٥ — وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله الا جعل بأسهم بينهم .. » .

وفى الحديث « خمس تعجل عقوبتهن : البغى ، والغدر ، وقطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، ومعروف لا يشكر » .

وفى القرآن الكريم بيان لعقوبات نزلت بأمم تمردت على الله وجارت عن الطريق ، فسلبت النعمة التى طالما مرحت فيها ، وحل بها ما لم تكن تتوقع .

---

(١٩) فاطر : ٤٥ .

(٢٠) السجدة : ٢١ .

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور • فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل • ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى الا الكفور »(٢١) •

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »(٢٢) •

على أن عقوبات الآحاد والأمم تخضع لسنن عليا ، وتضبطها آماد ليس الا الله يعلم موعدها •

وقد كان الأنبياء من « نوح » الى « محمد » يوجلون من تحديد هذا الموعد ويجيبون المستهزئين والمستعجلين بأن ذلك ليس اليهم •

« قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين • قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين »(٢٣) •

ويجرى الله على لسان نبيه محمد ﷺ هذا القول :

« ما عندى ما تستعجلون به ، ان الحكم الا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين »(٢٤) •

وقد نرى أفراداً وأمماً تستدرج الى مصيرها الفاجع بكثرة النعم — على ما فيهم من معاص — وفى هذا يقول الله عز وجل :

« ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا »(٢٥) •

ويقول : « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد • متاع قليل •• »(٢٦) •

وقد نرى آحاداً من الناس يرتكبون الذنب أيسر مما يصنع أولئك

(٢١) سبأ : ١٥ — ١٧ •
(٢٢) النحل : ١١٢ •
(٢٣) هود : ٣٢ ، ٣٣ •
(٢٤) الأنعام : ٥٧ •
(٢٥) التوبة : ٨٥ •
(٢٦) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧ •

الهجوم . فيعاقبهم الله بشىء من الحرمان كما جاء فى الحديث : « ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وذلك منه سبحانه تأديب لمن يريد تقويمهم فى الدنيا ليلقوه فى الآخرة مطهرين .

٥ — وقد نحض الناس على أنواع الخير ، ونحجزهم عن ضروب الشر ، بذكر الآخرة وما فى جهنم من عذاب شديد ، ومهانة بالغة .

قال تعالى : « فكيف تتقون ان كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً . السماء منفطر به ، كان وعده مفعولا »[٢٧] .

فخوف من الكفر بعذاب يوم القيامة .

وقال : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . انا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً .. »[٢٨] .

وفى الحديث : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وفى الحديث أيضاً : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

والتخويف بالنار ، ووصف صنوف العذاب المعد فيها يستغرق جزءاً كبيراً من الكتاب والسنة .

وما دامت النار حقاً ، ومادامت معدة للسفلة يقيناً فلم يكون التخويف بها عيباً ؟ ؟

* * *

● **رأى التربية المدنية :**

للتربية الحديثة رأى سىء فى الترغيب والترهيب .

ومذهبها فى توجيه الصغار والكبار يقوم على شرح الفضائل والرذائل وما فيهما من خير مجرد وشر مجرد .

وقلما تلوح بأجزية على الأعمال .

---

(٢٧) المزمل : ١٧ ، ١٨ . (٢٨) الانسان : ٨ — ١١ .

الا أن تكون أجزية معنوية ، أو مادية معجلة فى هذه الحياة ..
ونحن نستعرض البواعث على هذا المنحى لنقر منها ما هو حق ، وننسخ منها ما هو باطل .

فاذا كان المراد افهام الناس طبائع الحسن والقبح فى الأعمال حتى يكون الاقبال عليها أو النفور منها صادراً عن وعى دقيق : فذاك شىء لا بأس منه .

وهو — كما رأيت — بعض دوافع الترغيب والترهيب عندنا .

ويسرنا أن يزداد الطلاب والمتعلمون فقهاً فيما يقترن بالعبادات والأخلاق والمعاملات من خير ونفع ، وما تنطوى عليه من حق وعدل ...
على أن هذا لا يقلل من جدارة الحقائق الأخرى بالعرض والتبيان ، وقد شرحناها بايجاز وصدق .
وعلى المربين سوقها جميعاً اذا ارتأوا أو تخيروا المناسب منها للحال التى يعالجون .
فان الكلمة الرقيقة قد تجدى مع قوم ولا يجدى غيرها معهم ..
على دين لا تصلح الا العصا لآخرين .. وهذه الوسيلة لا تغض من ذلك . بيد أننا نحارب أشد المحاربة ، كل لون من ألوان التربية يقوم على التهوين من الألوهية وعلى قطع صلة العمل الانسانى بها .
كما نحارب هـذا الاهمال المتعمـد السمج لحسـاب الآخرة وثوابها وعقابها .
ان بعض الناس يكاد يجعل ارتباط الصالحات بالجنة عملا شائناً .
وارتباط السيئات بالنار منزلة منحطة .
وربما يحكون فى ذاك بعض أشعار الصوفية من رجال ونساء .. !!
وهذا جحود للدين حيناً ، وتخليط فى أحكامه حيناً آخر .
لماذا يكون فعل الخير طلباً للجنة — مثلا — درجة صغيرة ؟
أو ترك الشر — مثلا — خوفاً من النار مكانة تافهة ؟
ان الذى يتجاوز العاجلة ناشداً ما عند الله : ومدخراً لغده خيرا يفعله أو حرماناً يصـيبه ، ليس رجلا مغموصاً ، فمن يكون الرجال الكبار اذن ؟

قد تقول : الذى يفعل الخير للخير ، ويترك الشر للشر •
والجواب : هل هناك انسانية تتخطى قوانين اللذة والألم ؟

أعنى هل هناك جسد يخرس منطق البطن والفرج ، فلا يحس جوعاً ولا اشتهاء ، ولا يميز بين خشن ولين ، ووسيم ودميم ••
واذا وجدت هـذه الانسانية فى الوهم ، فهل هى معترفة بالله ومحتاجه اليه أم لا ؟ •

ان المؤمن يؤدى العمل لله وحده ، ثم يرتقب مع مرضاته جل شأنه أن يلقى اديه الرضا والنعمة ، وأن يصان من العنت والأذى •
وهذا الطمع فى فضل الله لا ينقص قدره •
وهذا الوجل من عقابه لا ينزل به •
كيف والقرآن الكريم يقول لرسول الله ﷺ : « **قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم** »(٢٩) •
المشكلة فى التربية الحديثة ، ليست الطريقة التى تتبعها فى تكوين النشء •
انما المشكلة أنها نبتت فى بيئات تحقر الدين ، وتنكر البعث وذلك سر تجهمها لأسباب الرغبة والرهبة على جدواها فى اشـاعة الفضائل ، واضاعة الرذائل •
وليس الاسلام بدعاً فى ذلك المنهج •
فان الديانات كلها قامت على معرفة الله ، وضرورة طاعته ، وعلى الاستعداد لليوم الآخر ، وضرورة التحرز من عذابه واحراز خيره وثوابه•
وها هـو ذا الحديث الجـامع عن قدم الترغيب والترهيب فى دنيا الناس :
عن الحارث الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« ان الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات ، أن يعمل بها وأن يأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها •
وانه كاد يبطىء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : ان الله أمرك

---
(٢٩) الانعام : ١٥ .

بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها ، فاما أن تأمرهم بها ، واما أن آمرهم أنا بها •

فقال يحيى عليه السلام : أخشى ان سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب •

فجمع الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد بهم وقعـدوا على الشرف •

فقال : ان الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأن آمركم أن تعملوا بهن :

١ — أولاهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً •

فان مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق وقال : هذه دارى ، وهذا عملى : فاعمل وأد الى ، فكان يعمل ويؤدى الى غير سيده •

فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟

٢ — وان الله تعالى أمركم بالصلاة ، فاذا صليتم فلا تلتفتوا ، فان الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت •

٣ — وأمركم بالصيام : فان مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك ، وان ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك •

٤ — وأمركم بالصدقة : فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يديه الى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم •

٥ — وأمركم أن تذكروا الله • فان مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى أتى حصن حصين فأحرز نفسه منهم •

وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله تعالى » •

وقال ﷺ : « وأنا آمركم بخمس ، والله تعالى أمرنى بهن : السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة •

فان من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه

الا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو فى جهنم » .

فقال رجل : وان صام وصلى يارسول الله ؟ قال : وان صام وصلى .

فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله تعالى » .

أخرجه الترمذى وصححه .

***

ان التخويف بالعقوبات البدنية والتلويح بالمكافآت المادية أمران لا بأس بهما فى مجال التربية ، بل ان انتظار الثمرات المرضية من ورائهما تفكير رشيد . ونهج سديد ...

صحيح أن التعويل على الأجزية المادية وحدها هبوط بقيمة الانسان ، وتحقير لعقله وقلبه ، بيد أن الدين لم يفعل ذلك ولا جنح اليه .

ان الاسلام أيقظ العقل الغافى أولا ، وتوجه اليه بالخطاب البين ، وحرك القلب الانسانى ، وعلقه بالسماء ، ولفته الى ما يجمل به من شكر لله ، وقيام بحقه .

والزعم بأن المرء يترك وشأنه اذا لم يستجب لحادى العقل والضمير زعم باطل ، فمن لم يزجره عن ايذائك الكلم الطيب لا حرج عليك اذا قابلته بالعصا . وكما قيل :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه   اذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

ومن أصم أذنيه عن صوت العفاف وقرر أن يسترسل مع نزعات العهر . لم يبق بد من ترويض الحيوان النابح من دمه بالجلد ، وذلك ما فعله الاسلام بالزناة الذين كشفوا للمجتمع عوراتهم .

ونحن لا نعرف عهداً استغنت فيه الانسانية عن انذار المجرمين بالنكال واعداد السجون لهم ، وعن استرضاء الأخيار بالجوائز المغرية وتوفير أسباب السعادة لهم ، ولأهليهم ...

قال الأستاذ عادل عبد الله : « ان مبادىء التربية الحديثة ترى الا يضرب الأطفال عقاباً لهم على ذنوب ارتكبوها ، أو ردعا لهم عن اتيان مثلها مستقبلا ، لأن ذلك يولد لديهم عقداً نفسية ضارة » .

لكن الاسلام يأمر بضرب الأطفال لحثهم على اقامة الصلاة ان هم تكاسلوا عنها بعد سن العاشر .

وغنى عن البيان أن الضرب الذى يأمر الدين به يجب ألا يكون مبرحاً ولا مؤذياً ، وألا يلجأ المربى اليه الا بعد استنفاد شتى وسائل النصح والترغيب وقد أثبتت التجارب والنتائج أن موقف الاسلام أرشد وأصدق .

ويسرنا أن يعلن الدكتور « بنجامين سبوك » — وهو طبيب وعالم نفسانى — أمام الجمعية الطبية الأمريكية : أن ضرب الأطفال أمر ضرورى فى تربيتهم .

ولننقل هنا ما جاء بمجلة المعلم العربى (ابريل سنة ١٩٥٢) .

قالت : « ومع أن رجال التربية وعلماء النفس مجمعون على أن ضرب الطفل يولد عنده عقدة نفسية تجعله فيما بعد يكره الناس ، أو يخافهم ، أو يبتعد عنهم ، الا أن الدكتور سبوك يقول : ان هذا خطأ ولغو ، وان الذى يفسد الطفل هو أن يخطىء ، ومع ذلك لا تضربه ، بل تكتفى بكلمة خشنة أو نظرة قاسية .

ويقرر أنه بحث حالة كثير من الشبان والرجال ، فوجد أن أقومهم أخلاقاً هو الذى كان أبوه لا يتوانى عن ضربه فى طفولته حين يخطىء ؟ وأن أفسدهم خلقاً وأضعفهم شخصية هو الذى سلم من ضرب أبويه فى سنيه الأولى » .

وفى عدد ديسمبر سنة ١٩٥٨ من مجلة « المختار » قصة بعنوان : « والآن أصبحنا ستة » جاء فيها : أن زوجين لا يرزقان الأطفال تبنيا طفلا وطفلة من أحد ملاجىء الأيتام .

وفى القصة تفصيل لحالة الطفلين النفسية وللمشاكل التربوية التى لاقاها الزوجان أثناء تربيتهما للطفلين .

فقد مكثا مدة يستعملان الرفق واللين فى تأديبهما ويغدقان عليهما ما شاءا من المطاعم والمشارب والتحف — وكان المربيان على جانب كبير من الثراء — فلم يستجب الطفلان لكل ذلك . ثم لجأت المرأة الى الشدة

لأن البنت كانت تعلق دائماً على أقوال مربيتها بقولها « اننى لا أصدق ذلك » قالت السيدة صاحبة القصة :

« ولكننى فى هذه المرة ضربت الأرض بقدمى وقلت : « روث » — وهو اسم البنت — لقد سئمت سماعك تقولين لى هذا الرد ، فاذا فعلت ذلك مرة أخرى فسوف أضربك .

فنظرت الى نظرات سوداء .. وقالت : « أوه .. اننى لا أصدق ذلك » !! وسرعان ما قلبتها على وجهها ، وأخذت أضربها على ردفها ..

ولم تبك ولكنى علمت أن الضرب آلمها .

وسألتها : هل تصدقين الآن؟ قالت : أجل . وكانت نظرتها الى ليست كلها كراهية .. بل فيها مزيج من الاحترام ! .

وازدادت العلاقات بينى وبين « روث » توثقاً يوماً بعد يوم » .

هذا ما كان من البنت .

أما ما كان من الصبى « جو » فانه كان أيضاً شرساً وقحا فى سلوكه مع متبنيه « بيل » : تقول المرأة صاحبة القصة :

« وذات يوم ، كان الطفلان مع « بيل » — وهو الزوج — فوق المحراث ، فطلب « بيل » من « جو » أن يترجل ويفتح بوابة مغلقة ، فنزل « جو » وفتح البوابة الى حد يكفى لمروره وحده منها .. !!

وما كاد يجتاز البوابة ، حتى أخرج من جيبه كرة للجولف ، وألقاها على « بيل » . فأصابته فى ساقه . وصاح يقول : بيل .. افتح بوابتك بنفسك ! .

ثم انطلق فى طريقه الى المنزل .

وقفز « بيل » من المحراث وضرب « جو » على أردافه ضرباً موجعاً ثم أمره أن يفتح البوابة ، ففعل ومر المحراث من البوابة ، فأغلقها « جو » ، ثم أمره أن يعود لركوب المحراث .. واستمرا يقومان بعملهما فى المزرعة .

وفى ذلك المساء اقترب « جو » من « بيل » وجلس على ركبتيه وأخذ يتطلع اليه بعينين يفيض منهما الحب » ! .

* * *

● القصص الدينى :

شاركت فى بعض الأحفال العامة التى تقام فى مناسبات اسلامية ، ونظرت الى الجمهور الحاضر ، وهو جالس بضع ساعات يستمع الى كلمات الخطباء المتعاقبة ..

وكنت أسائل نفسى • ترى ماذا سيصنع بهذا العلم كله •
انه سينصرف وما علق بذهنه الا القليل ، وما حرك من مشاعره ، أو غير من حياته الا الأقل ..

واشتغلت عدة سنين بالوعظ فى المدن والقرى •
وكنت أرى حشوداً من الناس تجلس حول منصة الدرس ، تستمع بشغف الى ما يقال •

وبعضهم كان دؤوباً على تلقى شتى الدروس من الوعاظ والأئمة ، ثم هو يستأنف حياته القديمة بعد انتهاء الدرس •
نعم •• يعود سيرته الأولى ، كأن جديداً لم يعترض حياته ..
ولست أدرى اذا كان هـذا النوع من الكلام والسماع باقياً ، أم جرفه السيل المدمر المقبل من الغرب ، فانقطع الكلام والسماع معاً ..؟
وانما الذى أدريه • أن بنـاء الحياة الدينيـة لا يقوم على مثل ذلك العبث ..

وأسـتطيع الجزم بأن السلف الصـالح لم يدرس لهم العـلم بهذه الطريقة ..
ولم يدربوا على سماعه وتضييعه بذلك الأسلوب ..
قد يبذل العلم لطالبه كما يبذل المـاء للعطشان الذى يحتاج اليه •
أما أن يسكب على التراب بهذا السفه ، فذاك شىء محزن •
وما يقال فى تلك الأحوال ليس علماً ، انما هو تسل بالعلم ، وتضييع للفراغ به •

ولن تكون النتيجة ضياع الفراغ ، بل ضياع الحقيقة وسقوط قيمتها •

والأمة التى تقوم على الاسلام ـ حكومة ومجتمعاً ـ تتعاون على

تحويل العلم الى عمل مثمر ، وجهاد نافع ، وأداء منظم لشتى الحقوق ، وتحقيق بارز لأهداف الرسالة .

وذاك ما كان مألوفاً ابان دولة الخلافة .

فقد شغلت الجماهير بالكدح فى الداخل والجهاد فى الخارج فانسد الطريق من تلقاء نفسه على حلقات التسلى بالعلم .

ولم يسأل الناس الا عما يعنيهم ، ولم يجابوا الا بما يفيدهم ..

فلما أصيبت الأمة بالعطل ، ولحقتها آفات الفراغ ، وعادت على دينها تشتغل بالكلام فيه ، واستغلت رحابة الآفاق العلمية فى طبيعة الاسلام ، أخذت تجرى شوطاً هنا وشوطاً هناك دون غاية سديدة .

ولكن ماذا تصنع لتملأ الوقت الواسع ؟ .

ان الساعة الواحدة يتلى فيها من القرآن الكريم ما تنزل الوحى به فى بضع سنين ويقرأ فيها من حديث رسول الله ما تردد على الآذان فى مثل هذا الأمد الطويل .

ثم ان أسلوب البحث والنقد لا تتسع له مدارك العوام .

اذن .. هناك القصص ، وحكاية الأخبار والروايات الماضية .

فاذا نفدت من التاريخ الانسانى ، فعلى الخيال أن يخترع من الحوادث والمواقف ما يشبع نهمة المستمعين ، ويثير اعجابهم ويريح فضولهم .

وعوام المسلمين ليسوا بدعاً من عوام الأمم الأخرى فى تلك الناحية .

ولو نظرت الآن الى الروايات الاجتماعية والغرامية والتاريخية التى اختلق الأدباء حوادثها من الوهم ، وسودوا بها ألوفاً مؤلفة من الصحائف لأعجزك الاحصاء .

والغرض ؟ . تسلية العامة فى الحقيقة ، أو خدمة بعض الأفكار والمبادىء كما يقولون .

وما أقل الروايات ذات الهدف فى عالم التأليف ..

ان القصاصين فى تاريخنا أراحوا العوام ، وأرضوا رغائبهم ، ولكن على حساب الدين للأسف .

ثم جاء نفر من الوعاظ والائمة فأحيوا هـذا اللون البالى من

القصص القديم ، القصص الدينى المسلى ، وملأوا به الدروس والمحاضرات .

ثم انتقل الأمر الى طور آخر ، فقد ألفت روايات اسلامية تتضمن بعض الوقائع التاريخية مع مزيج من الأحداث المتخيلة ورئى أن تمثل على المسارح خدمة للاسلام .

وأنا رجل لا أومن لا بالمسرح الاسلامى ولا بالمسرح الآخر .

اننى أضيق بهما جميعاً .

ولست أفرض طبيعتى تلك على غيرى ، ولكنى أقرر — بوضوح — أننى شديد النفور من بدعة التمثيل التى غزت حياتنا الأدبية والاجتماعية .

واننى أشعر باستغراب وحياء عندما أسمع أو أشهد المواقف المتكلفة ، المتعلة ، التى يظهر بها أولئك الممثلون والممثلات .

وأشك كل الشك فى أن التمثيل يحقق غاية انسانية عالية .

بل ان أدب[٣٠] القصة — الذى خلا منه الأدب العربى دهراً طويلا — ليس بالشىء الذى يستحق كل هذا التنويه والاشادة .

ولندع الاستطراد فى هذا الكلام ، فليس ثم مجاله .

ولنعد الى القصص الدينى ، نتعرف تاريخ ظهوره وطريق سيره ...

لم يكن الناصحون والوعاظ يذهبون — أيام الخلافة الراشدة — الى أبعد من الكتاب والسنة ، ولم تكن فترات التوجيه الدينى تتطلب أكثر من ذلك .

فعماد العظة ، اما القرآن ، واما الحديث ، واما كلام يدور فى فلكهما ، ولا يعدو حدودهما ، ولا ينضح بغير الروح المستمدة منهما .

وخمس دقائق من الكلام الجيد فى خطاب أو درس تملأ صحيفتين كبيرتين .

---

(٣٠) الأدب الروائى دخيل على العروبة ، والحكم على قيمته الفنية وآثاره النفسية والعامة قد تختلف فيه الأذواق والطبائع ، وليس كل دخيل يستراب فيه ، ولكننى لا أحسب الأدب العربى القديم نقص شيئا طائلا حين نقص القصص القصار والطوال .

وكذلك التمثيل ، انه هو الآخر أمر أقحم على مجتمعاتنا اقحاما ، وربما ترك آثارا حسنة فى البيئات التى استجلب منها ، أما عندنا فالخير كل الخير فى تطهير البلاد منه على اختلاف صوره .

وعندما نتدبر الخطب المروية عن الخلفاء نراها محكومة بهذا الاطار المعنوى والزمنى ٠

بيد أن المشتغلين بالدعوة والارشاد ، أخذوا يتزيدون ، ويتوسعون ٠

فماذا يصلح مدداً لهذه الزيادة ٠

اطالة السرد ، وتكثير الشواهد ؟ ما تكفى ! ٠

ان الينبوع الدافق هو الحكايات والأقاصيص !!

وربما تسأل : من أين تاح للمتحدثين الاسلاميين هذا المورد ؟ ٠

والجواب : من مسلمة أهل الكتاب !!!

فان بعض من آمن من اليهود والنصارى وجد أمامه مجالا لنفث خرافاته القديمة ٠ ورواية ما ألف سماعه عن بدء الخلق ، وعن النبوات الأولى ، وعن أحوال الأبرار والفجار ، بل عن نبوءات المستقبل !!

فقد زعم كعب الأحبار أنه يجد مقتل عمر فى التوراة !!

ووقع الأغرار من المسلمين فى هذه الحبائل ، فأخذوا ينقلونهـا ويسمونها العلم الأول ، يعنون علم ما قبل الاسلام !!! ٠

ولو سموه الجهل الأول لأنصفوا الحق ٠٠ !!

على أن الخلافة الراشـدة كانت يقظة لهـذا الدس على العلم الاسلامى ، فأخذت تصادر بواده ؟

أخرج ابن أبى شيبة والمروزى عن ابن سيرين قال : بلغ عمر أن قاصاً يقص بالبصرة فكتب اليه :

« الر ، تلك آيات الكتاب المبين ٠ انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ٠ نحن نقص عليك أحسن القصص »(٣١) ٠

فعرف الرجل ، مراد « عمر » فترك القص ، وانقطع عما كان فيه ٠

قال الأستاذ على محفوظ(٣٢) :

ولمـا دخل على البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول « لا يقص فى مسجدنا » ٠

---

(٣١) يوسف : ١ — ٣ ٠

(٣٢) من كتاب « هداية المرشدين » ، بتصرف ٠

حتى اذا انتهى الى « الحسن البصرى » وهو يعظ الناس انصرف عنه ولم يخرجه .

ذلك أن الحسن كان فقيهاً عالماً ثبتا وليس من القصاص .

قال السيوطى : أخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا :

لم يقص فى زمان النبى ﷺ ولا زمان أبى بكر ولا زمان عمر ، وانما القصص محدث ، أحدثه معاوية .

ذلك أن معاوية اتخذ قاصاً يجلس اليه اذا فرغ من صلاة الفجر ، ولعل ذلك من دهائه فى السياسة .

أقول : بل ذلك من ابتداعه فى العلم كابتداعه فى الحكم .

وأياً ما كان الأمر فليس كل قصص منكراً يحارب .

فان هناك نفراً من المربين يحسنون عرض الحق فى ثوب روائى مستحب ، ويجتذبون الجماهير بحسن تلطفهم ، وسهولة أسلوبهم .

وفى القرآن — كما نعلم — أحسن القصص .

والمتحدثون للعامة من هـذا القبيل لا يشغب عليهم ، ولا يمتعون من ارشادهم .

وأول من قص من التابعين بمكة « عبيد بن عمير الليثى » .

وقد حضر مجلسه عبد الله بن عمر ، فكان ذلك داعياً الى اقبال الناس عليه .

وقال عطاء : دخلت أنا وعبيد على أم المؤمنين عائشة ، فقالت : من هـذا ؟ .

قال : أنا عبيد بن عمير ، قالت : قاص أهل مكة ؟ قال : نعم .

قالت : خفف فان الذكر ثقيل !! .

ونصيحة عائشة تشير الى أن الرجل لم يكن من الاخباريين أصحاب الحكايات الملفقة .

بل كان مذكراً بالله جل شأنه فى فقه وجد .

وأول من لزم القص فى مسجد المدينة ، مسلم بن جندب الهذلى ، وهو امام المدينة وقارئها .

وفيه يقول عمر بن العزيز : من سره أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب .

قال الأستاذ على محفوظ :

ولم يكن القص فى القرن الأول مرذولا لأن فنونه انما كانت ترجع الى القرآن والحديث .

ولم يكن يشوبه شىء الا ما كانوا يسمونه بالعلم الأول ، وهو ما يتعلق بأخبار الأمم الماضية .

وأكثره يأخذونه عمن أسلم من أهل الكتاب .

وبعض هؤلاء كان غزير العلم واسع الحيلة فى قصص الأولين كـ « عبد الله بن سلام » الذى أسلم عند هجرة النبى ﷺ الى المدينة — و « كعب الأحبار » الذى أسلم فى خلافة عمر ، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين .

وعن هذين الرجلين ، و « وهب بن منبه » المتوفى سنة أربع عشرة ومائة ، أخذوا سواد قصصهم مما يتعلق بالأمم ، وأحوال الأنبياء والنذر الأولى .

ولما كان القرن الثانى وانتهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين ومنهم « الحسن البصرى رضى الله عنه » نشأت بعده الطبقة التى أخذت عنها العامة .

وقد اضطربت الفتن ، وكثر الكلام ، وفشت الأكاذيب فى الحديث ، وأخبار العرب والشعر ، فصارهم القاص أن يجىء بالغرائب ، ويكثر من الرقائق . لأن أهل العلم انصرفوا الى حلقات الرواية ، ولم يبق فى حلقات القصاص الا العامة .

فمن ثم ساءت المقالة فيهم كما سبق ، وصار القاص عند أولى العلم أحمق مخرفاً الا قليلا ممن استوعبوا وتبينوا وساروا فى مذهب الرواة .

وما مذهب الرواة ؟ .

انه للأسف نقل الأكاذيب التى لا بأس بها ، مسندة الى أصحابها ...

وهذه الأكاذيب هى الحكايات المؤلفة لترغيب فى طاعة وتحذير من معصية ، أو الداعية الى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل .

* * *

ويوجد فى مصر الآن ألفان أو يزيد من أئمة المساجد وخطبائها ومن الوعاظ المشتغلين بالدعوة والارشاد .

والشكوى عامة من أن أكثرهم قليل البضاعة من الحق كثير البضاعة من اللغو ، وأنه يشبه القصاص القدامى فى ترويج الأساطير ، وتخدير العامة ، وتشويه معالم الاسلام ...

وهذه الشكاة لها وجاهتها فهى تعتمد على واقع مؤسف ...

ومن الخير — لحسمها — أن نحدد مناهج واضحة من التفاسير والسنن ، والسير والتواريخ ، والآداب ، التى لا مراء فى تصويرها الصحيح للاسلام ، ثم يلزم الموجهون بالصدور عنها وحدها ..

ذلك .. ولا معنى لتملق العامة ، واسترضائهم على حساب الدين .

ان العامة يكرهون البحث العلمى ، والدقة الفقهية ، وتعجبهم الأقاصيص الضافية الذيول .

ولكنا نريد رفع مستوى العامة ، لا السقوط معهم .

ثم انه لا معنى للاحفال التى تعج بالخطباء ، ويتبارى فيها فرسان الكلام ، فان ذلك بلاء يصيب الدين ، ويمحق الاخلاص ، ويرخص النصح ، وتبتذل فيه نفائس الآثار .

ان عظة تستغرق دقائق معدودة ، فى مجتمع وزع وقته بين العمل ، والانتاج والجهاد ، أفضل ألف مرة من برنامج المحاضرات الطوال ، فى أمة تجيد الاستماع وحده ، ويحسن أبناؤها الموازنة — فحسب — بين أقدار المتكلمين ، وأنصبتهم من البلاغة ، وسحر البيان !!

* * *

● الكتـــابة :

قلنا : ان الخطابة من شعائر الاسلام ، ودلائل امتلائه بالحياة وسعيه الى الامتداد وربما كان تأثيرها الروحى نفاذاً أخاذاً .

خصوصاً اذا كان الخطيب صاحب عقيدة تزحم أقطار نفسه ، وتضطرم بها مشاعره •

انه حينئذ يشعل الجماهير حوله كما تشعل النار الهشيم •

وكان رسول الله ﷺ مثلا أعلى فى صدق اللهجة ، وعمق التأثير •

وكان اذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم !!

ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » — ويقرن بين اصبعيه السبابة والوسطى — •

ويقول : « أما بعد •• فان خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة •• » •

ولما كانت نفس الخطيب المؤمن تشبه مولداً للكهرباء ، فان الايمان المنسكب من نفسه مع ألفاظه يشق طريقه الى القلوب شقاً •

ومن ثم كان الجيل الذى صحب رسول الله ﷺ خير الأجيال ، لعظم ما أفاد منه وانتفع به ، وأفاد الدنيا ونفع ••

ومع هذه المنزلة للخطابة فان لها قسيماً لا يقل عنها جدوى ولا تستغنى الدعوة عنه أبداً • وهو الكتابة •

بل ان ما ارتبط بالخطابة من أجواء عاطفية يجعل مجالها متجهاً الى المشاعر قبل كل شىء — وان اعتمدت على سلامة المنطق بداهة — •

لكن الكتابه على العكس ، تتجه الى العقل وتقوم على الاستعراض المنظم المتأنى للأدلة المؤيدة والمفندة •

ولا بأس أن ينضم الى ذلك أسلوب جيد ، وسياق جذاب •••

ثم ان الخطابة موقوتة الفرص ، منتهية بانتهاء مجالسها وانفضاض مجامعها •

أما الكتابة فهى أخلد على الزمن وأعصى على الفناء •

والواقع أن الخطب النفيسة ، تتحول الى أدب مكتوب •

فان كانت حافلة بعلم نافع أو وعظ بليغ كان بقاؤها فى الصحائف امتداداً فى امكان النفع بها وان كان صاحبها قد مات ، وضاع الأثر

المقترن بسماعها منه وهى تنبض بالحياة من فمه ، وتخرج مفعمة بخصائص نفســه ٠٠ !

والكتب المؤلفة فى خدمة الرسالات المختلفة كثيرة ، ومداها فــى نشر الدعوات بعيد •

وحسبنا أن الاسلام يعتمد فى خلوده ، ونضارة رسالته ، وتجدد دعوته على كتاب فذ هو معجزة الدهر ، وصوت السماء الصدوق المبين • **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »**(٣٣) •

ومنذ بدأ الاسلام والمؤلفون دائبون على مد رواقه بالقلم •

حتى لقد روى فى الأثر — تمجيداً لهذا الجهد — « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة » •

والكتابة العلمية تزحم تراثنا الثقافى ، وتدفع به الى الطليعة فى المواريث الأدبية لأهل الأرض •

بل نستطيع الجزم بأن ديناً من الأديان ، أو مبدأ من المبادىء لم يصنع الحركة العقلية الجبارة التى صنعها الاسلام فى العالم •

والتى أنشأ بها حضارة مازالت غنية كل الغنى بأســباب القوة والازدهار •

والمنقبون الآن فى مخلفات الفكر الاسلامى كأنما ينقبون فى أرض مليئة بآبار البترول أو مناجم الذهب والحديد :

كلما بحثوا عثروا على كنــوز مدفونة ، وخير خبىء ، وعظمة غطاها التراب !!!

ولا عجب ، فان الفجر الذى طلع به القرآن على الوجود ، أنعش العقل الانسانى انعاشاً لا نظــير له ، وأطلقه ينشط ويجوب ويكدح •

واذا كان هنالك مأخذ على هذا النشاط ، فهو أنه بلغ أحياناً حد الاسراف الذى يجهد ، ولا يغنى ••

(٣٣) فصلت : ٤٢

وطبيعى أننا فى تلك الأوراق المحدودة لا نؤرخ ولا نتابع الكتابة العلمية لنشر الدعوة الاسلامية وايضاح أصولها وفروعها .

فذاك مبحث تفرد له مجلدات .

وانما نريد هنا اثبات ملاحظتين صغيرتين تتعلقان بموضوع كتابنا .

أولاهما أن الكتابة الأدبية فى خدمة الاسلام ليس لها اتساع الكتابة الفنية وانتظامها .

وأعنى بالكتابة الأدبية ما يذكى العاطفة الانسانية بعد ربطها بالاسلام ، وأخذها بتعاليمه وعباداته .

وقد تكون للصوفية كتابات مشحونة بما يذكى المشاعر ، ويرقق الأفئدة ، ويحول تكاليف الايمان الى أعمال مستحبة .

لكن شطحات الصوفية وأخطاءهم الكثيرة تشوب هذا اللون من الأدب وتجعل الاستفادة منه عسرة أو خطرة .

وفى عصرنا هذا ارتقت الكتابة الأدبية التى أنوه بها فى آثار رجلين جليلين هما الشاعر الهندى « محمد اقبال » والأديب العربى « مصطفى صادق الرافعى » فى كتابه « وحى القلم » .

والذى أريده ، لون من الأدب الدينى يرسم معالم الاسلام كما يرسم الشاعر المفتون بالطبيعة الحدائق الناضرة ، والسماء الصاحية ، والنجوم الزهر ، والليل الساجى ..

نحن فقراء فى هذا الضرب من الكتابة الراقية . مع شدة الحاجة اليها فى تربية العواطف وصقلها باسم الله ..

والملاحظة الأخرى أن الكتابة العلمية — التى استبحرت قديماً ، ثم جمدت أيام الانحلال والتخلف وهجوم الاستعمار — لا تزال دون تقدم الوعى الانسانى فى هذا العصر ، ودون اتساع دائرة التعلم والتعليم وانكماش الأمية الفكرية فى كل قطر .

ان المحدثين مازالوا عالة على القدامى .

ولولا صلاحية القرآن لشتى الأعصار لكان تخلف المسلمين العلمى سبباً فى زوالهم .

والمطلوب أن ينتفض الجيل المعاصر انتفاضة الحياة ، ويشرع فى خدمة الاسلام الخدمة العلمية المناسبة لهذا العصر .

وانى لأذكر — محزوناً مكروباً — أن العلماء المجددين لأمر الاسلام يكافحون فى وجه عنت هائل ويبذلون جهود الجبابرة ثم يطويهم الجهل والغمط والنكران .

فما يكاد ينتفع بآثارهم الا الأقل الأقل .

لقد مات « محمد فريد وجدى » بعد حياة مليئة بالمجد العلمى .

وها هو ذا قد مرت بضع سنين على موته ، فما ذكره أحد بكلمة رثاء ، ولا طبع له كتاب نقد .

ويوشك أن يطويه ومؤلفاته النسيان ، فما هذا ؟

والحال كذلك بالنسبة الى الشيخ « محمد رشيد رضا » العالم الأديب الجليل الشأن .

وأعرف غيرهم من أصحاب الأسماء التى لم تحظ بالشهرة ، وان اسدت للاسلام أعظم المنافع .

فالشيخ « أحمد عبد الرحمن البنا » رتب « مسند ابن حنبل » وفق الأحكام الفقهية فى خمسة وعشرين مجلداً .

ومع ذلك فقد ترك الدنيا وكأنه رجل أمى لم يخط حرفاً ، فضلا عن أن ينشىء هذا العمل الضخم .

ان قليلا جداً هم الذين أحسوا فقده .

ولسنا نأسى على الموتى ، فقد أفضوا الى الله الذى يضاعف الحسنات .

وانما نأسى على الأحياء الذين لا يحسنون الانتفاع بثمرات المجددين الذين عاشوا مع الزمن يدفعون عن الاسلام ، ويحرسون أركانه ، ويجلون بريقه .

ان الكتابة العلمية الواجبة فى هذا العصر يجب أن تتسع وتطرد .

وهناك أمور ذات بال نحب أن نلفت النظر اليها حتى يؤدى القلم حق الاسلام عليه فى ذكاء وحصافة ومقدرة ، وفق مقتضيات الأزمان .

ولنتناول بعض العناوين[٣٤] والشروح لهذه البحوث المطلوبة مضافاً اليها ما نراه .

* * *

● موضوعات الكتابة المعاصرة :

١ — الدين ضرورة اجتماعية :

« يذهب بعض المثقفين الذين لم يتعمقوا فى دراسة الأديان ، ولم يتشربوا تعاليمها السامية ، الى أن الأديان لا تنهض الا بين الشعوب البدائية .

وأن المدنيات الحديثة — بما تحمله من قوانين تشريعية ، ومبادىء أخلاقية ، ومذاهب فلسفية ، واتجاهات علمية — تغنى عن اعتناق الأديان .

وهو خطأ شنيع ، لأن الدين فطرة أصيلة فى النفوس البشرية لا يغنى عنها قانون ، ولا فلسفة ولا تثقيف .

ومن الخير تأليف كتاب يعالج هـذا الموضوع ، على أن يستمد نماذجه من واقع حياة الأمم والشعوب » .

أقول : ونحن — فى هـذا الكتاب — قد دعمنا هـذه الحقيقة بما لدينا من أدلة .

ولكنا يجب أن نوضح ما هو الدين الذى يوصف بأنه ضرورة اجتماعية ؟

ان الدين الصحيح وحى نازل من السماء ، وليس افكاً نابتاً من الأرض .

ومن النقائض المدهشة أن تسمى « البوذية » و « الكونفوشيوسية » و « الزرادشتية » أدياناً وأن يوصف الرجال الذين اختلقوها بأنهم أنبياء ،

---

(٣٤) اخذنا هذه العناوين عن النشرة التى اصدرها المؤتمر عن الكتاب الاسلامى والبحوث التى يجب ان يتعرض لها الآن .

ونحن مضطرون للقول ، بان اكثر هذه البحوث ، قد الفنا فيه كتباً طبعت مثنى وثلاث ، وان اخواننا فى ميدان الخدمة الاسلاميه يقومون بهـذا العبء فى مثابرة وصبر مع ما يلقون من جحود غريب .

والله ولى التوفيق وبه الحول والطول .

مع أنهم لا يعرفون الله الواحد ولا يدعون اليه ، بل ينكرونه ويجحدون رسالته .

فكيف توضع هذه الأفكار الأرضية فى مصاف الشرائع السماوية ؟

انه ليس هناك وصف مشترك بين هذه وتلك .

ولذلك يجب اطراحها ابتداء من هذا المجال .

ثم ان الاعتقاد المنتسب الى السماء يجب — ليستبقى حرمته — أن يحترم نسبته وأن يصون سيرته ، وأن يقيم هيمنته فى الداخل وعلاقته فى الخارج على دعائم من تقوى الله ، ومحاولة ارضائه بالأسلوب الذى يعرفه ويؤثره لأتباعه .

ومن ثم ، فالتدين المنحرف ، القائم على استئصال الشعوب واجتياح حقوقها آفة اجتماعية ، لا ضرورة اجتماعية .

بل انه — على الأصح — مشكلة عالمية ينشد لها العلاج وتلتمس الحلول ..

ان الدين حقاً ضرورة اجتماعية .

وتغيير الواقع الانسانى بجمع الناس على دين واحد مستحيل ...

فليبق اذن حق الحياة محفوظاً لضرب الايمان المنتمية الى السماء .

ولتعط جميعاً ضمان الدعوة الى الله دون حرج أو ضغط ، ودون ختل أو مكر .

والاسلام يرحب بهذه الخطة .

ومن حقه — وقد أقر بالحياة لغيره — أن يظفر باقرار الحياة له ولأمته .

٢ — الاسلام والديانات السابقة :

ينبغى اعداد هذا الكتاب[٣٥] لاثبات أن الاسلام لا يعادى الديانات السماوية السابقة ولا يخالفها .

ولكنه يتمم ما يحتاج الى التفصيل ، ويصحح ما وقع فيها من تحريف .

---

(٣٥) أشبعنا هذا الموضوع فى كتبنا « نظرات فى القرآن » و « الاستعمار أحقاد وأطماع » و « عقيدة المسلم » و « من هنا نعلم » .

ويجب اثبات أن الاسلام لم يتعرض قط لتصحيف ولا لتحريف ، فلا يزال كتاب الله محفوظاً مصوناً من الملفقين والمبتدعين « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** »(٣٦) •

« أما السنة الشريفة فقد درسها أعلام رجال الحديث منذ أقدم العصور ، ووضعوا لها الضوابط والقواعد والموازين التى تميز الأصيل عن الدخيل » •

أقول : يحسب كثير من الناس أنه كما تنقسم الكلمة مثلا الى اسم وفعل وحرف تنقسم الأديان الى يهودية ونصرانية واسلام ، وهذا خطأ فالدين عند الله واحد •

والأنبياء أجمعون — وبينهم « موسى » و « عيسى » و « محمد » عليهم الصلاة والسلام — مبلغون عن الله أصول هذا الدين الواحد لا تفاوت هنالك ولا اختصام •

واذا كان هناك فرق يذكر فهو أن الثوب قد يطول أو يقصر حسب نمو الجسم وأن « موسى » كسا العالم بلباس التقوى حيناً •••

فلما جاء « محمد » ﷺ وجد الثوب قد تغير أو تمزق أو انكمش فرده كما كان وضيئاً ، وزاد فيه ما استدعاه نمو الانسانية من وفرة واتساق •

ان البذلة التى تصلح للغلام لا تصلح للرجل المكتمل القوام •

فكيف الحال اذا كان النسيج القديم قد أمسى كطيلسان ابن حرب ؟

طال ترداده الى الرفو حتى بقي الرفو وانقضى الطيلسان !!

ان « محمداً » ﷺ جاء مجدداً لما سبق من وحى ، ومؤكدا لما نزل قبل من تعاليم •

وذاك شأن النبيين القدامى يصدقون من قبلهم ويمهدون لمن بعدهم ، حتى ختمت الرسالات كلها بالاسلام •

فكان هذا الاسلام جماعاً لما توزع فيها من حق وعدل ، وفضل ونبل •

---

(٣٦) الحجر : ٩

وشاءت عناية السماء أن تقيض لهذا الدين حفظة ينتصبون دون تراثه قرناً بعد قرن فنجا من الغوائل التى محت غيره ، ووصل الينا مصوناً كما عهد به الى نبيه .

ولذلك يمكننا أن نصفه بأنه المصدر الموثق لرسالة « موسى » و « عيسى » عليهما الصلاة والسلام .

وأنه كلمة الله التى لا يرقى اليها ريب ، ولا تلتبس بها أظنة .

ومع ما طرأ على الديانات الأولى من تغيير ، فان لأتباعها ذماماً لا تهدر ، وعهوداً لا يخاس بها .

٣ ــ مصادر التشريع الاسلامى :

لم تكن أصول التشريع الاسلامى فى عصر ما خاضعة لشهوة حاكم أو نزوة قائد ، أو منبثقة من تقلبات الظروف والأحوال .

وانما هى تستند الى أصول ثابتة : من الكتاب والسنة .

ومن اخير لعامة المسلمين أن يعرفوا شيئاً عن هـذه الأصول التى عالجها أئمة المذاهب الاسلامية ، واستنبطوا منها مقومات التشريع الاسـلامى .

ذلك .. ومع أن « الاجماع » من مصادر التشريع عنـدنا فان اجماع الناس لا يؤبه له الا اذا كان له اسناد من نص وارد .

ان المشرع هو الله وحده ..

وليس لبشر أن يتعبد الناس بشرع من عنده .

ولا لمجمع من المجامع حق انشاء عقيدة ، أو احداث عبادة ..

أما المصالح العـامة فان كفالتها ترجع الى السياسة الشرعية ، واجتهاد أولى الأمر .

والتقنين فى هـذا المجال قد يختلف باختلاف البيئات واختلاف الأفهام .

والاسلام يتسع لشتى وجهات النظر ، ولا تعتبر وجهة منها ديناً ، اذ الدين أعم منها ومن سواها .

٤ ــ المذاهب الفقهية الاسلامية :

ترجع طوائف عديدة من المسلمين فى مباشرة العبادات ومزاولة

المعاملات الى المذاهب الأربعة : مذهب « أبى حنيفة » و « مالك » و « الشافعى » و « وابن حنبل » كما ترجع طوائف أخرى الى المذهب الزيدى أو مذهب الاثنى عشرية وهناك مذاهب فقهية اسلامية حوت من الآراء التشريعية الخالدة العميقة ما يعد مفخرة من مفاخر الاسلام .
مثل المذهب الظاهرى المنسوب الى « داوود الظاهرى » ثم الى « ابن حزم » ومثل مذهب « الأوزاعى » و « الليث بن سعد » ، ومثل المذهب الاباضى الذى لا يزال منتشراً فى عمان .

ومن الخير أن يعرف المسلمون نبذة عن هذه المذاهب الاسلامية العظيمة التى تمثل انتاج العبقريات الاسلامية فى ميدان التقنين والتشريع والاجتهاد .

ونحن نوصى بدراسة هذه المذاهب ورجالها دراسة علمية مجردة .
ونستنكر الحملة التى يشنها المستمسكون بفقه السنة على تلك المذاهب وأئمتها ..

ومع أنى أوثر تلقى الأحكام من مصادر الشريعة الأولى ، وأحب الاتصال المباشر بالنصوص ، وأكره مطالعة المتون التى ألفها فى العصور المتأخرة الفقهاء المذهبيون .

الا أن ذلك لا يغمط الأئمة السابقين قدرهم ولا جهدهم .
ولا يبيح لنا اعتبار فقههم مقابلا لفقه السنة .
كان للرسول مذهباً ، ولهؤلاء الرجال منزع يبتعد عنه .
ان هؤلاء الأئمة أقاموا علمهم — أولا وآخراً — على دعائم من السنن والنصوص .

بيد أنهم أعطوا أنفسهم حق الترجيح والموازنة ، ورد ما لا يتفق مع القواعد العلمية التى اطمأنوا اليها فى الفهم والقبول ..

ومن حق أى باحث أن يستريح الى اجتهاد ما ، مادام هذا الاجتهاد مضبوطاً بقيود محكمة من أصالة النظر ورحابة الادراك .

والمرء منا عندما يخوض وحده محيط الآثار الواسع يجد نفسه مضطراً الى اعتماد نص وتأويل آخر ، أو توهين سنده ، على حين يلجأ غيره الى عكس مسلكه . !!

وعندى أنه من الخير أولا دراسة النصوص كلها .

ثم دراسة جميع الأقوال الفقهية التى أثرت عن الأربعة المشهورين وعن غيرهم من فقهـاء الأمصـار وعن « الخوارج » و « الزيدية » و « الامامية » و « الظاهرية » الخ .

على أن تكون هذه الدراسة المقارنة حرة مطلقة .

وعلى أن يباح — بعد — لأى مسلم أن يتخير منها ما يحب ، أو أن يلتزم تقليد مجتهد بعينه ...

ان الاجتهاد الاسلامى لملاحقة الأحداث ومتابعة الزمن السائر ، أصابه ضر شديد عندما احتبس داخل السجن المذهبى الضيق ، وعندما أزرى به التعصب لآراء مجتهد واحد .

ونريد الآن أن ننتفع بآراء أجدادنا العلمية كلها ، وأن يعتبر المسلم العادى أئمته المقتدى بهم فى الفقه هم سلفه الصالح جميعاً ، فلا ينتمى لواحد ، ويتجاهل الآخرين .

٥ — المجتهدون فى الشريعة الاسلامية :

يزعم بعض المقلدين أن باب الاجتهاد أصبح مغلقاً الآن .

ولكن تطور الحياة ، وتجدد الأحداث واختلاف الأحوال يطالعنا بقضايا حديثة وأوضاع اجتماعية لم يعرفها القـدماء من المشرعين الاسـلاميين .

ومادامت مصادر التشريع الاسلامى باقية ، فلكل عالم متمكن من الدين متعمق فى الدراسات العربية والاسلامية أن يقترح ما يناسب العصر من آراء دينية .

على أن تكون مسـتمدة من المصادر الاسـلامية الكبرى معززة بالبرهان والدليل .

وقد ظهرت فى الاسلام عقليات جبارة قدمت الى التشريع الاسلامى أجل الخدمات .

فمن الخير أن نجلو حياة هؤلاء العباقرة وآثارهم فى كتاب موجز يظهر المسـلمين على ألوان البطولة الفـكرية عند علماء « التشريع الاسـلامى » :

ان العلماء الآن ربما لا يحتاجون الى اجتهاد فى ميدان العبادات وأحكامها •

ذلك أن السلف لم يدعوا مجالا لأحد فى هذا المضمار •

والثروة التى تركوها تعجز العادين •

وقد نملك ترجيح رأى على رأى ، وتغليب حكم على حكم فحسب ، أما التجديد فلا •

ولو كان له مكان فأنا أرى اغلاق الباب دونه ، اذ لا داعى له •

وهذا على العكس مما نوصى به فى ميدان المعاملات فان ركب الحياة يزحف الى الأمام أبداً •

وفى أثناء مسيره نجد شئون لابد من بيان حكم الله فيها وفق ما ترك لنا رسوله من نصوص وقواعد •

وقد ظهرت الآن فى عالم السياسة الدولية والمحلية وفى عالم الاقتصاد التجارى والصناعى والزراعى وفى عالم التنظيم الادارى ، وفى أنحاء أخرى كثيرة ، ظهرت أمور لابد أن يقول الاسلام فيها كلمته وهو أقدر دين على النطق بهذه الكلمة •

والذى نرجوه من الأمة أولا : ألا تضيق بوضع ينتهى اليه العلماء وهو مخالف لما ألفت ••

فان الاسلام أول حركة للتحرر العقلى : من الوراثات السيئة •• ثم من المجتهدين •

ثانياً : ألا يغتروا بما تقره الحضارة الحديثة والنظم المختلفة من مبادىء ومناهج •

وألا يكون هدفهم تقريب الاسلام من هذه المحدثات •

فان الاسلام دين له منابعه وله غاياته •

وعمل المجتهدين هو رد الأمور الناشئة اليه وحده ، لا جره الى الفلسفات الانسانية المختلفة ••

ونحن قد نشرنا كتابات فى بعض القضايا الخاصة بالمال والحكم ، حاولنا فيها تقديم اصلاحات اسلامية كثيرة على ما لاحظناه من عوج فى أحوال أمتنا •

لكن الأمر أعظم من أن يكون جهد فرد يخطىء ويصيب .
ولابد من تضافر العلماء لمواجهة المشكلات المعاصرة بأحكام دقيقة .

٦ — الاسلام والمدنية الحديثة :

ذهب بعض خصوم الاسلام الى أن الاسلام هو سبب تأخر المسلمين فى العصر الحديث ، لأنه غير صالح للتجاوب مع المدنية والعمران .

وهو زعم خاطىء ، لأن الاسلام يمجد العقل ، ويكبر العلماء ، ويدعو الى التأمل فى ملكوت السموات والأرض .

ثم هو صاحب اليد الطولى على الانسانية جمعاء ، وحامل لواء المدنية الحديثة .

وهو — بمرونته وسعته وسماحته — صالح لكل زمان ومكان .

فمن الخير تأليف كتاب موجز لاثبات هذه الحقائق الخالدة .

أقول : انه لما يثير الضحك أن يتهم الاسلام بخصومة للمدينة أو تعويق للحضارة .

لقد قطع الشرق الاسلامى من القرون أربعة عشر قرناً ، وقطع الغرب المسيحى من الزمن عشرين قرناً .

ولو أن التأخر كان حليف الشرق طوال هذه القرون ، والتقدم حليف الغرب لقلنا — على عجل — : ان الاسلام مبعث هذا التخلف الشائن .

فلندع التاريخ : عن الواقع ليقول كلمته .

لقد ظل الشرق الاسلامى احد عشر قرناً وهو فى طليعة العالم ، ان لم تكن أممه أرقى أمم الأرض طراً .

وهذه القرون الأحد عشر هى التى كان فيها قريباً من دينه ، مرتبطاً بتعاليمه ، فلما انفك عنها هوى .

أما الغرب .. فقد ظل سبعة عشر قرناً ، وهو يخبط فى عمياء طامسة . لا يلوح فيها بصيص نور .

فلما أراد أن ينهض دارت فى رحاه معارك طاحنة بين العلم والدين ، انتهت بانحسار الكنائس ورجالها عن الحياة العلمية والعملية .

ومن ثم شرعت « أوروبا » تتحرك ، وتنتعش وتقتحم الآفاق التى كانت محرمة عليها من قبل باسم الله !!

والتاريخ النزيه يذكر أن الدعائم التى قامت عليها نهضة الغرب الحديث هى تراثنا العقلى والأدبى .

هى دل ما خلف آباؤنا من ثمرات طيبة فى حقول البحث والنظر .

وما يغض من هذه الحقيقة ويخفيها تحت ركام من الجحود الا أحوالنا العصيبة أمام انحطاطنا وتعصب الغرب علينا ، وجنوحه الى الأثرة والكذب .

٧ — أسباب انتكاس المسلمين ووسائل نهوضهم :

ساد المسلمون العالم فترة من الزمان ، ونشروا فيه أنوار المدنية والعمران . ثم جدت عوامل جديدة داخلية ، وخارجية ، دفعتهم من القمة الى الحضيض .

ولكنهم تنبهوا — أخيراً — الى حالتهم .

وبدأت يقظة جديدة ، وانتفاضة قوية حديثة ، نرجو أن تعود بهم الى السمو والارتقاء .

ومما يعينهم على هذا اصدار بحث موجز يتناول أسباب التدهور ووسائل النهوض .

أقول : ان الانهيار الشنيع الذى أصاب الأمة الاسلامية من بضعة قرون يعود الى التفاوت الواسع بين واقع الحياة فيها وبين القيم والنظم التى أتى بها دينها .

وقد بدأ هذا التفاوت أول الأمر يسيراً كما ينفرج ضلعا الزاوية عند رأسها .

فان المسافة بين ما يجب وبين ما وقع كانت ضئيلة .

على أنه مع بقاء شقة الخلاف ، وامتداد الزمن تتسع المسافة ويطول البعد .

وتكاد تنقطع الصلة بين ما يمليه الدين من واجب ، وما يخطه من مناهج ، وبين ما نكون عليه من تفريط ، واضطراب وشرود .

وقد ألمعنا فى بعض كتبنا الى مظاهر متفرقة لهذا الاختلاف الغريب.

ولكن الانصاف للاسلام يقتضى افراد هذا الموضوع ببحوث متصلة ، يدرس فيها التاريخ الاسلامى من دولة الخلافة الى عصرنا هـذا ،

وتحاكم أحداث هـذا التاريخ محاكمة دقيقة الى القواعد الاسلامية والمثل العليا لهذا الدين كما تقررت فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

وسنجد عند المقارنة أن سياسة المـال والحكم اهتزت اهتزازا عنيفاً جداً ولم تنضبط وفق أحكام الشريعة الغراء .

كما سنجد أن العلم الاسلامى نفسه بعد فترة من هذا الاضطراب يتأثر هو الآخر .

ولولا ما تأذن به من حفظ القرآن الكريم وحماية السنة المطهرة لاندكت معالم الاسـلام وسط الزلازل التى هاجت فى كيـانه من الداخل والخارج .

على أنه من صنع الله أيضاً أن الأمة تتجدد ، وتنتفض ، وأنها استعصت على أسباب الزوال .

وهى الآن على أعتاب نهضة ترد اليها شبابها ان شاء الله .

٨ ــ الاسلام بين المـادية والروحية :

تجنح بعض المذاهب والأديان الى المـادية الواقعية ، كما يجنح بعضها الآخر الى الروحانية المثالية .

ولكن الاسلام يجمع بين الأجسام والأرواح، والدنيا والآخرة ، والماديات والمعنويات ، والعقيدة والدولة .

فهو بهذا أكمل دين يصلح للانسانية جمعاء ، ويوائم بين جميع الظروف والبيئات المختلفة .

وينبغى أن يعرف المسلمون هذا ليتخذوا من دينهم وسائل للرقى ، والمدنية ، والعمران .

ومن الخير أن يؤلف لهم كتاب فى هذا الموضوع[٣٧] .

٩ ــ المسلمون بين التيارات السياسية الحديثة :

تتنازع العالم الآن قوتان رهيبتان ، تحاول كل منهما أن تجذب بقية الدول الى صفها ، أو تضمها الى فلكها .

---

(٣٧) تراجع كتبنا « كيف نفهم الاسـلام » و « الاسلام والأوضاع الاقتصادية » و « الاسلام والمناهج الاشتراكية » و « الاسلام المفترى عليه » .

فاذا قامت الحرب أصبحت هذه الدول أولى فرائسها .

فمن الخير للمسلمين جميعاً أن يبقوا أمة واحدة معتصمة بحبل الله المتين .

وينبغى للدول الاسلامية أن تعرف أسرار السياسة الدولية ، لتتجنب الوقوع بين شقى الرحى .

وتأليف كتاب فى هذا الموضوع ، يلقى أضواءاً على الصراع الدولى الجبار ، وعلى الموقف الذى ينبغى أن تقفه الدول الاسلامية من هذا الصراع[٣٨] .

١٠ — الاسلام مصدر الحريات :

بعض النظم السياسية تعطى الفرد من الحريات ما يطغى به على مصلحة المجموع ، وبعضها يعطى المجموع ما يطغى به على النشاط الفردى .

ولكن الاسلام يعطى الفرد حقه ، والجماعة حقوقها ، وينسق بينهما خير تنسيق .

وهو — بهذا — يكفل جميع أنواع الحريات فى تنظيم دقيق يشمل حرية الملك ، والعقيدة ، والمسكن ، والتعبير .

وتأليف كتاب فى هذا الموضوع يسد فراغاً كبيراً فى المكتبة الاسلامية[٣٩] .

١١ — أساليب الاستعمار :

الاسلام دين الحرية والعزة والكرامة ، وهو أقوى حافز لاعزاز معتنقيه ، ودفعهم الى القيادة والتوجيه .

وقد عرف الاستعمار قوة الاسلام ، فلجأ الى وسائل عديدة مادية

---

(٣٨) تراجع كتب ...

ومعنوية ، وعسكرية وعلمية لاضعاف العقيدة الدينية فى نفوس المسلمين .

فيجب أن يعرف المسلمون أساليب الاستعمار ووسائله ، ليتجنبوا الوقوع بين مخالبه .

وتأليف كتاب فى هذا الموضوع يسد هذا الفراغ الكبير(٤٠) .

١٢ — براءة الاسلام من البدع والخرافات :

الاسلام دين الحقائق الخالدة المتفقة مع أحدث نظريات العلوم .

ولكن كثيرين من خصومه دسوا فيه كثيراً من الأقاويل ، وابتدعوا فيه كثيراً من البدع ، التى تشوه تعاليمه ، وتطمس أضواءه .

وأعانهم فى هذا بعض المنحرفين أو المضللين ، فروجوا لهذه البدع والخرافات ، وأضافوا اليها كثيراً من الزيادات .

فينبغى وضع كتاب لاظهار هذه البدع التى تضلل الناشئين ، وتعطى خصوم الاسلام حجة للطعن والتشهير(٤١) .

١٣ — التيارات الداخلية فى الاسلام :

بسط الاسلام نفوذه الروحى على معظم أجزاء العالم المعروف فى القرون الوسطى .

وورث حضارات المصريين والاغريق ، والرومان ، والفرس ، والهند .

فتسللت بعض المذاهب الفلسفية الى التعاليم الاسلامية ، وبخاصة الأفلاطونية الحديثة .

كما وضعت طائفة من خبثاء اليهود كثيراً من الاسرائيليات ، وألصقتها بالاسلام ، وانخدع بها بعض المسلمين ، وبخاصة قلة من المفسرين .

وقد تجرد جماعة من المنافقين لدس الأحاديث الموضوعة على سنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه .

---

(٤٠) انظر الهامش السابق .

(٤١) راجع كتابنا : « ليس من الاسلام » .

فينبغى وضع كتاب ينقى الاسلام من هذه التيارات الفكرية الدخيلة عليه[٤٢] •

١٤ — مشكلات اسلامية معاصرة :

عرف المسلمون من أساليب المدنية الحديثة ، وأوضاعها ما لم يعرفه آبؤهم السابقون •

وقد حدثت مشكلات عصرية حملتها الينا هذه المدنية •

فينبغى علاجها فى ضوء الاسلام ، بقياس الحديث منها على القديم مثل مشكلات المصارف المالية ، والأسواق المالية « البورصة » التأمين ، الادخار ، « الكونتراتو » الخ •

ومن الخير أن ينبرى جماعة من العلماء لدراسة هذه الموضوعات وابراز حكم الاسلام فيها •

١٥ — مجاراة العربية لعوامل التطور :

يتهم بعض الحاقدين اللغة العربية بأنها لغة جامدة لا تجارى تطور المدنيات الحديثة ، ولا تسايرها ، وهى عاجزة عن استيعاب العلوم الحديثة وما أبرزته من كشوف جبارة عديدة وهو زعم خاطىء •

لأن اللغة العربية عاشت زهاء خمسة عشر قرناً ، استوعبت فيها مدنيات مختلفة وورثت حضارات متعددة مثل حضارة المصريين ، والاغريق ، والرومان ، والفرس ، والهند ، وهضمتها جميعاً •

وأضافت اليها حضارة خالدة ، لا تزال آثارها ماثلة للعيان •

ثم هى قد استوعبت معارف هذه الحضارة الحديثة ، واتسعت لما وفدت به علينا من مصطلحات •

وها هى علوم الطب ، والطبيعة ، والكيمياء تدرس فى جامعة دمشق بالعربية الفصحى •

واللغة العربية — بما فيها من وسائل الاشتقاق ، والتعريب ، والمرونة — كفيلة بأن تجارى اللغات الحديثة فى التطور والارتقاء •

---

(٤٢) راجع كتابينا : « ليس من الاسلام » و « كيف نفهم الاسلام » •

وينبغى وضع كتاب يجلو هذه الحقائق الخالدة ، ويعرف المسلمين أن الحملة على العربية هى فى حقيقتها حملة على الاسلام ، وذريعة للقضــاء عليه •

١٦ — حكمة التشريع الاسلامى :

ينبغى ابراز أهم القيم الاسلامية التى تسمو بالفرد ، كما تسمو بالجماعة ، كما تسمو بالانسانية جمعاء •

ومن الخير تأليف كتاب يظهر الحكمة فى التشريعات الاســلامية للأفراد والجماعات من عبادات ومعاملات ، مع اظهار ما فى الاســلام من يسر ، وسماحة ، واستجابة لتطور المدنيات والعمران •

١٧ — بطولات اســلامية :

نهض بالاسلام عند ظهوره رجالات من العباقرة الموهوبين الذين ضربوا أحسن الأمثال ، فى التضحيات الجسيمة ، وانكار ذواتهم فى ســبيل مبادئهم •

وابراز هذه البطولات كفيل باثارة العزمات الخامدة وايقاظ الهمم الغافية ، لحفزها الى استئناف النهضة الاســلامية ، كى تتبوأ مكانها الجدير بها فى الحياة •

ومثل هــذا الكتاب يؤدى للمسلمين أجل الخدمات ، وبخاصــة للجيل الجديد •

١٨ — الأسرة الاســلامية :

وضع الاسلام للأسرة نظاماً دقيقاً محكما ، وأقام العلاقات فيها على أساس متين •

وقد حاول بعض الملحدين أن يشوه محاسنه ، ويطمس معالمه •

ثم ظهرت الحقائق العلمية ، والدراسات الاجتماعية ، مؤيدة ما ذهب اليه الاســلام •

وما أشد حاجة المكتبة العربية الى كتاب يشرح هذا النظام ، ويبرز ما فيه من حكمة عالية وأهداف سامية[٤٣] •

---

(٤٣) راجع : « من هنا نعلم » و « ظلام من الغرب » و « كفاح دين » •

١٩ — الاسلام دين السلام :

ذهب بعض المبشرين الى أن الاسلام قام على العنف ، وانتشر بالسيف ، واعتمد على الاكراه ، وهو زعم خاطىء كل الخطأ .

فقد قام الاسلام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونادى بالسلام ، واشتق اسمه من السلام ، وجعل تحية أهل الاسلام السلام .

وطالما نهى عن البغى والعدوان ، وتوعد مرتكبهما بأشد أنواع العقاب .

بل انه وضع نظاماً محكما للسلام بين الدول المختلفة ، لا يزال العقل البشرى يحلم بالوصول اليه حتى الآن .

ومن اخير تأليف كتاب يبرز هذه القيم المثالية ويجلوها على العالمين[٤٤] .

٢٠ — البلاد الاسلامية :

يكاد كثير من الدول والأمم الاسلامية يكون مجهولا لبعض المسلمين ، أو فى حكم المجهول .

مع أن الدين الاسلامى ينص على جعل المسلمين أخوة متحدين ، متعاونين فى الماديات والروحانيات .

وهذا يوجب على كل مسلم أن يعرف نبذة عن كل دولة ، أو طائفة اسلامية تتناول موقعها الجغرافى ، وأحوالها الاقتصادية ، ونظمها السياسية ، وموقفها بين التيارات العالمية .

على أن يشفع هذا كله بخرائط ورسوم موضحة ، ويتبع بجداول احصائية لعدد السكان ، والمساحة ، والنهضة التعليمية ، والنظم المالية ... الخ .

وبهذا يسهل جمع المسلمين وتعاونهم فى شتى الأقطار والأمصار .

***

(٤٤) فى هذا الكتاب ، وفيما سردنا من كتب ، بيان شاف فى هذا الموضوع .

مقـــاومة الهدامين

على الداعية المسلم أن يتذوق الحقيقة المريرة التى يلقاها دينه وتلقاها أمته منذ ابتدأ عهد التفكك والانحلال ، الى أن تحركنا ببطء نحاول استنقاذ حياتنا وتراثنا ، والمنجاء بايماننا وأخلاقنا ..

أجل ، عليه أن يواجه الغارة الشعواء التى شنها خصوم الاسلام عليه ، وأن يستبين الأغراض الهائلة الكامنة فى لفح هذه الغارة والحاحها واتســاع هجماتها .

فاذا استيقن أنها تنشد استئصال أمته واجتثاث عقيدتها وشريعتها ، وتحويلها الى قصة تروى ، وخبر كان ، هاجت فى دمه غرائز الحياة ، وأهاجها فى نفوس الهاجعين والغافلين فهبوا مستقلين عن كيانهم .

فاما ظفروا بالعيش الكريم لأنفسهم واسلامهم ، والا .. فلأن يقتلوا مكافحين أشرف من أن يلقوا حتفهم ، وتطوى رايتهم وهم مولون مخذولون .

هناك ثلاثة أنواع من الهدم تعمل جنباً الى جنب منذ وطئت أقدام المستعمرين بلادنا المترامية الأطراف .

الهدم الروحى ، والهدم التاريخى ، والهدم العسكرى .

وغايتها أن تتلاقى على أنقاضنا .

وسنشرح — بايجاز — بعض مظاهر هــذا الهدم ليكون الداعية خبيراً بمقاومته ، موفقاً فى لفت الأنظار الى جراثيمه .

فان ايقاظ المشاعر له أول الأسباب للانتصار عليه ...

* * *

● الهـدم الروحى :

يجتهد الاستعمار فى صرف المسلمين عن دينهم بكل ما يتاح له من الوسائل ، وفى جعل حركات التحرر الناشطة فى بلادهم مبتوتة العلاقة بالدين ، حتى تولد ميتة ، أو تحيا عقيمة لا ثمر لها ولا زهر .

وما من نهضة فى الأولين والآخرين الا ولها دعامة معنوية تقوم عليها وسناد روحى تتحرك به .

ولما كان عمل الدين فى هذه الحالة ملء القلوب بالضمائر الحية، وبناء الأخلاق على الفضيلة، وصبغ الحياة بتقاليد جامعة، ومعالم واضحة، ورص الصفوف على احساس مشترك ودفعها الى مصير واحد، فان الاستعمار استهدف اقصاء الدين عن آفاق البلاد الاسلامية كلها، وتكوين أجيال غريبة عنه ان لم تكن كارهة له ...

بل ان ذكر الاسلام أصبح محظوراً فى المناسبات الجادة والشئون الهامة .

وقد يحوم البعض حوله، ولكنه يوجل من التصريح به .

كأن الاسلام مجرم ارتكب ذنباً ثم فر من القضاء الذى حكم بعقوبته، فهو لا يستطيع الظهور فى المجتمعات .

وربما تلوح له فرصة الظهور متنكراً تحت اسم مستعار، فيتحرك قليلا هنا وهناك، حتى اذا أحس انكشاف أمره استخفى من الأنظار !!

ياعجباً !! .. لماذا يلقى الاسلام هذا الهوان كله ؟!

والجواب عند الاستعمار الذى يجر خلفه ضغائن القرون الأولى، ويضع نصب عينيه ألا تقوم للاسلام قائمة فى بلاده : فهو حريص على خنقه فى ميدان التربية، والمعاملات، والتشريع، وسائر ألوان الحياة ..

انه يطمئن الى مجتمع واحد، المجتمع الذى مات ضميره، والذى تفسخت أخلاقه .

فى هذا المجتمع الذى غاضت منه معانى الفضل . واستغلظت فيه غرائز الشر، وزحفت فيه ثعابين الأثرة ... يستطيع الاستعمار أن يطمئن الى يومه وغده ..

فاذا جاء الاسلام ليمسح هذه الأقذار طلب منه — على عجل — أن يعود الى وكره ليختفى عن الأعين .

انه اسم لا ينبغى أن يذكر، وحقيقة لا يجوز أن تعيش . هكذا حكم الاستعمار .

حتى قيض الله لنا فكرة « العروبة » عنواناً نستطيع تحته أن ندفع غوائل الموت .

وقد هششنا للفكرة ورجونا من ورائها الخير .

وللعروبة المجردة مثل تعكر على الاستعمار مآربه •

ان التعليم فى ظل الاحتلال الأجنبى خلق أناساً تحركهم الشهوات وحدها ، أناساً فرغت عواطف اليقين من أفئدتهم فهى هواء •

فاذا جاءت اليهم العروبة ، فهل يعرفون أن العفة من خلائقها ؟ وأن تقديس العرض من شمائلها ، وأن المحافظة على الحريم من صفاتها الباطنة والظاهرة •

ان أمثال العرب فى الجاهلية تشهد بما كان لهم من غيرة على نسائهم •

فالمثل القائل : « كل ذات صدار خالة » يعنى أن العرب يجعلون فى حكم الخالة كل من تلبس ثياب المرأة ، فما ينظرون اليها الا نظرة الاحترام والعفة •

ذلك أن الخالة بمنزلة الأم ، ويقول الشاعر :

وأغض طرفى ان بدت لى جارتى	حتى يوارى جارتى مثواها

ويقول الآخر :

ولا ألقى لذى الودعات سوطى	أداعبه ، وريبته أريد •• !!

يعنى أنه لا يلاعب طفلا مع أمه ، ابتغاء اثم بالأم نفسها ••

فهل هذه الشوارع الغاصة بمتتبعى العورات وبغاة الدنية شوارع عربية ؟

وهل هم عرب أولئك الذين ترى الواحد منهم يتأبط ذراع متبرجة لعوب ، تسير فى وضع يقول لكل ناظر : هيت لك ••• ؟ ؟

والعرب الأقدمون كانوا أصحاب كرم غريب ، وايثار رائع ، ونهوض بالحق على عض الزمن ، وشدة الحاجة •

واسمع قول عروة بن الورد :

وانى امرؤ عافى انائى شركة	وأنت امرؤ عافى انائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى	بوجهى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة	وأحسو قراح الماء والماء بارد

أرأيت صورة الانسان النبيل يؤثر غيره بالطعام ، ويستعيض برشحات الماء البارد يصفر بها وجهه ، وهو يأبى تضييع من نزلوا به ، وحسبه أنه فرق جسمه فى جسوم كثيرة ..

احتفظ بهذه الصورة ثم سل نفسك : أمدن عربية هذه التى تراها مزدحمة بأصحاب الفضول من المال ، ومع ذلك فقلما تؤوى يتيما ، أو تغذو محروماً ؟؟

وما لنا نبحث عن الشمائل العربية المفقودة فى بيئات مسخها الاستعمار وترك عليها طابع الحيوانية والتقطع ؟ .

انك ترى الواحد من أولئك يقول : انه عربى ، ولغة العرب لا تستقيم على فمه !!

ومن تعاجيب الليالى أن أسمع المذيع مثلا يقول : يا أخى المواطن « احنا بنعمل ايه فى هذه الأيام » .

وكان يستطيع أن يقول : ماذا نعمل فى هذه الأيام .. ؟ .

ولكنه حريص على تخليد لغة الرعاع ، والتنكر للغة الفصحى .

وهى اللغة التى ترسل بها الاذاعات من جميع محطات العالم لمستمعيها على اختلاف ألسنتهم ، اذ يستحيل أن يخاطب المذيع قومه — فى أية عاصمة — بلغة غير الفصحى .

فهل من مظاهر الوفاء لعروبتنا أن نذيع نحن بلغة الرعاع ؟؟ .

والواقع أن الاسلام وحده هو الذى يخلد العروبة : لغة ، وأدباً ، وخلقاً .

وأن التنكر لهذا الدين معناه القضاء الحقيقى على العروبة : فى لغتها وأدبها وخلقها ، ولذلك يجب على الدعاة أن يستميتوا فى ابراز هذا الاسم بقدر ما يستميت الاستعمار فى اخفائه ، وأن يذهبوا عنه الوحشة التى صنعها أعداؤه حوله ، حتى يصبح مألوفاً فى الآذان محبباً الى القلوب .

واظهار هذا الاسم لا يكفى ، فما قيمة شكل لا جوهر له ؟ . يجب على الدعاة أن يجمعوا الجماهير على تعاليمه ، وأن ينعشوا أنفسهم بروحه .

الضمير الدينى الخاشى لله ، الرحيم بخلقه ، المحتفى بالواجبات ، النفور من الرذائل ، الشجاع فى نصرة الحق ، المستعد للقاء الله ، المتأسى بصاحب الرسالة ، هذا الضمير يجب أن ندعمه ، بل نوجده فى كل طائفة ، وأن نربط به انجاز كل عمل ، ونجاح كل مشروع ، ومنع كل تفريط ، وصيانة كل حق .

فالاسلام قبل كل شيء قلب كبير . قلب موصول بالله ، يبادر لمرضاته ، ويتقيه حيث كان .

وهذا القلب لا يتكون من تلقاء نفسه ، ويستحيل أن يتكون بداهة وسط تيارات الشكوك والتجهيل التى تسلط عليه عمداً ليضطرب ويزيغ .

انه يتكون بأغذية روحية منظمة تقدم له فى برامج التعليم ، وفى عظات المساجد وفى صبغ البيئة بمعان معينة تساعد على احترام الفضيلة واشاعتها ونحن أحوج ما نكون لانشاء هذه الضمائر فى الذرارى المحدثة التى عريت عنها ، والطبقات الكثيفة التى مردت على العبث والاستخفاف بجميع القيم .

اننى أستغرب كيف نشترى آلة بأغلى الأسعار ثم نقف أمامها عاملا لا يتقى الله فهى تخرب بين يديه على عجل .

يقل انتاجها لو قدر لها البقاء سليمة ... !!!

اننا لو بذلنا شيئاً زهيداً لغرس التدين الحق فى قلب هذا العامل لربحنا الكثير .

أفلا يبذل المسئولون هذا الشيء الزهيد ولو على اعتباره نفقات صيانة للآلة التى اشتريت ؟ ؟

ان من حق الله علينا ومن حق بلادنا علينا أن نربى الصغار والكبار على رعاية هذا الجانب الروحى الجليل .

ويوم يتنادون باسم الايمان لابتداء عمل ما . فسوف يتم على خير الوجوه .

ان الضمير الدينى علاقة راشدة بالسماء ونواة مباركة فى الأرض .

وما أصدق قول الأستاذ « أحمد الزين » فى وصفه :

هو صوت السماء فى الأرض وروح من اللطيف الخبير
وشعاع تذوب تحت سناه خدع العيش من رياء وزور
هو سر يحار فى كنهه اللب وتعيا به قوى التفكير
مبلغ العلم أنه روح غيب باطن الشخص ظاهر التأثير
كل حى عليه منه رقيب حل من قلبه مكان الشعور
حل حيث الأهواء تزو الى الا ثم وتهفو الى مآوى الشرور
جامحات أعيت على الناس كبحاً رغم انذارها بسوء المصير
ثم صاح الضمير فيها نذيراً فأصاخت الى صياح النذير
هو روح من الملائك يسمو بسليل الثرى لعالم نور
قد تولت بالأنبياء عصور وهو باق على توالى العصور
حافظاً فى الزمان ما خلفوه قائماً فى الصدور بالتذكير
حاملا من شرائع الخير كتباً قدست من صحائف وسطور
ليس يعفو من الهنات وان ها نت ملح فى اللوم والتعزير

ونحن ننشد هذا الشعر هنا تكريماً للأدب العالى ، والا فلا مجال لقول بعد أن نتدبر قول رسول الله ﷺ : « ألا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

والاستعمار يدرك أتم الادراك ، أين يقع زمام الانسان ؟ ومن يوليه وجهته ؟ .

ولذلك ركز هدمه الروحى على القلب المؤمن ، العارف بربه ، الراكن الى غيبه ، كما يوجد قوماً اذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، واذا بلوتهم فى عهد أو أمانة أو عمل أدركت أنك تتعامل مع قطيع دواب لا مع نفر من الناس .

والحياة الروحية الصالحة لا مدد لها فى أمتنا الا من الاسلام ، دين الكثرة التى تذاد عنه بالختل ، والمكر ، والتى تحرم العيش فى ظلاله خشية انفجار غضب الاستعمار ، واتيانه على الأخضر واليابس .

ولك أن تتساءل : أكذلك الحال فى أوروبا وأمريكا ؟ يقصى الدين جانباً ويسمح للحياة البعيدة عنه أن تمتد وتسود ؟ .

وهاك الجواب كما كتبه الأستاذ « محمد زكى عبد القادر » بعد أن عاد من رحلة الى أمريكا تحت عنوان « سلطة الكنيسة فى أمريكا » قال فيه :

قد يظن الكثيرون أن أمريكا تحررت من سلطات الكنيسة .

ولكن هذا الظن ليس صحيحاً ، فان المنظمات الدينية والكنسية متعددة فى مختلف الولايات .

ومن التقاليد التى جرى العرف على الأخذ بها ألا يتولى منصب رئيس الولايات المتحدة أحد من الكاثوليك .

وليس فى الدستور والقوانين ما يحرم ذلك فانها لا تفرق بين أحد وأحد فيما يتعلق بجنسه أو دينه ، ولكن التقليد بلغ من القوة حداً جعله أشبه ما يكون بنص الدستور .

والمنظمات الكاثوليكية أقوى نفوذاً من المنظمات البروتستانتية ، وان كان أتباع الكنيسة البروتستانتية أوفر عدداً ، وذلك ، لأن الكاثوليكية أشد عناية بالمظاهر والرسميات ، وأكثر التصاقاً بأتباعها وتأثيراً فى حياتهم من الكنيسة البروتستانتية .

ويصعب على أى فرد فى الولايات المتحدة أن ينتقد الكنيسة الكاثوليكية ، فهى تنتحل لنفسها ما يشبه الحصانة .

وهى تتدخل — وكذلك تفعل الكنيسة البروتستانتية — فى شئون التشريع والتنظيم فى كثير من الأحيان .

وقد تدعى لابداء رأيها — بصفة رسمية — فى بعض التشريعات والقوانين سواء فى الولاية أو الحكومة الاتحادية .

وبين المرشحين الظاهرين لمنصب رياسة الجمهورية السناتور كيندى .

ويعترف الأمريكيون بقدرته وكفايته . ويرى الكثيرون منهم أنه خير من يلى هذا المنصب ، ولكنهم يرتابون فى امكانه ترشيح نفسه ، ويرتابون كثيراً فى نجاحه لو أنه رشح نفسه ... وذلك لأنه كاثوليكى .

وربما كانت وجهة النظر الأمريكية فى هذا بعيدة عن الصلة بالدين[1] والمذهب فى ذاته فهم يقولون : ان نجاحه — كرئيس لجمهورية الولايات المتحدة يعنى أنه سيكون تحت سلطان البابا الكاثوليكى فى روما .

وهم ينذرون من هذا السلطان على أية صورة من الصور .

ويقولون ان نفوذ البابا على ايطاليا واسبانيا خاصة واسع الى حد كبير ، وهو موجود أيضا فى فرنسا ، وان كان بصورة أقل وضوحاً .

والكنائس فى الولايات المتحدة ليست منظمات دينية فقط ، ولكنها تعنى أيضاً بالشـئون التعليمية والاجتماعية ، وتتدخل أحيـاناً فى الشئون السياسية .

ويتولاها أشخاص ذوو كفاية وثقافة ، يعرفون أين يقفون وكيف يؤثرون عن طريق الدين فى الكثير من أساليب الحياة .

ثم انهم يديرون المدارس والمؤسسات التعليميـة وينفذون الى حياة العائلات .

وربما كان مما أتاح لهم هذا النفوذ أن فريقاً كبيراً من المهاجرين الأوائل تركوا بلادهم تحت ضغط الاضطهاد الدينى .

ومن ثم بدأوا حياتهم — ثم استمروا فيها — وهم أشد ما يكونون التصاقاً بالدين » .

أقول : ويبدو أن ما يباح للأديان كلها يحظر على الاسلام وحده ، فلا يجـوز أن يرتفع له علم ، ولا أن يكون لأهله نفوذ ، ولا شرائعه هيمنة ! ! !

* * *

وخطط الاستعمار فى الكيد للاسلام وصرف الناس عنه ، وقطع الأواصر بين ضمائرهم وبواعثه ، وبين أعمالهم واسمه ، كثيرة محكمة .

لقد استعان — بعد ما أخفى دولته الكبيرة — بالوطنيات كى يكون الارتباط بها اساس الأعمال الخاصة والعامة .

---

(1) الواقع ان المذهب المذهبى وحده اساس هذا المسلك وما يذكر ليس الا [illegible] له لا للتغطية .

والارتباط بهذه الوطنيات ، مهما سما وقوم ، لا يصد نزعة شيوعية ولا فلسفة وجودية ولا تفكيراً مادياً ، ولا مذهباً منحرفا .

فان هذه الوطنيات ـ بمدلولها الوثني المستجلب من الخارج ـ لا تعني الا تقديس قطعة من الأرض والمغالاة بأهلها .

ومن الممكن توفير هذا المدلول مع البعد عن الله ، والذهول عن شرائعه !

قد تقول : فهناك مواريث التاريخ واللغة وسائر التقاليد المبثوثة في حياة الأفراد والأسر . وهذه لها أثرها العميق في استبقاء الناحية المعنوية وضيئة .

والجواب : ان الاستعمار احتاط للأمر حتى تندثر هذه النواحي كلها ، فلا يبقى هناك ما وجه للاسلام أو يعلق القلوب به ...

انه هجم على اللغة العربية بلغاته التي يتكلم بها ويعتز ، فجعل اللغة الدخيلة أعلى منزلة من الأصيلة . وجعل اجتياز الامتحانات بالتفوق فيها ضرورة . وجعل الجودة فيهـا معياراً للترجيح المـادي والأدبي في كل مجال .

وبذلك تعرضت اللغة العربية للاضمحلال والهوان . وسقط بذلك جزء من الكيان الروحي للأمة .

ثم جاء الى التاريخ فاهال التراب على الحياة الاسلامية الماضية وشرع يشحن أذهان التلامذة باحداث التاريخ الأوروبي والتاريخ المحلي للقطر الذي انفصل عن شجرة العروبة والاسلام .

واكتفى بسرد نبذ طفيفة عن التاريخ الاسلامي الرحب بعد ما صيغت في اسلوب يجعل تدريسها متاحا لأي معلم ، ولو كان من اليهود . لأنها ميتة لا روح فيها ، مشوهة لا تخدم فكرة ، ولا تثير خيراً .

ثم تتبع ما قد يوحي بالاسلام ، وقص أجنحته وفض مجامعه . لكنه يخشى أن يقع شيء ما يذكر الغافلين ، ويحيي الهامدين . خصوصاً بعد عودة اليقظة الى العروبة العاطفية .

فماذا يصنع ؟ رأى أن يكاثر العرب في بلادهم بفئات أخرى من أهل الأرض ، ان لم يكف بنو جنسه لهذه المكاثرة .

جاء مثلا الى « عدن » وفيها من سكانها الأصلاء نحو سبعين ألف عربى •

فاستقدم من « الهندوك » نحو ستين ألفاً الى الآن •

وهو ماض فى سياسته ليصحوا أبناء البلد فيروا أنفسهم قلة فيه •

وبذلك ينخفض ميزانهم الى الأبد •

وهذه السياسة تجرب الآن فى « البحرين » وفى « الكويت » •

وقد جربت بنجاح فى « سنغافورة » التى كانت كثرتها من المسلمين، فأصبحت الآن من الصينيين والهنود وغيرهم •

والغريب أن المسلمين فى الملايو كانوا لا ينقصون عن ٩٥٪ فأمسوا — فى ظل الاحتلال الانجليزى — لا يزيدون الآن عن ٦٠٪ •

ونحن نعلم أن « فرنسا » وطنت أكثر من مليون فرنسى ويهودى فى الجزائر ، كذلك تصنع أغلب الدول الاستعمارية فى الأقطار التى نكبت بهـا •

والغرض ؟

أن تتحول البقاع الحساسة فى البلاد الاسلامية — بعد هـذه الهجرات — الى اسرائيل أخرى ••• ينحسم منها عرق الاسلام انحساماً لا يؤذن بعودة •

وقبل ذلك ؟

احداث بلبلة فكرية وروحية شاملة بحيث تحتبس أصوات المسلمين فى حلوقهم فلا يجرؤ أحد على النداء بوحدة عاطفية ، ولا خلقية •

وقد حاول الانجليز انجاح هذه التجربة فى العراق من أربعين سنة • فاستقدموا جيشاً من الموظفين الهنود ، وهيئوا مستعمرات لاقامة الألوف من الأسر الهندوسية •

وضنوا بأرض العراق على أهله وأخذت مشروعاتهم تظهر على شواطىء دجلة والفرات ••

ولولا أن الشعب العراقى انتفض فى ثورة جامحة قضت على المشروع وواضعيه لكان الآن العراقيون قلة أو مساوين فى العدد

المهاجرين الذين نقلتهم سلطات الاحتلال ، وفى التنديد بهذه المحاولة الآثمة يقول « الرصافى » من قصيدة له :

لنـا ملـك وليس له رعايـا ... وممالـك وليس لهـا جنـود !

. . . .

أتغدو الهنـد خيراً من بلادى ... وخيراً من بنى قومى الهنـود ؟

أما واللـه لو كنـا قـروداً ... لمـا رضيت بعيشتنا القـرود ؟

المحور الذى تدور عليه سياسة الاستعمار فصل الأمة عن قواها الروحية وابعادها عن منابع الايمان وتوجيهات اليقين ، والاجتهاد فى خلق ناس قلوبهم هـواء ، وأفئدتهم خـلاء ، لا يجمعهـم رباط ، ولا توحدهم غاية .

وأدنى الوسائل الى ذلك تفتيت الأمة ، وتكثير أهوائها .

فان لم توجد فيها قلة يمكن أن تعتبر « كمسمار جحا » وتعجز رب الدار عن حرية التصرف فيها ، وجب استجلاب الغرباء من كل ناحية . ليطالبوا بعقيدة غير العقيدة ، ومجتمع غير المجتمع وتاريخ غير التاريخ ، ومصلحة غير المصلحة .

وهكذا يكره المسلمون على ترك دينهم ، ويضطرون الى صرف الفكرة عنه ، اذا نادوا باستقلال !!

والاستعمار هو الكاسب على أية حال ..

من المستحيل أن ينهض المسلمون ، بعيداً عن قواعد دينهم ، أو أن ينهض بناؤهم الخلقى والثقافى والاجتماعى مع التجهم لكتاب الله وسنة رسوله .

ان الاستعمار أفهم بعض المغفلين أن من المستطاع فصل الدين عن كل شىء فى الحياة العامة والخاصة

لينطلق كل شىء متحرراً من الدين ، أى من الاسلام وحده .

وليبقى الدين ـــ بعد أن انفصل عن كل شىء ـــ خبراً « كان » ذكريات مضت ، وخرافات انقضت ... !!!

ونحن نرى ضرورة « مد الاعتبار » الى هذا الدين الذى أهانه

الغزاة وجردوه من كل فضل . ونسبوا اليه كل عيب ، وأطلقوا المسعورين ينبحون قوافله كلما بدت لها حركة .

لماذا يطلب منا — نحن المسلمين — أن تحيا أرواحنا بعيدة عن دفء الايمان الذى انتهينا اليه ؟

ان الذين يطفئون شموعنا سيبقون معنا فى ظلام لأنه ليس لديهم نور .

أما الزعم بأن الاسلام ، لا يصلح للعصر ، فهو زعم سخيف منتن ، صحيح أنه لا يصلح للحياة مع الاستعمار ، ولا يقبل ألبتة أن يجاوره فى دار .

أما صلاحيته للحياة المطلقة المشرقة فهو ينبوع صفوها ونورها .

ولا بأس أن ننقل هنا كلمات حسنة للأستاذ « محيى الدين نصار » من مجلة « العلوم والسياسة » لها بموضوعنا كبير اتصال :

● **الدين :**

اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصل العقيدة الدينية فى طبائع الانسان دن أقدم أزمنة التاريخ .

وترجع أهمية الدين — من حيث هو للوحدة — الى تأثيره فى تكوين الأمم وتمييزه بعض عن بعض فهو يولد نوعاً من الوحدة فى شعور الأفراد الذين ينتمون اليه . ويثير فى نفوسهم بعض العواطف والنزعات التى تؤثر فى أعمالهم تأثيراً شديداً .

فالدين من هذه الوجهة أهم الروابط الاجتماعية التى تربط الأفراد بعضهم ببعض وتؤثر بذلك فى سير السياسة والتاريخ .

ويكفى للدلالة على أن مكانة الدين مازالت قائمة فى القرن العشرين، نشأة دولتى « اسرائيل » و « باكستان » .

الأولى على أساس اشتراك اليهود فى الديانة اليهودية واللغة العبرية والآمال المشتركة ... الخ .

والثانية على أساس الاسلام والحضارة الاسلامية ... الخ .

والاسلام هو الدين الذى يوحد العرب ويجمع شملهم لأنه دين الكثرة منهم .

والاســلام دين عقلى .. وهو قانون للفرد والمجتمع والعلاقات المحلية والدولية على السواء .

وهو دين ديمقراطى ، دين المساواة الكاملة بين البشر باعتبارهم من خلق الله ، والاســلام فى أساسه جملة من المعتقدات التى تدور حول مبدأ التوحيد .

وهو دين مرن . ومتطور ، ولا يتعارض مع المدنية والحضارة . بل انه نفسه خلق للعرب مدنية وحضارة ، وهو كما قالت نجلاء عز الدين : « ليس قوة تعمل على الوحدة باعتباره ديناً فحسب ، بل باعتباره منهجاً مفصلا للحياة الكاملة أيضاً » .

ولقد عقد البحاثة الأمريكى « هوكنج » أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد ، فصلا مستفيضاً عن « مصير الثقافة الاسلامية » فى كتــابه « روح السياسة العالمية » قال فيه :

« ان سبيل تقـدم الدول الاسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب المفترضة التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية أو يتحدث عن القانون والنظم السياسية ، وانما يجب أن يجـد المرء فى الدين مصدراً للنمو والتقدم » .

قال : « وأحياناً يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد أفكار جديدة ، واصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية » ؟؟ .

والجواب على هذه المسألة هو أن فى نظام الاسلام كل استعداد داخلى للنمو ، وأما من حيث قابليته للتطور فهو يفضل كثيراً من النظم والشرائع المماثلة .

والصعوبة لا تنشأ من انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الاسلامى ، وانما فى انعدام الميل الى استخدامه ... » .

هكذا قال البحاثة الحصيف !! ولست أريد أن أقف لتعليل هـذا العزوف ، وحسبى أن أذكر قوله « ... وانى أشعر أننى على حق حين أقرر أن الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض ... » .

ذلك ، وفى الاسلام قال « برناردشو » : « لا يمضى مائة عام حتى تكون أوروبا — ولا سيما انجلترا — قد أيقنت بملاءمة الاسلام للحضارة الصحيحة » .

والاسلام ، كما قال « فاليو دوردسن » : « دين انسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولا أكاد أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية الا وجدته مشروعاً فيه » .

والاسلام — كما يقول الأستاذ « العقاد » — يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة هى « الحق » وهو بذلك يكون الدين الحق ...

انه دين شامل — وشموله هذا — هو الذى حقق له ما لم يتحقق لعقيدة سواء من تحويل الأمم العريقة الى الأيمان به عن طواعية واختيار .

وبالنسبة للحريات نجد أن ثورات العالم المدنية والدينية لم تعلن حقوقاً عامة للانسان قبل ثورة الاسلام فى القرن السادس للميلاد .

وعند الأستاذ « جب » أن الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات .

انه أعظم من ذلك كثيراً ، انه مدنية كاملة .

ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا : العالم المسيحى ولم تقل المسيحية .

وعناصر الاسلام الثلاثة التى لا انفصال لها فى سياسته وجماعته هى : المساواة ، والمسئولية الفردية ، وقيام الحكم على الشورى وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات .

ولا مصدر للسلطة العامة فى الاسلام غير الأمة .

ولا مرجع للمسئولية العامة غير الأمة ، فهى التى تدين حكامها وتبت فى مصائرهم .

والاسلام ، كما قال الدكتور « جوستاف لوبون » — محذراً من تخرصات المفرقين — : « انه يوفق كثير من عظماء المؤلفين المشهورين عندنا الى فهمه . ولذلك يجب علينا أن نتروى قبل أن نجارى أولئك الذين لم يقدروا الاسلام حق قدره ، وأن نحاول أن نتبين أهميته بالنسبة للوحدة العربية » .

لقد اشترك الاسلام — بل انفرد — كقوة خالقة فى تكوين الأمة العربية ، وكانت أول مساهمة له فى تأميم الحياة العربية فى اطار من الاخاء داخل المجتمع الاسلامى .

وترجع حركة التعريب الواسعة بين شتى الشعوب الى انتشار الاسـلام .

وعند « محمد اقبال » أن الاسلام بالنسبة الظروف، التى ظهر فيها كانت هبته العظيمة للعرب تتمثل فى خلق مجتمع وانشاء دولة .

والعلاقة بين العرب والاسلام علاقة فريدة ... فالاسلام دين عربى ... اذ نزل القرآن الكريم بالعربية . وكان الرسول ﷺ رجلا عربياً من قريش .

وتنظر القومية العربية الى الاسلام كارث قومى مشترك على الأقل بين كل أبنائها .

قال : ولا يوجد تعارض ألبتة بين القومية العربية والاسلام ، فالاسلام دين العرب وأساس وحدتهم .

بل انه — باسمه — فتحت البلاد الأخرى ، وانتشرت اللغة العربية.

والقومية العربية فى حاجة الى دين الاسلام لكى تكتشف عن أصلها ، ومصادر قوتها .

والخلاصة أنه لا بد أن يرجع الاسـلام والقرآن فى خلق الأمة العربية والدول العربية ، وقد حمل الاسلام العرب شوطاً تجاه التقدم نحو وعى عربى .

وفى هذا يقول الدكتور « أديب منصور » :

« بالاسلام تكونت ذات عربية معروفة فى التاريخ ، هذه الذات الفذة التى كونها الاسلام فتحت الفتوح ومصرت الأمصار وحكمت الأمم بضعة قرون » .

وفى هذا تقول الدكتورة « نجلاء عز الدين » :

« والاسلام يوحد العرب عاطفياً ويربطهم بوحدة المثل العليا ، وقد كان الاسلام وما زال فى قلوب الكثيرين من العرب الى اليوم يقوم مقام القومية » .

ويعترض البعض على اعتبار الاسلام من عوامل الوحدة بين العرب نظراً لوجود أقليات غير اسلامية ساهمت بنصيب كبير فى احياء القومية العربية ، وبعثها ، وفى نشر حضارة العرب فى أوروبا .

ويهمنا من هذه الأقليات العربية المسيحيون ، وهؤلاء يقف منهم الاسلام موقفه من الذميين عموماً يرعاهم ولا يفرق بينهم وبين المسلمين فى الحقوق أو الواجبات ، بل ان المسيحيين الشرقيين نالوا من الحرية والعدالة فى ظل الاسلام أكثر مما نالوا فى ظل المسيحية الغربية .

أما ما حدث بين المسلمين والمسيحيين من حروب صليبية فان ذلك لم يكن على أساس دينى خالص ، بل اكتنفته مطامع أوروبية سيئة .

وانما حدث الغزو الصليبى بدافع الاستعمار ، ولم يكن ذلك دفاعاً عن الأرض المقدسة فى « فلسطين » كما يقولون ، بل كان دفاعاً عن المصالح الاستعمارية للغزاة الفاتحين » .

* * *

● **الهدم التاريخى :**

وعلى الداعية المسلم أن يعرف عظمة النعمة التى أفاءها الاسلام على العالم أجمع عندما أشرق نوره واكتمل ظهوره .

ان الأغلال التى فكها عن العقـــول ، والآصار التى وضعها عن الكواهل ، والآفاق التى افتتحها لنشدان الكمال ، والقوى التى حركها لاحياء الحضارات ، ان هذه كلها بعض آثار الاسلام فى الأرض ...

ولولا أن هذا الدين نجح فى تبليغ رسالته لعادت الانسانية الى الوراء متقهقرة ما تقف حتى تبلغ العصر الحجرى ...

ذلك أن الفساد كان قد عم البر والبحر .

فالليل المضروب على العبيد فى الشرق والغرب لا يؤذن بفجر .

والجبـــابرة الذين ســـخروا الدين لمـــآربهم لا يجـــرؤ على اعتراضهم أحـــد .

والمصايد المطبقة على الأفكار والأرواح لا يخرج من ســـجنها بائس ..

لولا هـذا الاسلام لظلت أوروبا على نتنها المـادى والأدبى ، تتعبد بالنجاسة ، وتتقرب الى الله باحتقار العقل وذبح المفكرين .

ولقد ظل الأوروبيون يمقتون الاسلام أقبح المقت ، ويؤذن الله ورسوله بأشد الكلم ، وظل الاسلام يقاوم تعصبهم على مر القرون ، حتى أفلح آخر الأمر فأنفذ أشعته الى العيون الكارهة لها .

وبدأ عصر النهضة فى أوروبا ، نعم بدأ عصر النهضة ، وتحركـت الأحجار بعد بضعة عشر قرناً من مواتها فى شمال أوروبا وجنوبهـا وشرقها وغربها .

وكان الفضل لنا نحن ، لآبائنا الكبار ، لأساتذة الدنيا فى أعصار لم تعرف الدنيا غيرهم ، يومض بشعاع ، ويتألق بنور ..

وكان ينبغى أن يعرف الأوروبيون لنا هذه المنة ، وينسبوها للعرب وللمسلمين أصحابها الأصلاء ، ولكن الجحود غلبهم ، والتعصب استبد بهم ، فاذا النهضة التى اشتعلت فى غرب أوروبا وسميت بعصر الاحياء ، تنسب الى جهود علماء القسطنطينية(٢) وهجرتهم أمام الفتح التركى .

وهكذا نال علماء القسطنطينية وما حولها فخراً لم يحلموا به ولم يفكروا فيه يوماً ... !!!

واستمرت سياسة(٣) الجحود والكذب فى مجراها المرسوم ، فاذا هى لا تجحد الفضل فحسب بل ترمى العقل الاسلامى بكل نقيصة وتتهمه بكل وصمة ، وتلح فى وصف العرب والمسلمين بأنهم ، ما كانوا يوماً ما حملة علم ، ولا خدمة فكر . !!!

ويمضى التعصب الخسيس فى طريقه ، ليحيك مؤامرة بين المبشرين والمستشرقين تستهدف خلق جيل من المسلمين المهزومين يفهم أن آباءه لم يحسنوا لحظة ، لا الى أنفسهم ولا الى الناس .

وأن الاسلام كان ديناً همه التدمير لا البناء ، والجمود لا التجديد . وأنه اذا كان هنالك فى تراثه ما يشير الى ألمعية وروعة فهو مسروق أو منقول عن الاغريق وغيرهم .

ولولا نفر من المنصفين استحى من فعال قومه لطمست الحقيقة .
وذهب فضلنا مع الريح .

ولكن ما يصنع هذا النفر مع الكثرة التى تريد اقناع نفسها واقناعنا معها بأننا لم نكن يوماً ما شيئاً مذكوراً ، ولن نكون — وكذلك يأملون — ؟؟؟

والدكتور « فيليب خورى حتى » يروى فى كتابه « تاريخ العرب » هذه النغمة التى يتواصى المستشرقون باذاعتها واشاعتها .

فهو يؤكد فى أكثر من موضع أن المسلمين لم تكن لهم حضارة خاصة ، ولا ينبغى أن يذكروا بتراث من نسج أفكارهم وعمل مواهبهم .

انهم عالة على الأمم التى غلبوها ، وجسر مؤقت عبرت عليه مدنيات الأقدمين واسمع اليه يقول عن مظاهر الحياة العقلية فى عهد الأمويين :

« لم يحمل الغزاة من الصحراء معهم الى البلاد المفتوحة تراثاً ثقافياً ولا تقاليد علمية ، ولقد جلسوا فى كل من الشام ومصر والعراق وفارس مجلس التلاميذ عند أقدام الشعوب التى أخضعوها ، ولله ما كان أنهمهم من تلاميذ فى طلب العلم ... » .

وهو قبل ذلك يتحدث عما يسمى بـ « الحضارة العربية » !! فيزعم أن العرب لم يستولوا فقط على مساحات شاسعة من الأرض حين أتموا فتح مصر وفارس وغيرهما ، بل أصبحت فى حوزتهم أقدم مراكز الحضارة فى العالم كله ، ووضعوا أيديهم على ما احتوته هذه الحضارات من تقاليد عريقة ترجع الى اليونان والرومان والفراعنة وبابل وآشور .. الخ .

ثم يقول : « لم يكن لدى العرب الأصليين أى شىء يعلمونه للآخرين ، وكان أمامهم كل شىء ليتعلموه ، ولله ما كان أشدهم فهماً ! ان أولئك العرب المسلمين بما فطروا عليه من رغبة شديدة فى العلم وبما انطوت عليه جوانحهم من قوى كامنة لم تثر بتاتاً من قبل ، قد بدأوا الآن بفضل تعاونهم مع رعاياهم وبفضل مساعدة أولئك لهم يهضمون ويكيفون وينبشون تراثهم العقلى والفنى .

ثم يقول : وعلى ذلك فما نسميه بـ « الحضارة العربية » لم تكن عربية لا من حيث أصلها ومقوماتها الأساسية ولا من حيث مظاهرها الجنسية الهامة ، وان الاضافة العربية الخالصة فيها ربما كانت فى

الميادين اللغوية ، والى حد ما فى الميـادين الدينية ، وطوال عصـور الخلافة كان أهل الشـام وفارس ومصر وغيرها ، مسلمين كانوا أم مسيحيين أم يهوداً ، هم حملة شعلة الثقافة والعلم كما كان شـأن اليونان المنهزمين فى علاقاتهم مع الرومان المنتصرين تماماً » .

ويمضى هذا المستشرق فى شططه الغريب ، وكأنما هو يؤدى وظيفة مرسومة لا بحثاً علمياً ، فيتحدث عن أيام العباسيين قائلا : « ان الذى جعلها زاهية فى تاريخ العالم أجمع هو تلك اليقظة الفكرية الهائلة التى شاهدها تاريخ الاسـلام ، والتى تعتبر أهم فترات تاريخ الفـكر والثقافة فى العلم .. » .

قال : « ويرجع السبب فى هذه اليقظة ــ الى حد كبير ــ الى التأثير الأجنبى ، ذلك التأثير الذى يقوم فى بعض أجزائه على عناصر هندية وفارسية وسورية ، ولكنه فى جماته يعتمد على الاغريق ، وكانت الترجمة محور هـذا النشاط .

قال : « وان المسلم العربى ــ بما حمل معه من الصحراء من احساس حاد ، وشغف عقلى ، ونهم للعلم ، وقوى كامنة ــ كما درسنا سابقاً ــ سرعان ما أصبح الوارث المنتفع من هذه الشعوب .

وهى شعوب أكثر وأقدم ثقافة من الذين غزوها ، وان كان هؤلاء الغزاة قد بدأوا من عندهم بجزء قليل من العلم والفلسفة ، والأدب .. » .

جزء قليل !! ان هذا اعتراف ، ما كان له من داع !! ، وليست غيه دلالة على انصاف .

ومع ذلك فلنقبله من الدكتور « فليب حتى » ثم لنسمع الى ما أردفه به من عبارات .

قال : « لم تمض عشرات من السنين حتى اهتضم علماء العرب ما أنفق اليونان قرونا فى توضيحه .

على أننا يجب أن نذكر أن الاسلام فى أخذه بمظاهر الثقافتين اليونانية والفارسية فقد طابعه الأصلى الذى كان يشف عن روح الصحراء ويحمل طابع القومية العربية » .

***

ومن السهل أن نوجز مآرب الكاتب فى هذه الخلاصات :

١ — لم يحمل العرب معهم حضارة يعلمونها للناس عندما خرجوا من جزيرتهم ينشرون الاسلام •

٢ — اذا كانت هناك نهضة اقترنت بانتشار الاسلام فهى وليدة الازدواج الذى تم بين خصائص الجنس العربى ومواريث الأمم المغلوبة على أمرها •

٣ — أن الشعوب المتخلفة عن الانهيار الحربى للرومان والفرس كانت أرقى من العرب الفاتحين ، وأرفع مستوى من المسلمين المنتصرين •

ولذلك فقد قامت بوظيفة الأستاذ لمن قهرها ، وقام العرب بدور التلميذ • ويؤسفنا أن نذكر نحن بايجاز : أن هذه النتائج المستخلصة من كتابات ذلك المستشرق وكتابات أمثاله الحاقدين على الاسلام ، لا أساس لها من الصحة ولا سناد لها من العلم ولا أثارة فيها لوفاء •

بل انها لون من الهدم المتعمد لتاريخ أمة أسدت الى العالم أعظم الفضل ، وطوقت عنقه بصنيع يجب أن يحمد لا أن يغمط •

١ — فأما أن العرب لم يحملوا معهم حضارة تعلم الناس ، فهذا من أبين الغلط ، فان القرآن الذى صنع العرب صناعة جديدة ، وكون منهم خير أمة أخرجت للناس ، تضمن من بواعث الازدهار الفكرى والنفسى ، وأصول الحقوق الخاصة والعامة ، ما جعل العالم ينتقل به من طور الى طور •

ان هذا القرآن ليس كتاباً من تلك الكتب التى تحمل نعت القداسة ، فاذا أجلت النظر فى صحائفها طويتها على عجل احتراماً لعقلك وخلقك ، كلا انه كتاب يستثير أقصى ما فى العقل الانسانى من طاقة ، ويهز آخر ما فى الضمير الانسانى من شعور •

وهو يخلق جو البحث والتفكير خلقاً ويدفع بقوة الى النظر والتدبر •

ثم انه تضمن من الشرائع الاجتماعية ، والتوجيهات الانسانية ، ما لم يكن لادنيا عهد به • والرسول العربى الخاتم لجميع الأنبياء كان بالنسبة الى العرب كالغيث الهاطل على أرض موات لم تلبث به الا قليلا حتى تحولت الى واد ممرع ، حافل بصنوف الثمر •

وعندما فصل العرب عن حدودهم ، وساحوا فى أرض الله يبلغون رسالته ، كانوا يحملون مبادىء أرقى ألف مرة من المبادىء التى حملتها ثورات العالم الحديث .

فالزعم بأنهم لم يحملوا للعالم حضـارة ، ولا تقاليد علمية ، ولا توجيهاً ثقافياً انما هو زعم فارغ .

ربما صح أنهم لم يحملوا للعالم طرازاً جديداً فى فن البناء ، أو الغناء ، أو فن البحث الملتوى عن حقيقة ما سبق أن قال الاسـلام فيها كلمته الحاسمة .

فهل هـذا يعيب الاسـلام ، ويصم أمته بأنها لم تحمل للناس حضـارة .. ؟ ؟

هل شعل الحق والعدل والبر التى نقلها العرب للعالمين لا تسمى حضـارة ، ولا تستحق أن تذكر بأنها شىء قدمه المسلمون للناس ؟ ؟

٢ — يزعم الأسـتاذ « فيليب حتى » أن خصائص العرب — لا مبادىء الاسلام — هى التى كونت ما يسمى نهضة اسلامية .

وتقدمة لهذا الزعم ، وحتى يروج له بين الأغرار ، استعرض تاريخ العرب فى الجاهلية ثم اكتشف فى استعراضه أن هذه الجزيرة كانت مشحونة بالرجال وأنها طالما ضاقت بأهلها ، واضطرتهم الى الهجرة منها ، وأن انطلاقة الاسلام العظيمة ، ليست الا تكراراً لهجرات سبقت ، نزح فيها العرب — لظروف اقتصادية — الى الأقطار المجاورة .. !!!

ومعنى هذا أن الفتح الاسلامى ، هو هجرة عربية بحتة ، تحركت فيها مواهب جنس ، وخصائص أمة بقيادة زعيم قومى هو « محمد » ﷺ وخلفاء ناشطون ، هم حكام الاسلام .

وهذا الكلام من أسخف ما قرأت فى حياتى ، ومن أتفه ما يذكر فى ميادين البحث العلمى .

تصور رجلا يقول لك : أتحسب أن النهار بدأ صباح اليوم ؟ لقـد طلع نهار آخر فى منتصف ليل أمس ، وان كان النـاس لا يشـعرون !!!!

الامتداد الاسلامى الطويل العريض الذى غمر الكون بنهار من المعرفة الساطعة لم تعرف الحياة فى غابرها وحاضرها شروقاً مثله .

هذا الامتداد ، نوع من الهجرة العربية ، سبق لهذا الجنس أن قام بمثيل لها ، وان كان الناس لا يشعرون ... !!!

أما القرآن وهدير آياته الذى حطم الخرافات .

أما الرسول العملاق الذى أحيا بالوحى أمة من العدم . وشق بها ما اكتنف الأجيال من ظلم . فهذا أو ذاك شىء لا ينبغى أن يذكر .

ان العرب قبل الاسلام ما كانوا شيئاً .

ومن غير الاسلام ما كانوا شيئاً .

ولو حدث أنهم انطلقوا الى الناس مجردين من هذا الدين ما كان للقائهم بشعوب الأرض أدنى أثر .

فان اجتماع الأصفار لا يكون عدداً صحيحاً ولا مكسوراً ...

والواقع — كما قلنا — أن الاسلام وحده ، هو الذى علم العرب من جهل ، ونقلهم من الظلام الى النور ، وزودهم بقدرة روحية وفكرية جعلت انقضاضهم على الأقطار الهامدة كانقضاض الشهب على الهشيم اليابس .

والواقع — كما قلنا — أن الاسلام — بأصوله السماوية الراشدة — هو الذى قام بأوسع نقلة فى مدارج الرقى البشرى عندما حول العرب الأميين الى رجال فكر ، وأئمة هدى .

وعندما جعلهم يتصلون بالعالم اتصال المعلم الواعى بالتلامذة الهمل .

وعندما فتق أذهانهم وأمكنهم من تناول التراث الفكرى للعالم تناول الناقد البصير يمحو منه ويثبت ، ويصوب منه ويخطىء .

أجل .. لقد نظر العرب فى كتب الأقدمين نظرة الأستاذ الى كراسات الطلاب التى تتضمن من الحقائق ما يقره ، ومن الجهالات ما ينكره ..

وكانت هذه المكانة العقلية قد أضحت لهم بفضل الاسلام وحده ، لا بفضل شىء آخر مدعى أو موهوم .

واذا كانت هناك آثار للحضارات القديمة ، أو لأفكار الاغريق ،

والفرس فى التراث الاسلامى ، فهى آثار تشين معالم الوحى ، وتجب أن تماز لتنحى لا ليفخر بها ..

٣ — ونجىء الى ثالثة الأثافى فى مزاعم الأستاذ « فيليب حتى » وهو أن الشعوب الشرقية والغربية حول المسلمين كانت أرفع منهم قدراً ، وأرسخ قدماً وأعلى مستوى !!!

وأنها — بمواريثها القديمة — أرجح كفة من العرب الفاتحين ..

والحقيقة أن الشعوب الأوروبية والافريقية والآسيوية كانت الى ثلاثة قرون تقريباً أنزل رتبـة من الأمة الاسـلامية فى كل شـأن مادى وأدبى .

وأنها كانت فريسة لجملة من جراثيم الجهل والتعصب والجمود تزرى بقدرها أشد الزراية .

ولا ندرى كيف أن المسلمين الفاتحين تتلمذوا على شعوب جاءوا اليها ليفكوا عنها أغلال التقليد ، وغشاوات العمى ؟

لقد كانت روما ، وبيزنطة ، والقاهرة ، ودمشق ، والمدائن ، وسائر العواصم . التى طرق الاسلام أبوابها تعيش فى سجن من الآراء الدينية الضيقة ، بعضها وثنى ، والآخر قريب منه . فكيف يظن أن أهلها كانوا أفضل من المسلمين يومئذ ؟ ؟

نعم ان العرب ترجموا كتب الأولين من يونان ، وفرس ، لا ننكر ذلك ، وطلبوها من مظانها البعيدة ..

بيد أن من الانصاف أن نتساءل : ماذا كانت أحوال البلاد التى استقدمت منها هذه الكتب ؟

لقد عبرت دهراً ، وهى لا تعى منها شيئاً .

ومضت بعد ذلك أعصار عليها وهى لا تعلم عنها شيئاً .

لقد كانت فى نوم عميق .

فهل النهم العلمى الذى خلقه الاسلام فى نفوس العرب وأغراهم بالاطلاع على كل شىء سواء احتاجوا اليه أم استغنوا عنه ، هل هذا النهم البالغ ، وتلك الحرية الغربية يبعثان الفكر النزيه على اتهام العرب بأنهم تسولوا العلم من أمم كانت أذكى منهم وأقدر .. ؟

فأين كان ذكاؤها من قبل ومن بعد ، وهى لم تذق طعم المعرفة الا بعد ما تتلمذت علينا ؟

ان الأحقاد مهما كلحت لا تستطيع تغطية الحقائق الكبيرة .

والحضارة التى تبعت انتشار الاسلام فى الأرض كانت من السناء والازدهار بحيث تعجز المكابرين وتكرههم على الاقرار بفضلها .

ذلك الى أن تأخر البلاد التى لم تعتنق الاسلام ، وتخلفها البعيد فى شتى الميادين يجعل مدنية الاسلام أكثر بروزاً وأشد تألقاً !!

ولو أننا رجعنا الى الوراء قروناً لا تتجاوز أصابع اليد لرأينا من معالم الحضارة الاسلامية ومظاهر التأخر الغربى ما يدعو الى العجب .

كان المسلمون أنظف أبداناً وأنضر أفكاراً ، وأرق قلوباً ، وأرقى آذانا ، وأوسع عمراناً ، وأضخم غنى ، وأشد قوة من أقطار الغرب كلها ... وكانت عواصم الاسلام ملأى بالحمامات والمستشفيات والمدارس والجامعات والمصانع والمتاجر على حين أن عواصم الغرب كانت محرومة من أغلب هذه المؤسسات .

وكان المسلمون آية ناطقة بالتسامح الدينى ، والمرونة العقلية على حين أن أقطار الغرب كانت مبللة الثرى أبداً بضحايا القتال الدينى ، والحرية العقلية .

ويظهر أن عدداً من رجالات الغرب رأى أن جحد ما للاسلام من أياد على العالم شىء غير مستطاع أو عمل غير صالح ، فسلك طريقاً أخرى هى أن يعترف للمسلمين بفضل جزئى محدود ، ويواجه ما قدموه للعالم من مدنية وارتقاء . ثم ينسب جرثومته الى اليونان الأقدمين ..

ومعنى هذا أن العرب نقلوا تراث الفلسفات الاغريقية الأولى وأنهم أضافوا اليها من عندهم أشياء ذات بال .

وأنهم بذلك يستحقون الحمد على ما نقلوه ، وما أضافوه .

اذ لولا تلك الجهود ما بدأ عصر النهضة ، ولا أبصر العالم الحديث بكنوز الاغريق الأولين ولا قامت هذه المدنية العظيمة التى يعيش الناس الآن فى ظلها .

***

وهـذا الكلام — فى رأينا — لا يجدى فتيلا ، ولا يرضينا كثيراً ولا قليلا .

والحق عندنا أن النهضة العقلية التى صنعها الاسلام مستقلة المنبع والوجهة .

وأن التفكير الاسلامى المستقى من ايحاءات القرآن والسنة بعيد كل البعد عن منازع الفلسفات الاغريقية على اختلافها .

وأنه اذا كان لأفكار اليونان من أثر فى ثقافتنا نحن ، فذلك الأثر هو أنها اعوجت بالعقل الاسلامى وضللت سعيه .

ونزيد على ذلك أن الحضارة الحديثة وكشوفها المادية وأساليبها العلمية لم تتقدم خطوة الى الأمام الا بعد أن نبذت فلسفة الاغريق ، ومنطق أرسطو . واعتمدت على الملاحظة والتجربة والاستقراء .

وهى أصول فى التفكير الانسانى لا يعوزك أن تلمحها فى القرآن الكريم . وهو الكتاب الأول والأخير الذى أهاب بالانسان أن ينظر فى الكون وأن يبنى معارفه على الحقائق لا على الظنون .

والايحاءات الاسلامية الخالصة التى هى بنت حضارتنا .

وهى التى كذلك أسدت للغربيين أقباساً من العلم نهضوا به وتحسسوا مستقبلهم عليه .

والاعزاز العجيب للعقل الانسانى وحرية الفكر هو الذى أغرى أسلافنا الأوائل بغربلة التراث الانسانى كله ، دون شعور بحرج دينى ، أو قيد روحى .

وهو الذى دفعهم الى الاغراق فى هـذه المذاهب والبحوث ، وسول لبعضهم أن يعتنق هـذا الرأى أو ذاك من آراء الأقدمين ، ويفسر على ضوئه بعض أحكام الدين .

وقد كان المسلمون يصنعون ذلك بينما كانت نوافذ الفكر الانسانى مغلقة بألف مزلاج فى أوروبا ، فلو حاول رجل حر التطلع من خلال القضبان الى آفاق الفكر الرحب فان جزاءه ضرب العنق ، باسم الكهنوت الحاكم بأمره يومذاك .

فلما انتشرت الحضارة الاسلامية ، وتسربت مع الزمن الى أقطار الغرب .

ولما بدأ عصر الاحياء من آثار احيائنا نحن للعقل والفكر فى القرون الوسطى ... جاء من يقول : ان العرب لا فضل لهم أبدا فى شىء .

ثم خفف بعضهم من غلوائه فقال : بل لهم فضل النقل والتجديد ، نقلوا تراث اليونان وشرحوه !!

كأن اوروبا وأمريكا نهضتا اليوم بفلسفة اليونان من ثلاثين قرناً .

اله ما أسوأ الكذب .. وما أخس الجحود !!

ان المحققين المنصفين من مفكرى الغرب يصرحون بأن هجرة البيزنطيين من شرق أوروبا لم تخلق عصر الاحياء .

وأن عصر الاحياء جاء من العرب وحدهم ، ونضج عن حضارتهم المتفوقة .

وأن علماء بيزنطة لم يكن لديهم يوم هاجروا الى الغرب شىء ينفعون به أنفسهم فضلا عن أن يرفعوا به غيرهم !!!

ومع اعتقادنا بصدق هذا الرأى فنحن لا نرى مانعا من اثبات طائفة من الاعترافات المحدودة . بفضل العرب « الجزئى » على العالم . مبتدئين بكلام الدكتور « فيليب حتى » نفسه الذى سبق أن صرح بأن العرب لم يكن لديهم شىء[4] قط يقدمونه للناس . قال :

« ان فترة الترجمة (٧٥٠ — ٧٨٥) التى ناقشناها فى فصل سابق قد أعقبتها فترة نشاط وابتكار لأن العرب لم يقتصروا فقط على هضم علم فارس القديم وما خلفه اليونان ، ولكنهم كيفوا كلا منهما حسب حاجاتهم الخاصة . وطرائق تفكيرهم ، ففى الطب والفلسفة كانت أعمالهم المستقلة أقل وضوحا منهم فى الكيمياء ، والفلك والرياضيات والجغرافيا .

---

(٤) المسلمون يعرفون معرفة اليقين ان دينهم يقوم على التوحيد ، وان التوحيد موضوع الاسلام وعنوانه ، ومع ذلك فان « فيليب حتى » ينقل للغربيين كلاما معناه ان المسلمين يعبدون الكعبة اى انهم وثنيون . انها مغالطة بعض مزورى ديننا وتاريخنا جميعا !!!

أما فى القانون وأصول الدين والاشتقاق وعلوم اللغة ، فانهم — كعرب ومسلمين — قاموا بتفكير وبحوث أصيلة مبتكرة ، وكانت ترجماتهم — وقد أضفى عليها قدر غير يسير من العقل العربى فى أثناء انتقالها بين القرون العديدة — قد نقلت — مع ما أضافوا من مسائل جديدة — الى أوروبا عن طريق « سوريا » و « أسبانيا » و « صقلية » وكانت أساساً فى قانون المعرفة الذى تغلب على الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى .

والنقل من وجهة نظر تاريخ الثقافة لا يقل مكانة عن الابتكار .

اذ لو أن بحوث « أرسطو » و « جالينوس » و « بطليموس » فقدت ولم تصل الى الخلف لأصبح العالم فقيراً فى العلم ولغدت البحوث وكأنها لم توجد بتاتاً » اهـ

***

ويعود « فيليب حتى » الى طرق الموضوع بأسلوب أقرب الى الاعتدال فيقول :

فى هـذا العصر أخذت العاصمة الأموية « قرطبة » مكانها كأعظم مركز للثقافة فى أوروبا .

وكانت هى وكل من القسطنطينية[٥] و « بغداد » مراكز الثقافة الثلاثة فى العالم أجمع .

فكان فيها مائة وثلاثة عشر ألف مسكن واحدى وعشرون ضاحية وسبعون داراً للكتب ، وعدد عديد من حوانيت الكتب والمساجد والقصور ..

وكانت لها بذلك شهرة دولية تبعث الرهبة والاعجاب فى قلوب السياح ، وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة التى تضاء من بيوت تقوم على حدود الشوارع .

وذلك ما لم تكن تتمتع بمثله « لندن » و « باريس » حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ .

---

(٥) المؤرخون الصليبيون يزعمون هذه المكانة للقسطنطينية وهى مزاعم لا اساس لها .

فى تلك القرون كان الذى يجرؤ على الخروج من عتبة بيته فى باريس فى يوم مطير يغوص فى الوحل الى عقبيه .

وفى الوقت الذى ما كانت فيه جامعة أكسفورد ترى أن الاستحمام عادة وثنية كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام فى مؤسسات فاخرة .

ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة[٦] الشمال وفكرتهم عنهم ما ورد فى كلام العالم الطليطلى صاعد القاضى « المتوفى سنة ١٠٧٠ » الذى قال عنهم :

« ان افراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هواءهم وكثف جوهم ، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة ، فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدمت بهذه دقة الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة » !!!

وحينما كان الحكام فى « ليون » و « نبرة » أو « برشلونة » ، يحتاجون الى جراح أو مهندس أو أستاذ فى الموسيقى أو صانع للملابس كانوا يبحثون عنه فى قرطبة ويجدون طلبتهم فيها .

ولقد وصلت شهرة العاصمة الاسلامية حتى اخترقت ألمانيا البعيدة ووصفتها احدى الراهبات السكسونيات بأنها «جوهرة العالم» .

كذلك كانت المدينة التى كان يقيم فيها الحاكم الأموى ورجال حكومته .

ويسرنى أن أثبت هنا مقتطفات للأستاذ « عبد الله نعمة » من كتابه « هشام بن الحكم » يتضمن معلومات نافعة فى الموضوع الذى خضناه ، ويتناول بالعرض والنقد طائفة أخرى من آراء المستشرقين الصادق منهم والكذوب .

قال يروى هذه الفرية عن رينان ثم يرد عليها :

---

(٦) برابرة الشمال هو تعبير آبائنا عن غرب أوروبا وشمالها ، والدول التى تزعم الآن انها ورثت الحضارة كانوا « برابرة » كابرا عن كابر ، ولم نتلق عنها شيئا أبدا .. !!!

« لا ينبغى أن نلتمس عند الجنس السامى دروساً فلسفية .. فان الفلسفة لم تكن قط عند الساميين الا عارية ، أخذوها عن غيرهم ، ولم تتعد ظاهر حياتهم ، ولم تكن عظيمة الثمر ، وانما كانت تقليداً للفلسفة اليونانية . ولم يفعل العرب أكثر من أنهم تناولوا مجموع المعارف اليونانية ، كما كان العالم كله يقبلها فى القرن السابع والثامن .. وينبغى أن لا نخدع أنفسنا فيمن كانوا يسمون بين العرب فلاسفة ، فلم تكن الفلسفة الا أمراً عارضاً فى تاريخ العقل العربى »(٧) .

ويستدرك « رينان » بعد هذا الهراء السخيف فيقول :

« أما الحركة الفلسفية الحقيقية فى الاسلام فينبغى أن تلتمس عند فرق المتكلمين وفى علم الكلام بنوع خاص »(٨) .

ولكن « البارون كرادى فو » يثبت وجود حركة فلسفية عند المسلمين قبل تعرفهم على الفلسفة اليونانية فيقول : « قبل دخول الكتب الفلسفية اليونانية الى المسلمين كان هؤلاء من تلقاء أنفسهم قد أنشأوا حركة فلسفية ، ثم اتسع تفكيرهم وازداد بسبب ازدياد الأثر اليونانى »(٩) .

فهو يميل الى وجود الحركة الفلسفية بين المسلمين ابتداء ، لكن نموها ودقتها كانا بسبب دخول العالم اليونانى .

ثم قال :

« ويرى الدكتور « سارطون » أن بعض المؤرخين يحاولون أن يستخفوا بما قدمه الشرق للعمران ، ويصرحوا بأن العرب والمسلمين نقلوا فقط العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ما ، ان هـذا الرأى خطأ ، وانه لعمل عظيم جداً أن ينقل الينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون »(١٠) .

ولكن هل صحيح أن العرب لم يجدوا شيئاً بعد اليونان ؟ يقول « نكلسون » : « وما كانت المكتشفات اليوم لتحسب شيئاً مذكوراً

(٧) ابراهيم بن سيار ص ٦٩ . (٨) المصدر نفسه .
(٩) المصدر نفسه .
(١٠) الخالدون العرب ص ٤ للأستاذ (قدرى طوقان) .

بازاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء في القرون الوسطى المظلمة ولاسيما في أوروبا .. »[١١] .

ويقول « دى فو » : « ان الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به . أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وانمائه . حتى سلموه الى العصور الحديثة »[١٢] .

فالفكر العربى الاسلامى لم يكن عند هؤلاء راكداً أو ناقلا ، بل كانت فيه الروح والحياة . ولم يكن ميكانيكياً بل كان مبتدعاً .

ويؤكد « الباندیت نهرو » أن العرب كانوا يحملون روحا استطلاعياً يحاكم ويفكر قال : « ... وان العرب امتازوا بهذه الروح الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون — بجدارة — آباء العلم الحديث .

لقد صنعوا أول مكبر ، وصنعوا أول بوصلة ، وكان اطباؤهم وجراحوهم ذوى شهرة عالمية ملأت آفاق أوروبا »[١٣] .

ثم قال المؤلف : وانا لو رجعنا الى الوثائق والمستندات التاريخية والآثار التى تركها لنا العرب لوجدنا أرقاماً كافية للتدليل على انهم لم يكونوا ناقلين فحسب ، بل انهم أضافوا الى التراث اليونانى ابتكارات وأفكاراً جديدة لم يعهدها من قبلهم .

ان أكثر ما نشاهده من هذه الخوارق اليوم أو نستخدمه أو نسمع به ، انما جاء نتيجة تجارب وجهود كثيرة فى قرون متطاولة ، كان العرب يقومون من ورائها ويشاركون — بتفوقهم العقلى — فى وضعها .

وقد يكون هذا القول مفاجأة تثير التساؤل لأول وهلة . ذلك أن تراث العرب مجهول لنا ولكن الحقيقة ينبغى أن تبرز ... ورجوعنا الى الوثائق الثابتة يؤكد أن للعرب القدم الراسخة فى أغلب العلوم المعروفة اليوم ، وفى الكشوف الحديثة ، وسنبحث ذلك فيما يلى :

١ — دوران الارض حول الشمس :

ان الفكرة الشائعة هى أن أول من تكلم عن دوران الأرض حول الشمس هم « جاليليو » و « برنو » و « كوبرنيكوس » لكن الواقع أن

(١١) المصدر السابق .
(١٢) المصدر السابق .
(١٣) لمحات من تاريخ العالم ، ص ٣٥ .

بازاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء فى القرون الوسطى المظلمة ولاسيما فى أوروبا .. »(١١) .

ويقول « دى فو » : « ان الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به ، أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وانمائه ، حتى سلموه الى العصور الحديثة »(١٢) .

فالفكر العربى الاسلامى لم يكن عند هؤلاء راكدا أو ناقلا ، بل كانت فيه الروح والحياة ، ولم يكن ميكانيكيا بل كان مبتدعا .

ويؤكد « الباندیت نهرو » أن العرب كانوا يحملون روحا استطلاعيا يحاكم ويفكر قال : « ... وأن العرب امتازوا بهذه الروح الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون ــ بجدارة ــ آباء العلم الحديث .

لقد صنعوا أول مكبر ، وصنعوا أول بوصلة ، وكان أطباؤهم وجراحوهم ذوى شهرة عالمية طبقت آفاق أوروبا »(١٣) .

ثم قال المؤلف : وانا لو رجعنا الى الوثائق والمستندات التاريخية والآثار التى تركها لنا العرب لوجدنا أرقاما كافية التدليل على أنهم لم يكونوا ناقلين فحسب ، بل أنهم أضافوا الى التراث اليونانى ابتكارات وأفكارا جديدة لم يعهدها من قبلهم .

ان أكثر ما نشاهده من هذه الخوارق اليوم أو نستخدمه أو نسمع به ، انما جاء نتيجة تجارب وجهود كثيرة فى قرون متطاولة ، كان العرب يقومون من ورائها ويشاركون ــ بتفوقهم العقلى ــ فى وضعها .

وقد يكون هذا القول مفاجأة تثير التساؤل لأول وهلة ، ذلك أن تراث العرب مجهول لنا ولكن الحقيقة ينبغى أن تبرز ... ورجوعنا الى الوثائق الثابتة يؤكد أن للعرب القدم الراسخة فى أغلب العلوم المعروفة اليوم ، وفى الكشوف الحديثة ، وسنثبت ذلك فيما يلى :

١ ــ دوران الأرض حول الشمس :

ان الفكرة الشائعة هى أن أول من تكلم عن دوران الأرض حول الشمس هم « جاليليو » و « برنو » و « كوبرنيكوس » لكن الواقع أن

---

(١١) المصدر السابق .

(١٢) المصدر السابق .

(١٣) لمحات من تاريخ العالم ، ص ٣٥ [illegible]

السابق لهم جميعاً فى الكلام حول دوران الأرض هو « عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد » الذى عاش قبل هؤلاء بمائتى سنة على الأقل .

٢ — الجاذبية :

والمعروف أن أول من تكلم على الجاذبية واكتشفها هو « اسحاق نيوتن » حين علل سقوط التفاحة من الشجرة بجاذبية الأرض لها .

ولكن سبقه الى ذلك « الرازى » بمئات السنين ، فقد عاش فى القرن السادس الهجرى وعلل « المدرة » التى رماها وسقطت بعد ارتفاعها . وانتهى تفكيره الى القول بأن فى الأرض قوة قاهرة تحكم على الأشياء بالانجذاب اليها .

٣ — البصريات :

والحسن بن الهيثم هو أول من وضع علم البصريات منذ حوالى ألف سنة ، الذى له الأثر العظيم فى الحياة المعاصرة ، ذلك العلم الذى يبحث فى سقوط الأشعة والضوء على الأجسام الثقيلة .

وبهذا العلم اتصلت نظريات الضوء وانفتح الباب أمام مخترعات كثيرة ، واستحق ابن الهيثم به أعظم التقدير من علماء أوروبا فقد قال عنه « فياردو » :

« ان ابن الهيثم هو العربى الذى تعلم منه رجالنا الكبار من أمثال العلامة « لبكر » .

٤ — الرياضيات :

ومن الثابت أن « محمد بن موسى بن شاكر » هو واضع علم الجبر بأمر المأمون العباسى فى القرن التاسع الميلادى وعنه أخذته أوروبا ولا زالت تسميه باسمه العربى « الجبر » .

وأولاد موسى وهم « محمد » و « أحمد » و « الحسن » هم الذين وضعوا المعادلات الرياضية .

وعلى هدى تلك البداية العربية للرياضيات كانت تلك المخترعات الهائلة كالصواريخ والأقمار الاصطناعية والراديو وسواها .

٥ ــ الكيمياء :

وينبغى أن لا ننسى فى هذا المضمار امام الكيمياء « جابر بن حيان » واتكاء أوروبا بعد نهضتها على كشوفه واحتياجها الى ترجمة كتابه « الاستتمام » الذى نقلته الى اللغة اللاتينية عام ١٦٨٢ لتتعلم منه ما لم تكن تعلم .

وقال « برتيلو » عن جابر : ان له فى الكيميـاء ما لأرسـطو فى المنطق .

ويتبين بذلك أنه ابتكر الكيمياء كما ابتكر « أرسطو » المنطق .

والثابت أن علماء العرب أحدثوا ثورة علمية عظمى ، واكتشفوا « الكحول » ، و « حامض الكبريتيك » ، و « حامض النتريك » ، و « البوتاس » ، و « ملح النشادر » ، و « الراسب الأحمر » .

وهم أول من استخدموا الطرق الجديدة فى عمليات الكيمياء كالتقطير والترسيب والتصعيد والتذويب والبللورة والتحويل .

وهم أول من اخترع الساعة الدقاقة والساعة المـائية ، وقد أهدى الرشيد ساعة دقاقة الى الامبراطور « شرلمـان » فكانت أعجوبة أوروبا فى ذلك الوقت ، وقد شاهد السائح بنيامين منذ ٧٠٠ سنة فى الجامع الأموى فى دمشق ساعة ذات أثقال أخذ منه الذهول لمرآها كل مأخذ ، وكانت الساعة تحتوى على فتحات بعدد ساعات الليل والنهار . فاذا انقضت ساعة وقع من فم طائر مصنوع من نحاس كرة فى حجم البندقة فيحدث رنين واضـح ، ويمد الطائر عنقه ثم يغلق الباب على فتحة من الفتحات فيعرف الناظر اليها كم مضى من الليل والنهار[14] .

وأسطورة « رينان » فى العقل العربى السامى ، التى خدعت أناساً كثيرين هى من الأساطير التى يشيدها الوهم والخيال ، ولا تعتمد على أساس صحيح . انه يحتكر التأمل الفلسفى ودقة التفكير على العقل الآرى ، وأما العقل السـامى فهو سطحى راكد لا حياة فيه ولا يتعدى الظواهر !!

وما أقرب أن تكون هذه الفكرة استعمارية ، يذيعها المستشرقون

---

(١٤) جريدة الجمهورية ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ .

باسم العلم والفلسفة والتاريخ ، أجل هم يشيعون هذا ليخلقوا عقدة نفسية عند العرب ، وليزعزعوا ايمانهم بتفكيرهم ولينتزعوا ثقتهم بأنفسهم ، وليبعدوهم عن الانتفاع بآثار الفكر العالمى والاستفادة من تراثهم القديم .

انها فكرة مصدرها الاستعمار الذى لم يكتف بانتزاع أوطاننا وثرواتنا ، ثم أخلاقنا ... وديننا . لم يكفه كل ذلك حتى أخذ يعمل على انتزاع أثمن ما يملكه انسان وهو ثقتنا بتفكيرنا وأنفسنا ، انه يعمل على ذلك ليضع الخط الدفاعى عن استعماره ، وليخلق فينا عقدة النقص ، وليشعرنا بقصورنا عن حل مشاكلنا ولنقف فى جهودنا وتفكيرنا ولنعتمد على المستعمرين فى أخذ كل فكرة ترد عنهم أخذ المسلمات دون تأمل ولا مناقشة ولا محاكمة لأننا لا نملك القدرة على التأمل والمناقشة والمحاكمة ، ولننظر اليهم على أنهم الآريون أصحاب الفكر الدقيق والنظر الدقيق نظرة التقديس والاكبار ، أو نظرة العبد الى سيده .

ان وراءها — بدون شك — غاية استعمارية واضحة ، والجدير بالذكر أنهم أرادوا أن يسلبونا الثقة حتى بسعة الخيال ، فقد قال بعض المستشرقين : « ان العرب ضيقو الخيال ، وأن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين ، واذا عرض عليهم ابن الرومى الشاعر آمنوا بخياله وعمق تفكيره ، ولكن قالوا : ان جده رومى من عنصر آرى ، واذا عرض عليهم « المعرى » قالوا : انه لا خيال له لأنه عربى صميم[(١٥)] .

وأخال أنه لا حجة لديهم فى انكار عمق تفكيره وسعة خياله اللذين يبدوان فى كتابيه « اللزوميات » و « رسالة الغفران » الا لأنه عربى صميم » .

الهدم التاريخى الذى يحمل رايته المبشرون وأغاب المستشرقين ، غايته كما نرى افقادنا الثقة بأنفسنا ، واليأس من حاضرنا لأنه لا ماضى لنا ، ولا عراقة ... !!!

وهيهات هيهات ، فيكفى من آثارنا الغائرة فى التاريخ ، الخالدة

(١٥) شرح ديوان ابن زيدون لكامل الكيلانى ص ٢٨ .

على الزمن أننا نحمل رسالة الحق ، ونتلو آياته ، وأن أمجادنا القديمة اذا غطاها نكران الجميل حيناً ، فلابد أن تعرف على وجهها الصحيح ، طوعاً أو كرهاً ، وحبل الباطل قصير ...

***

● **الهدم العسكرى :**

كلا الهدمين الروحى والتاريخى يستقى عرامته وخبائثه من التفوق السياسى والحربى الذى ظفر به خصوم الاسلام فى القرنين الأخيرين .

وهو تفوق يرجع الى ازدهار العلم المادى والنشاط العمرانى فى العالم غير الاسلامى .

على حين هبطت القيم الأدبية والمادية فى بلادنا هبوطاً شنيعاً ، وفتكت بأمتنا علل نفسية وجماعية لا حصر لها .

علل نبتت فى ربوعها مذ خف تمسكها بالاسلام وعملها به وعملها له .

ولا عجب فالحقل الذى لا يزرعه صاحبه وينصرف عنه ، يزرعه الشيطان بالشوك والحسك ، أو يبقى جدباً لا ترى فيه الا الطين ..

ومذ أهمل المسلمون رسالتهم ، وتخففوا من أعباء الجهاد لها ، والسير فى سناها . أخذت سفينتهم تترنح ، وتكاثرت فى جوانبها ثقوب الدمقى ، فما هى الا مرحلة أو مرحلتان حتى ترسب الى القاع !!

وكان المستعمرون من اليهود والنصارى يرقبون النتائج المحتومة فلم يضيعوها .

وكيف يضيعونها وهم لم يفتروا عن مناوشة هذه الأمة فى عنفوانها ؟

أفيتركونها وقد أثخنتها الجراح ، وبدا للأعين أن شمسها غابت وآذنت بمغيب .

لقد وثب الاستمار شرقيه وغربيه على الأمة المهيضة ، واستبقت الذئاب المتربصة نحو الغنيمة الباردة ، فعادت كل دولة من دول أوروبا بقطعة من أرض الاسلام ، ثم أعلنت فى أرجاء الدنيا أن هذه القطعة أمست لها .

وصحا المسلمون من غيبوتهم ، كما يصحو النيام فى دار امتد الحريق الى جميع غرفاتها ، فهم فى فزعتهم ، مقسمو الجهود بين استنقاذ للمال والولد ، وحصار للنار الممتدة فى كل ناحية ، ومحاولات للاطفاء أو للنجاة ، وهول لا يعرف مداه ولا تدرى عقباه .

وظهر جلياً أن أعداء الاسلام قد صمموا على أمر واحد .

يسرعون الى انفاذه ان أمكنتهم اليدان .. ؟

أو يرجئون تحقيقه ساعة بعد أخرى ان اعترضتهم عوائق غير منظورة .

هذا الأمر الواحد ، هو الاجهاز على الاسلام وأمته . ودفن رفاتهما تحت جنادل قائمة لا ينبعثان منها أبد الدهر .

والموقف الآن بعد صراع قرنين ، بين المغيرين المزودين بكل سلاح ، والمدافعين الذين يقاومون بما تيسر (!) يتلخص فى أن الاستعمار تمكن من اقامة « اسرائيل » فى أرض فلسطين تمهيداً لشطر الكيان الاسلامى كله ، فى هذا الجزء الحساس منه .

كما تمكن من الاحتفاظ بالجزائر فى حوزته — برغم كفاح أهلها الباسل الرائع الكريم .

وهو يستهدف من اقامة — اسرائيل — توسيع النطاق الذى تخيله بعد محو العروبة والاسلام من الأقطار المجاورة .

كما يقصد من الاحتفاظ بالجزائر امكان الوثوب على الشمال الافريقى كله حين تسنح الفرصة .

والى جانب هذا وذاك فقد أنشأ الاستعمار له قواعد مكينة فى وسط افريقية .

وفى شرقها وسع رقعة الحبشة على حساب الشعوب الاسلامية — وفى غرب افريقية نراه يصنع دويلات نصرانية الحكم فى أمم اسلامية !!

أما فى آسيا فقد أطلق القاديانية فى « باكستان » فجعلها تولد ميتة وشجع الخيانات فى كل ناحية ، ومهد للالحاد والفساد ، فاذا الشيوعية تبتلع عشرات الملايين من المسلمين فى روسيا .

والذى لم تأكله الشيوعية يحيا مزعزع الايمان سقيم الوجدان ..
والخطة الاستعمارية ماضية فى طريقها وفق سياسة توضع بالنهار ولا تبيت بالليل .

غرضها واضح ، لا اسلام بعد اليوم .

ومن المغفلين من يحسب قضية فلسطين صراعاً بين « مليونى » يهودى و « مليونى » عربى ، على قطعة من الأرض اغتصبها هؤلاء من أولئك .

كلا ، ان الصراع عالمى بين الدول المكلفة بقتل الاسلام والفتك بأتباعه ، وبين العرب والمسلمين جميعاً .. واليهود ليسوا الا أداة فى يد الآخرين .

الآخرين الذين يقولون — دون حياء — ان اسرائيل خلقت لتبقى .

ولو صرحوا بما ينتوون لقالوا — للمسلمين جميعاً — ان بقاءكم أنتم أيضاً مرهون بأجل قريب ، ثم تذهبون الى حيث ألقت .

ومأساة الجزائر تحمل الطابع نفسه . وانحصار القتال فيها الآن لضرورات موقوتة والا فالهدف الكبير سحق المسلمين فى هذه المناطق من الشمال الافريقى كله .

والهدم العسكرى الذى تتعرض له الأمة الاسلامية ، بدأ على نطاق واسع فى أخريات القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يتأخر فى الوصول الى غاياته المرسومة الا لمـا ينشب من حروب بين المستعمرين أنفسهم .

وكلمـا هادن بعضهم بعضاً شرع الزحف الحقود يضطرد فى مجراه ، لا يحيد قيد شعرة عن أمله وعمله ، أمله فى قتل الاسلام ، وعمله لتقريب الوفاة .. !!

وعلى الداعية المسلم — وهو يقاوم هذا الهدم — افهام أمته أن ذلك ليس ادراكاً لثأر قديم — كما يزعم المستعمرون — وانما هو تجديد لعدوان سابق ، وتكرير لمآسى سلفت .

فان الاسـلام يرعى حق الحياة لمخالفيه ، ويعاملهم على قدم المساواة مع أتباعه .

ولذلك فهو أبعد ما يكون عن التعصب والاعتداء .

أما النصرانية ، فهاك ما يكتبه عنها أحد مفكرى الغرب الكبار وهو الأستاذ « بابيه » ترجمة الدكتور « عبد الحليم محمود »(١٦) :

« أثبت ذلك الباحث أن السبب البارز — بل السبب الوحيد — الذى جعل « الامبراطور قسطنطين » يتخذ المسيحية ديناً رسمياً انما هو ما رآه فيها من التعصب الذى لا يوجد فى غيرها من الأديان المعروفة على عهده ، والمنتشرة فى « روما » يوم ذاك .

لقد رأى أن هــذا التعصب هو الذى سيشد أجزاء الامبراطورية برباط من حديد ويمنع عوامل الاسترخاء والتحلل التى أخذت منذ أمد تسرى فى أوصالها .

وكان الامبراطور مبتئساً محزوناً لحال مملكته المترامية الأطراف ولملاحظته بوادر التفكك فى كيانها الرحب .

فوجه جهده لجمع هذه الأشلاء ، التى توشك أن تتداعى .

فلما نظر الى الأديان السائدة ، وجدها ثلاثة متعادلة ، انتشرت بينها العداوات فكل منها يصارع الآخر ليصرعه .

وهو — عندما نظر اليها — لم يلتمس فى أحدها الهداية والرشاد .

ولم يكن باحثاً عن النجاة فى الدار الآخرة .

ان ذلك لا يعنيه بقدر ما يهمه اختيار أشدها تعصباً ، وأكثرها استعداداً للتنكيل بالمخالفين ، والاستئثار دونهم بالحياة والسلطة .

ولقد وجد ضالته المنشودة فى المسيحية فاختارها بعدما وثق من تحقق آماله فى رجالها .

وقرر — لهذا السبب فحسب — جعلها ديناً رسمياً للامبراطورية .. »

ثم وكل اليها أن تستأصل شأفة اليهود ، والوثنيين .

وتحقق للسياسى الداهية ما يريد ، فان الحاكم يعبد دولته كما يعبد الشحيح ثروته ، وهو يتخذ كل شىء وسيلة لتوطيد حكمه ، واعلاء شأنه — وحده .

وقد حاولت المسيحية — لما ظهر الاسلام — أن تطبق عليه قانونها العنيد ، وأن تعامله بخاصتها الفريدة .

(١٦) من كتابه « أوروبا والاسلام » بتصرف قليل .

فلما أعجزتها صلابة المؤمنين به تولت عنهم وهى تصمهم باعبح السباب ..

وظلت — على بعد — تتربص بهم الدوائر حتى اذا لاحت فرصة للوثوب ، هجمت لتلغ فى الدم الحرام ، وتنفرد فى الأرض بالبقاء ....

عيب الاسلام أنه عرف هذه العلة ، وتغلب عليها ، ولم يضعف أمام الحاقدين .

ان طبيعة الصلة بين النصرانية والاسلام تشبه — الى حد بعيد — طبيعة الصلة بين « الشيوعية » أو « النازية » وبين النظام البرلمانى الأصيل .

فان ذلك النظام يحقق للأفراد والجماعات أنصبة مطلقة من حرية القول والعمل ، ومن حق الحياة والتجمع والمعارضة ..

وفى ظل هذا الوضع الديمقراطى يستطيع « الشيوعيون » أن يظهروا ، وأن ينشروا رأيهم ، وأن يهاجموا خصومهم ، وأن يكون لهم حزب معترف به .

وذلك كما نرى فى «انجلترا» و «فرنسا» و «ايطاليا» وغيرها .

فاذا حدث أن تكونت للشيوعيين كثرة محدودة وصلت بهم الى الحكم تغيرت الأوضاع القديمة للفور ، وألغيت الأحزاب الأخرى ، وخنقت الآراء الناقدة ، وأمسى مفروضاً على المعارضين أن يذوبوا ، أو يتجمعوا — اذا شاءوا المخاطرة بأعناقهم — فى جوف الليل ، وفى خفية عن الرقباء ، كما نرى فى « روسيا » و « الصين » وغيرهما .

وهكذا الحال بالنسبة الى الاسلام ، انه يمنح غيره ضمانات البقاء كلها ، ولذلك عاش الكافرون به فى كنفه دون حرج .

ذلك أن طبيعته فى المعاملة اذا حكم ، هى هذه الديمقراطية الراقية .

أما اذا حكم غيره ، فان الأرض الفضاء ستضيق به ، وفرص البقاء ستنعدم أمامه .

وذاك هو السبب فى أن المسيحيين عاشوا فى الأندلس يوم كان الحكم فيها اسلامياً .

فلما انهزم المسلمون وتحول الحكم الى أيدى الصليبيين لم يدع للاسلام ولا لأمته ببقاء .

ففنى وفنوا جميعاً فى هذه البقعة من أرض الله .

وما زالت المأساة تتكرر فى غيرها من أقطار الأرض .

هل مرونة النظـام الديمقراطى عيب فيه ؟ وهل سـعة أفقه جناية عليه ؟

كذلك يظن بعض الناس .

وهم يردون مصارع الديمقراطية فى البلاد التى تلاشت فيها — كألمـانيا النازية مثلا — الى هذه العلة .

والأمر يستدعى التأمل أو التحسر ، فان تقوض النزعات الانسانية الراقية أمام المذاهب الحاقدة يعطى هذه النزعات حقوقاً أن تخرج على طبيعتها حيناً لتصون نفسها ، وتحفظ بقاءها .

واذا كان التعصب للنفس وحدها ديدن الصليبية اذا حكمت ، فمن الواجب ايصاد أبواب الحكم أمامها ، وكذلك الشيوعية ...

والغشاوة المضروبة على أعين هؤلاء وأولئك والتى تجعلهم يحسبون الحق هو ما عندهم وحدهم ، والباطل هو كل ما لدى غيرهم لا تعطيهم بداهة أى حق ضد الآخرين فهى غشاوة جهالة ، وجشع ، وضيق فطن ، أكثر من أن تكون غيرة على الحقيقة المعتنقة .

والغريب أن الصليبية لـمـا انقسمت على نفسها مذاهب متعددة عامل كل مذهب مخالفيه فى الرأى على قاعدة « البقــاء للأقوى » و « الويل للمغلوب » و « لاحق الا عندى » .

والأغرب من ذلك أنها تتهمنا — نحن المسلمين — بالتعصب ... !!

وقد كتب الأســتاذ « عبد الرحمن الشرقاوى » يشرح هــذا المعنى فقال :

جرت عادة المستعمرين من الانجليز والفرنســيين ، كلما تناول خطباؤهم أو كتابهم الكلام عن الشرق والشرقيين ، أن يتعرضوا — من قريب أو بعيد — الى خلائقنا ، ليلصقوا بها ما تفرق من نقائص البشرية كأنها خصائصنا اللازمة .

وهم يبادرون فيرموننا بما فيهم من طبائع الجور والنفاق والشهوة،
ولا يزال فى مقـــدمة ما يتجنون به علينا ، نســبة التعصب
الدينى الينا •

وهم يسلكون الى ذلك سبيل الزيف والتلفيق خصوصاً الانجليز
والفرنسيين ، ولا يرجعون فى ذلك الى شاهد صدق من التاريخ •

والعجيب فى الأمر أن وصمة التعصب الدينى أظهر ما تكون فى
تاريخ كلتا الأمتين كما رواه الثقات من الأعلام من مؤرخيهما •

فان فرنسا الكاثوليكية لا يسعها فى سجل تاريخها الا أن تذكر
اضطهاداتها لرعاياها البروتستانت طوال قرنين من الزمان ، كانت واسطة
عقدهما مذبحة « سان بارتلوميو » التى بلغ عدد ضحاياها فى باريس
وغيرها من المـــدن الفرنسية نحو الثلاثين ألفاً من البروتستانت فى
مدى شـــهرين •

ولقد ظل أشياع هذا المذهب من الفرنسيين مغبونين مضطهدين
لا يعرفون طعم الحرية الدينية ، حتى كانت الثورة الفرنسية •

أما الامبراطورية البريطانية ، فليس أدل على التعصب الدينى عند
الانجليز البروتستانت من سوء معاملتهم للكاثوليك فى ايرلندة •

فقد سمحت « انجلترا » بقيام برلمان فى « ايرلندة » • ولكنها
جعلته مقصوراً على البروتستانت دون غيرهم ممن يخالفون الانجليز
فى الدين •

فاذا ذكرنا أن الكثرة فى « ايرلندة » هى الكاثوليك المحرومين ،
تمثل لنا التعصب الانجليزى فى أرذل مظاهره وأسمجها وقاحة ، وأنكلها
تضييعاً للحقوق المدنية واهداراً للكرامة القومية !

ولقد كان هذا البرلمان البروتستانتى الذى صنعه الانجليز فى
« ايرلندة » سوط عذاب على « الكاثوليك » •

فقد جعل يصدر كل جائر من القوانين ، ويصبها أكداساً على
أكداس فوق رؤوسهم ، حتى قال أحد المؤرخين المحدثين من الانجليز —
على الرغم من اعتداده بانجليزيته — : ان هذه القوانين تعد شر ما ورد
فى اللغة الانجليزية ، وعبر عنه اللسان الانجليزى •

كان من تعصب الانجليز على الكاثوليك أن لم يكف حرمانهم من حق التمثيل فى برلمانهم الايرلندى . بل صدرت القوانين اثر القوانين بحرمان الكاثوليك من العمل فى أية وظيفة من وظائف الدولة . ومن حق الانتخاب النيابى .

وكذلك من الاشتغال بالمحاماة أمام المحاكم ، ومن مزاولة صناعة الطب ، وما شابه ذلك من مرافق العيش .. حتى القيام بحراسة غابات الصيد حرم على القوم .

فلما صمد الكاثوليك لهذا الحرمان من وسائل العيش وأسبابه ، طلع عليهم البرلمان البروتستانتى بقوانين أخرى تعمل على تفكيك الأسرة ، وقطع وشائج الأرحام بين الأخ وأخيه ، وبين الأب وابنه ، لعلهم بما قد يؤدى اليه فصم العرى العائلية من توهين العصبية القومية .

ومن أمثلة ما شرعوه لهذا الغرض من تشريعاتهم أنه اذا طاب للولد الكاثوليكى أن يعتنق المذهب البروتستانتى فقد سقطت ولاية والده عليه ووجب انتزاع الولد من والده وايداعه فى كنف وصى بروتستانتى ، مع الحكم على والده بأداء نفقته .

وأبلغ من هذا نكاية بالرجل الكاثوليكى وأشد تحريضاً عليه واغراء به ما يوجبه القانون عليه اذا ارتأى أخوه الأصغر اعتناق البروتستانتية :

فان الأخ الأصغر فى هذه الحالة يخلفه على كل ما يثبت له .

ويصبح الصغير البروتستانتى بحكم القانون رب الأسرة .

ومما تناولته هذه القوانين الجائرة من الشئون الخاصة ، أنه ليس لكاثوليكى أن يرث من مات من أهله بغير وصاية ، ولو كان أقرب أقربائه ، وأمسهم به رحماً .

وأما الزواج فقد كان محرماً عقده بين البروتستانت والكاثوليك مع ما بينهما من جامعة المسيحية .

فاذا اجترأ قسيس على عقد مثل هذا الزواج اعتبر باطلا .

واذا كان الزوج الكاثوليكى محامياً سقط حقه فى مزاولة مهنته ، وأما القسيس فقد حق عليه الشنق ... !!!

ومن غرائب هـذه القوانين التى تشبه النوادر ، تحريمها على الكاثوليكى اقتناء جواد يربو ثمنه على الخمسة جنيهات حرماناً له من مظاهر الوجاهة .

فاذا ثبت أن جواده أعلى من ذلك قدراً ، وجب أن يجد له مشترياً بروتستانتياً ، وأن يبيعه اياه بخمسة جنيهات فقط .

وفى هذه الشذرات — ولا شك — الكفاية ، وفوق الكفاية ، للدلالة على ما أصدره البرلمان الايرلندى البروتستانتى — صنيعة الانجليز — من قوانين ظلت أمداً غير قصير سارية نافذة على الكاثوليكية فى الجزيرة الايرلندية .

ولا نحسب القارىء يستغرب — بعد ما قدمناه من عجائب هـذه القوانين ...

حين يعلم أن تشريعاتها الأولى قضت — فيما قضت به — بالقبض على كل كاثوليكى تسول له نفسه الجريئة أن يكون بين المتفرجين فى شرفة البرلمان .

* * *

هذه هى أساليب المعاملة بين شتى الطوائف المسيحية هناك .

وقد انكسرت حدة هذه الأحقاد قليلا مع انتشار العلم ، وشيوع الالحاد ، وبغض الكثيرين لنتائج الخلاف الدينى التاريخى القديم .

لكن هذه البغضاء لم تختف فى الواقع بل توارت تحت ألبسة من الختل والمداهنة قضت بها ضرورات موقوتة ..

على أن المؤسف أنها بالنسبة الى الاسـلام لم تزدها الليـالى الا ضراوة ..

ولنذكر مثلا مما حدث فى طليعة هذا القرن ، قبل أن نفيض القول فيما يقع الآن .

حينما نشبت حرب البلقان عام ١٩١٢ بين الدولة العثمانية من ناحية ودول البلقان المؤلفة من (اليونان ، وبلغاريا ، والصرب ، والجبل الأسود) من ناحية أخرى ، خشيت الدول الأوروبية أن تنتهى الحرب بانتصار الدولة العثمانية فأعلنت الدول الأوروبية الكبرى قراراً حاسماً

بلسان المسيو « بوانكاريه » وزير خارجية فرنسا صرح فيه نيابة عن تلك الدول بأنه لا يسمح للمنتصر فى هــذه الحرب بأن يجنى ثمرة انتصاره ، أو يضم أى جزء من أراضى خصمه المغلوب الى بلاده •

ولمــا انتهت تلك الحرب بتغلب دول البلقان على الدولة العثمانية وفتكت الجيوش البلقانية بالمسلمين نساء وشيوخاً وأطفالا فى وحشية هائلة وصفها المرحوم أحمد شوقى فى قصيدته :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

بدلت الدول الأوروبية الكبرى موقفها فوراً • وأعلنت موافقتها على ضم البلاد العثمانية التى احتلتها دول البلقان اليها ، وهى ولايات « الروملى » جميعاً المؤلفة من (سلانيك ، مناستر ، قوصوة ، يانية ، شقودرة ، والروملى الشرقى) •

ولم يبق للدولة العثمانية شىء من أراضيها الشاسعة شرقى أوروبا التى كانت الكثرة الساحقة من سكانها مسلمين ، بل كان عدد المسلمين فيها حينئذ نحو خمسة عشر مليوناً الا « أدرنة » التى استرجعها الجيش العثمانى قبيل أنهاء تلك الحرب •

ولما ذكرت الدولة العثمانية حينئذ الدول الأوروبية بقرارها المذكور كان جوابها : « ان ما يأخذه الهلال من الصليب ، يجب أن يعود الى الصليب ، أما ما يأخذه الصليب من الهلال فلن يعود الى الهلال » •

وعلى اثر ذلك بعثت الدولة العثمانية بأحــد وزرائها ، وهو « سليمان البستانى » المسيحى ، لمقابلة « بوانكاريه » وتذكيره بتصريحه الرسمى فى بداية الحرب •

فلما قابله واسترعى نظره الى نتائج هذا الموقف وسوء تأثيره على عواطف مئات الملايين من المسلمين الذين تحكم فرنسا جزءاً وافراً منهم أجابه بوانكاريه :

« مسيو بستانى ، انك مسيحى عاقل وان هذه الملايين لو اجتمعت كلمتها وانتظم عقدها لحسبت أوروبا حسابها ، وأما فى حالتها الحاضرة فليس لها أى وزن » •

***

وقد تضطر دول الغرب تحت ضغط الوجل من الحروب ، والرهبة من دمارها والاتعاظ بما عانت من آلام ، قد تضطر للاحتكام الى بعض المواثيق الانسانية والخضوع لمعاهدات عالمية •

ولكن ذلك كله بنسى اذا كان الأمر متصلا بالمسلمين ، ان منطق الحقد وحده هو الذى يعلو •

ولذلك كان السلطان « عبد الحميد » رحمه الله يردد هذه الكلمة فى كثير من المناسبات : ان لدى الدول الأوروبية ميزانين ، أحدهما بالنسبة لجميع شعوب العالم يزن الأمور بالعدل والقسطاس ، وأما الآخر فهو بالنسبة لنا نحن المسلمين ، وهو ميزان جائر خاسر •

* * *

● **حديث ذو شجون :**

الدعاة المسلمون فقراء كل الفقر الى تعرف ما أصاب دينهم وأمتهم من كوارث التعصب الصليبى وفواجعه القديمة والحديثة على سواء •

ولو أفردت لهـذا الموضوع مادة علمية مستقلة فى دراساتهم التاريخية والاسلامية لمـا كان ذلك كثيراً •

ويخيل الى أن هذا الجهل الشائع اما أن يعود الى غفلة حقيقية سوف تنتهى بصاحبها الى التلاشى حتما •

وأما أن يكون أثراً لخطة مرسومة تستهدف تجهيل المسلمين فى أسباب عطبهم ، حتى يستدرجوا اليها وهم بله •

ثم يتخلص خصومهم منهم فى صمت •

وددت لو أن جمعاً كبيراً من هؤلاء الدعاة كان معى عند السـيد « أمين الحسينى » مفتى فلسطين وهو يسرد على أطرافاً من مآسى الحقد التى تعرض لها العرب والمسلمون فى الآونة الأخيرة ، والتى أصابتهم بجراح لن تندمل أبداً •

بل ستظل تقطر دماً على اختلاف الليل والنهار أو يقضى الله أمراً كان مفعولا ، كان هذا الرجل يتكلم ، وليس فى صوته رنين حزن ، لا لأن شعوره ضعيف بالنكبة التى اجتاحت دينه وقومه فى فلسطين ، كلا ، فان أثر النكبة راسب فى أغوار حسه ، ولكنه كما قال أبو الطيب :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى   فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتنى سهام   تكسرت النصال على النصال

كان الرجل مثلا للاسلام المكافح فى معركة لا تكافؤ فيها ولا عدالة . ولكنه — بدوافع اليقين والرجاء — يصابر الأيام ولا يفكر بتة فى الانسحاب من الميدان .. سمعته يتحدث ووعيت منه حقائق كثيرة . أثبت نبذاً منها فى هـذه الصحائف علها تكون عبرة للعقلاء ، وذكرى للمؤمنين .

قال : ان قصار النظر من المسلمين يحسبون أن أوروبا وأمريكا هجرتا الدين وابتعدتا عن أيحائه الجلى والخفى فى الشئون المحلية والعالميـة .

وهذا غلط فاحش ، بل جهل مطبق بما يدور فى العالم من أحداث ، وما يقوم وراءها من نيات ، وما يطلب بها من نتائج .

فليس يخفى على ذى بصيرة أن الناحية الدينية لها الأثر الأكبر فى توجيه السياسة الدولية ، وأن التكتلات القائمة على شتى العقائد ، هى التى تمسك بزمام الأمور وتديرها وفق هواها ، مستعينة بالأوضاع الاقتصادية والعسكرية وما اليها .

أمام العالم الاسلامى اليوم خمس كتل متميزة تدور فى علاقاتها العامة حول محور ثابت ، ولا تنسى نفسها أبداً فى زحمة المؤامرات ، أو حركات الجذب والارخاء فى المؤسسات الدولية المعروفة .

(ا) هناك الكتلة البروتستانتية التى تقودها أمريكا وانجلترا ، وكلتا الدولتين تعاون الأخرى وتشد من أزرها فى السياسة العالميـة ، ولما كان البروتستانت شديدى الاعتماد على مقررات العهد القديم ، والاهتمام بأحكامه[17] فان ذلك قوى آصرتهم باليهود ودفعهم الى مناصرتهم ضد العرب باعتبار أن اقامة وطن قومى لليهود قد قالت به نصوص العهد القديم المعترف به منهم جميعاً .

ومن ثم أعطت انجلترا وعد « بلفور » بانشاء هـذا الوطن . وقامت « أمريكا » بتنفيذه بعد ذلك .

(١٧) البروتستانت يحرمون التماثيل استنادا الى احكام التوراة .

والدولتان الآن متفقتان على حماية اسرائيل بعد خلقها بالقوة .
وهو اتفاق تغذيه عقيدة مشتركة من احترام التوراة .
وعداوة مشتركة من كراهية القرآن ...
ومع أن مصلحة « أمريكا » و « انجلترا » كانت تنقضى باسترضاء العرب ، لامكان انشاء أقوى جبهة ضد الشيوعية .
بيد أن الدولتين تضحيان بهذه المصلحة الظاهرة تحت تأثير ذكريات دينية وأحقاد تاريخية .

(ب) وهناك الكتلة الكاثوليكية ، وهى تنتظم فى سلكها بضعاً وعشرين دولة فى جنوب أوروبا ووسطها ، ثم أمريكا اللاتينية بأسرها ، عدا الطوائف الكاثوليكية الكثيفة المنتشرة فى العالم .
والجميع يلتفون حول الفاتيكان ويرونه المصدر الروحى لكل توجيه نافذ .
وأغلب الدول الكاثوليكية تخضع خضوعاً تاماً لمشيئة بابا روما ، وتستمد منه فكرها وعاطفتها .
ويلاحظ أن البابا حمى أسبانيا من كل شر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مع أنها انضمت الى دول المحور ، وكان المفروض أن تتعرض لشىء من العقوبات الاقتصادية .
لكن سلطان الفاتيكان لم يحمها فقط ، بل قدم لها معاونات مالية سخية لاصلاح شئونها الاقتصادية .

(ج) وهناك الكتلة اليهودية .. وبنو اسرائيل .
وبنو اسرائيل لا يزيد تعدادهم فى الأرض على ستة عشر مليوناً .
ولكنهم فى البقاع التى يوجدون فيها يملكون من أسباب السيطرة المادية والأدبية ما يجعلهم أقدر من أمة كالصين أو الهند تضم مئات الملايين .
واليهودى حيث كان ابن عقيدته وجنسه ، وعصبيته لدينه ولقومه لا يرجح أمامها شىء .
فهو فى « روسيا » يهودى قبل أن يكون شيوعاً ، وفى « أمريكا » يهودى قبل أن يكون رأسمالياً .

وقد استطاع يهود روسيا وأمريكا أن يجعلوا سياسة الدولتين تتحد ضد العرب على تكوين اسرائيل ، برغم ما بين الدولتين من خصام سافر عنيف .

ويهود العالم يتحركون وفق سياسة دقيقة يرسمها لهم مجلس حكماء صهيون توضح لكل جماعة منهم دورها الذى تقوم به كى تبقى لليهود مكانة متميزة فى أرجاء العالم .

وهمهم الأول الآن هضم القطعة التى التهموها من كيان الاسلام وأمته ، والتهيؤ لمزيد بعدها .. والتعاون مع الاستعمار لادراك هذه المآرب .

٤ (د) وهناك الكتلة الشيوعية ، وتضم الآن : روسيا ، والصين ، ورومانيا . وبلغاريا ، والمجر ، وبولندا ، وتشيكوسلفاكيا ، وألبانيا ، ويوغسلافيا وجملة أحزاب ضخمة ينتسب لها قريب من ثلث السكان فى ايطاليا وفرنسا ، ودول أخرى .

والشيوعى يدين بولائه لمذهبه ، ويتجه فى قبلته الى « روسيا » ، والشعوب الضالعة معها .

ولا ينظر الى وطنه الا من خلال هذا الولاء المقدم .

وبديهى أنه لا يعرف له رباً .

وهو يكره الأديان على العموم ، ولكن بغضاءه للاسلام أشد .

اذ أنه يراه مزوداً بطاقة من اليقين أقوى ، وجملة من الشرائع المالية والاجتماعية تغنى عن أى نظام آخر .

ولذلك لم تظهر الشيوعية الا فى أوروبا ، ولم تجد لها موئلا فى أنحاء الوطن الاسلامى الرحب الا حيث أفلح الاستعمار فى زلزلة العقيدة ، وابعاد التشاريع والتقاليد الاسلامية من الحياة العامة .

واذا استقرت الشيوعية فى بلد فمعنى هذا الاستقرار أن الدين كله مات ، وأن الاسلام — على الخصوص — قضى عليه ، وأن ما بقى من رفاته رسوم لا وزن لها ولا أثر ، تتخلف عن العدم قليلا ثم يدركها المصير المحتوم .

(هـ) وهناك الكتلة الوثنية ، ومركزها الرئيسى جنوبى آسيا .

وان كانت مجاهل افريقية لا تزال ملأى بهـذه الفئات المتقطعة من البشر ...

الا أن البرهمية والبوذية والنحل المتشابهة فى الهند ، والفيتنام ، وسيلان ، وما جاورها تتمتع بقوى كبيرة .

ولا يستغربن القارىء اذا علم أن مستقبل المسلمين فى هذه البلاد مهدد بأخطار شتى .

وأن هذه الوثنيات زاحفة لا جامدة !!!

والسر هو ضغط الاستعمار ، وضعف المسلمين .

واستطرد السيد مفتى فلسطين يقول : اننا — نحن المسلمين — نمقت ضروب الاستعمار وألوان التعصب ، ونود لو يحيا البشر — على اختلاف عقائدهم — متعاونين متعارفين ، وأن يتنفسوا فى جو من السماحة والتراحم .

ولكن من لنا بتحقيق هذا الأمل ؟

ان المؤسسات الدولية التى افترض فى قيامها أن تصل الى هذا الغرض ، كانت — للأسف الشديد — أول من خان قضايا العدل والحرية.

وأياً ما كان الأمر فنحن — ببواعث خالصة من ديننا — سنظل نقاوم — ما حيينا — كل ظلم يقع بنا ، وكل غبن يقترفه الأقوياء ضدنا . وكل أمنية حمقاء فى تركنا الاسلام ، ومحاولة تهويد قطر وتنصير آخر ، من أرضه الطيبة .

وقد قلت لك : اننا نكره الاستعمار كله شرقيه وغربيه .

بيد أنى أقصر الكلام الآن على نوع خبيث منه ، مرجئاً الكلام عن غيره الى فرصة أخرى .

ان الغزو الصليبى الذى التهم بعض بلادنا ، ويتربص الدوائر بالبعض الآخر له خصائص يجب أن نذكرها .

فهو — أولا — امتداد لضغائن قديمة لم تبرد جذوتها على مر الأعصار ، واستمرار لنوبات من الحقد تعترى القوم فينطلقون كالقذائف المدمرة ، ويصيبوننا بأشد الخسائر .

وهو — ثانياً — العلة التى أوهنت الاسلام فى الهند ، وقوضت

حكمه ، وانتزعت من يده السلطات الحقيقية لتضعها فى أيدى الوثنيين .

وهو — ثالثاً — مصدر الجراثيم التى جعلت بعض الأغرار من شبابنا يظن فى الشيوعية خيراً .

وبلاد الاسلام كانت فى حصانة أسبغتها عليها تعاليم الكتاب والسنة وتقاليد الفضل والكرم التى تتوارثها .

غير أن الاستعمار الغربى فى حملته على الاسلام ، وقتله لدراسته — أحدث هذه البلبلة التى تعانيها أمتنا فى بعض أجزائها .

وهو — رابعاً — ملح كل الالحاح فى تقطيع أوصالنا .

ومهما هددته الكوارث ، وفرضت عليه مصلحته أن يصالحنا أو يهادننا غلبته سورات العداء الغبى ، فأبى الا المضى فى اهانتنا .

وهو — خامساً — يتناسى خلافاته الداخلية ليوحد صفه وعاطفته ضـدنا .

إن الناس لا يزالون يذكرون كلمة « اللنبى » لما دخل بيت المقدس : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ويذكرون أنه دخل هذا الحرم بين يدى حشد طويل من القسس والرهبان والمباخر والصلبان والتراتيل الدينية .

لكن المدهش أن هذا الانتصار فى الحرب العالمية الأولى لم يرحب به أصحابه فقط ، بل رحبت به ألمـانيا المهزومة .

ألمـانيا التى اندحرت مع حليفتها تركيا فى هذه الحرب !!!

إن الألمان ما كادوا يستمعون الى نبأ دخول الانجليز بيت المقدس ، وتتردد فى آذانهم كلمة « اللنبى » حتى سارعوا هم الآخرون يقرعون نواقيس الكنائس فى طول البلاد وعرضها ترحيباً بفوز الانجليز واعلاماً للفرحة به .

والمضحك أن الأمير « شكيب أرسلان » كان فى ألمـانيا يومئذ ، فكتب يعاتب الألمـان على هذا الموقف ، ويذكرهم بأنهم انما يفرحون بانكسار زملائهم فى الميدان ، وهيهات !!

لقد ذهب العتاب مع الريح أو مع تيار الحقد القديم .

ثم قال : يجب أن نعترف بأن الصليبية نجحت فى محو الاسلام

من الأندلس بعد ما غنيت مدائن الأندلس وقراه بهـذا الدين ثمانية قرون طوال .

وقد أغرى هذا النجاح بطلب المزيد .

ولولا قوة الأتراك العسكرية فى السنين التى تلت هـذه الكارثة لتابع القوم زحفهم ، وكرروا ما حدث فى الأندلس بأقطار أخرى .

فلما ضعف العثمانيون وضاعت هيبتهم الحربية ، قرر القـوم استئناف عملهم الأول ، وبلوغ أهدافهم نفســها ، وان تغيرت بعض الوســائل .

وكان لابد — فى نظرهم — من محو الاسلام من جنوب أوروبا وشرقها ، ثم الوثوب على مواطنــه الأولى فى القارتين القديمتين لقطع دابره .

وتم لهم — بالفعل — ما أرادوا ، فمحوا الاســلام من جنوب ايطاليا ، ومن صقلية وكريت .

وشرع الصليبيون فى اتمام خطتهم ، فأوعزوا الى دول البلقان والقوقاز أن تقاتل الأتراك ، وأن تدمر معالم الاســلام فى كل بقعة من هذه الأرجاء ، كما أوعزوا الى الأرمن أن يحدثوا فتوقاً فى كيان الدولة ، وأن يرتكبوا خيانات كثيرة لحساب روسيا القيصرية وحلفاء الغرب جميعاً ...

واندلعت نيران الفتنة فى أماكن شتى ، وسعرها الأوروبيون بما استطاعوا من وقود .

وانتهى الأمر على ما بيتوا ، فقد كان المسلمون من الفرقة والعجز والانحلال بحيث تخلت عنهم العناية ، واستمكن من أعناقهم الأعداء .

والموقف الآن جد خطير ، فان الأندلس كانت فى أطراف العالم الاسلامى ، وانحسار الاســلام عنها — على فداحة المصاب فيه — لا يستتبع النتائج الخطيرة التى يستتبعها على وجه اليقين تهويد فلسطين فى آسيا وتنصير الجزائر فى افريقية .

ان ذلك ان تم اليوم — لا قدر الله — فمعناه الذى لا شك فيه ، أن الاســلام ضائع غداً من افريقية وآسيا جميعاً ، وأن أمته كلهـا الى بوار .

ومن ثم فكل محاولة للرضا بقيام اسرائيل ، أو للتفريط فى قضية الجزائر ، فهى ارتداد عن الاسلام وخيانة عظمى لأمته .

وعلى أولى الغيرة والنجدة أن يتدبروا العواقب ، ويوجلوا من سوء المصير وأنا لهم النذير العريان !!!

أجل ، فخلف أسداف مطبقة من الصمت المتعمد تجرى الآن أحداث رهيبة لسحق الاسلام سحقاً لا قيامة منه .

هذه مصيبتنا فى الجزائر ، هل يعلم الغافلون مداها ؟

ان التقدير الابتدائى لخسائر المسلمين فى الأرواح منذ قامت الثورة الأخيرة تربو على ستمائة ألف قتيل .

أما القرى التى محيت بعد ما تعرضت للنسف والتدمير بوحشية سافلة ، فحدث عنها ولا حرج .

وهذه المجزرة التى لم يتوقف السفاحون الى الآن لحظة عن المضى فى فظائعها تنظر أمام المؤسسات العالمية بشىء ظاهر من قلة الاكتراث ، أو عدم المبالاة .

وتدحرج من سنة الى أخرى ، فلا يتخذ فيها قرار .

وستظل تتدحرج الى أن يستطيع الجيش الفرنسى الاجهاز على الضحية ، واخماد أنفاسها فلا يسمع لها صراخ ..

ومن وراء الجيش الفرنسى أسلحة حلف الأطلنطى كلها .

ان الدم الذى يراق هو الدم الاسلامى .

وهو الدم الوحيد الذى لا ثمن له .

أو الذى توضع الأكاليل على رؤوس سفاكيه .

أما فلسطين فقد خلها الانجليز وسكانها من اليهود خمسة فى المائة وأملاكهم — برغم جميع المساعدات الخفية — لا تبلغ ثمانية فى المائة .

وتركها الانجليز الشرفاء بعد ما استجلبوا من يهود الأرض ما جعلهم مثل العرب عدداً ، وبعد ما ورثوهم أملاك العرب كلها : ونبذوا هؤلاء فى العراء .

وهم لم يصلوا الى هذه النتيجة الا بعد سلسلة من المآسى

الدامية ، قتل فيها ألوف الأحرار ، ومحيت فيها عشرات من القرى .

أما المساجد التى دكت ، والأوقاف التى نهبت فشىء لا حصر له .

وفى الوقت الذى يدوخ فيه العرب ، وتحكم الخيوط حول وجودهم المـادى والمعنوى حتى يحتويه ظلام الأبد ، فى هذا الوقت يتفجر سيل من الأموال الأمريكية والأوروبية الى اسرائيل كى تقوى ، وتقوى .

وبلغ ما بعثت به ألمـانيا الغربية وحدها ٤٣ مليون ونصف من الماركات ، هذا عدا دول أوروبا الأخرى .

أما أمريكا فقد أرسلت وحدها أربعة آلاف مليون جنيه .

والمغفلون وحدهم هم الذين لا يحسبون هذا الدعم ليوم له ما بعده .

ليوم ترمقه الصليبية من خلال الغيوب .

وتعمل — بجلد ودأب — لتقريب موعده .

انه يومها المأمول .. اليوم الذى تنقض فيه على المنطقة كلهـا لتطوى أعلام الاسلام فيها طياً لا يعقبه نشور ...

ودول أوروبا تزعم لنفسها الحق فى حماية المسيحيين أين كانوا وتتصيد الأكاذيب للتدخل فى شئون الآخرين باسم هذا الحق .

المسلمون الذى جعلهم سوء الحظ قلة فى بعض الأقطار فمن حق دول أوروبا أن تضع سياسة صارمة لابادتهم ، دون أن يحتج مسلم أو يعترض .

ولا بأس اذا حدث شىء من ذلك أن يتهم هذا المسلم بالتعصب !!!

أرأيت شبيهاً فى العالمين لهذه الصفاقة ؟ ؟

لقد هاجت الهيئـات السياسية والدينية ضد الدولة العثمانية ، وافتعلت ضجيجاً عاليا على ما أسمته مذابح الأرمن ، ولم تكن هـذه القصة الا عملا تأديبياً لقوم حركتهم أوروبا كى يطعنوا المسلمين فى ظهورهم ، ويسلموهم الى أعدائهم ..

والآن هل يتحرك أحد للأسلوب الهمجى الذى يعامل به العرب مثلا داخل اسرائيل ؟ ؟ .

واندع عرب فلسـطين جانباً فان قضيتهم معروفة على الأقل للعرب أنفسهم .

أما مسلمو أوروبا الشرقية ، أما الثمانية عشر مليونا من المسلمين المبعثرين فى هـــذه الأرجاء ، فان قضاياهم تحتاج الى قليل أو كثير من ايضاح •

ان الاسلام يحتضر فى تلك البقاع دون صريخ ولا معين ••

ان أندلساً أخرى تصنع الآن فى شرق أوروبا اتماماً الخطة التى أشرنا اليها آنفاً •

ان المسلمين فى هاتيك البقاع يشبهون غديراً تجمعت فيه المياه ، ولكنه انقطع عن ينبوعه ، فهو موشك على الجفاف ، مع انقطاع المدد وقدة الجو •

غير أن أعداءهم يخافون أن تمتد حياتهم لأسباب غير منظورة ، فهم يستعجلون هلاكهم بالقتل قبل أن يطول بهم الأجل !!!

ومن يدرى : ربما تجددت لهم حيـــاة مع حب العقيدة وقبول التضحية ؟

فليفتكوا بهم اليوم قبل الغد •

ووقعت مذابح البلقان الأولى سنة ١٩١٢ وهلك فى أتونها الألوف المؤلفة من النســـاء والأطفال والشـيوخ ، وصكت أسـماع العالمين أنباؤها المفظعة •

أما دول أوروبا •• فلا نقول ان ذلك أرضاها وحسب ، بل نقول ان ذلك كان بايعاز منها وتشجيع ••

وأما الشرق الاسلامى فقد ضج بالبكاء •

وترجم « شوقى » عن مشاعره الأسيفة بهذه القصيد المشهورة :

يا أخت أندلس عليك سلام !! هوت الخلافة عنك والاسلام !!

وفيها يصف ملك الصرب ، قائد تلك المجزرة ، فيقول :

سكينه ، وحزامه ، ويمينه والصولجان ، جميعها آثام

ولم يأبه الصليبيون لشىء من هذا ••

لقد تركوا الاسلام الجريح يلقى حتفه بعد هذه الطعنة الموجعة •

غير أن الاسلام لم يمت ، وتحامل أهله على أنفسهم واستأنفوا السير فى قافلة الحياة ••

وجاءت الحرب العالمية الثانية •

جاءت ليستقبل المسلمون فى شرق أوروبا نكبة أخرى •

فقد انضمت يوغوسلافيا الى الحلفاء ، وحاولت أن تكون عوناً لهم على دولتى المحور « ألمانيا ، وايطاليا » •

فلما حمى الوطيس لم تلبث « يوغسلافيا » قليلا أمام الجيش الألمانى حتى استسلمت ، وفرت حكومتها لتقيم فى القاهرة تحت جناح انجلترا •• المسيطرة يومئذ على الشرق الأوسط كله •

وبقى فى « يوغسلافيا » وزير الحربية اليوغسلافى يقاوم الألمان على رأس فلول من العصابات المعتصمة بالجبال •

فهل هذه كانت حقاً وظيفة الجنرال « ميخايلوفتش » قائد هذه العصابات ؟ كلا انه انتهز فرصة انشغال الألمان فى الجبهة الروسية واشتباك أغلب قواهم فى معاركها المريرة وتجنيدهم فرقة من الشباب اليوغسلافى المسلم لتعمل فى هذا الميدان البعيد ، انتهز «ميخايلوفتش» هذه الفرصة ووثب على القرى الاسلامية ، وأعمل فيها الفتك والسلب والنهب ، وأرخى العنان للضغائن التى احتبست حيناً ثم أمكنها الآن أن تتنفس !!

فاذا السيف يحصد من المسلمين كم ؟

كم الذين هلكوا فى تلك النار الموقدة ؟

مائتا ألف مسلم •

ان الفكرة التى استيقظت بغتة هى اخلاء هذه الديار من المسلمين العزل المفجوعين • !!

وهام جمهور الموحدين على وجهه لا يدرى أين يذهب ؟ ؟

ويقدر الهلكى من المرض والجوع والبرد بمائتى ألف أخرى ••

يقول مفتى فلسطين — وكان يومئذ لاجئاً الى ألمانيا — : أبرق الى بعض زعماء المسلمين يطلبون النجدة فأسرعت الى وزارة الخارجية الألمانية أستحثها على علاج الموقف ! فأجابتنى : ان هذه المنطقة أصبحت خاضعة لايطاليا •

فسافرت الى « روما » فوراً وقابلت « موسولينى » وقلت له :

انه لو قتلت فى بلادنا أسرة واحدة من الكاثوليك ، بل شخص واحد فقط لقامت الدنيا .

ولكن هنا ، فى منطقة احتلالكم ، وقعت مجازر هلك فيها الآن قريب من مائتى ألف مسلم .

فأمر « موسولينى » وزير خارجيته « كونت شيانو » بمقابلة السفير الألمانى « فون ماكنزى » لاتخاذ اجراءات مشتركة كى توقف هـذه المذابح .

ولكن المذابح لم تقف ، وان تك وطأتها خفت قليلا .

قال : فسافرت مره أخرى الى « برلين » ثم الى « فيينا » ثم الى « زغرب » .

وبعد جهود مضنية تمكنت من السفر الى « سراجيفو » على مقربة من الأحداث الشنعاء .

واستعطت اقناع القائد الألمانى هناك أن يزود المسلمين بالسلاح ، ليدافعوا عن أنفسهم .

وتفاهمت مع زعماء الطائفة الاسلامية على طريقة العمل ، فألفنا جيشاً من شبابهم بلغ تعداده المائة ألف .

وما كاد يظهر فى الميدان حتى انسحب الجنرال « ميخايلوفتش » الى أوكاره فى الجبال .

بل ان القائد الوغد أخذ يتودد الى المسلمين ، ويظهر لهم اللين .

واليد التى أسداها مسلمو الشرق الى اخوانهم مسلمى البلقان فى هذه المأساة العصيبة هى قرابة خمسة وثلاثين ألف جنيه تبرعت بها الحكومة المصرية وهيئة الهلال الأحمر لمواساة المنكوبين ..

ولم تجد هذه النكبة شوقياً آخر يرسل وراءها عبراته .

ولا استغرقت من تعليقات الأسى الا سطوراً ، قرأها المؤمنون حيناً وعلى وجوههم سيماء الهزيمة والحزن ، ثم عمل الغزو الثقافى عمله فى جر ذيول النسيان على كل شىء .

ولو أن أربعمائة ألف كلب ماتوا فى احدى البقاع النائية ، لكان لذلك الحدث خبر يروى هنا وهناك .

ولكن القتلى مسلمون بين جماهير الأوروبيين •

مسلمون متعصبون بين أوروبيين معتدلين !!

ان أحـداً من رجال السياسة ، أو من رجال الدين فى القارتين المتحضرتين أوروبا وأمريكا لم يأبه لمـا حدث •

لأن الذى حدث صادف هوى مكيناً فى النفوس •

ألم أقل لك : ان استباحتنا ، واجتياح بلادنا وعقائدنا شىء يستحق التكريم فى منطق هؤلاء ونظرهم الى الأمور •

انه عبادة يتقرب بها الى الله ، وأدنى جهد فى هذه السبيل مأثرة تذكر لصاحبها — رجلا كان أو امرأة — بالحمد والثناء •

والا فبماذا تفسر ما نشر فى الصحف أخيراً من أن الفاتيكان يطلب المعلومات الكاملة عن احدى المجندات فى الجيش الانجليزى الزاحف على السودان من ستين سنة للقضاء على ثورة المهدى ؟

انه يطلب المعلومات عنها تمهيداً لرسمها قديسة •• !!

بنت مصرية ، خرجت على وطنها والتحقت مجندة بالجيش المحتل •

لم تكن طبيبة ولا ممرضة ، لأن الأمة المصرية يوم ذاك لم تكن تألف هذا النوع من العمل •

انها كانت شيئاً لا ندريه •• ولا نذكره •

ولكن المهم أن البحث يدور حول تاريخها المجهول تمهيداً لدرج اسمها مع القديسات •• !!

وهاك الخبر كله ، كما نشرته مجلة « منبر الاسلام » التى تصدرها وزارة الأوقاف تحت عنـوان : « هـذه هى الحقـائق • فليقرأها الفاتيكان •• » •

« قديسة مصرية شهيدة قتلت فى ثورة المهدى » ••

« الفاتيكان يستعد لادراجها بين القديسات » ••

هامبورج فى ٢٧ — ١ • ش ١ — قالت اليوم مجلة « ردشبيجل » ان الفاتيكان قد طلب من الجمعية « الجيزويتية » — الآباء اليسوعيين — بالاسكندرية أن تجمع معلومات عن سيدة مصرية تدعى « مارى لطيف »

كانت قد تحولت الى الكاثوليكية ، وقتلت وهى تحارب الى جانب القوات المسلحة المصرية فى ثورة المهدى عام ١٨٨٢ .

وتقول الصحيفة ان الفاتيكان قرر جمع المعلومات عن هذه السيدة تمهيداً لاعلانها قديسة بين قديسات الكنيسة الكاثوليكية .

وختمت الصحيفة هذا النبأ بقولها : ان تقديس هذه البطلة المصرية من شأنه أن يعزز العلاقات القائمة بين الفاتيكان والعالم العربى .

هذا ما نشرته الأهرام .

والحقيقة التى يعرفها التاريخ ؛ أن انجلترا — بعد احتلالها مصر — استشرت بأطماعها الى احتلال السودان ، وبدأت تمد لذلك حبائلها ، وتدبر خططها ، مستغلة ضعف الحكام المصريين الذين وقعوا تحت سيطرة احتلالها ..

ولما أحس المهدى بوادر التدبير ثار لاحباط ما يراه ببلاده من شر ، ورأت انجلترا فى هذه الثورة ما يهدد أطماعها الاستعمارية ، فاغتاظت وقررت القضاء عليه ، وسيرت اليه جيوشها بقيادة ضباطها الكبار ، وأعلنت فى الملأ أنها انما تحاربه لأنه ثائر على السلطة المصرية الشرعية ، ولكى تستر أغراضها ونياتها أكرهت الحكومة المصرية على أن ترسل بعض قواتها مع جيشها المحارب فى السودان .

وكان المعروف لدى ضباط وجنود القوات المصرية ، أنهم مسخرون لخدمة أغراض الاستعمار ... وكانوا يشعرون بالغيظ الحانق والألم المر ، اذ يرون أنفسهم مكرهين الى السير لقتال اخوانهم فى العروبة والدين والوطن .

أو مكرهين على التمكين للعدو البغيض أن يحتل السودان ، وأن يقتل أحراره الثوار وأن يضرب على اخوانهم من الذلة والمهانة مثل ما ضرب على المصريين من قبل .

فكانوا ينتهزون كل فرصة مواتية ، للفرار من الصف الانجليزى والانحياز الى صف الأخوة الأشقاء وذلك لجملة أسباب :

أولا : أن الجيوش التى كانت تقاتل المهدى هى جيوش انجليزية لحماً ودماً ، واليك شهادة الانجليز أنفسهم :

يقول المراسل الحربى لجريدة « الديلى نيوز » المرافق للجيش الانجليزى بشرق السودان :

ان الجيـوش الانجليزية تقاسى مصاعب ومشاق شـديدة فى قطع الطريق •

ولما حوصر « غوردون » كتبت جريدة الديلى تلغراف تقول :

ان هلاك « غوردون » أو وقوعه فى أسر المهدى يذهب بالأعمال الحربية التى قامت بها العساكر الانجليزية فى السودان ••

وكان من قواد هؤلاء الجند : «غوردون» و «جراهام» و «هفت» و «هكس» و «باذر» وغيرهم ، وهى قطعاً أسماء انجليزية صميمة وليست أسماء مصرية •

ثانياً : أن الجنود والضباط المصريين كانوا يدعون صفوف العدو وينحازون الى صفوف السودانيين حتى كان مع المهدى من الضباط وحدهم ما يزيد على خمسين ضابطاً ، وتذكر « التيمس » فى غيظ أن « غوردون » لمـا اشتد عليه الحصار خرج بألفى جندى من المصريين لفك الحصار ، فتراخى الجند ، وانحاز خمسة ضباط الى جند المهدى ، وقبض « غوردون » على اثنين من القواد الباشوات لأنهما حرضا الجند على التراخى ، وأعدمهما رمياً بالرصاص ••

ثالثاً : أن هـذه الحرب كانت حرباً استعمارية قذرة ، وليست حرباً مقدسة يستشهد فيها القديسيون والقديسات ، وكيف يكون قديساً من ينهض لحرب أقوام أبرياء مسالمين لم يعتدوا على أحد ؟

وكل جريمتهم أنهم أرادوا أن يعيشوا فى أوطانهم أحراراً ، فقاوموا رغبة المستعمر فى اذلالهم •

ولا شك أن مبادىء السيد المسيح عليه السلام تبرأ كل البراءة من اى حرب عدوانية تراق فيها الدماء ، وتزهق الأرواح ، ويهدم العمران وتعم الخسائر والفواجع •

واذن ، فهذه السيدة المصرية ، كانت تصحب جيشا انجليزيا ،

لا جيشاً مصرياً •• وكانت تؤازر الجيش الانجليزى على قتل الأبرياء ، وترميل النساء ، وتيتيم الأطفال ، تمكيناً له على أغراضه الاستعمارية الخسيسة •• ولسنا نخلع عليها اللقب الذى تستحقه من وجهة النظر المصرية ، ولكنا نحسب أن سيدة هذا شأنها لا يرحب بها السيد المسيح فى زمرة القديسات ••

ولعل مما ينشرح له صدر الفاتيكان بهذه المناسبة أن من وقائع ثورة المهدى الثابتة أن « غوردون » كان قد أرسل فى طلب قسيس لنشر المذهب البروتستنتى بين مسلمى السودان ، لا لنشر المذهب الكاثوليكى الذى يعتنقه البابا •

ولنسمع الآن ما يذكره السيد « جمال الدين الأفغانى » عن سماحة « المهدى » مع الكاثوليك ، قال فى العروة الوثقى :

« جاء الى الخرطوم ضابط مصرى وأخبر أن رسل الكاثوليك فى مدينة عبيد تحت كنف « محمد أحمد المهدى » فى حرية تامة ، تجرى عليهم المرتبات من طرفه وأن كنيستهم مفتحة الأبواب » •

رابعاً : أن تقديس هذه البطلة ، ليس من شأنه أن يعزز العلاقات القائمة بين الفاتيكان والعالم العربى ، كما تظن مجلة « ردشبيجل » فى آخر كلمتها • لأن السودان قطر عربى شقيق ، وكل العرب معه ينظرون الى مثل هذا العمل — اذا وقع — نظرة جزع وألم ، ولاسيما أن الانجليز أوقعوا ما أوقعوا بالسودان وهم يعلمون أنه قطر عربى ، وها هى ذى جريدة « التيمس » تصف جنود الجيش السودانى بأنهم « عرب » حين ذكرت احدى هزائم « غوردون » اذ قالت : « وعاد غوردون الى الحصون وغنم العرب من جيشه مقداراً وافراً من الذخائر » •

ووقف « لورد جرانفيل » فى مجلس اللوردات يتكلم عن مقاومة العرب لا مقاومة السودانيين فيقول :

« ان المقاومة التى لاقيناها من قبائل العرب فى سواحل البحر الأحمر — شرق السودان — كان الغرض منها تمكين سلطة المهدى فى البلاد السودانية » •

***

وبعد .. فقد ذكرت المجلة التى نشرت الخبر أن الفاتيكان طلب من الجمعية الجزويتية « الآباء اليسوعيين » أن تجمع المعلومات عن هذه السيدة التى كانت تدعى « مارى لطيف » .

وها نحن أولاء نضع تحت أنظار الجمعية « الجزويتية » هذه الحقائق لعلها تصلح لأن ترفع للفاتيكان ... !!!

أما حال المسلمين الآن فى ألبانيا ويوغوسلافيا وغيرهما من دول البلقان فان للكلام فيه صحائف أخرى ، نرجو عون الله قريباً كى تنشر على حقيقتها الكاملة ..

كما نرجو أن نوفق الى اخراج بحث شامل عن حال المسلمين فى البلاد الشيوعية كلها .

وأظن أن الدعاة المسلمين ، بعد هذه الايماءة العجلى الى حال دينهم وأمتهم أمام الكتل المتألبة عليهم سيعرفون كيف يحمون الحقيقة من الضياع ، وأصحابها من التلاشى والفناء .

أظنهم سوف يذكرون ولا يغفلون ....

واننا لنشكر سماحة مفتى فلسطين ، على هذا الدرس الذى سجلنا أصوله ، ووسعنا حقائقه وفصوله .



نمـاذج حيـة

● القـــرآن :

الداعية الى الله صديق لكتابه الكريم ، يألف تلاوته ، وينتظم فى أداء ورده ، ويستوحش اذا حجزته عنه شواغل طارئه .

والأصل أن يستوعبه كله حفظاً وتجويداً .

فان قصر عن تلك الدرجة فلن يقصر فى ادمان مطالعته ، واستذكار موضع الاستشهاد منه .

وليس المطلوب أن يكون الداعية وعاء لآى القـــرآن وأحرفه ، بحيث لو وصل الى القمة فى هذا المجال وصف بأنه مصحف متحرك ، كلا .

ان صلة الداعية بكلام الله أسمى وأجل .

ان المعانى العلمية للقرآن الكريم يجب أن تكون جزءاً كبيراً من الحياة العقلية له .

تسبح فى فكره كما تسبح الكواكب فى أجواز الفضاء :

ففى رأسه صورة للكون كله كما وصفته آيات القرآن .

وفيه تاريخ للأمم البائدة ، ولم لقيت مصارعها .. ؟

واحصاء لأحوال النفوس ، وبيان للمطلوب منها .

ووعى لشتى التشريعات الموزعة فى السور ، وفقه لأحكامها .

وتصور لمشاهد الحشر والنشر يزاحم صورة الحياة الحاضرة .

وحس بقيام الله على الخلائق كلها قياماً يوضحه ختام الآيات بعشرات من أسمائه الحسنى .

وكما أن عقل الداعية يمتلىء بهذه المعارف النظرية ، فان قلبه يجب أن ينتعش ببواعث الذكر الميسر له .

وأن تستجيشه مصـــادر الرغبة والرهبة ، وتهزه معانى الوعد والوعيد .

ويتحرك مع أدوار الصراع المستمر بين الحق والباطل .

ويقشعر جلده فى مواطن الوجل ، ويستريح ضميره مع بواعث الطمأنينة .

الداعية رجل يحيا فى القرآن عقلا وعاطفة ، ويراه أساس وجوده المـادى والمعنوى ، ووظيفته التى تشغله بمغانمها ومغارمها ..

ولا ريب أن حياته على هذا النحو ترقى آماداً رحبة عن مستوى النـاس .

انها ترفعه الى الملأ الأعلى وذاك معنى قول رسول الله ﷺ :

« الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » .

لكن ، هل يسهل الوصول الى تلك المكانة ؟

والجواب : انه ليسير على من يسره الله له !

والواقع أن امساك الآيات فى الذاكرة صعب . ما لم يتعهدها الانسـان باستمرار التلاوة .

والقرآن فى جوف الانسان أشد تفصياً من الابل فى عقلها ، كما ذكر النبى ﷺ ، فكيف بالحياة معه ، والتنفس فى جوه ؟ ؟

ان ذلك يحتاج الى طول مجاهدة ، ودوام صحو .

والدعوة الى الله على كل حال ليست مسلاة امرىء خالى البال .

فان لم يستعد الرجل لها باستجماع قلبه ولبه فهيهات أن يصل .

والجهد الانسانى وحده ضائع ما لم تلحقه العناية العليا ، ويدركه الفضل العظيم .

والأمر يتطلب مزيداً من الضراعة والانابة والدعاء .

وقد كان رســول الله ﷺ يدعو فيقول[1] : « اللهم أنا عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، وفى قبضـــتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ... » الخ .

* * *

ورسول الله ﷺ أسوة حسنة فى هذه الصلة بالقرآن .

ومنه يتعلم الدعاة كيف يكونون صلتهم بالوحى المبارك .

والداعية الذى يحيا فى جو القرآن ينشد للمجتمع حوله أن يحيا

(١) سبق ذكر هذا الدعاء بنصه الكامل فى صفات الداعية .

هو الآخر فيه ، وأن يقيم أوامره ويجتنب نواهيه ، وينفذ أحكامه ويرعى حدوده ، ويقبل عليه اقبال المعظم لرسالته ، الموقن بصدقها ، الراجى سعادة الدارين من ورائها ..

ومن ثم فهو يلفت النظر بقوة الى أن التوقير المفتعل لمجالس القرآن وأصوات التلاوة — كما مردت على ذلك العامة — لا جدوى منه .

وأن القرآن ما نزل لهذا ، ولا يخدم بهذا .

القرآن أمة تنشأ فى بوتقته ، وكيان يصاغ وفق تعاليمه .

قال الهراوى تحت عنوان « نحن نبغى القرآن » :

ان هـذا القرآن يهدى الى الر … شـد ويدعو لصالح الانسـان
نحن نبغى القـرآن علماً وفهماً … يخاتان الـكمال فى الشـبان
نحن نبغى القرآن لفظاً ومعنى … فهو صقل الحجا وصقل اللسان
نحن نبغى القـرآن ديناً ودنيا … يتجلى هـديه الحسـنيان
نحن نبغى القرآن فى معهد الدر … س وفى كـل منزل ومـكان

وقال الشاعر فى وصف بلاغته :

الذكر آية ربك الـكبرى التى … فيهـا اباغى المعجـزات فنـاء
صدر البيان له اذا التقت اللغى … وتقـدم البلغـاء والفصـحاء
نسخت به التوراة وهى وضيئة … وتخلف الانجيـل وهـو ذكـاء
لـما تمشى فى الحجاز حكيمـه … قضت عكاظ بـه وقام حـراء

والقرآن كله نماذج يتخير منها الداعية ، ما يناسب مقتضى الحال .

* * *

● السـنن :

كم من السنين كنت سأقضيها بحثاً وراء الحق الذى أهدانيه محمد ﷺ وأنا فى ضمير الغيب ؟

وكم من الآلام كنت أعانيها وأنا أنفق العمر فى تجارب قبل أن أهتدى الى السداد ؟

ومن الذى يضمن لى مع قدرتى أن أظفر بالحقيقة الغالية ، وقد تاه عنها رجال تشابهت عليهم الطرق حيناً ، وانسدت فى وجوههم المنافذ حيناً آخر ؟ ؟

وهبنى أتيت قدراً من الذكاء الكشاف ، والنشاط الدءوب ، فمن للألوف المؤلفة من الناس الذين قلت حظوظهم المعنوية ؟ وكيف يحيون على ظهر الأرض ؟ ؟

اننى كلما أحسست راحة الايمان فى نفسى ، وبرد اليقين فى قلبى ، وروعة الدين الذى ينير باطنى ، أشعر بميل شديد الى شكر الرجل الذى يسر لى هذا الخير وأتاح لى أن أعرف ربى الواحد جل شأنه وأن أقدر النعمة التى حولى وأدرى حق من بعث بها ؟

نعم اننى أشعر بميل الى شكر محمد ﷺ والتنويه بفضله ، والثناء على صنيعه كلمـا غسلت وجهى فى وضوء ، وطهرت بدنى لصلاة ، ووضعت وجهى على الأرض ساجداً أسبح ربى الأعلى !!!

نعم ، وكلما سرت فى الطريق منتصب القامة رافع الرأس عزيز النفس أرمق الكبار والصغار على أنهم عبيد مثلى لله الذى أدعوه وحده وأرجوه وحده .

وكلما شعرت بأنى انسان أعرف من أين جئت ؟ والى أين أصير ؟ ولمـاذا خلقت ، وماذا أفعل وماذا أترك ؟ ؟

وكلما تصورت أن هنـاك بشراً كثيرين تكتنفهم الحيرة والظلمة لأنهم محرومون من ذلك المتاع المتاح لى أحسست أن فى عنقى وعنق كل مؤمن مثلى ديناً للرجل الطيب الكريم الذى مهد لنا بجهاده هذا الصراط المستقيم ، ديناً لمحمد ﷺ

ان هذه نظرة قد تكون منبعثة من الأثرة .

رجل أهدانى خيراً جزيلا ، وهدانى الى حق جليل فبديهى أن أذكره وأشكره ، وأذيع بين الناس صنيعه .

لكن لمـاذا لا يقدر المرء لفضله المجرد ؟ ان الجمال الرائع يعجب وكذلك الذكاء البارع ، والتفوق البارز فى أى شأن من شئون الحياة .

ان المعدن الانسـانى النفيس يستحق أن يغالى به تلقائياً ، وأن تعرف له مكانته .

لقد طوفت ببصرى ، وأنا تحت ، ومعى على السفح ألوف مؤلفة من أوساط الخلق .

رفعت الرأس ونظرت الى القمة المتوجة بالنور والبر والبركة .

تأملت فى سيرة محمد ﷺ وشمائله وسياسته .

ورأيت أنه من هنا انبجست جميع القيم والمثل التى تحدو الانسانية أمجادها .

وعرفت سر الحقيقة انى تقال دون افتعال أو افتخار . تقال للتعليم لا للاستعلاء ، يقولها هذا الرسول نفسه : « أنا سيد ولد آدم .. ولا فخر » .

يقولها ليرسم الطريق أمام كل حر يكره الهوان .

أمام كل امرىء يكره حيرة الباطل ، وهوان الجمود .

أمام كل انسان ينشد الوصول الى أسباب السيادة الصحيحة .

يقولها ليعرف الجميع من أين تؤخذ الأسوة الحسنة .

* * *

على كل داعية الى الله أن يعرف قدر محمد ﷺ جهد طاقته ، واذا جأر الى الله بالصلاة عليه ، فليودع هذه الصلاة روح الحب والشكر ..

ثم على كل داعية أن يعرف كيف خلص هذا الحق له .

وكيف وصل هذا الدين اليه .

وكيف مهدت السبيل لجماهير السالكين الى يوم القيامة ...

ان العالم كان محكوما باشاعات طويلة ، وظنون قاتلة ، وأوهام لا حصر لها .

وكما تشيع الفرية المختلقة بين بعض الناس فتمسخ تصورهم وتفسد أحكامهم ، شاعت عن الله وعن دينه أكاذيب بلغت من السمك والصلابة حدا يعيى المصلحين وهامت الجماهير فى القارات المائجة بسكانها تخبط فى ديجور ليس له قرار .

ونظر الله الى الخلق فمقتهم عربهم وعجمهم .

لقد ضلوا ضلالا بعيدا ...

فى هذا العماء السائد ، بدأ بصيص من الحق يشتعل ، ونور من الوحى يتألق .

وبدأ صوت سيدنا محمد ﷺ يعلو بالهداية المستغربة ..

وتحولت الدنيا كلها من حول الرجل المبلغ عن الله الى عاصفة تريد اقتلاعه من جذوره .

وظل العراك بين الفريقين قريباً من ربع قرن كان الحق الناشىء فيها يسقى بخلاصات من عرق المجاهدين ودماء الشهداء .

وكان البطل الجاد الصبور يضرب بذراعيه هنا وهناك كما تضرب الشمس بأشعتها أكناف السحب فى يوم غائم .

وما زال يقاوم قوى الظلام حتى تغلب عليها وملأ الأرض بأنوار الاسـلام .

وقصة هذا الكفاح وما أثر عن الرسول فيه من قول ، أو فعل ، أو حكم ، أو تقـرير هو سنة النبى العظيم ﷺ ، يجب أن يدرسها الدعاة وأن يجعلوها بعد كتاب الله ، أساس الحكمة التى يتعلمون ، ويعلمون .

ويقول(٢) الجاحظ ، ومكانته فى الأدب ما تعلمون ، يصف كلام الرسول : « ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن أعادته ، وقلة حاجة السـامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق .

ثم لم يسـمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ... من كلامه ﷺ .

وانى محاول الآن أن أسوق لكم نبذاً من قوله فى مواضع شتى ، ومعان متفرقة .

فيها ترون الفصاحة والبلاغة المحمدية حية منيرة ، لم تبل القرون جدتها ولم تذهب شيئاً من طلاوتها .

---

(٢) عن كتاب « بطل الأبطال » للأستاذ عبد الرحمن عزام .

انظروا الى هذه الكلمات :

قال رسول الله ﷺ : « أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعلانية ، وكلمة العدل فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبرة » .

وقد وجدوا مكتوباً على قائم سيفه ﷺ : « اعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن الى من أساء اليك ، وقل الحق ولو على نفسك » .

ويقول ابن عباس : كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لى :

« يا غلام انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة كلها او اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله (تعالى) لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله (تعالى) عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله تعالى شاكراً صابراً ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً : من نظر فى دينه الى من هو فوقه ، فاقتدى به ، ونظر فى دنياه الى من هو دونه ، فحمد الله على ما فضله به عليه » .

وعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يكن أحدكم امعة — وهو الذى لا يثبت مع أحد ولا على رأى لضعفه — يقول : أنا مع الناس ، ان أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا ، وان أساءوا أن تجنبوا اساءتهم » .

وعن معاوية أنه كتب الى عائشة : أن اكتبى الى كتاباً توصيننى فيه ولا تكثرى فكتبت : سلام عليك ، أما بعد : فانى سمعت رسول الله

ﷺ يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مئونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى الى الناس » والسلام عليك .

وقال ﷺ : « شر ما فى الرجل ، شح هالع ، وجبن خالع ، اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم . حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

وقال : « ان الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، واضاعة المال . وكثرة السؤال » .

وقال : « لا تظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك » .

وقال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ الذى يأكل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك ان طالت بك مدة أن ترى قوماً فى أيديهم مثل أذناب البقر ، يغدون فى غضب الله ويروحون فى سخط الله » .

وقال : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » .

وقال : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» .

ثم انظروا الى هذه الكلمات الموجزة ، وتدبروا ما فيها من حكم بالغة : لا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له — رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم — الناس بزمانهم أشبه — العدة عطية — العاقل ألوف مألوف — لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرماً — اتقوا المهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه .

وكان ﷺ خطيباً لا يبارى ، يقصد الى الحقيقة ، فيضعها بين سمع الناس وبصرهم ، لا يحاول أن يستبى القلوب بزخرف القول ، يكره التفاصح والتنطع ، بين العبارة ، واضح المعنى ، وله خطب طوال لا حشو فيها ولا تقصير ، وقصارى القول أن كلامه هو الكلام الموجز الشامل .

يقول أبو سعيد الخدرى : صلى بنا النبى ﷺ يوماً صلاة العصر . ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون الى قيام الساعة الا أخبرنا بـه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال : « ان الدنيا خضرة حلوة ، وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون .

ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق اذا علمه ، ألا انه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة امام عامة .

ألا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه .. فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض » .

ثم انظروا الى هذه الخطبة الجامعة لكثير من أصول الشرائع ، فى صفحة موجزة يلقيها على مائة ألف ، فى موقف عرفة ، فى حجة الوداع ، ففيها ألغى مآثر الجاهلية ، وقرر مبادىء المساواة ، وحرم الثأر ، وقضى بذلك على أقدم عرف للعرب ، وأمس شىء بقلوبهم ، وقضى كذلك على الربا ، ورفع درجة المرأة ، وحرم الفتن والنهب والغزو ، وكل مفخرة وعزة بالباطل ، وذكر الأشهر الحرم ، فسوى بين أوقات السنة فيما هو حلال أو حرام . وحرم النسىء الذى ألفه الجاهليـون .

ونصح الناس فى أمور شتى ، وحذرهم ما يحقرون من أعمالهم ، وما يستهينون به من الآثام .

قال ﷺ :

« أيها الناس .. اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ..

أيها الناس .. ان الزمان قد اسـتدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاثة متواليات :

ذو القعـدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

أى شهر هذا ؟ أليس ذا الحجة ؟ قالوا : بلى .

قال : فأى بلد هذا ؟ أليس البلدة ؟ — يعنى مكة — قالوا : بلى .

قالوا : بلى ..

قال : فأى يوم هذا ؟ أليس يوم النحر ؟ قالوا : بلى ..

قال : فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض .

ألا فليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه .

ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها .

وان كل ربا موضوع — أى مهدر — ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون(*) ، قضى الله أنه لا ربا ، وان ربا العباس بن عبد المطلب — عم النبى — موضوع كله .

وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وان أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — أى ابن عم النبى — .

أما بعد : أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً . ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك ، فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : **« انما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله »**(٣) .

أما بعد : أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

أيها الناس : استوصوا بالنساء خيراً ، فانهن عندكم عوان(٤) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، فاعقلوا — أيها الناس — قولى ، فانى بلغت ،

(*) لا تظلمون ولا تظلمون : الأولى بفتح التاء وكسر اللام والثانية بضم التاء وفتح اللام ..

(٣) التوبة : ٣٧ .

(٤) جمع عانية ، أى أسيرات ، شبههن بالأسيرات لضعفهن .

وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه : تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه الا مالا أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت » ؟ ..

فأجاب الناس من كل صوب : نعم . فقال : اللهم اشهد ، ونزل عن ناقته . هذه الخطبة جمعت أصولا قد تبدو الآن معترفاً بها ، مجمعاً عليها ، ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربى وقت القائها ، بل حالة المجتمع الانسانى ، يعرفون أنها كانت أساساً جديداً لأكبر انقلاب اجتماعى منذ ظهوره ﷺ ، ويلحظون احاطتها على قصرها بالداء والدواء ، وأن فيها أسس الحضارة التى جعلت من العرب الضلال أمة تسوس المشرق والمغرب قروناً كثيرة .

وها هى ذى الأيام تمر فتبلى كل جديد ، وفصاحة محمد ﷺ وبلاغته لا تزال نضرة عذبة ، يبتهج بها المتطلع الى الأدب والعلم ، ويجد فيها الأديب رياً وشفاء .

***

● **زاد للدعاة :**

وهذه نماذج للقراءة والتدبر ، لا للحفظ والالقاء قصدت من سوقها اثارة ما فى النفوس من مشاعر الخير والصدق .

فان الكلمات العامرة باليقين ، الحافلة بالاخلاص ، الصائبة فى تصوير جوانب الحياة ، الراشدة فى ايضاح قضاياها ، لها أثر ساحر فى احياء القلوب ، وايقاظ الهمم ، واطلاق العواطف الحبيسة وراء الهموم الصغار والأغراض التوافه .

وقد ارتأيت فى ترتيب هذه النماذج أن تكون منوعة النزعات ، متوازنة الفكرة والوجهة ، فلا ينجذب القارىء مع مناجاة خاشعة الا شدته خطبة مهتاجة ولا يبغض سورة الحياة الا ارتد اليها فى صراع مع هذه الدنيا .

ولا يهتم فى طلب الآخرة الا أبصر قصده مع هذه الدنيا .

والحق أن التدين الصحيح هو الذى يسنكما، فى طبيعته عناصر الكمال فى المعاش والمعاد جميعا ، وتلتقى فيه شعب الايمان كلها • فلا يطغى جانب على جانب • ولا يتضح معنى ويغيم آخر •

ونريد من الداعية الى الله — اذا عاش حيناً بين أفكار الرجال وكلماتهم — أن يقتبس منها ما يؤكد فى نفسه هذه الحقيقة •

أى أنه ينتفع بها فى زيادة تفهمه لدينه وافهامه للآخرين •

ثم ليجعل من هذه الكلمات بذوراً تلقى فى نفسه كما تلقى الحبوب فى الأرض الخصبة نتخرج بعد حين • وقد زادت أضعافاً مضاعفة •

ثم ان مستويات البلاغة فى هذه النقول تتبع العصور التى قيلت فيها • وأذواق الناس تختلف فى تقدير ما احتوته من جمال فنى • وأعتقد أن بساطة الأداء الظاهرة فى صدر الاسلام • أفضل من ضروب الأناقة التى التزمت فى العصور الوسيطة •

وأحسب أن عصرنا الحاضر أخذ يقترب فى تعبيره من طابع الصدر الأول •

وليس يهمنا ما ينتهى اليه الكلام من طبقات البلاغة ، انما يهمنا ما أودع فيه من روح الايمان وقوة الشعور وأصالة المعنى •

فذلك هو الزاد الذى تربو به ثروة الداعية ، ويقتدر به على توجيه الناس •

***

● **وصية أبى بكر الصديق لعمر الفاروق :**

« انى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله •

ان لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل•

وانه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة •

واعلم أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامه باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم •

وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يكون ثقيلا •

واما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يكون خفيفاً •

ان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فاذا ذكرتهم قلت . انى أخاف ألا أكون من هؤلاء .

وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولم يذكر حسناتهم ، فاذا ذكرتهم قلت : انى لأرجو ألا أكون من هؤلاء .

وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده الى التهلكة .

فاذا حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب اليك من الموت — وهو آتيك — وان ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت وليست بمعجز الله » .

***

● من خطب أبى بكر :

خطب رضى الله عنه عند توليه الخلافة فقال — بعد أن حمد الله وأثنى عليه — :

« أيها الناس .. انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسددونى .

أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم .

ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم القوى حتى آخذ الحق منه .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » .

وقال مرة — بعد الحمد والثناء — : ان أشقى الناس فى الدنيا والآخرة هم الملوك !!

فرفع الناس رؤوسهم — تعجباً — فقال : أيها الناس : انكم لطعانون عجلون .

ان من الملوك من اذا ملك زهده الله فيما بيده ، ورغبه فيما بيد غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الاشفاق(٥) فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ، ويسأم الرخاء ... لا يستجلى العبرة

(٥) الخوف .

ولا يسكن الى الثقة ، فهو كالدرهم القسى (٦) أو الشراب الخادع جذل الظاهر ، حزين الباطن . فاذا وجبت نفسه (٧) ونضب عمره وضحا ظله (٨) ، حاسبه الله فأشد حسابه وأقل عفوه (٩) .

ألا وان الفقراء ــ يعنى القانعين ــ هم المرحومون .

ألا وان خير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتابه وسنة نبيه ﷺ .

وانكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق حجة وسترون بعدى ملكا عضوضاً ، وملكاً غيدا . وأمة شعاعا ، ودما مباحا .

فان كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق كبوة يعفو (١٠) بها الأثر ويموت لها البشر ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، وليكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر » .

***

وخطب مرة أخرى فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة . وتجمعوا الالحاف بالمسألة فان الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال « **انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين** » (١١) .

ثم اعلموا عباد الله أن الله ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم وعوضكم بالقليل الفانى الكثير الباقى .

وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره ، فثقوا بقوله ، وانتصروا لكتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فانه خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون .

ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه فان استطعتم ألا تنقضى الآجال الا وأنتم فى عمل لله فافعلوا ولن تستطيعوا ذلك الا بالله .

فسابقوا فى مهل بأعمالكم قبل أن تنقضى آجالكم ، فتردكم الى

---

(٦) الزائف الردىء .
(٧) حل أجله .
(٨) زال فلا ظل له على الأرض . (٩) شدد ، وقلل .
(١٠) يمحى .
(١١) الأنبياء : ٩٠ .

سوء أعمالكم فان أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، ونسوا أنفسهم فأنهاكم
أن تكونوا أمثالهم .

فالوحا الوحا [١٢] والنجاء النجاء ، فان وراءكم طالبا حثيثا مره
سريعاً سيره » .

* * *

● من خطب عمر :

« الحمد لله الذى أعزنا وأكرمنا بالايمان ورحمنا بنبيه ﷺ
فهدانا من الضلالة وجمعنا من الشتات وألف بين قلوبنا ونصرنا على
عدونا ومكن لنا فى البلاد وجعلنا به اخواناً متحابين .

فاحمدوا الله على هذه النعمة واسالوه المزيد فيها والشكر عليها
فان الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم .

واياكم والعمل بالمعاصى وكفر النعمة فقلما كفر قوم بنعمة ولم
يفزعوا الى التوبة الا سلبوا عزهم وسلط عليهم عدوهم .

أيها الناس : ان الله أعز دعوة هذه الأمة ، وجمع كلمتها ، وأظهر
فلجها ، ونصرها وشرفها ، فاحمدوه عباد الله على نعمه ، واشكروه على
آلائه ، جعلنا الله واياكم من الشاكرين » .

* * *

وخطب مرة أخرى فقال : « أيها الناس .. انه قد أتى على زمان
وأنا أرى قراء القرآن انما يريدون به الله عز وجل وما عنده ..
الا وانه قد خيل الى أن قوماً مرائين يريدون به الناس والدنيا
ألا فاريدوا الله بأعمالكم .

ألا انما كنا نعرفكم اذ يتنزل الوحى ، واذ رسول الله بين أظهرنا
ينبئنا من أخباركم ، فقد انقطع الوحى وذهب النبى فانما نعرفكم بما
أقول لكم ..

---

(١٢) البدار .. البدار !!

ألا من رأينا منه خيرا ظننا به خيراً وأحببناه عليه • ومن رأينا منه شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه •• سرائركم بينكم وبين ربكم •

ألا وانى انما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم • ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم فوالـذى نفسى بيده لأقصـنكم منهم •

فقام عمرو بن العاص فقال :

يا أمير المؤمنين • أرأيت ان بعثت عاملا من عمالك فأدب رجلا من رعيتك أتقصه منه ؟ قال : نعم • والذى نفس عمر بيده لأقصنه • فلقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه » •

* * *

● من آخر ما قال عمر :

قال ابن عباس : دخلت على عمر فى أيام طعنته • وهو مضطجع على وسادة من أدم • وعنده جماعة من أصحاب النبى ﷺ • •

فقال له رجل : ليس عليك بأس •

قال : لئن لم يكن على اليوم ليكونن بعد اليوم • وان للحيـاة لنصيباً من القلب وان للموت لكربة ، وقد كنت أحب أن أنجى بنفسى وأنجو منكم ، وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة يرجوها ، ويخشى أن يموت دونها ، فهو يركض بيديه ورجليه ، وأشد من الغريق الذى يرى الجنة والنار وهو مشغول ، ولقد تركت زهرتكم كما هى ، ما لبستها فأخلقتها •• وثمرتكم يانعة فى أكمامها ما أكلتها •• ، وما جنيت ما جنيت الا لكم ، وما تركت ورائى درهماً ما عدا ثلاثين أو أربعين درهماً •

ثم بكى ، وبكى الناس معه •

فقلت : يا أمير المؤمنين أبشر ، فوالله لقد مات رسول الله وهـو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنـك راض ، وان المسلمين راضـون عنـك • •

قال : المغرور والله من غررتموه ، أما والله لو أن لى ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع •

* * *

● من عمر الى أبى موسى :

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى :

« أما بعد .. فان الناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله ، أن تدركنى واياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة .

أقم الحدود ولو ساعة من النهار ، واذا عرض لك امران : أحدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فان الدنيا تنفد ، والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل ، وأخف الفساق ، واجعلهم يدا يدا ، ورجلا رجلا .

واستدم النعمة بالشكر ، والطاعة بالتآلف ، والمغفرة والنصرة بالتواضع والمحبة للناس .

وعد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم ، وافتح بابك لهم ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم محلا .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها : فاياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همها فى السمن .. والسمن حتفها .

واعلم أن العامل اذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من يشقى به الناس ، والسلام » .

***

● وصية عمر للخليفة من بعده :

أوصى عمر الخليفة من بعده فقال : « أوصيك بتقوى الله لا شريك له .

وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا وأن تعرف لهم سابقاتهم .

وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم .

وأوصيك بأهل الأمصار خيرا فانهم درء العدو ، جباة الفيء . لا تحمل فيأهم الا عن فضل منهم .

وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فانهم أصل العرب ومادة الاسلام ٠ أن تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فتردها على فقرائهم ٠

وأوصيك بأهل الذمة خيرا أن تقاتل من ورائهم ولا تكلفهم فوق طاقتهم اذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون ٠

وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه مخافة مقته أن يطلع منك على ريبة ٠

وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ، وألا تخشى النـاس فى الله ٠

وأوصيك بالعدل فى الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهـم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم ، فان ذلك باذن الله سلامة لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير فى عاقبة أمـرك حتى تفضى من ذلك الى من يعـرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك ٠

وآمرك أن تشتد فى أمر الله وفى حدوده ومعاصيـه على قريب الناس وبعيدهم ٠ ثم لا تأخذك فى أحد رأفة حتى تنهك منه مثل ما انتهك من حرمة الله ٠

واجعل الناس عندك سواء : لا تبال على من وجب الحـق ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ٠

واياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين فتجور وتظلم بل تحرم نفسك من ذلك مما قد وسعه الله عليك ، وقـد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فان اقترفت لدنياك عـدلا وعفة عما بسط الله لك اقترفت به ايمانا ورضوانا ، وان غلب عليك الهوى اقترفت به سخط الله ٠

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ، ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة ٠ ولقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك ، فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة ، واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسى وولدى ، فان عملت بالذى وعظتك وانتهيت الى الذى أمرتك أخذت به نصيبا وافرا ، وحظا وافيا ، وان لم تفعل ذلك ولم يهمك ، ولم تنزل معاظم الأمور عنـد الذى يرضى الله به عنك يكن ذلك بك انتقاما ورأيك فيه مدخولا لأن

الأهواء مشتركة ورأس كل خطيئة ابليس ، وهو داع الى كل هلكة ، وقد أضل القرون السالفة قبلك ، فأوردهم النار ولبئس الثمن أن يكون حظ امرىء موالاة عدو الله الداعى الى معاصيه .

ثم اركب الحق وخض اليه الغمرات وكن واعظاً لنفسك .

أنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ولا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفىء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ولا تجمرهم[١٣] فى البعوث فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم . ولا تغلق بابك دونهم . فيأكل قويهم ضعيفهم .

هذه وصيتى اياك . وأشهد الله عليك .. وأقرأ عليك السلام .

* * *

● لعثمان رضى الله عنه :

لما بويع عثمان رضى الله عنه خرج الى الناس فخطبهم . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس .. أول كل مركب صعب . وان بعد اليوم أياما ، وان أعش تأتكم الخطب على وجهها . وما كنا خطباء . وسيعلمنا الله .. » ..

ومن خطبة له قال : « أيها الناس .. اتقوا الله فان تقوى الله غنم . وان اكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبر ، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيراً .

وقد يلقى الحكيم جوامع الكلم . ولكن الأصم ينادى من مكان بعيد . واعلموا أن من كان الله له لم يخف شيئا . ومن كان الله عليه فمن يرجوه بعده » ؟ .

وقال فى خطبة له : « ابن آدم .. اعلم أن ملك الموت الذى وكل

(١٣) البعوث : هى الجيوش التى يبعثها الامام الى أرض العدو أو عند الثغور ، وتجمرهم : تركهم هناك بحيث لا يعودون الى ديارهم وأهليهم .

بك لم يزل يخلفك ويتخطى الى غيرك منذ أنت فى الدنيا • وكأنه قد تخطى غيرك اليك وقصدك ، فخذ حذرك ، واستعد له • ولا تغفل فانه لا يغفل عنك •

واعلم ابن آدم أنك ان غفلت عن نفسك ولم تستعد لها لم يستعد لها غيرك •

ولا بد من لقاء الله فخذ لنفسك ولا تكلها الى غيرك والسلام »•

***

وآخر خطبة خطبها عثمان قال : « ان الله انما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطيكموها لتركنوا اليها •

ان الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، لا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فان الدنيا منقطعة وان المصير الى الله •

اتقوا الله فان تقواه جنة من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير [١٤] •

والزموا جماعتكم ولا تصيروا أحزابا « **واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون • ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** » [١٥] •

***

● **للامام على : « الناس والعلم »**

قال كميل بن زياد النخعى : أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه يدى ، فأخرجنى ناحية الجبانة فلما أصحر [١٦] جعل يتنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد : القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، احفظ عنى ما أقول لك :

---

(١٤) الغير : تغير الحال ، وانتقالها الى الفساد .
(١٥) آل عمران : ١٠٣ ، ١٠٤ .
(١٦) أصحر : اى بلغ الصحراء ودخلها .

الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق .

العلم خير من المال : العلم يحرسك وأنت تحرس المال .

العلم يزكو على الانفاق ، والمال تنقصه النفقة .

العلم حاكم ، والمال محكوم عليه .

ومحبة العلم دين يدان به .

العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته وصنيعة المال يزول بزواله .

مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون على الدهر ، أعيانهم مفقودة . وأمثالهم فى القلوب موجودة .

هاه هاه ، وان ههنا علماً — وأشار الى صدره — لو أصبت له حملة! بل أصبت له لقناً(١٧) غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين الدنيا ، يستظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده .

أو منقاداً لأجل الحق لا بصيرة له فى أحنائه(١٨) ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة ، لا ذا ، ولا ذاك .

أو منهوماً باللذات ، سلس القيادة للشهوات .

أو مغرى بجمع الأموال والادخار .

ليسوا من دعاة الدين . أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة .

لذلك يموت العلم بموت حامليه .

اللهم بلى ، لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته : لكى لا تبطل حجج الله وبيناته .. أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يدفع الله عن حججه ، حتى يؤدوها الى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استرعوا منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان ، أرواحها معلقة بالملا الأعلى .

---

(١٧) ذكيا فطنا .

(١٨) نواحيه وجوانبه .

أؤلئك خلفاء لله فى أرضه ، ودعاته الى دينه .
هاه هاه ، شوقاً الى رؤيتهم ، وأستغفر الله لى ولك .
اذا شئت فقم ... !!!

* * *

● **بادروا بالعمل :**

أما بعد .. فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وان الآخرة قد اقتربت وأشرفت باطلاع .

ألا وان المضمار اليوم والسباق غداً ..

أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ؟ ! ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ؟

ألا وانكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله ، قبل حضور أجله ، فقد نفعه عمله ، ولم يضره أجله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل أجله فقد خسر عمله وختره أجله .

ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرهبة .

ألا وانى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها .

ألا وانه من لم ينفعه الحق يضره الباطل . ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال الى الردى ...

ألا وانكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد .

وان أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل فتزودوا فى الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً ..

* * *

● **المرء فى الدنيا :**

انما المرء فى الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا . ونهب للمصائب . وفى كل أكلة غصص ، ومع كل جرعة شرق ، ولا ينال العبد فيها نعمة الا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره الا بهدم آخر من أجله . نحن أعوان الحتوف ، وأنفسنا تسوقنا الى الفناء .

فمن أين نرجو البقاء ؟ وهذان الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً الا أسرعا الكرة في هدم ما بنياه وتفريق ما جمعاه ... !!!

فاطلبوا الخير وأهله .

واعلموا أن خيراً من الخير معطيه ، وشراً من الشر فاعله .

* * *

● لا تذموا الدنيا :

ذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فقال على :

الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها . ودار غنى لمن تزود منها ، ومهبط وحى الله ، ومصلى ملائكته . ومسجد أنبيائه . ومتجر أوليائه ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة .

فمن ذا الذى يذمها ؟ وقد آذنت ببينها . ونادت بفراقها وشبهت بسرورها السرور . وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً !

فيا أيها الذام الدنيا المعلل نفسه متى خدعتك الدنيا ؟ أم متى استذمت اليك .

أبمصارع آبائك فى البلى ؟ أم بمضاجع أمهاتك فى الثرى ؟ كم مرضت بيديك ؟ وكم عللت بكفيك ؟ تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغنى عنه دواؤك ولا ينفعه بكاؤك .

* * *

● قل من حرم زينة الله :

مرض الربيع بن زياد الحارثى ، فذهب أمير المؤمنين على بن أبى طالب يعوده ، فكان فيما قال له الربيع : يا أمير المؤمنين .. الا أشكو اليك عاصم بن زياد ؟ قال : وما له ؟ .

قال : لبس العباءة ، وترك الملاءة ، وغم أهله ، وأحزن ولده .

فقال : على عاصماً .. فلما أتاه عبس فى وجهه ، وقال :

ويلك ياعاصم . أترى الله أباح لك اللذات ، وهو يكره اخذك منها ؟ ! .

لأنت أهون على الله من ذلك .

أو ما سمعته يقول : « **مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان** »[١٩] ثم قال : « **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** »[٢٠] وقوله : « **ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها** »[٢١] .

أما والله فان ابتذال نعم الله بالفعال أحب اليه من ابتذالها بالمقال وقد سمعته عز وجل يقول : « **وأما بنعمة ربك فحدث** »[٢٢] ، ويقول : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** »[٢٣] .

وان الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال : « **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** »[٢٤] وقال « **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، انى بما تعملون عليم** »[٢٥] .

فقال عاصم : فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشب[٢٦] ؟

قال : ان الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع على الفقير فقره ...

قال : فما برح لبس الملاء ، ونبذ العباء .

* * *

● **الله :**

قال فى خطبة له يثنى على الله :

« هو أول كل شىء ووليه ، وكل شىء خاشع له ، وكل شىء قائم به ، وكل شىء ضارع اليه ، وكل شىء مستكين له .

خشعت له الأصوات ، وكلت دونه الصفات ، وضلت دونه الأوهام ، وحارت دونه الأحلام ، وانحسرت دونه الأبصار .

لا يقضى فى الأمور غيره ، ولا يتم شىء منها دونه .

سبحانه ما أجل شأنه ، وأعظم سلطانه ، تسبح له السموات العلا ، ومن فى الأرض السفلى ، له التسبيح والعظمة . والملك والقدرة ، والحول والقوة . يمضى بعلم ، ويعفو بحلم .

---

(١٩) الرحمن : ١٩ ، ٢٠
(٢٠) الرحمن : ٢٢
(٢١) فاطر : ١٢
(٢٢) الضحى : ١١
(٢٣) الأعراف : ٣٢
(٢٤) البقرة : ١٧٢
(٢٥) المؤمنون : ٥١
(٢٦) الطعام الردىء .

قوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، وولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربة . المطلع على كل خفية ، المحصى كل سريرة ، يعلم ما تكن الصدور ، وما ترخى عليه الستور . الرحيم بخلقه ، الرؤوف بعباده ، من تكلم منهم سمع كلامه ، ومن سكت منهم علم ما فى نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقه . ومن مات فاليه مصيره ، أحاط بكل شىء حفظه .

اللهم لك الحمد عدد ما تحيى وتميت ، وعدد أنفاس خلقك ولفظهم ولحظ أبصارهم وعدد ما تجرى به الريح ، وتحمله السحاب . ويختلف به الليل والنهار ، وتشرق عليه الشمس والقمر والنجوم . حمداً لا ينقضى عدده ولا يفنى مدده .

اللهم أنت قبل كل شىء ، واليك مصير كل شىء ، وتكون بعد هلاك كل شىء ، وتبقى ويفنى كل شىء ، وأنت وارث كل شىء ، أحاط علمك بكل شىء ، وليس يعجزك شىء ولا يتوارى عنك شىء . ولا يقدر أحد قدرك . ولا يشكرك أحد حق شكرك . ولا تهتدى العقول لصفتك ولا تبلغ الأوهام حدك .

حارت الأبصار دون النظر اليك فلم ترك عين فتخبر عنك : كيف أنت ؟ وكيف كنت ؟ . لا نعلم اللهم كيف عظمتك غير أنا نعلم أنك حى قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم ، لم ينته اليك نظر . ولم يدركك بصر . ولا يقدر قدرتك ملك ولا بشر . أدركت الأبصار . وكتبت الآجال . وأحصيت الأعمال . وأخذت بالنواصى والاقدام .

لم تخلق الخلق لحاجة ولا وحشة ، ملأت كل شىء عظمة فلا يرد ما أردت ولا يعطى ما منعت ، ولا ينقص سلطانك من عصاك . ولا يزيد فى خلقك من أطاعك .

كل سر عندك علمه . وكل عيب عندك شاهده فلم يستتر عنك شىء ولم يشغلك شىء عن شىء .

وقدرتك على ما تقضى كقدرتك على ما قضيت .

وقدرتك على القوى كقدرتك على الضعيف . وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات . فاليك المنتهى وأنت الموعد . لا منجى منك

الا اليك • بيدك ناصية كل دابة • وباذنك تسقط كل ورقة ولا يعزب عنك مثقال ذرة » •

* * *

● **طلب التوبة [٢٧] :**

اللهم انه يحجبنى عن مسألتك خلال ثلاث • وتحدونى عليها خلة واحـــدة :

١ — يحجبنى أمر أمرت به فأبطأت عنه •

٢ — ونهى نهيتنى عنه فأسرعت اليه •

٣ — ونعمة أنعمت بها فقصرت فى شكرها •

ويحدونى على مسألتك تفضلك على من اقبل بوجهه اليك • ووفد بحسن ظنه اليك •

اذ جميع احسانك تفضل • واذ كل نعمك ابتداء •

فها أنا ذا يا الهى واقف بباب عزك وقوف المستسلم الذليل وسائلك على الحياء منى سؤال البائس المعيل • مقر لك بانى لم أستسلم وقت احسانك الا بالاقلاع عن عصيانك • ولم أخل فى الحالات كلها من امتنانك •

فهل ينفعنى — يا الهى — اقرارى عندك بسوء ما اكتسبت ؟

وهل ينجينى منك اعترافى لك بقبح ما ارتكبت ؟

أم أوجبت لى فى مقامى هـــذا سخطك ، أم لزمنى فى وقت دعائى مقتك •

سبحانك • لا أيأس منك وقد فتحت لى باب التوبة اليك •

بل أقول مقال العبد الذليل الظالم لنفسه المستخف بحرمة ربه الذى عظمت ذنوبه فجلت ، وأدبرت أيامه ، حتى اذا رأى مدة العمل قد انقضت ، وغاية العمر قد انتهت وأيقن أنه لا محيص له منك ، ولا مهرب له عنك ، تلقاك بالانابة ، وأخلص لك التوبة ، فقام اليك بقلب طاهر نقى ، ثم دعاك بصوت حائل خفى •

قد تطأطأ لك فانحنى ، ونكس رأسه فانثنى •

---

(٢٧) للامام « زين العابدين على بن الحسين » رضى الله عنهما •

قد أرعشت خشيته رجليه ، وغرقت دموعه خديه .

يدعوك بـــ « يا أرحم الراحمين ، ويا أرحم من أناب اليه المنيبون ، وانتابه المسترحمون ، ويا أعطف من أطاف به المستغفرون ، ويا من عفوه أكثر من نقمته ، ويامن رضاه أوفر من سخطه ، يامن تحمد الى خلقه بحسن التجاوز ، ويامن عود عباده قبول الانابة ، ويامن استصلح فاسدهم بالتوبة ، ويامن رضى من فعلهم باليسير ، ويامن كافأ قليلهم بالكثير ، ويامن ضمن لهم أجابة الدعاء ، ويامن وعدهم على نفســه بتفضله حسن الجزاء .

ما أنا بأعصى من عصاك فغفرت له .

وما أنا بألوم من اعتذر اليك فقبلت منه .

وما أنا بأظلم من تاب اليك فعدت عليه .

أتوب اليك فى مقامى هذا ، توبة نادم على ما فرط منه ، مشفق مما اجتمع عليه ، خالص الحياء مما وقع فيه ، عالم بأن العفو عن الذنب العظيم لا يتعاظمك ، وأن التجاوز عن الاثم الجليل لا يستعصبك ، وأن احتمال الجنايات الفاحشة لا يتكاءك ، وأن أحب عبادك اليك من ترك الاستكبار عليك ، وجانب الاصرار ، ولزم الاستغفار .

وأنا أبرأ اليك من أن أستكبر .

وأعوذ بك من أن أصر .

وأستغفرك لما قصرت فيه .

وأستعين بك على ما عجزت عنه .

اللهم صل على محمد وآله ، وهب لى ما يجب على لك ، وعافنى مما أستوجبه منك ، وأجرنى مما يخافه أهل الاساءة .

فانك ملىء بالعفو ، مرجو للمغفرة ، معروف بالتجاوز .

ليس لحاجتى مطلب سواك .

ولا لذنبى غافر غيرك حاشاك . ولا أخاف على نفسى الا اياك .

انك أهل التقوى وأهل المغفرة .

صل على محمد وآل محمد ، واقض حاجتى ، وأنجح طلبتـــى ،

واغفر ذنبى وآمن خوف نفسى . انك على كل شىء قدير ، وذلك عليك يسير . آمين يارب العالمين .

* * *

● **وله رضى الله عنه فى التضرع :**

اللهم يامن برحمته يستغيث المذنبون ، ويامن الى ذكر احسانه يفزع المضطرون ، ويامن لخيفته ينتحب الخاطئون ، يا أنس كل مستوحش غريب ، ويافرج كل مكروب كئيب ، وياغوث كل مخذول فريد ، وياعضد كل محتاج طريد .

أنت الذى وسعت كل شىء رحمه وعلماً .

وأنت الذى جعلت لكل مخلوق فى نعمك سهماً .

وأنت الذى عفوه أعلى من عقابه .

وأنت الذى تسعى رحمته أمام غضبه .

وأنت الذى عطاؤه أكثر من منعه .

وأنت الذى اتسع الخلائق كلهم فى وسعه .

وأنت الذى لا يرغب فى جزاء من أعطاه .

وأنت الذى لا يفرط فى عقاب من عصاه .

وأنا يا الهى عبدك الذى أمرته بالدعاء فقال : لبيك وسعديك .

ها أنذا يارب مطروح بين يديك .

أنا الذى أوقرت الخطايا ظهره .

وأنا الذى أفنت الذنوب عمره .

وأنا الذى — بجهله — عصاك ، ولم تكن أهلا منه لذاك .

هل أنت — يا الهى — راحم من دعاك فأبلغ فى الدعاء ؟

أم أنت غافر لمن بكاك فأسرع فى البكاء ؟

أم أنت متجاوز عمن عفر لك وجهه تذللا ؟

أم أنت مغنى من شكى اليك فقره توكلا ؟

الهى لا تخيب من لا يجد معطياً غيرك ، ولا تخذل من لا يستغنى عنك بأحد دونك .

الهى فصل على محمد وآله . ولا تعرض عنى . وقد أقبلت عليك .

ولا تحرمنى • وقد رغبت اليك • ولا تجبهنى بالرد • وقد انتصبت بين يديك •

أنت الذى وصفت نفسك بالرحمة • فصل على محمد وآله • وارحمنى •

وأنت الذى سميت نفسك بالعفو فاعف عنى •

قد ترى يا الهى فيض دمعى من خيفتك • ووجيب قلبى من خشيتك • وانتفاض جوارحى من هيبتك •

كل ذلك حياء منك لسوء عملى • ولذاك خمد صوتى عن الجأر اليك • وكل لسانى عن مناجاتك •

يا الهى فلك الحمد • فكم من عائبة سترتها على فلم تفضحنى ؟ وكم من شائنة ألممت بها فلم تهتك عنى سترها ؟ ولم تقلدنى مكروه شنارها ولم تبد سوءاتها لمن يلتمس معائبى من جيرتى ، وحسدة نعمتك عندى •

ثم لم ينهنى ذلك عن أن جريت الى سوء ما عهدت منى •

فمن أجهل منى — يا الهى — برشده ؟

ومن أغفل منى عن حظه ؟

ومن أبعد منى عن استصلاح نفسه ؟ حين أنفق ما أجريت على من رزقك فيما نهيتنى عنه من معصيتك ؟

ومن أبعد غوراً فى الباطل ؟ وأشد اقداماً على السوء منى حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان • فأتبع دعوته على غير عمى منى فى معرفة به ، ولا نسيان من حفظى له ، وأنا حينئذ موقن بأن منتهى دعوتك الى الجنة ، ومنتهى دعوته الى النار ؟

سبحانك • ما أعجب ما أشهد به على نفسى ! واعدده من مكتوم امرى •

وأعجب من ذلك ، أناتك عنى وابطاؤك عن معاجلتى •

وليس ذلك من كرمى عليك ، بل تأنياً منك لى ، وتفضلا منك على •

لأن ارتدع عن معصيتك المسخطة •

واقلع عن سيئاتى المخلقة •

ولأن عفوك عنى أحب اليــك من عقوبتى •
بل أنا يا الهى أكثر ذنوباً • وأقبح آثاراً ، وأشنع أفعالا وأشد فى الباطل تهـوراً وأضعف عند طاعتك تيقظاً ، وأقل لوعيدك انتباهاً وارتقاباً من أن أحصى لك عيوبى ، أو أقدر على ذكر ذنوبى •
وانما أوبخ بهذا نفسى طمعا فى رأفتك التى بها صلاح أمر المذنبين ورجاء رحمتك التى بها فكاك رقاب الخاطئين •
اللهم وهذه رقبتى قد أرقتها الذنوب فصل على محمد وآلـه وأعتقها بعفوك •
وهذا ظهرى أثقلته الخطايا • فصل على محمد وآله وخفف عنه بمنك •

يا الهى •• لو بكيت اليك حتى تسقط أشفار عينى ،
وانتحبت حتى ينقطع صوتى ،
وقمت لك حتى تتنشر قدماى ،
وركعت حتى ينخلع صلبى ،
وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاى ،
وأكلت تراب الأرض طول عمرى ،
وشربت ماء الرماد آخر دهرى ،
وذكرتك فى خلال ذلك حتى يكل لسانى • ثم لم أرفع طرفى الى آفاق السماء استحياء منك ، ما استوجبت بذلك محو سيئة واحـدة من سـيئاتى •

وان كنت تغفرلى حين أستوجب مغفرتك ،
وتعفو عنى حين أستحق عفوك •
فان ذلك غير واجب لى باستحقاق •
ولا أنا أهل له باستيجاب •
اذ كان جزائى منك فى أول ما عصيتك النار •
فان تعذبنى فأنت غير ظالم لى •
الهى •• فاذ قد تغمدتنى بسترك فلم تفضحنى
وتأنيتنى بكرمك فلم تعاجلنى •

وحلمت عنى بتفضلك فلم تغير نعمتك على • ولم تكدر معروفك عندى •

فارحم طول تضرعى ، وشدة مسكنتى ، وسوء موقفى •

اللهم صلى على محمد وآله ، وقنى من المعاصى ، واستعملنى بالطاعة ، وارزقنى حسن الانابة ، وطهرنى بالتوبة ، وأيدنى بالعصمة ، واستصلحنى بالعافية ، وأذقنى حلاوة المغفرة • واجعلنى طليق عفوك ، وعتيق رحمتك ، واكتب لى أماناً من سخطك ، وبشرنى بذاك فى العاجل دون الآجل بشرى أعرفها •

ان ذلك لا يضيق عليك فى وسعك ، ولا يتكاءدك فى قدرتك ولا يتصعدك فى أناتك ، ولا يئودك فى جزيل هباتك التى دلت عليها آياتك •

انك تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد ، انك على كل شىء قدير •

آمين يارب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله المطهرين •

* * *

● **أبو الكلام آزاد فى سجنه يتحدث عن الاسلام ويحارب الاستعمار(٢٨) :**

وتظهر عظمة آزاد ، ويتجلى ايمانه الوثيق بالله ، وفهمه الصحيح للاسلام ، حين قدمه الانجليز للمحاكمة بتهمة التحريض على الثورة ، وجمعوا لذلك أدلة الاتهام من خطبتين كان قد القاهما فى مدينة « كلكتا » يدعو المسلمين خاصة والهنود عامة الى العصيان المدنى •

كان ذلك فى أواخر سنة ١٩٢٣ ، و « آزاد » فى بقية من شباب يحرص المرء عليها أشد الحرص ، ويضن بها أن تذهب فى مجال الحياة الجافية المظلمة داخل السجون •

ان المرء فى هذه المرحلة من العمر يقف عادة وقفة المشفق على شبابه المتأهب للرحيل ، ووقفة الخائف من شبح الشيخوخة المقبلة • فهو من هذا ومن تلك مقبل على منفعته ، مشغول بنفسه •

---

(٢٨) عن ثقافة الهند •

ولو وقف « آزاد » هذا الموقف قبل ذلك بسنوات ، لقلنا : انها فورة الشباب وثورة الصبا ، تدعوه الى المغامرة وتحمله على التهور .

ولو وقف « آزاد » هذا الموقف بعد ذلك بسنوات ، لقلنا انه يأس الشيخوخة ومرارة الهرم . حملته على أن يخرج من الحياة من هذا الباب فى صورة بطل من أبطال التاريخ .

ولكن شاء القدر أن يتخير لـ «آزاد» هذا الموقف بالذات فى الوقت الذى يقبل فيه واحدى قدميه فى الدنيا الشباب والأخرى فى طريقها الى عالم الهرم . أراد القدر ذلك ليثبت فى سجل الانسانية آية من آيات السمو البشرى . ومثلا من أمثلة الانسانية الرفيعة .

فى الايمان بالحق والقيام فى وجه الظالمين الطغاة .

على حين اشتدت نوازع النفس وقويت رغبتها فى الحياة . وفى وقت استغلظ فيه بأس الظالمين وجن جنونهم بالانتقام والتنكيل !

وهكذا التقى «آزاد» ـ وحيدا الا من ايمانه ، أعزل الا من روحه .

التقى بالامبراطوريه الانجليزية كلها ، بما كان لها اذ ذاك من قوة متحكمة فى العالم . متسلطة على الشرق والغرب ، وما كان لها من رهبة مخيفة مفزعة تطوف على الناس بالاستكانة اليها واليأس من الخلاص منها .

التقى « آزاد » بهذه الامبراطورية سجينا فى قفص الاتهام . يواجه قضاة لا يطمع منهم فى رحمة ، ولا ينتظر لديهم الا ما ينتظر الحمل الوديع من مخالب الأسد !

وتدور المعركة فى ساحة المحكمة ، فيشهد التاريخ أعنف معركة وأعجبها .

يسجل فيها « آزاد » نصراً حاسماً للانسانية ، به يتقرر مصيرها ، ويتحدد موقعها لأجيال عديدة مقبلة .

وندع الموقف لآزاد يتلو علينا فيه من آياته ما تعنو له جباه الجبابرة وتستخذى له قوى البغى وأبالسة الشر فى كل مكان ، على قدر ماتشتد به عزائم الرجال وتقوى نفوس المؤمنين .

استقبل « آزاد » المحكمة ثابت الجأش ، ساكن النفس ، كأنما

يسعى الى موعد حبيب اليه . مألوف عنه ، وساد المحكمة سكون رهيب قطعه « آزاد » بقــوله :

« أيها القضاة ! انى كنت عازما على ألا أقدم الى المحكمة بيانا ما لأنها مكان لارجاء لنا فيه ، ولا طلب منه ، ولا شكوى اليه ، وانما هى كمنعرج الطريق الى المنزل ، لا بد من قطعة للسالك ، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا ، والا لدخلنا السجن توا » .

فهو انما يستعجل الطريق الى السجن ، أو الموت .. لأن السجن أو الموت أحب الى نفسه من أن يعيش طليقا فى وطن يتحكم فيه الظالمون ، ويستبد به الطغاه .

ثم يقول : « انى اذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف ، وأرانى قد شرفت بالوقوف فيه . تسبح روحى بحمد الله ، ويلهج لسانى بشــكره من غير قصد منى ، وهو وحده يعلم ما أجده من الفرح والابتهاج ، اذ أحسبنى فى هذا القفص محسودا للملوك والســلاطين العظــام .. فأين لهم فى قصورهم المريحة ، تلك المسرة والراحة التى ترقص فى صدرى ؟ أنى أقول حقا .. انه لو أدركها الناس لتمنوا المثول فى هــذا المكان ، ولنذروا النذور لأجله ! » .

ويقول « انى كنت عازماً على السكوت فى المحكمة ، ولكن لمــا أحضرت اليها ، ورأيت الحكومة تقدم اثبات جريمتى الخطبتين اللتــين ألقيتا فى مجامع « كلكتا » وهما لا تحتويان على جميع الأمور التى ما زلت أكررها فى جميع خطبى ورسائلى ومقالاتى والتى ان قدمت كانت أنفع لقصدها ، علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة المستند الذى يعتبر فى هذه الأيام كافيا لانزال العقاب بى ، مع شدة رغبتها وحرصها على سجنى ، فغيرت قصدى وقلت : ان العلة التى كانت مانعة من الكــلام أصــبحت موجبة لــه .

وأردت أن أثبت باسانى الأمر الذى لا تستطيع الحكومة اثباته »

أرأيتم متهما يقيم الدليل على تهمته ، ويمهد للقاضى ســبيل الحكــم عليــه ! ؟

ولكن هكذا تكون مواقف الرجال فى ملاقاة الأهوال والمحن .

ثم يمضى « آزاد » يؤكد للمحكمة فى صراحة ثبوت التهمة الموجهة اليه فيقول : « ان كانت هذه التصريحات جناية فانى معترف بأن قلبى قد اشتغل بها ولسانى نطق بها ، وأنا الذى صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس .. بل انى لأجدنى الآن مدفوعا الى التصريح بها أمام المحكمة ، ولا أزال قائلا بها ما دام لسانى بين أسنانى ، وروحى فى جثمانى وان لم أفعل ذلك أكن ظالما لنفسى ، عاصياً عند الله وعند الناس أجمعين » .

وهكذا يرى « آزاد » أن السكوت عن المنكر ظلم للنفس ، وعصيان لله وعقوق للانسانية .. انه مطالب أمام عقيدته الدينية وأمام ضميره الانسانى أن يدفع هذا بكل ما يستطيع ، وما دامت القوة المادية غير مستطاعة له الآن فلا أقل من أن يعلن للظالمين بلسانه ، وأن يفضح أثامهم على أعين النــاس !

ويصرخ « آزاد » فى وجه قضاته : « انى مسلم ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وأقبحه وأشهر بمساويه ، ان الاســلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس للقوة ولا هو القوة ، بل الحق هو الحق وأنه ليس لأحد من البشر أن يعبد عباد الله ويذلهم ويسخرهم . الناس كلهم متساوون فى الانسانية ، متساوون فى الحق ، متساوون فى الحياة، وليس اللون أو الجنس أو النسل معياراً للفضل والحسب ، وانما معياره العمل وحده ، فأعلاهم قدرا ، وأكرمهم حسبا ، أحسنهم عملا ، وأتقاهم لله .. ان الاسلام أعلن حقوق الانسان قبل انقلاب فرنسا بأحــد عشر قرناً .. ولعمرى ان مطالبة المسلم بأن يسكت عن نصرة الحــق ولا يسمى الظلم ظلماً مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الانسانية ، فان كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحداً بأن يرتد عن دينه فليس لكم أن تطالبوا مسلماً بأن يمتنع عن قوله للظالم انه ظالم » .

كذلك كان « آزاد » .. انه لم يكن محترف سياسة ، يتحــول بها مع الأحوال ويتقلب مع مقتضيات الظروف ، ولكنه صاحب دين ، وليس لصاحب الدين أن يقبل المساومة فى دينه ، والتنازل عن شىء من عقيدته .. انها كل لا يتجزأ .. فاما الحق . واما الباطل .. وفى سبيل الحق يحتمل المسلم — فى ايمان وصبر — كل ما يعرض له من فتنــة وبــلاء .

ثم يقول « آزاد » : « الاسلام من أوله الى آخره دعوة عامة الى البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق • وقد ابيضت عين الدهر ولم تر مثل هذه التضحيات الكثيرة فى اعلان كلمة الحق التى قدمتها الأمة الاسلامية فى كل دور من حياتها • لا ! فلتعلم الحكومة الانجليزية • أن المسلم الذى أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ويتغلغل فى أعماق الدواهى والكوارث ولا يقبل السكوت عن الحق ، لا يخيفه قانون العقوبات الاستعمارى ، ولا يرده عن دينه وأداء فريضته •

انى أقول حقاً : انه لا يؤلمنى أن أرى الحكومة عازمة على معاقبتى وأنها لا تحاكمنى الا لكى تزجنى فى السجون ، اذ هذا أمر لا بد منه وانما الذى يؤلمنى فيفتت كبدى ، هو أن أرى الحالة تنقلب انقلاباً تاماً فبدلا من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق يطلب منه السكوت عنه وكتمان الشهادة ، وألا يقول للظالم : انك ظالم ، لأن قانون المستعمرات يعاقب عليه » [1]

وفى ختام هذا المشهد الرائع العجيب ، يلتفت « آزاد » الى أولئك الذين غرر بهم المستعمر من أبناء الهند ليقيموا الدليل على ادانته ، فيقيم لهم العذر ويطلب لهم المغفرة ويوجه اليهم الخطاب قائلا :

« أصحابى •• ثقوا بأنى لا أغضب منكم ولا أحقد عليكم بل لا أتهمكم بالكذب والزور على ، لأن كل ما قلتموه فى الشهادة حق وصدق ، ولكنى أراكم قد عصيتم الله بمساعدة الحكومة الانجليزية فى استبدادها وظلمها ومحاربتها للاسلام والانسانية ، انى أعلم أن صوت الضمير يوبخكم فى أعماق سرائركم على ما تعملونه ، ولكنكم انما اضطررتم اليه اضطراراً لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم وترزقون به أهليكم ، وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء فى سبيل الحق •• فلذا لا أحنق عليكم ، ولا أعذلكم بل أعفو عنكم • وأستغفر الله لكم •• »

ان « آزاد » يعرف الضعف الانسانى الذى يتسلط على بعض الناس •• انه لا يطلب من الحياة أن ترتفع بالناس جميعاً الى هذا المستوى الكريم الذى ارتفع اليه فى التضحية والاحتمال •• فهو يعذر

ويغفر ، ومن ثم ، فان صلاته بالضالين من مواطنيه تظل قائمة ، يعالجها بحكمته ، ويداويها بتسامحه •

وقبل أن يسدل الستار على هذه المأساة التى يمثلها الاستعمار على مسرح القضاء ويلبسها ثوب العدل والحق — يوجه « آزاد » حديثه الى القاضى فيقول :

« وانك أيها القاضى ماذا عسى أن أقول لك ؟ ان أقول الا ما قاله المؤمنون قبلى فى مثل موقفى هذا : « **فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا** » (٢٩) •

أيها القاضى : لقد طال الحديث وآن أوان الوداع فليودع كل منا صاحبه •

ان ما يدور الآن بيننا ، سيسجله التاريخ فى سجله ليعتبر به المعتبرون •

لقد اشتركنا فى ترتيبه على سواء ••

أنا من القفص للجناة •

وأنت من ذاك الكرسى للقضاء ••

فهلم بنا نفرغ من هذا العمل ، لنسرع فى المجىء اليك ولتسرع أنت فى القضاء علينا ، فان هذا العمل لا يطول قليلا حتى يفتح باب محكمة أخرى ، محكمة قانون الله الحق • ان الزمان سوف يقضى فيها ، وسوف يكون قضاؤه حقاً وحكمه نافذاً » •

ذلك هو « آزاد » المسلم ، الذى تمكن الاسلام من قلبه ، فخاض لجج الأهوال وتقحم سبل المهالك ، دون أن تتعثر خطاه ، أو ينحرف عن غايته •

ان الاسلام دين الوحدانية المطلقة التى رفعت بصر الانسان خالصاً لله لا يلتفت الى سواه •• فمن آمن بهذا الدين فليرفع رأسه وليقل كلمة الحق لأنها كلمة الله •

وقد وقف « آزاد » الموقف الذى يدعوه اليه دينه ، ويهتف به وجدانه •

* * *

---

(٢٩) طه : ٧٢ ..

● صلاح النفس :

روى أن رجلا أتى ابراهيم بن أدهم فقال :

يا أبا اسحاق ..

انى مسرف على نفسى . فاعرض على ما يكون لها زاجراً ، ا
متنقداً .

قال ابراهيم :

ان قبلت منى خمس خصال فقدرت عليها ، لم تضرك المعصية ..

قال : هات يا أبا اسحاق .

قال ابراهيم :

أما الأولى ، فاذا أردت أن تعصى الله عز وجل فلا تأكل رزقه ؟

قال : فمن أين آكل ، وكل ما فى الأرض من رزقه ؟

قال : أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه ؟

قال : لا .. هات الثانية .

قال : واذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئا من بلاده .

قال : هذه أعظم من الأولى يا ابراهيم .. اذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين اسكن ؟

قال : ياهذا ، أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، وتعصيه ،

قال : لا . هات الثالثة ...

قال : واذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه ... فاعصه فيه ..

قال : يا ابراهيم ما هذا ؟ وهو يطلع على ما فى السر ؟

قال : ياهذا ، أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، وتعصيه ، وهو يراك ويعلم ما تجهر به ! ؟

قال : لا .. هات الرابعة ...

قال : اذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له : أخرنى حتى أتوب .

قال : لا يقبل منى ...

قال : ياهذا .. اذا كنت لا تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب ، وتعلم أنه اذا جاء لم يكن له تأخير ، فكيف ترجو وجه الخلاص ؟

قال : هات الخامسة ...

قال : اذا جاءك الزبانيه يوم القيامة ليأخذوك الى النار فلا تذهب معهم .

قال : انهم لا يقبلون منى .

قال : فكيف ترجو النجاة اذن ؟

قال : يا ابراهيم .. حسبى .. حسبى ، أنا أستغفر الله وأتوب اليه .

* * *

● **الحياة تافهة اذا خلت من مثل أعلى[٣٠] :**

علمتنى الحياة أننى ما حرصت على بلوغ شىء فبلغته ، الا وأكون عند بلوغه قد زهدته :

كنت صبياً صغيراً أعيش فى أسرة مستورة الحال ، تهيأت لها أسباب العيش فى شىء من الطمأنينة والدعة ، ولم تتهيأ لها أسباب الثراء .. فتطلعت الى خفض من العيش أوطأ مما كنت فيه ، فأراد الله أن أبلغ شيئاً من ذلك ، واذا أنا أزهد ما فى يدى منه ، لا أرى البيت الذى أسكنه — وكنت أتطلع الى مثله فى مقتبل حياتى — الا شيئاً عادياً لا يشقى ولا يريح ، ولا أرى المال الذى أحرزته — وكنت أحسب أنه يحقق شيئاً من السعادة — الا شيئاً تافها لا يؤخر ولا يقدم ، ولا أرى الجاه الذى بلغته — وكنت أنظر الى مثله لدى غيرى فأتوق اليه — الا شيئاً فارغاً لا ينقص ولا يزيد ، فعلمت أن الحياة تافهة ، ما لم يرسم الانسان لنفسه هدفاً سامياً يسعى لتحقيقه ، هدفا يعلو عن المادة ، ويبقى على الزمن ، اذا ما حقق شيئاً منه طابت نفسه ، وطلب المزيد .

* * *

وعلمتنى الحياة أن الناس فى درك هاو من الخسة ، وفى درجة عالية من السمو ، ينطوون على الخير والشر معا ، ويهبطون بقدر ما يرتفعون .

---

(٣٠) للأستاذ عبد الرزاق السنهورى .

عرفت وأنا شاب فى العشرين شاباً فى سنى . وقامت بينا أواصر الود والصداقة ثم تنكر لى بغتة . وأبدى من أسباب الجفوة ما دل على انحطاط فى الخلق ، ودناءة فى الطبع ، ثم ما لبث هذا الصديق ، فى ظروف أخرى ، أن صفا معدنه ، وسمت نفسه ، فتقدم فى ميدان الجهاد ، وبذل روحه فداء لأمته ، ومات شهيداً ، فعلمت أن الناس لا يخلصون شياطين ، ولا يتمحضون ملائكة ، والعاقل من لبس الناس على حالهم . لا يزهد فى الصديق وان بدا شره ، ولا يقطع ما بينه وبين الناس لجرح لا يلبث أن يندمل ، أو لعارض لا يلبث أن يزول .

* * *

وعلمتنى الحياة أن حظوظ الناس تبدو متفاوتة أكثر من حقيقتها ، وهم فى الواقع متقاربون فى الشقاء والسعادة ، لكل من حظه ما يسعده ، ومن همه ما يشقيه . عرفت رجلا كثير العيال رقيق الحال ، لا يشك من ينظر اليه فى أنه ضيق بحظه من الدنيا ، وهو لا يكاد يفيق من هم الا ويعثر فى هم . وعلمت بعد ذلك أن الرجل ليس من الشقاء بالقدر الذى توحى به حاله ، فهو قد ألف ضيق العيش ، ووطن نفسه عليه ، حتى اذا أصابته نعمة ضئيلة على غفلة من دهره ، كان تقديره لها كبيراً ، وفرحه بها عظيما ، وذاق بها السعادة كما ذاق من قبلها الشقاء .

وعلمت من ثقة أن أحد ملوك المال فى مصر . وهو رجل من أقوى الرجال فى بلده ، ومن أعرضهم جاها وأوسعهم نفوذاً ، رجل عرف بالسيطرة على أقدار الحكومات ، حتى انه ليسقط حكومة ويقيم أخرى .

هذا الرجل كثيراً ما يخلو الى نفسه ، ليشكو سوء حظه ، وليبتعد بشقائه عن عيون الناس ، بل انه ليتسلل من سريره فى جنح الظلام لينفرد بنفسه ويبكى .

وعرفت سيدة كانت تتبرم من ضيق العيش ثم ورثت شقيقاً لها ، فأصبحت تتبرم بما أصابته من مال لا تعرف كيف تستغله ، فأمست بعد

كل ذلك أن الناس سواسية فى الشقاء والسعادة ، على خلاف ما يبدو من تفاوتهم فى أحوالهم ، وأن فى الأرض عدلا بين النـــاس أكثر مما يظن النـــاس •

* * *

وعلمتنى الحياة أن نجاحى رهن ايمانى بنفسى وايمان الناس بى • فقد كانت ثقتى بنفسى تدفعنى الى العمل • وكانت ثقة النـــاس بى تجعلنى أطمئن الى نتيجة عملى ؛ وهـــذا القـــدر المتوازن من ثقـــة الانسان بنفسه وثقة الناس به ، لا بد منه لنجاحه فى الحياة •

فان زادت ثقته فى نفسه على هـــذا القدر كان ذلك غروراً يضله عن الحقائق ، وان جاوز اعتماده على ثقة الناس به هـــذا القدر ، بحيث أصبح لا يصدر الا من رأى الناس ولا ينزل الا عند هواهم : كان ذلك ضعفاً واضطراباً يورثان انقياداً واستسلاما •

وتابعت فى نفسى وفيمن حولى هـــذا التوازن ، فأدركت أنه ضرورى فى كثير من الصـــفات الأخرى ، هو ضرورى فى الواقعية والخيال • فان زادت الواقعية على الحـــد الواجب ، كان ذلك جموداً وضيقاً فى الأفق ، وان زاد الخيال كان ذلك ميوعة واغراقاً فى البعد عن الحقائق ، وهو ضرورى فى المادية والروحية • فان زادت المادية كان ذلك بلادة وتنكراً للقيم العليا فى الحياة ، وان زادت الروحية كان ذلك عجزاً عن مواجهة الحياة فى حقائقها المادية ، وضرورى فى الاختلاط بالناس والانطواء على النفس ، والا كان الامعـــان فى الاختلاط بالناس اهداراً للشخصية ، وكان الاغراق فى الانطواء على النفس عزلة ضارة •

ومع ذلك لا بد من التسليم بصعوبة أن يجمع الانسان فى نفســـه هـــذا المزاج الموفق من الاعتدال والتوازن ، والأمر الجوهرى هو أن يعرف كيف يســـتطيع أن يتخفف من الافراط فى صـــفة والتفريط فى أخرى •

وعلمتنى الحياة أن الغفلة عن المستقبل هى أهم أسباب الراحة • وما تعبت لشىء أكثر من تعبى عندما أفكر فى المستقبل •

ولعل الموت هو الحقيقة الأولى التى لا يتطرق اليها الشك فهو المستقبل المحتم .

ومن نعم الله على الانسان أن جعله قادراً على التغافل عن هذه الحقيقة ، والا ظل قلقاً حائراً لا يفكر الا فى الموت .

وعلمتنى الحياة أن النعمة لا تعرف قيمتها الا عندما تزول .

وعلمتنى الحياة ألا تتسـع أطماعى ، فلا أعرف أين أقف ، ثم يتعثر بى الحظ فأرضى بالقليل .

وعلمتنى الحياة أنى أتعلم منها كل يوم ولن أنقطع عن التعلم حتى تقضى الحياة ومن يدرى — اذا أنا عشت — ماذا سأتعلم منها غداً .

* * *

● **وصايا الامام الغزالى — من رسالة تضمنت وعظ ملك(٣١) :**

أما بعد ... فالنصيحة هى هدية العلماء ..

وانه لن يهدى — أحد — اليه هدية فيجزيه بشىء أكرم من قبوله لها ، واصغائه بقلب فارغ من ظلمات الدنيا اليها ...

وقد قيل لرسول الله ﷺ من أكرم الناس ؟ فقال : أتقاهم ...

فقيل : من أكيس الناس ؟

فقال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأشدهم له استعداداً ...

وقال ﷺ :

الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ..

والأحمق من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى ...

* * *

وأشد الناس غباوة وجهلا ، من تهمه أمور الدنيا التى تختطف

(٣١) هذا لون خاص من النصح ، يتعرض فيه الامام لذى جبروت مفتون بالحياة سجين فى مآربها ، مشغول عن الله والدار الآخرة .
والرسالة فى هذا المجال صحيحة كل الصحة .
فان حاول الواعظ تعميم بعض ما جاء بها ، أخطأ القول وضل السبيل .
فان حفر الآبار مثلا من الأعمال الصالحة التى يبقى ثوابها بعد وفاة صاحبها ، ولكنه هنا من ملك مغرور مغتصب للحقوق عد اثما يستحق لذلك اللوم ، فتأمل السياق جيدا حتى لا تزل .

منه عند الموت ، ولا يعرف أهو من أهل الجنة أو من أهل النار ، وقد عرفه الله تعالى ذلك حيث قال :

« إن الأبرار لفى نعيم »(٣٢) « وان الفجار لفى جحيم »(٣٣) .

«فأما من طغى • وآثر الحياة الدنيا • فان الجحيم هى المأوى»(٣٤)

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المأوى »(٣٥) .

* * *

وانى أوصيه أن يصرف الى هذا المهم • همته •

وان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب •

وأن يراقب سريرته وعلانيته ، وأقواله ، وأفعاله •

أهى مقصورة على ما يعمر دنياه بالمكدرات والهموم ، ثم يختمها والعياذ بالله بالشقاوة •• ؟ فليفتح عن بصيرته « ولتنظر نفس ما قدمت لغد »(٣٦) .

وليعلم أنه لا مشفق عليها ولا ناظر فى أمرها سواه •

وليتدبر ما هو بصدده •

فان كان مشغولا بعمارة ضيعة فلينظر :

كم من قرية أهلكها الله وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها بعد عمارها •• !

وان كان مقبلا على استخراج ماء أو عمارة نهر فلينظر :

كم من بئر معطلة بعد عمارها ••• ؟

وان كان مهتما بتأسيس بناء فلينظر :

كم من قصور مشيدة البنيان محكمة القواعد والأركان أظلمت بعد سكانها • ؟

وان كان مشغولا بخدمة سلطان فليتذكر ما ورد فى الخبر : أنه ينادى مناد يوم القيامة •• أين الظلمة وأعوانهم •• ؟

---

(٣٢) الانفطار : ١٣ . (٣٣) الانفطار : ١٤ .

(٣٤) النازعات : ٢٧ — ٢٩ . (٣٥) النازعات : ٤٠ ، ٤١

فلا يبقى أحد مد لهم دواة أو برى لهم قلماً فما فوق ذلك الا أحضر ..

فيجمعون فى تابوت من نار فيلقون فى جهنم ..

وان كان عزمه فى طلب المال وجمعه .. فليتأمل قول عيسى عليه السلام :

« يا معشر الحواريين .. مسرة فى الدنيا .. مضرة فى الآخرة ..
بحق أقول لكم ..
لا تدخل الأغنياء ملكوت السماء » ..

وقد قال نبينا محمد ﷺ :
« يحشر الأغنياء أربع فرق :
رجل جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام ..
فيقال : اذهبوا به الى النار .
ورجل جمع مالا من حرام وانفقه فى حلال ..
فيقال : اذهبوا به الى النار .
ورجل جمع مالا من حلال وانفقه فى حرام ..
فيقال : اذهبوا به الى النار .
ورجل جمع مالا من حلال وأنفقه فى حلال ..
فيقال : قفوا هذا وسلوه ...
لعله ضيع بسبب غناه فيما فرضناه عليه .

أو قصر فى الصلاة . أو فى وضوئها . أو فى ركوعها . أو فى سجودها . أو فى خشوعها .. ؟
أو ضيع شيئا من فروض الزكاة والحج .
فيقول الرجل :
جمعت مالى من حلال . وأنفقته فى حلال . وما ضيعت شيئا من حدود الفرائض . بل أتيت بتمامها .
فيقال : لعلك باهيت بمالك .. واختلت فى شىء من ثيابك ؟
فيقول : يارب ما باهيت بمالى ... ولا اختلت فى شىء من ثيابى .

فيقال : لعلك فرطت فيما أمرناك من صلة الرحم وحق الجيران والمساكين ، وقصرت فى التقديم والتأخير والتفضيل والتعديل .

ويحيط به هؤلاء فيقولون : ربنا ... أغنيته بين أظهرنا وأحوجتنا اليه فقصر فى حقنا .

فان ظهر تقصيره ذهب الى النار .

والا قيل له : قف .. !

هات الآن شكر كل نعمة .. وكل شربة .. وكل أكلة .. ولذة .

فلا يزال يسئل ويسئل » .

* * *

فهذه حال الصالحين المصلحين القائمين بحقوق الله .

فكيف حال المفرطين المنهمكين فى الحرام والشبهات . ؟

* * *

هذه المطالب الفاسدة هى التى أستولت على قلوب الخلق تسخرها للشيطان وتجعلها ضحكة له .

فعليه وعلى كل مستمر فى عداوة نفسه أن يتعلم علاج هـذا المرض الذى حل بالقلوب ..

فعلاج مرض القلوب أهم من علاج مرض الأبدان .. ولا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم .

وله دواءان ..

أحدهما : ملازمة ذكر الموت وطول التأمل فيه .

والدواء الثانى :

تدبر كتاب الله تعالى : ففيه شفاء ورحمة للعالمين .

وقد أوصى رسول الله ﷺ بملازمة هذين الواعظين فقال :

تركت فيكم واعظين ..

صامتاً ..

وناطقاً ...

الصامت : الموت .. والناطق : القرآن ..

وقد أصبح أكثر الناس أمواتاً عن كتاب الله تعالى ، وان كانوا أحياء فى معايشهم ..

وبكماً عن كتاب الله وان كانوا يتلونه بألسنتهم •
وصماً عن سماعه وان كانوا يسمعونه بآذانهم •
وعمياً عن عجائبه ، وان كانوا ينظرون اليه فى مصاحفهم •
وأميين فى أسراره ، وان كانوا يشرحونه فى تفاسيرهم •
فاحذر أن تكون منهم •
وتدبر أمرك ، وأمر من لم يتدبر ، كيف ندم وتحسر ؟
وانظر أمرك وأمر من لم ينظر فى أمر نفسه ، كيف خاب عند الموت وخسر • ؟
واتعظ بآية واحدة من كتاب الله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »(٣٧) •

* * *

واياك • اياك • أن تشتغل بجمع المـــال •
فان فرحك به ينسيك أمر الآخرة ، وينزع حلاوة الايمان من قلبك •
قال عيسى عليه السلام :
« لا تنظروا الى أموال أهل الدنيا ، فان بريق أموالهم يذهب بحلاوة ايمانكم » •

* * *

وأسأل الله أن يصغر عنده الدنيا التى هى صغيرة عند الله ، وأن يعظم فى عينيه الذى هو عظيم عنده ، وأن يوفقنا واياه لمرضاته ويحله فى الفردوس الأعلى من جناته • بفضله ، وكرمه ، آمين •

* * *

● **الرسالة التأديبية**(٣٨) :
يقول الامام الغزالى : ان هاشماً الأصم كان من أصحاب شقيق البلخى رحمة الله عليهما •

---

(٣٧) المنافقون : ٩ •
(٣٨) للامام الغزالى •

فسأله يوماً فقال : صاحبتنى منذ ثلاثين سنة ، ما حصلت فيها ؟
قال : حصلت ثمانى فوائد من العلم ، وهى تكفينى منه لانى أرجو خلاصى ونجاتى فيها .

فقال شقيق : ما هى ؟

قال هاشم الأصم : الفائدة الأولى :

انى نظرت الى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبا يحبه ويعشقه . وبعض أولئك المحبوبين يصاحبه الى مرض الموت . والبعض الآخر الى شفير القبر .

ثم يرجع كله ويتركه فريداً ، وحيدا ، ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد .

فتفكرت وقلت : أفضل محبوب المرء ما يدخل فى قبره ويؤانسه فيه ، فما وجدته فى غير الأعمال الصالحة ..

فأخذتها محبوباً لتكون سراجاً فى قبرى ، وتؤانسنى فيه ولا تتركنى فريداً .

الفائدة الثانية : انى رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ، ويبادرون الى مراد أنفسهم فتأملت قوله تعالى :

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى »(٣٩) .

فتيقنت أن القرآن حق صادق ، فبادرت الى خلاف نفسى وتمرست بمجاهدتها ومنعتها بهواها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت .

الفائدة الثالثة : انى رأيت كل واحد من الناس يسعى فى جمع حطام الدنيا ثم يمسكه قابضاً بيديه عليه . فتأملت قول تعالى :

« ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق »(٤٠) .

فلذت بالايثار واستودعت عند الله اعانة البائس واسعاف الفقير لعلى أحشر فى ظل صدقتى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

---

(٣٩) النازعات : ٤٠ — ٤١ .   (٤٠) النحل : ٩٦ .

الفائدة الرابعة : انى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاعتز بهم .

وزعم آخرون أنه فى حيازة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها .

وحسب بعضهم الشرف والعز فى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم .

واعتقدت طائفة أنه فى اتلاف المال واسرافه وتبذيره وتأملت قوله تعالى :

« **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** »(٤١) .

فأقبلت على ربى ونفضت يدى من هذه الملهيات والأباطيل .

الفائدة الخامسة : انى رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً فوجدت ذلك من الحسد فى المال ، والجاه ، والعلم .

فتأملت قوله تعالى : « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** »(٤٢) .

« **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون** »(٤٣) .

فعلمت أن القسمة من الله تعالى فى الأزل . وأن الضيق بها حمق .

فما حسدت أحداً ، ورضيت بقسمة الله تعالى .

الفائدة السادسة : انى رأيت الناس يعادى بعضهم بعضاً لشتى الأغراض والأسباب فتأملت قوله تعالى : « **أن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** »(٤٤) .

فعلمت أنه لا يجوز غير عداوة الشيطان ، فانتصبت له وتأهبت لحربه .

الفائدة السابعة : انى رأيت كل أحد يسعى بجده ، ويجتهد فى طلب القوت والمعاش ، بحيث يقع فى شبهة أو حرام ، بل قد يذل

---

(٤١) آل عمران : ١٨٥ .
(٤٢) الزخرف : ٣٢ .
(٤٣) الزخرف : ٣٢
(٤٤) فاطر : ٦ .

نفسه وينقص قدره ، فتأملت قوله تعالى : ((وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها))(٤٥) .

فعلمت أن رزقى على الله تعالى ، وقد ضمنه ، فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه وترفعت عن الشبهات والدنايا .

الفائدة الثامنة : انى رأيت كل واحد يعتمد على مخلوق .

بعضهم على الدنيا والدرهم .

وبعضهم على المال والملك .

وبعضهم على الحرفة والصناعة .

وبعضهم على مخلوق مثله من الكبراء أصحاب الحول والطول .

فتأملت قوله تعالى : ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه))(٤٦) .

فتوكلت على الله تعالى ، فهو حسبى ونعم الوكيل .

فقال شقيق : وفقك الله .

انى نظرت فى التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان ، فوجدت الكتب الأربعة تدور حول هذه الفوائد ، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة ...

* * *

● **بين العلم والعمل — رسالة من الامام الغزالى الى أحد تلاميذه :**

يا ولدى ... !

النصيحة سهلة ، ولكن الصعب قبولها ... ! لأنها فى فم من لم يتعودها مرة المذاق ...

وان من يحصل العلم ولا يعمل به تكون التبعة عليه أعظم كما قال رسول الله ﷺ : ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه)) ..

يا ولدى ...

لا تكن من الأعمال مفلساً . ولا من الاجتهاد فى الطاعة خالياً .

وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ باليد .

---

(٤٥) هود : ٦ .

(٤٦) الطلاق : ٣ .

كما لو كان مع رجل عشرة أسياف هندية وهو فى صحراء فخرج عليه أسد عظيم مهيب ، فهل تدفع عنه هذه الأسلحة دون أن يستعملها ؟

كذلك مثل العلم والعمل .. لا فائدة فى الأول بدون الثانى .

يا ولدى ...

لو قرأت العلم مائة سنة . وجمعت ألف كتاب . لا تكون مستعداً لرحمة الله الا بالعمل .

« وأن ليس للانسان الا ما سعى »(٤٧) .

« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا »(٤٨) .

يا ولدى ...

ما لم تعمل لم تجد الأجر .

وفيما ينسب الى على كرم الله وجهه : من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن . والمنى بضائع الحمقى .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب .

وفى الخبر عن أهل الله تعالى : ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل .

وقد قال ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .. والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله المغفرة » .

يا ولدى ...

عش ما شئت فانك ميت ، وأحبب من شئت فانك مفارقه . واعمل ما شئت فانك مجزى به .

والعلم بلا عمل جنون .

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون »(٤٩) .

والعمل بغير علم لا يكون .. فلابد منهما معاً ..

---

(٤٧) النجم : ٣٩ .

(٤٨) الكهف : ١١٠ .

(٤٩) البقرة : ٤٤ .

وان العلم وحده لا يبعدك اليوم عن المعاصى . ولا ينجيك غداً من النـــار .

فاذا لم تجتهد اليوم فى العمل ، لتقولن يوم القيامة : أرجعنا نعمل صالحاً .

فيقال لك : ياهذا أنت من هناك جئت ؟ .

* * *

● موقفى من الناس (٥٠) :

علمتنى الحياة خطتين فى سياستى مع الناس .. خطة أتبعها فيما يصيبنى من الناس ، وخطة أتبعها فيما يصيب الناس منى .

فاسترحت كثيراً من تبديد شعورى فى غير طائل ، وعرفت كيف يكون الاقتصاد فى انفاق ثروة الحياة .

اما خطتى فيما يصيبنى من الناس ، فهى أن اتناول طبـــاعهم وأخلاقهم جملة واحدة ، ولا أفرق بينهم على حسب اختلاف الاشخاص والأفراد .

كان الخلق الواحد فى مبدأ الأمر يسبب لى الألم وخيبة الرجاء عشرات المرات ، بل مئات المرات .. وكنت فى كل مرة اشعر بصــدمة المفاجأة كأنى اكتشف شيئا جديدا لم أتوقعه من قبل .

ثم تعودت مع الزمن أن أجعل للناس جميعاً حساباً واحـــداً فى رصيد المكسب والخسارة ، فهبطت الخسارة كثيراً على الأقل ، وهـذا فى ذاته مكسب محدود .

تعودت أن أجمع الأخلاق الى أنواعها ، وأن أضع كل نوع منها تحت عنوانه ، فى الناس أنانيه ، فى الناس صغار ، فى الناس سخافة ، فى الناس نقائض وغرائب ، وهكذا ، وهكذا ، الى آخر هذه المألوفات التى نتوارثها نحن أبناء آدم وحواء ، فليس فيها من جديد .

فاذا أصابنى من الناس شئ مكدر رجعت به الى عنوانه ، فوجدته مسجلا هناك ولم يفاجئنى بما لا انتظر ، فى الناس أنانية .. فى الناس صغار .. نعم .. نعم ، وماذا فى ذلك ؟

---

(٥٠) للأستاذ عباس محمود العقاد .

ألم تعلم هذا من قبل ! بلى ، علمته مرة بعد مرة .. فما وجه الاستغراب ، ولماذا الألم والشكوى ؟

وراقبت نفسى طويلا فوضعت نفسى فى القائمة . وتعودت أن أقول لها كلما أصابها ما يكدرها : « وأنت أيضا كذلك ؟ » فلا للحساب والعقاب .

أما خطتى فيما يصيب الناس منى ، فهى أن أسأل نفسى كلما شعرت بسخطهم أو انتقادهم « هل الأمر يعنينى » ؟ .

وبعبارة أخرى « هل يضيرنى أن أفقد رضاهم . وهل يعيبنى أن أفقده » ؟

فاذا كان فى الأمر ما يضير أو ما يعيب ، فالأمر يعنينى ، ولا بد من معالجته بما أستطيع ، والا فلا وجه للتعب والاكتراث ، وعولت دائما على المقياس العملى لأن الجرى وراء النظريات لا ينتهى الى غاية ، فكنت أضع أمامى على الدوام خمسة أو ستة من الذين أعرفهم ، وأعرف أنهم من أصحاب الحظوة عند الناس ، وأن الناس لا يسخطون عليهم ، ولا ينتقدونهم ، فأتساءل :

وهل يسرك أن تكون مثلهم ، وأن تحصل على الرضا كما حصلوا عليه ؟

وكان جواب هذا التساؤل نافعاً لى على الدوام ، لأنه يحدد لى العمل اللازم ، أو يعفينى من كل عمل ، ويبين لى فى معظم الأحوال أن ثروة الرضا والثناء عملة زائفة ، أو عملة صحيحة ، على أحسن الوجوه ، ولكن الاستغناء عنها غير عسير .

***

ومن التجارب الكثيرة فى الأشخاص الدين عرفتهم حق المعرفة تبين لى أنهم يحتالون ، ويتبعون عقولهم وضمائرهم فى الاحتيال ، طلبا للشهرة التى لا تهمهم لذاتها ، ولكنها تهمهم لغاية يصلون اليها من ورائها .

وحمدت الله لأن تلك الغاية لا تهمنى أنا . ولا تستحق عندى أن أبذل فيها أى تعب حتى استطعته كل لحظة ، وكنت كمن يتمنى

نصيباً من المال ليشترى به شيئاً ثم علم أن الشىء لا يستحق الشراء ، فاستغنى عن المال واستغنى عن ثمنه •

خطتان سهلتان — خطة مع الناس ، وهى أن أجمعهم جملة واحدة •

وخطة مع نفسى ، وهى أن تقصر جهودها وهمومها على ما يعنيها • والخطتان سهلتان كما قلت ، ولكنى لا أنسى أن أقول : انهما سهلتان على من هو مثلى ، مطبوع على العزلة وقلة الاختلاط بالناس •

وحب العزلة عادة لم أتعلمها من الحياة ، بل أخذتها من أبوى الاثنين بغير تعليم ، فمن استطاع أن يتعلمها فليتعلمها ، ان كانت تعنيه » •

* * *

● من خطبة لعمر بن عبد العزيز :

قال رضى الله عنه :

أيها الناس •• انكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وان لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف اليوم ، وباع قليلا بكثير ، وفانياً بباق •

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ! كذلك حتى تردوا الى خير الوارثين •

ثم انكم فى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً الى الله ، قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيبونه فى صدع من الأرض • ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب مرتهنا بعمله ، غنياً عما ترك ، فقيراً الى ما قدم •

وأيم الله ، انى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى • فأستغفر الله لى ولكم •

وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا الا سددناه •

ولا أحد منكم الا وودت أن يده مع يدى ، ولحمتى الذين يلوننى ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم •

وأيم الله انى لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقـاً ذلولا عالمـاً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى عن معصيته .

ثم بكى . فتلقى دموع عينيه بردائه ونزل . فلم ير بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله تعالى ..

***

● هكذا ترك الخليفة أولاده :

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى المرضة التى مات فيها فقال له : يا أمير المؤمنين انك فطمت أفواه ولدك عن هـذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بد لهم من شىء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم الى ، أو الى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم ان شاء الله .

فقال عمر : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال :

الحمد لله .. أبا لله تخوفنى يا مسلمة ؟ .

أما ماذكرت أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال ، وتركتهم عالة، فانى لم أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم .

وأما ما سألت من الوصية اليك ، أو الى نظرائى من أهل بيتى ، فان وصيتى بهم الى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

وانما بنو « عمر » أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر ! فلا يكون « عمر » أول من أعانه على ارتكابه الآثام .

ادعوا الى بنى ..

فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ؟ .

فجعل يصعد بصره فيهم ويصـوبه — حتى اغرورقت عينـاه بالدمع — ثم قال : بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم !

يا بنى : انى قد تركتكم من الله بخير . انكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد الا ولكم عليه حق واجب ان شاء الله .

يا بنى : لقد أدرت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار .

فكان أن تفتقروا الى آخر الأبد خيراً من دخولكم وأبيكم يوما واحداً فى النار .

قوموا يا بنى عصمكم الله ورزقكم .

قال : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

* * *

● الامام العادل :

طلب عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة الى الحسن البصرى أن يكتب اليه بصفة الامام العادل ، فكتب اليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والامام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على ابله ، الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر .

والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والامام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والامام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والامام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا أتاها من يليها ؟

وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم ؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك الى مقرك فريداً وحيداً .

فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .

واذكر يا أمير المؤمنين اذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل . قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عبد الله بحكم الجاهلين . ولا تسلك بهم سبيل الظالمين . ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين . فانهم لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمه . فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالا مع أثقالك .

ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم باذهاب طيباتك فى آخرتك ، لا تنظر الى قدرتك اليوم ، ولكن انظر الى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم .

انى يا أمير المؤمنين وان لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولوا النهى من

قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى اليك كمداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له ذلك من العافية والصحة .

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

***

● نموذج للحاكم المسلم :

دخل ضرار الصدائى على معاوية فقال له : يا ضرار صف لى علياً .

قال : أعفنى يا أمير المؤمنين !!

قال : لتصفنه .

قال : أما اذ لا بد من وصفه ، فكان — والله — بعيد المدى ، شديد القوى .

يقول فصلا ، ويحكم عدلا .

يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه .

يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته .

وكان غزير العبرة [٥١] ، طويل الفكرة .

يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن .

وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا اذا سألناه ، وينبئنا اذا استنبأناه ، ونحن والله — مع تقريبه ايانا وقربه منا — لا نكاد نكلمه هيبة له .

يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين .

لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله .

وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم [٥٢] ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرى غيرى . ألى تعرضت أم إلى تشوفت ؟ هيهات هيهات !! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها .

فعمرك قصير ، وخطرك حقير .

آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

---

(٥١) الدمعة .

(٥٢) الملدوغ .

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن .. كان — والله — كذلك .

فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟

قال : حزن من ذبح وادها وهو فى حجرها .

***

● **خطبة يزيد بن الوليد :**

لما قتل « الوليد بن يزيد » قام ابن عمه « يزيد بن الوليد ابن عبد الملك » خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس .. والله ما خرجت أشراً ، ولا بطراً . ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك . وما بى اطراء نفسى ، ولا تزكية عملى ، وانى لظلوم لنفسى ان لم يرحمنى ربى ، ولكنى خرجت غضباً لله ودينه ، داعيا الى الله وسنة نبيه لما هدمت معالم الهدى وأطمىء نور التقوى ، وظهر الجبار العنيد ، المستحل لكل حرمة ، الراكب لكل بدعة — مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، ولا يصدق بالثواب والعقاب ، وانه لابن عمى فى النسب . وكفيى فى الحسب ، فلما رأيت ذلك ، أشفقت ان غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم ، وقسوة من قلوبكم ، وأشفقت أن يدعو كثير من الناس الى ما هو عليه ، فيجيبه من أجابه منكم ، فاستخرت الله فى أمرى ، وسألته ألا يكلنى الى نفسى ، ودعوت الى ذلك من أجابنى من أهل ولايتى حتى أراح الله منه العباد ، وظهر البلاد بحول الله وقوته ، لا بحولى وقوتى .

أيها الناس .. ان لكم على ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهراً ولا أكنز مالا ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً ، ولا أنقل مالا من بلد الى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم فان بقى فضل فهو الى البلد الذى يليه ممن هو أحوج اليه منه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ، ولكم الا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهلكم ، وألا أغلق بابى دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، وألا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم وأقطع نسلم .

ولكم عندى أعطياتكم فى كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر ، حتى يعم الخير بين المسلمين • فيكون أقصاهم كأدناهم •

فاذا أنا وفيت لكم فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكاتفة •

وان أنا لم أف لكم فلكم أن تخلعونى الا أن تستتيبونى ، فان أنا تبت قبلتم منى •

وان عرفتم أحداً يقوم مقامى — ممن يعرف بالصلاح — يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ودخل فى طاعته •

أيها الناس : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق •

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم •

***

● أبو حمزة الخارجى يصف أصحابه :

يا أهل مكة •••

تعيروننى بأصحابى ؟ تقولون : انهم شباب !

وهل كان أصحاب محمد ﷺ الا شباباً ؟

شباب والله مكتهلون فى شبابهم •

عمية عن الشر أعينهم • بطيئة عن الباطل أرجلهم ••

قد نظر الله اليهم فى آناء الليل منثنية أصلابهم بمثانى القرآن •••

اذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً اليها •

واذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ••

قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ••

أنضاء عبادة •

قد أكلت الأرض جباههم وأبدانهم وركبهم من كثرة السجود •

مصفرة ألوانهم • ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام ••

مستقلون لذلك فى جنب الله .

موفون بعهد الله .

حتى اذا رأوا سهام العدو قد فوقت ، ورماحه قد شرعت ، وسيوفه قد انتضيت ، وبرقت الكتيبة بصواعق الموت . استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله .

فمضى الشاب منهم قدماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه قد زملت محاسن وجهه بالدماء .

وعفر جبينه بالثرى ...

وأسرع اليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء ..

فكم من مقلة فى فم طائر . طالما بكى صاحبها من خشية الله ..؟

وكم من كف بانت عن معصمها . طالما اعتمد عليها صاحبها فى سجوده ؟ .

وكم من خد عتيق ، وجبين رقيق . قد فلق بعمد الحديد ... ؟

رحمة الله على تلك الأبدان .

وأدخل أرواحها فى الجنان ..

* * *

● رجل مؤمن يعظ المنصور :

بينما المنصور فى الطواف ليلا اذ سمع قائلا يقول : اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع .

فخرج « المنصور » فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل الى الرجل يدعوه . فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن . ثم أقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة فقال المنصور : ما الذى سمعتك تقول من ظهور البغى والفساد فى الأرض ؟

وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ ، فوالله حشوت مسامعى ما أمضنى ! !

فقال : ان أمنتنى يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها ، والا احتجزت منك ، واقتصرت على نفسى فلى فيها شاغل .

قال : فأنت آمن على نفسك .

قال : يا أمير المؤمنين ان الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت !

فقال : كيف ذلك ! ويحك ... أيدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى ، والحلو والحامض عندى !!

قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ ان الله استرعاك أمر عباده وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحراسا معهم السلاح ، ثم حجبت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها ، وأمرت ألا يدخل عليك أحد من الرجال الا فلان وفلان نفراً سميتهم ... ولم تأمر بايصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع ولا العارى اليك ، ولا أحد الا وله فى هذا المال حق . . فلما رآك هؤلاء النفر استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يحجبوا دونك ورأوك تجبى الأموال وتجمعها ، ولا تقسمها على أهلها .

قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه ؟ ! فائتمروا ألا يصل اليك من علم أخبار الناس شىء الا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم ، الا خونوه عندك حتى تسقط منزلته . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم . فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقدروا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك .. لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفساداً . وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ، فان جاء متظلم حيل بينك وبينه ، فان أراد رفع قصته اليك عند ظهورك ، وجدك قد نهيت عن ذلك ، ووقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم .. فان جاء ذلك المتظلم ، فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم الا يرفع مظلمته اليك .. فلا يزال المظلوم يختلف

اليه ، ويلوذ به ويشكو ، ويستغيث ، وهو يدفعه ، فاذا أجهد وأحرج ثم ظهرت صرخ بين يديك !! ، فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر فمن تنكر !! فما بقاء الاسلام على هذا !

وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى الصين ، فقدمتها مرة ، وقد أصيب ملكهم بسمعه ، فبكى بكاء شديداً ، فحثه جلساؤه على الصبر..

فقال : أما انى لست أبكى للبلية النازلة ، ولكنى أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته .

ثم قال : أما اذ ذهب سمعى ، فان بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس ألا يلبس ثوباً أحمر الا متظلم .

ثم كان يركب البغل طرفى النهار : هل يرى مظلوماً ؟

فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله ومن أهل بيت نبيه ، ولا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك !

فان كنت انما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبراً فى الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه .

ولست الذى تعطى .. بل الله يعطى من يشاء ما يشاء .

فان قلت : انما تجمع المال لتشديد السلطان ، فقد أراك الله عبراً فى بنى أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب ، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد .

وان قلت : انما تجمع المال لغاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه الا منزلة ما تدرك الا بخلاف ما أنت عليه ...

يا أمير المؤمنين .. هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟

فقال المنصور : لا .

فقال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك منك الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن بالخلود فى العذاب الأليم ؟ فقد رأى ما عقدت

عليه قلبك ، وما عملته جوارحك ونظر اليه بصرك ، واجترحت يداك ، ومشت اليه رجلاك .. هل يغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا اذا انتزعه من يدك ودعاك الى الحساب ؟

فبكى المنصور ثم قال : ليتنى لم أخلق !! ويحك كيف أحتال لنفسى ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ان للناس أعلاماً يفزعون اليهم فى دينهم ويرضون بهم فى دنياهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يسددوك .

قال : قد بعثت اليهم فهربوا منى ..

قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفىء والصدقات على حلها ، واقسمها بالحق والعدل على أهلها ، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .

ثم جاء المؤذنون ، فآذنوه بالصلاة فصلى ، وعاد الى مجلسه ، وطلب الرجل فلم يوجد ؟

* * *

● ولا تركنوا الى الذين ظلموا :

لقى أبو جعفر المنصور « سفيان الثورى » فى الطواف — و « سفيان » لا يعرفه — فضرب بيده على عاتقه وقال : أتعرفنى ؟

قال : لا ، ولكنك قبضت على قبضة جبار .

قال : عظنى أبا عبد الله .

قال : وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت ؟ !

قال : فما يمنعك أن تأتينا ؟

قال : ان الله نهى عنكم ، فقال تعالى : « **ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار** » (٥٢) .

فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت الى أصحابه ، فقال :

---

(٥٢) هود : ١١٣ .

ألقينا الحب الى العلماء ، فلقطوا ... الا ما كان من سفيان . فانه أعيانا فراراً ..

* * *

● خطبة للمأمون فى عيد الفطر :

قال بعد التحميد والتكبير :

ألا وان يومكم هذا يوم عيد وسرور ، وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمة الشهر واول شهور الحج ، وجعله معقبا لمفروض صيامكم ، ومتنقل قيامكم ، أحل الله لكم الطعام ، وحرم عليكم فيه الصيام ، فاطلبوا الى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم . فانه يقال : لا كبيرة مع ندم واستغفار ، ولا صغيرة مع تماد واصرار . ثم كبر وحمد . وذكر النبى ﷺ وأوصى بالبر والتقوى ثم قال :

اتقوا الله عباد الله . وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم . ولم يحضر الشك فيه أحدا منكم . وهو الموت المكتوب عليكم ، فانه لا تستقال بعده عثرة ، ولا تحذر قبله توبة . واعلموا أنه لا شىء قبله الا دونه ولا شىء بعده الا فوقه . ولا يعين على جزعه وكربه وعلى القبر وظلمته ووحشته وضيقه وهول مطلعه ومسألة ملكيه الا العمل الصالح الذى أمر الله به ، فمن زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته ، وفاتته استقامته ، ودعا من الرجعة مالا يجاب اليه ، وبذل من الفدية مالا يقبل منه ، فالله الله عباد الله ، كونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها اذ منعها الذين طلبوها ، فانه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم الا هذا الأجل المبسوط لكم ، فاحذروا ما حذركم الله منه ، واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحائفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد ما يضع فى ميزانه مما يثقل به وما يملى فى صحيفته الحافظة لما عليه وله ، فقد حكى الله لكم ما قال المفرطون عندما طال اعراضهم عنه .

قال جل ذكره : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه

ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً » (٥٤) .

وقال : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين »(٥٥)

ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كل ما بها يحذر منها وينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو الى غيرها. وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ، ذم كتاب الله لها والنهى عنها فانه يقول تبارك وتعالى :

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » (٥٦) .

وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » (٥٧) .

فاكتفوا بمعرفتكم بها وباخبار الله عنها ، واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله تحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها ! وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما تركوا منها ..»

* * *

● من كلام الأعـراب :

قال الأصمعى : أصابت الأعراب أعوام جدب وشدة وجهد . فدخلت طائفة منهم البصرة وبين أيديهم أعرابى يقول :

أيها الناس .. اخوانكم فى الدين ، وشركاؤكم فى الاسلام ، وعابرو سبيل ، وظلال بؤس ، وصرعى جدب ، تتابعت علينا سنون ثلاث ، غيرت النعم ، وأهلكت النعم ، فأكلنا ما بقى من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا . ونمنى بالغيث قلوبنا حتى عاد مخنا عظاماً ، وعاد إشراقنا ظلاماً ، وأقبلنا اليكم يصرعنا الوعر ، ويكتنا السهل ، وهذه آثار مصائبنا لائحة فى سماتنا .

---

(٥٤) الكهف : ٤٩ . (٥٥) الانبياء : ٤٧ .

(٥٦) لقمان : ٣٣ ، وفاطر : ٥ . (٥٧) الحديد : ٢٠ .

فرحم الله متصدقاً من كثير ، ومواسياً من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وكسف البال ، وبلغ المجهود ، والله يجزى المتصدقين .

* * *

ووقف أعرابى بقوم فقال :

أشكو اليكم أيها الملأ زماناً كلح فى وجهه ، وأناخ على كلكله ، بعد نعمة من المال وثروة من الآل ، وغبطة من الحال ، اعتورتنى جرائده بنبل مصائبه عن قسى نوائبه ، فما ترك لى ثاغية أجتدى ضرعها ، ولا راغية أرتجى نفعها ، فهل فيكم من معين على صرفه ، أو معد على حتفه ؟

* * *

وأملى أعرابى يقال له « مرثد » دعاء فكان منه :

يارب .. تظاهرت على منك النعم ، وتداركت عندك منى الذنوب فلك الحمد على النعم التى تظاهرت ، وأستغفرك للذنوب التى تداركت .

يا رب أمسيت عن عذابى غنياً ، وأصبحت الى رحمتك فقيراً .

اللهم انى أسألك نجاح الأمل عند انقطاع الأجل .

اللهم اجعل خير عملى ما ولى أجلى .

اللهم اجعلنى من الذين اذا أعطيتهم شكروا ، واذا ابتليتهم صبروا ، واذا ذكرتهم ذكروا .

واجعل لى قلباً تواباً أواباً ، لا فاجراً ولا مرتابا .

واجعلنى من الذين اذا أحسنوا ازدادوا ، واذ أساءوا استغفروا .

أدعوك دعاء ضعيف عمله ، متظاهرة ذنوبه ، ضنين على نفسه دعاء من بدنه ضعيف ، ومنته عاجزة ، قد انتهت عدته ، وخلفت جدته ، وتم ظمؤه .

اللهم لا تخيبنى وأنا أرجوك ، ولا تعذبنى وأنا أدعوك .

اللهم انى أعوذ بك من الفقر الا اليك ، ومن الذل الا لك .

وأعوذ بك أن أقول زوراً أو أغشى فجوراً أو أكون بك مغرورا .

وأعوذ بك من شماتة الأعداء ، وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمـــة •

* * *

● وصية أعرابية لابنها :

قال أبان بن تغلب — وكان عابداً من عباد البصرة — شــهدت أعرابية توصى ولداً لها وقد أراد سفراً وهى تقول :

« أى بنى •• اجلس أمنحك وصيتى — وبالله توفيقك — فــان الوصية أجدى عليك من كثير عقلك •

قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسناً لوصيتها ، فاذا هى تقول :

أى بنى : اياك والنميمة فانها تزرع الضغينة ، وتفــرق بــين المحبين •

واياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضاً الا كلمته •

واياك والجود بدينك والبخل بمالك •

واذا هززت فاهزز كريماً يلين لهزتك ، ولا تهز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها •

ومثــل لنفسك مثال ما استحسنت من غـــيرك فاعمل به ، وما استقبحت منه فاجتنبه ، فان المرء لا يرى عيب نفسه •

ومن كانت مودته بشره ، وخالف منه ذلك فعله ، كان صديقـــه منه على مثل الريح فى تصرفها •

ثم أمسكت ، فدنوت منها فقلت : بالله يا أعرابيـــة الا زدته فى الوصية ••

قالت : أو قد أعجبك كلام العرب يا عراقى !

قلت : نعم •

قالت : والضرر أقبح ما تعامل الناس بينهم ومن جمع بين الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ، ريطتها وسربالها »(٥٨) •

* * *

---

(٥٨) الريطة : الملاءة اذا كانت واحدة ، والسربال : القميص .

وصية أعرابى لأخيه :

« آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك يدعوك الى الهدى ، ويعصمك من الردى ، وألجم هـواك عن الفواحش ، وأطلقه فى المكارم ، فانك تبر بذلك سلفك وتشيد شرفك ، وابذل الصداقة تستفد اخوانا ، وتتخذ أعوانا فان العداوة موجودة عتيدة ، والصداقة متعذرة بعيدة ، وجنب كرامتك اللئـــام ، فانك ان أحسنت اليهم لم يشكروا ، وان نزلت شديدة لم يصبروا » .

***

أعرابى يفحم الحجاج :

خرج الحجاج ذات يوم فأصحر (٥٩) وحضر غداؤه فقال : اطلبوا من يتغدى معنا ، فطلبوا فلم يجدوا الا أعرابياً فى شملة فأتوه به .

قال : هلم .

قال : قد دعانى من هو أكرم منك فأجبته .

قال : ومن هو ؟

قال : الله تبارك وتعالى . دعانى الى الصيام فأنا صائم .

قال : صوم فى مثل هذا اليوم على حر ؟ !

قال : صمت ليوم هو أحر منه ؟ ؟

قال : فأفطر اليوم وتصوم غدا .

قال : أو يضمن الأمير لى أن أعيش الى غد .

قال : ليس ذلك الى .

قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل ليس اليه سبيل ؟ ؟

قال : انه طعام طيب .

قال : والله ما طيبه خبازك ولا طباخك ولكن طيبته العافية .

قال الحجاج : تالله ما رأيت كاليوم ، أخرجوه عنى ؟

***

(٥٩) بلغ الصحراء ودخلها .

● **مواعظ :**

قال صاحب الأمالي : حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله • قال : حدثنا العكلى عن أبيه قال : بلغنى عن ابن عباس أنه قال : كتب الى على ابن أبى طالب رضى الله عنه بموعظة ما سررت بموعظة سرورى بها •

أما بعد : فان المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثر به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه أسفاً • وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت وهمك فيما بعد الموت •

* * *

وأنشدنا أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى • قال : أنشدنا أحمد بن يحيى الشيبانى :

اذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل   خلوت ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما يخفى عليك يغيب

* * *

قال : وأنشدنا أحمد بن يحيى :

فى كل بلوى تصيب المرء عاغية   الا البلاء الذى يدنى من النار
ذاك البلاء الذى ما فيه عاغية   من العذاب ولا ستر من العار

* * *

وأنشدنا أبو محمد النحوى قال : أنشدنا أبو عباس محمد بن يزيد قال : أنشدنى عمرو بن بحر الجاحظ ، قال : أبو محمد — والشعر لصالح بن عبد القدوس :

وان عناء أن تفهم جاهلا   فيحسب جهلا أنه منك أفهم
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه   اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهى عن سيىء من أتى به   اذا لم يكن معه علية تندم

* * *

وأنشدنا أبو عبد الله ، قال : أنشدنا محمد بن يزيد ، قال : أنشدنى عبد الله بن القاسم ، قال : أنشدنى العتبى :

تأنقت فى الاحسان حتى أتيته الى ابن أبى ليـلى فأنزله ذمـا
فوالله ما آسى على فوت شكره ولكن خطأ الرأى يحدث لى غما

* * *

وحدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثنا أبو حاتم قال :
كان بالمدينة غلام يحمق ، فقال لأمه : يوشك أن ترينى عظيم الشأن .
قالت : والله ما رجوت هذا الأمر الا من حيث يئست منه .
فقال : أما علمت أن هذا زمان الحمقى وأنا أحدهم ! ! !

* * *

خاتمة

اتفقت كلمات الدارسين على أن الاسلام أتى العالم بعد اكتمال رشده ، واستواء خصائصه النفسية ومواهبه الذهنية ، وأن رسالته جاءت كتاباً يخاطب الألباب ، ويناشد الضمائر ، وأن أدلتها تجاوزت طور الاعجاز المادى بالخوارق الباهرة الى الاقناع العقلى بالمقدمات التى تلفت الحس ، والنتائج التى تملك النفس .

أجل .. انهم اتفقوا على ذلك ، ونالت هذه الحقائق نصيبها من طول الشرح فلا نضيف اليها مزيداً ، وانما نريد أن نشرح خاصة أخرى فى الاسلام يربطها بهذه الحقائق نسب قريب ، تلك الخاصة هى ما يتعلق بحماية الدعوة وتمهيد سبلها ورد خصومها ، ودفع غوائل المبطلين عنها .

فان الاسلام ممتاز عن الديانات السابقة بطبيعة تزوده بأسباب المناعة . كما يمتاز الجسم المحصن ضد أنواع الحمى .

ألا ترى « المصل » الذى سرى فيه يمنحه مقاومة للأوبئة المهتاجة ؟

كذلك الاسلام : ان العناية العليا ادخرت فى كيانه طاقة يرد بها البلى ، وقوة يغالب بها العلل ، وقدرة على التجدد والكفاح تعيى الخصوم ، وتهزم الليالى .

وكأن الله أراد أن يجنبه مصاير كثير من رسالات الاصلاح التى حملها النبيون الأوائل وأن يجعله تراثاً مصون الجوهر قريب النفع الى الأبد .

فلنلق نظرة عجلى على هذه الرسالات الأولى وما لقيت من كيد ، وما واجهت من ختام ، لنعرف سر الخاصة التى تفرد بها الاسلام ، وكتبت له خلوداً لم يعرف لغيره ...

أول ما نلقاه فى مسير الديانات الأولى والعوائق التى اعترضتها أن كفة الشر كانت أرجح وأن سطوته على الناس كانت أظهر ، وأنه — لولا تدخل السماء — لحصد الايمان وأهله دون هوادة .

ولم يكن ذلك الضعف الذى أذل جانب الدين عن قصور فى بيانه

أو تقصير في حمايته ، بل لأن ضراوة الكفر بلغت حـداً رهيباً من الجسامة !! والا فقد ظل نوح عليه السلام بضعة قرون يدعو قومه بكل أسلوب دون جدوى :

« قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم دعائي الا فراراً ، واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهـم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم اني دعوتهـم جهـاراً ، ثم اني أعلنت لهم وأسررت لهم اسراراً ، فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً .. »(١) .

بيد أن هذه المناشدة الحارة ذهبت سدى ، وبقي المجتمع الكنود على كفره ، لم يتغير من أحواله المضطربة شيء ، ولم يستقم له حال .

واتضح أن موجة الكفر في مد متتابع وأن مستقبل هذه الجماعة لن يكون الا صورة مكررة لحاضرها السيء .

بل ان نطاق الايمان ينقص ولا يزيد ، وذلك ما جعل نوحاً ينادي :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، انك ان تذرهـم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً .. »(٢) .

وهيمنة الضلال على المجتمع ، التي أحنقت نوحاً وأحرجته ، أخذت طابعاً أقسى في رسالات أخرى أعقبته ، فقد بلغ من استمكان العتو في أرض مدين أن هدد الكفر — وزمام الأمر بيده — بطرد شعيب وطرد المؤمنين من أتباعه ، ان هم ظلوا يؤمنون بالله ويدعون الى القسط !! « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا »(٣) .

وكذلك صنعت قرى المؤتفكة مع نبيها الذي يعلمها العفاف ، ويجنبها الشذوذ ، ويريد تطهير أنديتها من المنكر ، لقد كان صوت الفساد من العلو والفحة بحيث لم يستحي أن يتوعد الأطهار بالطـرد « قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ، قال اني لعملكم من القالين ، رب نجني وأهلي مما يعملون »(٤) .

(١) نوح : ٥ — ١٠ . (٢) نوح : ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) الأعراف : ٨٨ . (٤) الشعراء : ١٦٧ — ١٦٩ .

وكما تأيدت دعوات أولئك الأنبياء السابقين • بالخوارق المعجزة •
فان تخليصهم من براثن عدوهم تنزلت به آيات من السماء • وتولته
ملائكة الله جل شأنه على النحو الذى وعاه التاريخ ودونه الوحى •

لكن الرسالة الخاتمة لها فى ذلك الميدان شأن آخر • فان الايمان
الذى تهدى اليه يعتمد فى رسوخه النفسى على حركة العقل الذكى
والقلب المنيب ، ويعتمد — فى بقائه الخارجى — على عمل اليد الدؤوب
وكدح الانسان المجاهد •

أجل •• على المرء أن يؤمن بايقـــاظ فكره •• فاذا تيقظ واهتـــدى
فعليه أن ينتصب لحماية هذا الايمان بكل ما لديه من قوى •

لا • بل عليه أن يخلط هذا الايمان بشئون الحياة ليجعل منه قانونا
تصلح به الأوضاع • ومناراً تعرف به الغايات وحضارة يصطبغ بهـا
الركب السائر • وتتوارثها الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة •

وعليه — الى جانب ذلك — أن يجالد دونه الخصوم • وأن يرمق
ذهاب جذوره فى الأرض • واستطالة أغصانه فى الجو ، وهو حارس
ناشط ، يرهب العادين • ويصد المجرمين ••

ان الاســـلام الذى قام على كتـــاب يؤسس الايمان باستثارة
المواهب الانسانية ، دون جنوح الى الخوارق المعجزة ، اعتمد فى
صيانة الرسالة واستدامة نورها وكسر خصومها على جهود المؤمنين
أنفسهم ، ومدى ما يبذلون من تضحيات غالية ، دون انتظار للآيات
السماوية التى تقهر الخصوم وتستأصل شأفتهم •

ولذلك ترى الاسلام يغالى بكل عمل صالح ، من شأنه أن يمـد
رواق الايمان فى الحياة العامة ويحكم هيمنة الدين على الجماعة •

ان مثل هذا العمل العام أرفع عند الله أجراً ، من أى عمل آخر ،
لأنه أوسع فى الحياة أثراً •

قد تكون الصلاة عبادة جليلة القدر ، لكن العمل الذى يؤديه المؤمن
— اعلاءاً لكلمة الله ، وتمكيناً لشريعته — أعظم •

لـماذا ؟ لأنه لولا هذا الجهاد ما استطاع مصل ولا صائم أن
يقوم لله بحق ، وتأمل فى هذه الآثار النبوية ينكشف لك وجه الصواب :

١ — عن أنس رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ عن أجر الرباط فقال : من رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى » .

٢ — وعن مجاهد عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان فى الرباط ففزعوا الى الساحل ثم قيل : لا بأس — أى لا خوف من عدوان — فانصرف الناس وأبو هريرة واقف فمر به انسان فقال : ما يوقفك يا أبا هريرة فقال : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « موقف ساعة فى سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود » .

٣ — وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « الا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس فى أرض خوف لعله الا يرجع الى أهله » .

٤ — وعن عثمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

وهذا التنويه الغريب بالجهاد انما يرجع الى أنه الحزام لشعائر الاسلام وأنواع الطاعات فاذا انقطع لضعف أو وهن ذهبت كلها بددا وتلاشت فى الحياة سدى .

وقد رأينا الأذكياء يرفضون مسالك الزهاد ممن آثروا العزلة واستحلوا عبادة الله بعيداً عن الناس .

وروى أن بعض العلماء خرج فصعد الى رأس جبل اجتمع فيه العباد والزهاد منقطعين الى طاعة الله — كما يزعمون — فقال لهم : أتجلسون فى مأمن هنا وتتركون الاسلام تعبث به الأهواء الظلوم والنحل الفاسدة ؟ أما كان خيرا لكم ولدين الله أن تخالطوا الناس وأن تناضلوا عن سبيل الله بالحجة والبرهان أن عليكم الدفاع عنه بالسيف والسنان ؟

وذلك حق . فان الاسلام يرفض بتة هذه المواقف السلبية تجاه الضلال .

انه يفترض على المسلم الذى يعتنقه أن يتحول به الى قوة خلاقة تزرع الخير فى كل ناحية وتقتلع من حوله الأشواك .

ومن هنا لم يتعب الشيطان من شىء تعبه من هذا الدين الذى يبنى النفوس على الحب فى الله والبغض فى الله ، والذى يأبى مهادنة المنكر أبد الدهر .

فان أعياه الانتصار عليه وحسم مادته . استبقى له فى الضمائر كراهية كامنة تتربص به الدوائر .

وبهذه الخاصة نجا الاسلام من المصاير التى طوت ديانات أخرى قبله ، وبقيت فيه الحقيقة التى تاه عنها كثيرون من الأوائل .

نعم ، بقيت مصونة كما نزلت من السماء برغم ما ألقى عليها الدهر من ظلال .

لقد ظهر نبى الاسلام منذ اربعة عشر قرناً ، بعد عشرات ومئات من المرسلين الذين سبقوه الى هداية الخلق وتعليم الأمم . وكانت النتائج المستخلصة من الماضى الطويل لا تدع مجالا لتحسين الظن بالضلال وأهله « انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذن أبداً »(٥) .

ومن ثم تجاور فى تعاليم الاسلام ، أن الايمان بالحق والجهاد عنه صنوان ، وأن نبذ الكفر وتقليم أظافره أخوان لا يفترقان .. وأن القضاء العدل ، والسلطة المنفذة له أمران لا ينفكان .

وبذلك المنطق شق الاسلام طريقه فى الحياة وسحق شركا طالما غمر التوحيد ، وجبروتا طالما استباح الأمم ، وأضل الأجيال ، شق طريقه دون أن يأبه للعصابات القطاع وهى تقول : ان سيفه مرهوف الحد ، شديد الفتك .

ليكن ، وما يعيبه هذا ، وهو انما خلص بحمايته مظلوم على مرغمه ؟!

ان شكايات اللصوص من بطش رجال الشرطة لا معنى لها ،

(٥) الكهف : ٢٠

والذين يسمعون لها هم الذين ضاقوا بالقوة فى كنف الاسلام ، أقوام مريبون ، كانوا — قبحهم الله — يبتغون الاجهاز عليه ، فلما ارتدوا مدحورين أخذوا يسبون سيفه ، ويشتمون قوته .. !!

وذلك — فى نظرنا — أفضل من أن يقفوا على جثته يرسلون دموع التماسيح .

* * *

وكأن الله ألهم الفاروق « عمر » رضى الله عنه هذه الحقيقة عندما جعله يؤرخ بالهجرة لسير الاسلام فى الأرض .

ان هذه الهجرة تعنى أن المسلم يحيا لله ولرسوله ، ويربط مستقره فى أى بلد بمقتضيات العقيدة التى ارتضاها ، فهو يتبعها حيث تزدهر وتؤتى ثمارها .

وبون بعيد بين من يجعل نفسه وماله وأهله تبع ايمانه الأثير وغايته الرفيعة .

ومن يحيا على أى وضع وفى أى ظل .

والغريب أن الله جعل العزة والسيادة للأولين ، ومكن لهم فى العالم بقدر ما خدموا دينه وأقاموا أمره ...

على أن الجهاد العلمى أرفع رتبة وأسبق مكانة من الجهاد الحربى .

فالناس — أولا — أحوج الى من يعرفهم الحق ، حتى اذا انشرحت به صدورهم تطلعوا الى ما يستبقيه فيهم ، والى ما يثبتهم عليه ، والى ما يورثه ذراريهم بعد انقضائهم ...

فالحق أساس ، والجهاد حارس .

وهبك زرعت حديقة يانعة مهدلة الأفنان ثم أنشأت حولها سياجا يقيها السطو والاختلاس ، ما تظن قيمة هذا السياج اذا انقطع عن الحديقة الماء فذوى باسقها ، وجف مخضلها ؟ .

أو ما قيمة هذا السياج اذا أصابها اعصار فيه نار فاحترقت ؟؟

ان السياج عندئذ سيكون مضروبا حول صحراء لا خير فيها ..

والعلماء عندما يكتبون ويخطبون ، وعندما يربون ويتعهدون ، وعندما يحلون أو يرتحلون ، وعندما يدافعون ويجادلون . انما يغرسون

فى النفوس حقائق الوحى وهدايات السماء ، ويخلفون أنبياء الله جل شأنه على رعاية الخلق ، واحسان قيادتهم ، وكفالة حاضرهم وغدهم .

وقد راعنا — معشر الدعاة — أن مواطن الاسلام فى هذا الزمان تتعرض لعبث هائل فى قوامها الروحى والفكرى .

وأن أسراباً من الحشرات الفتاكة انطلقت مع زحف الاستعمار الأخير ، وشرعت تجتاح الأخضر واليابس فى ميادين العقائد والأخلاق .

وأن آمال الزبانية تركزت بكل ما واتاها من قوى باطشة وسياسات خاتلة لتجعل الاسلام أثراً بعد عين ..

ونحن نمد الطرف يمنة ويسرة ، نبحث عن العلماء الدعاة ليذودوا هذا البلاء ، ويتلافوا تلك المحنة ...

يجب أن يبقى الاسلام فى الأرض لتبقى لها صلة بالسماء ، وليبقى بين الأحياء رسالة تكفل لهم الرشد واليمن ، وتقيهم العثار والزلل ...

لن تنقطع حاجة العالم الى الاسلام الا يوم تستغنى العيون عن الضياء ، والصدور عن الهواء ...

فيا دعاة الاسلام فى المشارق والمغارب أدوا حق الله عليكم ، وانقلوا الاسلام الى الأجيال اللاحقة نقيا مصفى ، كما انتقل اليكم عن الأجيال السابقة .

خذوا حذركم من أعداء الحقيقة ، الذين قاتلوا الأنبياء فى العصور الأولى ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا .

أعيدوا الحياة الصحيحة الى الأفئدة الفارغة والرؤوس الخربة ، ليتحاب الناس بروح الله ، ويتعارفوا على هداه ...

***

محتويات الكتاب

موضوعات الكتابة المعاصرة

(٣٠٢ — ٣١٦)

مقاومة الهدامين

(٣١٧ — ٣٧٦)

نماذج حية

(٣٧٧ — ٣٨٧)

زاد للدعـــاة

(٣٨٧ — ٤٥٢)

* * *

من مؤلفات فضيلة الشيخ
محمــد الغزالي

١ ــ الاسلام والأوضاع الاقتصادية

٢ ــ الاسلام والمناهج الاشتراكية

٣ ــ الاسلام والاستبداد السياسى

٤ ــ الاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين

٥ ــ من هنا نعلم

٦ ــ تأملات فى الدين والحياة

٧ ــ عقيدة المسلم

٨ ــ خلق المسلم

٩ ــ التعصب والتسامح بين المسيحية والسلام

١٠ ــ فقه السيرة

١١ ــ فى موكب الدعوة

١٢ ــ ظلام من الغرب

١٣ ــ جدد حياتك

١٤ ــ ليس من الاسلام

١٥ ــ من معالم الحق

١٦ ــ كيف نفهم الاسلام ؟

١٧ ــ الاستعمار أحقاد وأطماع

١٨ ــ نظرات فى القرآن

١٩ ــ مع الله .. دراسات فى الدعوة والدعاه

٢٠ ــ معركة المصحف فى العالم الاسلامى

٢١ ــ كفاح دين

٢٢ ــ الاسلام والطاقات المعطلة

٢٣ ــ حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الأمم المتحدة

٢٤ ــ هذا ديننا

٢٥ ــ حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى

٢٦ ــ الجانب العاطفى من الاسلام

٢٧ ــ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين

٢٨ ــ علل وأدوية

تطلب من دار الكتب الاسلامية ــ لصاحبها توفيق عفيفى عامر
١٤ شارع الجمهورية ــ بعابدين ــ تليفون ٩١٦١٠٧

من مؤلفات فضيلة الشيخ
محمد الغزالي

١ — الاسلام والأوضاع الاقتصادية

٢ — الاسلام والمناهج الاشتراكية

٣ — الاسلام والاستبداد السياسى

٤ — الاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والراسماليين

٥ — من هنا نعلم

٦ — تأملات فى الدين والحياة

٧ — عقيدة المسلم

٨ — خلق المسلم

٩ — التعصب والتسامح بين المسيحية والسلام

١٠ — فقه السيرة

١١ — فى موكب الدعوة

١٢ — ظلام من الغرب

١٣ — جدد حياتك

١٤ — ليس من الاسلام

١٥ — من معالم الحق

١٦ — كيف نفهم الاسلام ؟

١٧ — الاستعمار أحقاد وأطماع

١٨ — نظرات فى القرآن

١٩ — مع الله . . دراسات فى الدعوة والدعاه

٢٠ — معركة المصحف فى العالم الاسلامى

٢١ — كفاح دين

٢٢ — الاسلام والطاقات المعطلة

٢٣ — حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الأمم المتحدة

٢٤ — هذا ديننا

٢٥ — حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى

٢٦ — الجانب العاطفى من الاسلام

٢٧ — دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين

٢٨ — علل وادوية

تطلب من دار الكتب الاسلامية — لصاحبها توفيق عفيفي عامر